

صَلِّ عَلَى نَبِيِّكَ
وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ

النبي والعترة

في

القرآن الكريم

الأربعون آية من القرآن الكريم مرتبطة بالنبي الأكرم
محمد وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين)

من دروس التفسير

لسماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي دام ظلّه

هوية الكتاب

اسم الكتاب: النبي والعترة في القرآن الكريم
تأليف: لسماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي دام ظلته
الطبعة: الأولى
السنة: ١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م
الناشر: دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع
النجف الاشرف / شارع الرسول (ﷺ)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٧٢٢ لسنة ٢٠٢٥

الرقم الدولي (٦-٢-٨٣٧٨-٩٩٢٢-٩٧٨) (ISBN:)



المقدمة

إن للنبي (ﷺ) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام) مقامات فاقوا بها الخلق أجمعين، أما أن النبي (ﷺ) فإنه في معراجه حينما ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿^(١) لم يستطع حتى جبرائيل من مرافقته (... فَقَالَ جِبْرَائِيلُ تَقَدَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ لِي أَنْ أُجُوزَ هَذَا الْمَكَانَ وَلَوْ دَنَوْتُ أَنْمَلَةً لَأَحْتَرَفْتُ...^(٢)) ، وأما أهل البيت (عليهم السلام) فإن عقيدتنا هي في أن لهم ما للنبي إلا النبوة (... إِنَّ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ص مُؤَيَّدٌ وَ لَا يَسْتَخْلِفُ رَسُولُ اللَّهِ ص إِلَّا مَنْ يَحْكُمُ بِحُكْمِهِ وَ إِلَّا مَنْ يَكُونُ مِثْلَهُ إِلَّا النَّبُوءَةُ...^(٣))

وقد أمر الله تعالى عباده بمعرفة أوليائه الحجج على الخلق فجعل معرفتهم واجبة وليس فقط العلم بهم فإن العدو أيضا يعلم الحجج ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾^(٤) لكنهم لم يكونوا يعرفونهم، فالمعرفة تمثل استقرار النفس واطمئنانها بنور العلم ؛ ولذا نحن ندعو الله لكسب المعرفة بهم (عليهم السلام) (...اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي)^(٥).

(١) سورة النجم : الآيتان : ٨ - ٩ .

(٢) بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ١٨ ؛ ص ٣٨٢

(٣) الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ١ ؛ ص ٢٤٥

(٤) سورة النمل : الآية : ١٤

(٥) الكافي : ج ١ ص ٣٣٧ ح ٥ .

فجاءت الأوامر بالمعرفة ذات جوانب عدة وبأشكال مختلفة، فجعلت الخير كله عاجله وآجله في معرفتهم، فمن يسعى إلى خير الدنيا وسعادتها وخير الآخرة ونعيمها فعليه بالمعرفة لأهل البيت، فعن النبي (ﷺ): (مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةِ أَهْلِ بَيْتِي وَوَلَايَتِهِمْ، فَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ الْخَيْرَ كُلَّهُ) ^(١).

بل إن هذه المعرفة تؤهل العبد إلى درجة أعلى وأسمى فيكون بها من أهل البيت (عليه السلام) وقد روي أن النبي (ﷺ) قال للصحابي الجليل سلمان الفارسي (رضي الله عنه): (... يا سلمان، من عرفهم حق معرفتهم واقتدى بهم ووالى وليهم وتبرأ من عدوهم فهو والله منّا يردُّ حيثُ نردُّ ويسكنُ حيثُ نسكنُ) ^(٢).

بل إن معرفتهم (عليه السلام) مقدمة لمعرفة الله عزوجل وعبادته ولا تتم تلك إلا بهذه، فعن الإمام الباقر (عليه السلام): (إنما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منّا أهل البيت) ^(٣)، وفي الزيارة الجامعة الكبيرة (...مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بَدَأَ بِكُمْ وَمَنْ وَحَدَّهُ قَبْلَ عَنكُمْ...) ^(٤).

ونظراً للمقامات السامية التي فاق بها النبي وأهل بيته (عليه السلام) جميع الخلق فلا يُقاس بهم أحد كما قال امير المؤمنين (عليه السلام): (نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ لَا يُقَاسُ بِنَا أَحَدٌ فِينَا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَفِينَا مَعَدِنُ الرِّسَالَةِ) ^(٥)، تحتم على المؤمنين الطالبين لمعرفة

(١) الأماشي للصدوق: ص ٥٦١ ح ٧٥١.

(٢) دلائل الإمامة: ص ٤٤٨ ح ٤٢٤، بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٦ ح ٩.

(٣) الكافي: ج ١ ص ١٨١ ح ٤ عن جابر.

(٤) البلد الأمين و الدرع الحصين ؛ ص ٣٠١

(٥) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ؛ ج ٢ ؛ ص ٦٦.

أُثْمَتَهُمُ الطَّاهِرِينَ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) الرجوع الى منابع الحكمة لمعرفة هذه المقامات التي لا تُدْرِكُهَا العقول القاصرة إلا من العيون الصافية التي أوصى بها النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ أَمَا إِنَّهُنَّ تَمَسَّكْتُمُ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ) (١).

وانطلاقاً من هذا المبدأ كان هذا الكتاب الذي بين يديك والذي هو من إفاضة الفقيه القرآني والمرجع الديني سماحة الشيخ محمد يعقوبي (دام ظلّه) وهو مجموعة محاضرات ألقاها سماحته على طلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف تناول (دام ظلّه) فيها تفسير أربعين آية من آيات الذكر الحكيم تناولت عدة جوانب من صفات النبي وأهل بيته (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وسيرتهم ووظائفهم وعلاقتهم بالأمة وغير ذلك من المواضيع العقائدية والأخلاقية والاجتماعية.

ولم يقتصر في تفسيره لهذه الآيات الشريفة على البعد النظري المطلوب لبلوغ المعرفة الواجبة على كل مؤمن، فإنه أيضاً بيّن جوانب التأسّي في شخصيتهم المباركة وسلوكهم القويم والذي هو نبراس يضيئ طريق أهل المعرفة وكل من يريد ان يصل إلى العرفان الحقيقي ويخطو خطوات حثيثة نحو القرب من الله تعالى.

كما أن البعد العملي في هذا الكتاب يتجلى من خلال بيان الخطوات الناجعة لعلاج ما تمرّ به هذه الأمة من أزمات على مختلف الاصعدة نشأت نتيجة تنحية أهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) عن مكانتهم وإزالتهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها؛

(١) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)؛ ج ١؛ ص ٤١٣.

فصلت الأمة بالابتعاد عنهم لأتباعها لحكام الجور الذين أمسكوا بزمام الأمور وبذلوا جهدهم في تشويه صورة أهل البيت (عليهم السلام) على مر العصور لإبعاد المسلمين عنهم؛ فإن الأمة لو عرفت مكانة الأئمة (عليهم السلام) لتمسكت بهم ولما اتبعت أعدائهم؛ ولذلك أمر الأئمة (عليهم السلام) شيعتهم بتعريف الأمة مكانتهم وتحبيب الناس بهم قال الامام الصادق (عليه السلام): ((رَحِمَ اللهُ عَبْدًا حَبَبْنَا إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يُبْعَضْنَا إِلَيْهِمْ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ يَرَوُونَ مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَكَانُوا بِهِ أَعَزَّ وَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَلَّقَ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ...))^(١)، عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ صَالِحِ الْهَرَوِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا ع يَقُولُ: ((رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا فَقُلْتُ لَهُ وَ كَيْفَ يُحْيِي أَمْرَكُمْ قَالَ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا...))^(٢)

ولذا فإن هذا الكتاب يعد خطوة مهمة في الطريق الصحيح لتعريف العالم بالصورة الحضارية للإسلام من خلال التعريف بقادته الحقيقيين وهم الأسوة والقدوة ويكتشفوا زيف من ادعى الإسلام كذباً وزوراً وفعل ما فعل بأسم الإسلام وصور هذا الدين الحنيف للعالم بأنه دين القتل والاختطاف والأسر والابتزاز وانتهاك حقوق الانسان.

نسأل الله ان ينفع القارئ به ويكون مفتاحاً لأبواب المعرفة بهم (عليهم السلام) انه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطاهرين.

(١) الكافي ؛ ج ٨ ؛ ص ٢٢٩.

(٢) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ؛ ج ١ ؛ ص ٣٠٧

الآية الأولى:

﴿وَعَلَّمَتْ وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

أهل البيت (عليهم السلام) نجوم أهل الأرض

فسرت روايات كثيرة النجوم الواردة في عدة آيات كريمة بأهل البيت (عليهم السلام) لعدة وجوه مشتركة سنشير إليها ان شاء الله تعالى، وقد استعمل القرآن الكريم التشبيه لإيصال حقائق كثيرة تعرف فضل أهل البيت (عليهم السلام) ووظائفهم ودورهم في حياة البشرية فكانوا (عليهم السلام) تأويل هذه الآيات الكريمة وهذا شأن القرآن الكريم في كثير من الحقائق التي لم يبينها في التنزيل لمصلحة ما خصوصاً ما يتعلق بأهل البيت (عليهم السلام) لكن الأئمة (عليهم السلام) أفادوا تأويلها ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٤) ﴿تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٣١).

أهمية النجوم في القرآن الكريم:

وقد بين القرآن الكريم اهتمامه بالنجوم وما يرتبط بها من وظائف وحركة متقنة ومواقع دقيقة، قال تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۗ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٦) ونشير هنا استطراداً إلى نكتة القسم بالمواقع دون نفس النجوم ولعلها لأمرين على الأقل:

١- بيان دقة توزيع هذه النجوم في مواقعها والانسجام التام في حركتها فتكون من آيات الخالق، ولعلمنا بهذه الدقة والانسجام فإننا نبني على قوانينها

الكونية المنضبطة ونستطيع معرفة أمور وحوادث قبل وقوعها بسنين، ولو كانت مبعثرة وعشوائية لما أمكن الاعتماد عليها قال تعالى ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء: ١٢) فهذه الدقة في المواقع والحركة جُعِلت في كل شيء ليتعلمها الانسان ويستفيد منها في حياته.

٢- لتصحيح عقائد الناس خصوصاً وأنهم قريبو عهدٍ بالجاهلية حيث كانوا يعتقدون بأن للنجوم أرواحاً وانها تتحرك بإرادتها وبقي هذا الاعتقاد إلى وقت قريب^(١) وكانوا أيضاً يعتقدون بتأثيرها المستقل وجلبها للخير والشر ويحلفون بها فعدل الى الحلف بمواقعها ليعرفوا أنها مخلوقات مدبّرة ومسيرة من قبل الخالق العظيم.

وهذا المعنى وارد في الروايات ففي حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (إن مواقع النجوم رجومها للشياطين، فكان المشركون يقسمون بها فقال سبحانه (فلا أقسم بها)^(٢) وقال (عليه السلام) (كان أهل الجاهلية يحلفون بها فقال الله عز وجل: فلا أقسم...).

وظائف النجوم:

والمستفاد من استقراء الآيات الكريمة: ان للنجوم عدة وظائف وهي جارية بعدها المعنوي في أهل البيت (عليهم السلام).

(١) حيث استطاع يوهانس كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) وصف حركتها بمعادلة رياضية ثم علل إسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) حركتها بمحصلة قوى الاستمرارية والجاذبية.

(٢) مجمع البيان: ٢٨٧/٩

١ - الهداية، قال تعالى ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦) وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٩٧) حيث كان الناس يتخذونها دليلاً لمعرفة الطرق في اسفارهم خصوصاً في البحار والمحيطات حيث لا توجد أي علامة غيرها قبل اختراع الآلات واستفادوا منها لتحديد الاتجاهات كالكرة وبعض الأوقات فمن دون علامات في البر^(١)، ونجوم في الجو لا يهتدون الى الطريق الموصل للغرض.

وكان الجاهليون يستهدون بها لمعرفة حظوظهم ومستقبلهم ويتفاءلون بها ولذا كانوا يطلبون الخير والبركة منها، ولعل هذا يفسر الحركة التمويهية التي قام بها إبراهيم في قوله تعالى ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۗ فَقَالَ لِنِي سَقِيمٌ ۗ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (الصافات: ٨٨-٩٠) فكانه (ﷺ) طلب منهم أن يكتشفوا من النجوم التي يعتقدون بها ما يشير إلى سقمه، وما كان سقيماً في جسده ولكنه كان مرتاداً طالباً للحقيقة وهي معرفة الله تبارك وتعالى.

وهذه الوظيفة - وهي الهداية - هي من أهم وظائف أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فقد اختارهم الله تعالى ليكونوا هداة إليه وادلاء على طاعته يأخذون بأيدي الناس من ظلمات الجهل والتعصب والضلال واتباع الشهوات والفتن إلى نور الهداية والسعادة والفلاح، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ

(١) كاختلاف التضاريس الأرضية من جبال وسهول وأنهار لذا كانوا يتيهون في الصحراء لعدم

الْحَيَّرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿الأنبياء: ٧٣﴾ فهم يهدون بأمر الله تعالى كالنجوم التي وصفها الله تعالى بأنها ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ (الأعراف: ٥٤)، ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا﴾ (الأنعام: ١٧) عن علي بن إبراهيم ان (النجوم: آل محمد (عليه السلام))^(١) ووردت عدة روايات بهذا المعنى في تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ منها عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النجم، والعلامات هم الأئمة (عليهم السلام) بهم يهتدون)^(٢).

وهم (عليهم السلام) أولى بالهداية لأنهم آيات الله العظمى التي تمشي على الأرض بين الناس اما النجوم فهي بعيدة عنهم ولا يعرفون تفاصيلها.

فمن سار على هداهم نجا ومن تنكب عنهم هلك: وقد اشتهر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله (الا مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك)^(٣) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (وخلف فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق)^(٤).

وهذا ما أكدته السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها (أما والله لو تركوا الحق على أهلهم واتبعوا عترة نبيه (صلى الله عليه وسلم) لما اختلف في الله أثنان ولورثها سلف عن

(١) تفسير القمي: ٢١١/١

(٢) الكافي: ج ١ / ١٦٠ ح ١ وتجد مجموعة الروايات في البرهان: ٣٢٨/٥

(٣) فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل: ٧٨٥/٢

(٤) نهج البلاغة: خطب الامام علي، ج ١ / ص ١٩٣

سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التاسع من ولد الحسين (عليه السلام) ولكن قدموا من أخره الله وأخروا من قدمه الله^(١).

ومن رسالة الامام المهدي (عج) إلى شيعته (او ما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون اليها، واعلاماً تهتدون بها من لدن آدم كلما غاب علم بدا علم، واذا أفل نجم طلع نجم)^(٢).

٢ - الزينة: قال تعالى ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ١٢) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (الصفات: ٦) والزينة ما يحسّن الانسان ويجمل هيئته الظاهرية ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١) والزينة تشمل الأمور الظاهرية والباطنية روى جابر الانصاري عن رسول الله (ﷺ) قوله (زينوا مجالسكم بذكر علي بن أبي طالب)^(٣) عن رسول الله (ﷺ) قال (كنت انا وعلي نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر الف عام، فلما خلق الله آدم قسّم ذلك النور جزأين ركباً في آدم فجزء أنا وجزء علي بن أبي طالب، فنور الحق معنا نازل حيثما نزلنا)^(٤).

روى الكليني (قال أبو عبد الله (عليه السلام): إن الله خلقنا فأحسن صورنا وجعلنا عينه في عباده ولسانه الناطق في خلقه ويده المبسوطة على عباده، بالرأفة والرحمة

(١) موسوعة المصطفى والعترة للشاكري: ٤ / ٣٦٢ عن عوالم المعارف: ٢٢٨/١١

(٢) الاحتجاج: ٢٧٢/٢.

(٣) بشارة الإسلام، أبو جعفر الطبري: ١٠٤/٢

(٤) تذكرة خواص الأمة: ٤٦

ووجهه الذي يؤتى منه وبابه الذي يدل عليه وخزانه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار، وجرت الأنهار وبنا ينزل غيث السماء وينبت عشب الأرض وعبادتنا عبد الله ولولا نحن ما عبد الله^(١).

٣ - الحماية والأمان: قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَاتٍهَا

لِلنَّاطِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (الحجر: ١٦-١٧) روي عن النبي (ﷺ) قوله (النجوم أمان لأهل السماء، اذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فاذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض)^(٢).

وقد اكتشف العلم الحديث الكثير من هذه الوظائف للنجوم من حيث حفظ التوازن في الكون وصدّ الشهب الثاقبة ومعرفة موقع واتجاه الحركة في الكون ونحو ذلك.

واخرج الحاكم عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (ﷺ) النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق - فلو لم يستهدوا بالنجوم فإنهم يتيهون في البحار ويغرقون - وأهل بيتي أمان لأمّتي من الاختلاف فاذا خالفها قبيله من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس^(٣).

وقد روي عن الامام الصادق (عليه السلام) قوله (يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي

(١) الكافي: ١ / ١٤٤

(٢) امالي ابن الشيخ: ٢٤١.

(٣) المستدرک على الصحيحين: ١٦٢/٣

الكبير خبث الحديد^(١) وروى البرقي في المحاسن (فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه، فان فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)^(٢).

عن معاوية بن وهب قال (سمعت أبا عبد الله عليه السلام) قال: قال رسول الله ﷺ (ان لله عند كل بدعة تكون بعدي ويؤكد بها الايمان ولياً من أهل بيتي موكلاً به يذب عنه، ينطق بالهام من الله ويعلم الحق وينوره ويرد كيد الكائدين ويعبر عن الضعف فاعتبروا يا اولي الابصار وتوكلوا على الله)^(٣).

ونستشعر هذا الأمان من خلال ولايتنا لأهل البيت عليهم السلام ووجود امام معصوم يتابع شؤوننا (نحن وإن كنا ناوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أرانا الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاستقين، فإننا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. إنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء)^(٤).

ويمكن أن نأخذ تصوراً عن هذا الدور المهم للأئمة المعصومين عليهم السلام من

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ٢٧/١٥٠/ح ٤٣

(٢) بحار الأنوار: ٩٢/٢

(٣) الكافي: ٥٤/١

(٤) الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج ٢، ص ٣٢٣

خلال التجربة والمعاشة للدور المبارك الذي تؤديه المرجعية الرشيدة في حفظ كيان الأمة وحمايتها وتحصينها من الانحراف والضلال والمؤامرات الخبيثة التي تحاك لها، وخذ العراق مثلاً فان الفتن التي تعرض لها والمكائد الخبيثة والمشاريع الشيطانية التي أغرقته في بحور من الدماء والفساد والشبهات والصراعات الا أنه بقي صامداً محافظاً على مبادئه بدرجة كبيرة بينما تنهار الدول والحكومات بأقل من ذلك بكثير.

ومن مجموع هذه الوظائف العظيمة للنجوم فانه لا يمكن الاستغناء عن وجودها لذا فان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) لا يمكن التخلف والاعراض عنهم او اتباع غيرهم بدلاً عنهم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (لا يقاس بأل محمد (ﷺ) من هذه الأمة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً)^(١).

لكن بعض المنحرفين عن أهل البيت (عليهم السلام) وضعوا حديثاً لخلط الأمور وتضيع الحقيقة على الناس وافتروا على رسول الله (ﷺ) قوله (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وهم يعلمون باليقين أن كثيراً من هؤلاء الأصحاب ارتكبوا الجرائم والموبقات الكبيرة وبدلوا دين الله تعالى وحرّفوا أحكامه وقتلوا أولياء الله تعالى فكيف يُهتدى بهم.

نعم وجدت في بعض مصادرنا ان الحديث مروى عن رسول الله (ﷺ) لكنه فسّر الاصحاب بأهل بيته (عليهم السلام)، فقد روى الشيخ الصدوق (رحمته الله) بسند معتبر عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (ﷺ): ما وجدتم في كتاب الله عز وجل فالعمل لكم به لا عذر لكم

(١) نهج البلاغة: خطب الإمام علي (عليه السلام) ج ١ - ص ٣٠.

في تركه، وما لم يكن في كتاب الله عز وجل وكانت فيه سنة مني فلا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنة مني فما قال أصحابي فقولوا به، فإنما مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم بأيها أخذ اهتدي، وبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة. فقيل: يا رسول الله ومن أصحابك؟ قال: أهل بيتي^(١).

نسأل الله تعالى أن يهدينا بنورهم ويزيننا بولايتهم ويحصننا بأمانهم في الدنيا

والآخرة.

(١) معاني الاخبار ص ١٥٦-١٥٧.

الآية الثانية:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ﴿الأحزاب: ٥٦﴾

فضل الصلاة على النبي وآثارها المباركة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).
أطلق لفظ النبي ولم يذكر اسمه بينما ذكرت أسماء الأنبياء الآخرين؛
تعظيماً لشأنه ولتفردته بسمو المنزلة حيث لا يشاركه ولا يدانيه ملكٌ مقرب ولا
نبي مرسل.

معنى الصلاة على النبي (ﷺ)

ومعنى الصلاة عليه من الله تعالى حسن الثناء عليه في الملائكة الأعلى والأدنى
وزيادة نوره وبركته ورفع درجاته حتى يبعثه المقام المحمود الذي وعده،
والصلاة من الملائكة طلب إنجاز ذلك له، ومن المؤمنين الدعاء من الله تعالى له
بذلك، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (صلوات الله عليه تزكية له وثناء
عليه، وصلاح الملائكة مدحهم له، وصلاح الناس دعاؤهم له والتصديق والإقرار
بفضله)^(١).

وبذلك يلتحم الكون في حركة ودوية ودؤوبة تلهج بعظمة هذا الوجود
المبارك، والنعمة العظيمة، والرحمة المهداة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(١) نور الثقلين: ٤ / ٣٠٠ / ح ٢١٢.

(الأنبياء: ١٧)، أما من يسيئون إليه، وينتقصون منه، ويشوهون صورته ويفترون عليه فهم محرومون من الحضور في هذا العالم الجميل الطيب السعيد ولا يظلمون إلا أنفسهم.

فالآية الكريمة تبين أن رسول الإسلام محمداً أعظم المخلوقين منزلةً وأرفعهم مقاماً في الملائ الأعلى وفي الملائ الأدنى، وهذه الصلوات مستمرة دائمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ وليست مختصة بحياته الشريفة، ومع تكرار هذه الصلوات واستمرارها يزداد النبي (ﷺ) رفعةً وعلواً.

الفرق بين الصلاة على النبي والصلاة على الناس:

ولم يُذكر متعلق هذه الصلاة من الله تعالى ومن الملائكة على النبي (ﷺ) فهي مطلقة ومفتوحة على كل ما يُوجب المقام المحمود عند الله تعالى، أما صلاة الله تبارك وتعالى وملائكته على الناس فقد ذكر متعلقها وهي الهداية من الظلمات إلى النور ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٣)، فهذه ليست كتلك والفرق بينهما واضح، فإن النبي (ﷺ) كله نور ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، ويزداد نوراً بهذه الصلوات.

الأمر بالتسليم:

وفي الآية أمرٌ من الله تبارك وتعالى بالتسليم على النبي (ﷺ) وأيضاً التسليم له تسليماً مطلقاً، إذ لم يذكر متعلق التسليم فيحتمل فيه المعنيان، روى الشيخ الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (وأما قوله عز

وجل ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فإنه يعني التسليم له فيما ورد عنه^(١)، وعلى رأسها الولاية، امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

موارد وجوب الصلاة على النبي (ﷺ):

والقدر المتيقن من الوجوب ذكرها في تشهد الصلاة وفي خطبة الجمعة والأذان، روي عن عائشة قالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (لا تُقْبَلُ صَلَاةٌ إِلَّا بِطَهْرٍ وَبِالصَّلَاةِ عَلَيَّ)^(٢)، ونظم الشافعي ذلك شعراً فقال:

يا آل بيت رسول الله حِكْمٌ فرضٌ من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لا يصلي عليكم لا صلاة له^(٣)
ولتأكيد هذا الأمر، والحث عليه فقد بدأ الله تعالى نسبة القيام بالفعل إليه سبحانه تعظيماً لشأن النبي، ثم ثنى بالملائكة امتثالاً لأمره، ثم دعا المؤمنين إليها تحبباً للنبي (ﷺ)، وأن توفيقهم للصلاة من الآثار المباركة لصلاة الله تعالى وملائكته وأن الله تعالى هو أصل هذا الفعل ومبعثه، مضافاً إلى ما فيه من الترغيب والتشجيع للمؤمنين حين يشعرون بأنهم وهم يصلون على النبي (ﷺ) تقترن صلاتهم بصلاته سبحانه، ويقفون في صف الملائكة ممثلين لإرادة الله تبارك وتعالى، وكفى ذلك تشريفاً لهم، روى في الدر المنثور بسنده عن أنس قال: (قال

(١) وسائل الشيعة: ١٩٦/٧، عن معاني الأخبار: ٣٧٦.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧٨ / ٨٢ (باب التشهد وأحكامه).

(٣) قال في تفسير (الأمثل: ١٠ / ٤٧٥): ذكر العلامة الأميني في كتابه النفيس (الغدِير) نسبة هذه الأشعار إلى الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني: ٧ / ٧ وجماعة آخرين.

رسول الله : إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها، ومواطنها أكثركم عليّ في دار الدنيا صلاةً، أنه قد كان في الله وملائكته كفاية ولكن خصّ المؤمنين بذلك ليثيبهم عليه^(١).

الصلاة على النبي (ﷺ) من علامات الإيمان:

وتوجيه الخطاب لهم بعنوان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يكشف عن أنّ من علامات صدق إيمانهم هذه الصلوات على النبي (ﷺ) والتسليم له، والاعتقاد بأنه يسمع هذه الصلوات بعد موته ويشكرها من أصحابها، روى البيهقي في شعب الإيمان وغيره بإسنادهم عن أبي هريرة قال: (من صلّى عليّ عند قبوري سمعته ومن صلّى عليّ نائياً كفي أمر دنياه وآخرته وكنتُ له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة)^(٢).

ولا تخلو هذه البداية من درس بأن من يدعو إلى الخير لا بد أن يبدأ بنفسه وبمن يرتبط به أولاً فيفعله، ليكون صادقاً في دعوته ويطابق قوله فعله.

كما أن فيها ضبطاً لعقيدة المسلم بأن لا يغلو في نبيّه فيعتقد فيه الربوبية والألوهية فهو في صلاته عليه يتوجّه إلى الله تعالى بأن يصليّ على نبيه ويرفع درجته وبذلك ينصهر في التوحيد الخالص ويزوب في محبة نبيه الأكرم .

لا تتم الصلاة على النبي الا بالصلاة على آله:

وقد روى الفريقان بما لا يحصى كثرة أنّ حقيقة الصلاة على النبي (ﷺ) إنما تتم بضمّ آله إليه، ونقل ما رواه البخاري في تفسير هذه الآية عن كعب بن

(١) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٣.

(٢) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٤.

عجزة عنه (قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)^(١)، والغريب أن علماء العامة يروون عشرات الروايات في هذا المعنى ولكنهم لا يذكرون الآل في الصلوات.

ووصف النبي ﷺ الصلاة عليه بدون الآل بالبراء ونهى عنها فقد روى ابن حجر في صواعقه أن النبي (ﷺ) قال: (لا تصلُّوا عليَّ الصلاة البراء، فقالوا: وما الصلاة البراء؟ قال: تقولون: اللهم صلِّ على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد)^(٢)، ولم تفرِّق الصلوات بين النبي وآله (على) لتدل على أن الصلاة عليهما واحدة.

وفي أمالي الصدوق أن رسول الله ﷺ قال: (من صلى عليَّ، ولم يصلِّ عليَّ آلي لم يجد ريح الجنة، وإنَّ ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام)^(٣)، وروى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (سمع أبي رجلاً متعلقاً بالبيت وهو يقول: اللهم صلِّ على محمد، فقال له أبي (عليه السلام): لا تبترها، لا

(١) صحيح البخاري: باب قوله إن الله وملائكته يصلون على النبي...، ص ١٨٠٢/ح ٤٥١٩، وأخرج في الدر المنثور: ٦/٦٤٦-٦٥٦ عشرات الأحاديث من طرق عديدة في هذا المعنى.

(٢) الصواعق المحرقة: ١٤٤.

(٣) سفينة البحار: ٥/١٧١، عن أمالي الصدوق: ١٦٧/٩، وسائل الشيعة: ٧/٢٠٣ ط. أهل البيت (عليه السلام).

تظلمنا حقنا، قل: اللهم صلّ على محمد وأهل بيته^(١)، وروى السيد المرتضى عن تفسير النعماني بسنده عن علي (عليه السلام) عن رسول الله (ﷺ) قال: (لا تصلّوا عليّ صلاة مبتورة، بل صلّوا إليّ أهل بيتي، ولا تقطعوهم)^(٢)، وروى الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال بسنده عن عمار بن موسى قال: (كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فقال رجل: اللهم صلّ على محمد وأهل بيت محمد، فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): يا هذا لقد ضيّقت علينا، أما علمت أنّ أهل البيت خمسة أصحاب الكساء: فقال الرجل كيف أقول؟ قال: قل اللهم صلّ على محمد وآل محمد، فسنكون نحن وشيعتنا قد دخلنا فيه)^(٣).

آثار الصلاة على النبي وآله (عليه السلام):

وقد وردت أحاديث متواترة من طرق الفريقين في الحث على الصلاة على النبي وآله، والإكثار منها في كل زمان ومكان، لما فيها من بركات في الدنيا والآخرة، روى في كنز العمال عن رسول الله (ﷺ) قوله: (حيثما كنتم فصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني)^(٤)، وقال: (الصلاة عليّ نور على الصراط)^(٥)، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (بالشهادتين تدخلون الجنة، وبالصلاة تنالون الرحمة، فأكثرُوا

(١) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٠٢، عن الكافي: ٢ / ٣٥٩ ح ٢١.

(٢) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٠٧ ح ١٧.

(٣) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٠٥، عن ثواب الأعمال: ١٨٩ ح ٢.

(٤) كنز العمال: ٢١٤٧، ٢١٤٩.

(٥) بحار الأنوار: ٩١ / ٦٤، مستدرک الوسائل: ٥ / ٣٣٥.

من الصلاة على نبيكم وآله^(١).

وروى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن عبد السلام بن نعيم قال: (قلتُ لأبي عبد الله (عليه السلام) أني دخلت البيت، ولم يحضرني شيء من الدعاء إلا الصلاة على محمد وآله، فقال (عليه السلام): أما أنه لم يخرج أحدًا بأفضل مما خرجت به)^(٢).

روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق (عليه السلام) قال: (ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرجُ عليه فيضعها في ميزانه فترجح)^(٣)، وروى في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (قال رسول الله: من صلى عليَّ صلى الله عليه وملائكته، فمن شاء فليقلِّ ومن شاء فليكثر)^(٤).

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله (ﷺ) قال: (إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم عليَّ صلاة في الدنيا، من صلى عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا، ثم يوكلُ الله بذلك ملكاً يدخله في قبوري كما يدخل عليكم الهدايا يخبرني بمن صلى عليَّ باسمه ونسبه إلى عشرة فأثبته عندي في صفحة بيضاء)^(٥).

(١) نور الثقلين: ٤/٣٠٢ ح ٢٢٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/١٩٣، عن الكافي: ٢/٣٥٧ ح ٦.

(٣) وسائل الشيعة: ٧/١٩٢، عن الكافي: ٢/٣٥٨ ح ١٥.

(٤) وسائل الشيعة: ٧/١٩٤، عن الكافي: ٢/٣٥٨ ح ١٣-٨.

(٥) الدر المنثور: ٦/٦٥٤.

وروى الشيخ الصدوق في العيون عن الرضا (عليه السلام) قوله: (مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَا يَكْفُرُ بِهِ ذَنْبُهُ فَلْيَكْثِرْ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ فَإِنَّهَا تَهْدِمُ الذَّنُوبَ هَدْمًا) ^(١).

الآثار المترتبة على ترك الصلاة على النبي وآله (عليهم السلام):

وبالمقابل فقد ذمّت الأحاديث الشريفة من تكاسل عن هذا الفعل الكريم، روي عن النبي (ﷺ) قوله: (إِنْ أَبْخَلَ النَّاسُ مِنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ، وَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ) ^(٢)، ويُخشى على تاركها أن يكون منافقاً، فقد روى الكليني بسند صحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله: الصلاة عليّ، وعلى أهل بيتي تُذهبُ النفاق) ^(٣).

وروى في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (ﷺ) قوله: (من ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَنَسِيَ أَنْ يَصَلِيَ عَلَيَّ أَخْطَى اللَّهُ بِهِ طَرِيقَ الْجَنَّةِ) ^(٤)، أي جعله يتخطاه أي يتعداه، وروى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما اجتمع في مجلس قوم لم يذكروا الله ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حَسْرَةً عليهم يوم القيامة، قال أبو جعفر (عليه السلام): إن ذكرنا من ذكر الله وذكر عدونا من ذكر الشيطان) ^(٥).

(١) سفينة البحار: ٥ / ١٧٠، عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٢ / ٢٦٥.

(٢) كنز العمال: ٢١٤٤.

(٣) وسائل الشيعة: ٧ / ١٩٣، عن الكافي: ٢ / ٤٩٢ ح ٨.

(٤) بحار الأنوار: ١٧ / ٣١.

(٥) وسائل الشيعة: ٧ / ١٩٨، عن الكافي: ٢ / ٣٦٠ ح ٢.

وروى أيضاً عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا ذكر النبي (ﷺ) فأكثرُوا الصلاة عليه فإنه من صلى على النبي (ﷺ) صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلى على العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته)^(١).

استحباب الجهر بالصلاة على النبي (ﷺ) وآله (عليهم السلام):

ويستحب إعلان الصلاة والإجهار بها لنشيت الانتماء والهوية والصدع بها والتزام الطاعة والتسليم للقائد الديني، روى عن الإمام الصادق (عليه السلام) بنفس السند قوله: (قال رسول الله: ارفعوا أصواتكم بالصلاة عليّ فإنها تذهب النفاق)^(٢)، وكان الطغاة والحكام المنحرفون يعرفون هذا المعنى ويقلقون منها، وحكم على كثير من المؤمنين بالسجن بضع سنوات في عهد النظام البائد لأنهم رفعوا أصواتهم بالصلوات.

عندما أعلن عبد الله بن الزبير دولته في مكة ذكرت الأخبار (تحامل عبد الله بن الزبير على بني هاشم تحاملاً شديداً، وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد (ﷺ) في خطبته، فقبل له: لم تركت الصلاة على النبي؟ فقال: إن له أهل سوء يشربون لذكراه، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به)^(٣).

(١) سفينة البحار: ١٧٣/٥، عن الكافي: ٢/٤٩٢/٦.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/١٩٣/٢، عن الكافي: ٢/٤٩٣/١٣.

(٣) تاريخ يعقوبي: ٢/٢٦١.

ثمرة صلاتنا على النبي (ﷺ) وآله (عليه السلام):

إن صلاتنا لا قيمة لها في جنب صلاة الله تعالى، لكن بفضلها وكرمه أراد تشریفنا وتكریمنا بذلك، وأن ينشئ هذه العلاقة الوثيقة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين المعصومين الهداة (صلوات الله عليهم أجمعين) وبين أتباعهم وأن تكون هذه العلاقة متبادلة ومستمرة ﴿يُصَلُّونَ﴾ فهم يصلون على نبيهم ويسلمون له وعليه، وفي ذلك اعتراف بفضلها على الناس جميعاً وإظهار لعظمتها وسمو منزلتها، وردُّ على مَنْ يسيئون إليه وينتقصون منه، وهو كذلك يصلي ويسلم عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ٥٤)، وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١١٣).

والصلاة على النبي (ﷺ) وآله تستنزل كل خير وتدفع كل شر، قال النبي (ﷺ): (صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم وزكاة لأعمالكم)^(١)، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (كل دعاء محجوب حتى يُصلّى على النبي ﷺ)^(٢)، فيها نبدأ وبها نختم لأنها دعاء حتمي القبول ولا يردُّ، وحاشا لكرم الله تعالى أن يقبل الطرفين ويردّ ما بينهما، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (من كانت له إلى الله حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله ثم يسأل حاجته ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد فإن الله عز وجل أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط إذا كانت الصلاة على محمد وآل

(١) وسائل الشيعة: ٩٦ / ٧.

(٢) كنز العمال: ٢١٥٣.

محمد لا تحجب عنه^(١).

أعمالنا بين القبول وردّها إلا الصلاة على النبي محمد

(١) بحار الأنوار: ٣١٦ / ٩٠.

الآية الثالثة:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ [الكوثر: ١]

إطاللة على سورة الكوثر

التعريف بالسورة:

سورة الكوثر أقصر سور القرآن، روى الشيخ الصدوق في فضل السورة بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (مَنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ فِي فَرَائِضِهِ وَنَوَافِلِهِ، سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكُوثَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَانَ مُحَدِّثَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْلِ طُوبَى) (١).

والسورة منها تسلية للنبي (ﷺ)، وتطيب لنفسه من الضيق، والألم، والحزن الذي سببه الخصوم، وتذكير له (ﷺ) ببعض نعم الله تعالى العظيمة عليه، وتكليفه إزاء هذه النعم بالصلاة والنحر، وتكليفنا أيضاً لأننا نحن المستفيدون من هذا الكوثر، والمتنعمون به في الدنيا والآخرة.

سبب نزول سورة الكوثر

روي في سبب نزولها عن ابن عباس قال: (إن رسول الله ﷺ دخل من باب الصفا وخرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: مَنْ اسْتَقْبَلَكَ يَا أَبَا عَمْرٍو آتِئاً؟ قَالَ: ذَلِكَ الْأَبْتَرُ، يَرِيدُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ فَصَلَّ لِرَبِّكَ

(١) ثواب الأعمال: ١٢٦.

وَأَحْرَبُ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿١﴾ يعني عدوك العاص بن وائل هو الأبر من الخير، لا أذكر في مكان إلا ذكرت معي يا محمد، فمن ذكرني، ولم يذكرني ليس له في الجنة نصيب) (١) وفي تفسير القمي (وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له ولد سمي أبتراً، ثم قال عمرو: إني لأشأ محمداً أي أبغضه، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك عمرو بن العاص، وهو الأبر يعني لا دين له ولا نسب) (٢).

ونقل في تفسير البرهان أن عمرو بن العاص لما ولي مصر من قبل معاوية بذل مائتي ألف درهم لمحو آية ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فلم يفلح، (فبلغ ذلك معاوية فكتب إليه: قد بلغني ما قلت على منبر مصر ولست هناك) (٣).

تعدد نزول سورة الكوثر:

ويظهر من بعض الروايات أنها نزلت في المدينة أيضاً مرة أو أكثر، فقد روي عن ابن عباس قال: (قدم كعب بن الأشرف (٤) مكة فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابئي المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة؟ قال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ونزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ

(١) الدر المنثور: ٦٤٦/٨.

(٢) تفسير القمي: ٤٤٥ / ٢.

(٣) البرهان في تفسير القرآن: ٢٥٣ / ١٠، ح ١٩.

(٤) من زعماء اليهود في المدينة كان يحرض قريشاً على حرب النبي (ﷺ) والقضاء عليه ويتعرض لساء المسلمين فدبر له أحد الصحابة مكيدة وقتله.

الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿النساء: ٥١-٥٢﴾^(١).

بيان معنى الكوثر:

والكوثر ((فوعل من الكثرة، وهو الشيء الذي شأنه الكثرة))^(٢) على نحو نوفل وهو كثير النوافل، فهو من صيغ المبالغة، لذا قيل في معناه أنه الخير الكثير كما في معجم مقاييس اللغة وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وقيل أنه ((الخير العظيم الذي أعطيه النبي ﷺ))، ويقال: تكوثر الشيء كثر كثرة متناهية، قال الشاعر: (وقد ثار نفع الموت حتى تكوثر) كما في المفردات.

هذا بلحاظ الفعل وقد يطلق بلحاظ الفاعل فيقال للرجل المعطاء السخي: (الكوثر) كما في المقاييس والمفردات، وعلى هذا فالنبي (ﷺ) كوثر في نفسه لأنه أعظم الخلق بركة وخيراً على كل المخلوقات ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]، وكذا أهل بيته المطهرون فهم (أولياء النعم) و (مساكن بركة الله ومعادن حكمة الله) (والرحمة الموصولة) وغيرها من المعاني الواردة في زيارة الجامعة الكبيرة وفيها (بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)^(٣).

(١) الدر المنثور: ٨ / ٦٥٢.

(٢) مجمع البيان: ١٠ / ٢٥٨.

(٣) مصابيح الجنان: ٤٥٤.

روايات العامة في معنى الكوثر:

ولسنا فقط من نروي ذلك فقد روى عدد من علماء العامة ذكرهم في المراجعات أن الحسين بن علي صعد إلى عمر بن الخطاب، فقال له: انزل عن منبر أبي واصعد منبر أبيك، قال: فقال: إن أبي لم يكن له منبر. [قال:] فأقعدني معه فلما نزل ذهب بي إلى منزله فقال [لي]: أي بني، من علمك هذا؟ قال: قلت: ما علمنيه أحد، قال: أي بني لو جعلت تأتينا وتغشانا؟ قال: فجئت يوماً وهو خال بمعاوية، وابن عمر بالباب ولم يأذن له، فرجعت فلقيني بعد فقال لي: يا بني لم أرك أتيتنا؟ فقلت: قد جئت، وأنت خال بمعاوية، فرأيت ابن عمر رجوع فرجعت. فقال: أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر، إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى الله ثم أنتم، قال: ووضع يده على رأسه^(١).

الكوثر بمعنى الخير الكثير:

وأعطي الكوثر أي الخير الكثير بكل معنى سامٍ، يليق بمقامه الكريم، ومنه ما ورد في الروايات أن الكوثر نهر في الجنة^(٢)، وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد ومسلم، وأبو داوود، والنسائي، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: (أعفي رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، فقال: إنه نزلت عليّ أنفأً سورة فقرأها حتى ختمها، قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترده أمتي يوم القيامة، آنيته عدد

(١) كنز العمال: ج ٧ ص ١٠٥، تاريخ دمشق، لابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله: ج ١٤ ص ١٧٦، ط. دار الفكر.

(٢) راجع الروايات ومصادرها في تفسير البرهان: ٢٤٧/١٠، والدر المنثور: ٦٤٧/٨.

الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك^(١).

أقول: يروون هذا وغيره ثم يعتقدون بعدالة كل الصحابة وأن الله تعالى قد رضي عنهم جميعاً، وأخرج في الدر المنثور عن أنس قال: (دخلت على رسول الله ﷺ، فقال: قد أعطيت الكوثر، فقلت: يا رسول الله وما الكوثر؟ قال: نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب، لا يشرب منه أحد فيظماً، ولا يتوضأ أحد منه فيشعث أبداً، لا يشربه إنسان أخفر ذمتي، وقتل أهل بيتي).

الكوثر بمعنى الحكمة:

ويمكن أن يكون معنى الكوثر: الحكمة، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والكوثر هو الخير الكثير فالحكمة من مصاديق الكوثر، وقد أوتي رسول الله (ﷺ) الحكمة كاتم ما تكون قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الكوثر بمعنى القرآن:

ومن مصاديق الكوثر القرآن فإنه كتاب مبارك فيه صلاح الخلق وهدايتهم وخيرهم، وفوزهم، وفلاحهم، روى الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (قال النبي ﷺ:

(١) الدر المنثور: ٦٤٧/٨.

أعطيت جوامع الكلم، قال الراوي: فسألت أبا جعفر عليه السلام: ما جوامع الكلم؟ قال: القرآن^(١).

وروى الطبرسي عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الكوثر أنه الشفاعة، أو هو كثرة الأتباع.

الجمع بين معاني الكوثر المتعددة:

وهكذا تتعدد المصاديق، روى البخاري والحاكم وغيرهما عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: ((الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه، قال الراوي: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه))^(٢).

قال الطبرسي: ((وجميع هذه الأقوال تفصيل للجمله التي هي الخير الكثير في الدارين)).

الكوثر هي فاطمة عليها السلام:

ومن أجل مصاديق الكوثر السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام فهي الكوثر في نفسها لأنها المعصومة المطهرة سيدة نساء العالمين وتنعم الأمة ببركة عطائها إلى قيام الساعة، وهي الكوثر لأنها سبب تكاثر رسول الله صلى الله عليه وآله مادياً ومعنوياً لأنها البنت الوحيدة للنبي صلى الله عليه وآله ومنها كانت ذريته الطيبة المباركة المعصومة وهم الأئمة الطاهرون وسادة الخلق أجمعين حجج الله تعالى على خلقه

(١) الأماي: ٩٩ / ٢.

(٢) الدر المنثور: ج ٨ / ص ٦٤٩.

ومنهم تكثر نسل رسول الله (ﷺ) ليلبغ الملايين بينما انقطع نسل أعدائه ومبغضيه مصداقاً لقوله (ﷺ): (كل سب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي)^(١) وقوله (ﷺ): (إن الله عز وجل جعل ذرية كل نبي من صلبه خاصة وجعل ذريتي من صلبي ومن صلب علي بن أبي طالب، إن كل بني بنت ينسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة فإني أنا أبوهم)^(٢).

وهذا المعنى هو أوضح المعاني بشهادة ما نقلناه من سبب النزول، وبمقتضى المقابلة مع وصف مبغضيه بالأبتر وهو مقطوع النسل والخير، فإنهم بعد أن عجزوا عن مواجهة النبي (ﷺ) والقضاء على دين الإسلام علقوا آمالهم على وفاته (ﷺ) لينتهي أمره باعتباره أبترًا لا ولد له، فأعطاه الله الكوثر مادياً بكثرة نسله من ابنته الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ومعنوياً بتنصيبه علياً (عليه السلام) خليفة له وحاملاً لرسالته وهكذا حفظ الدين.

كلام العلامة الطبرسي في سورة الكوثر وفضلها:

قال العلامة الطبرسي (رضوان الله عليه): ((وفي هذه السورة دلالات على صدق نبينا (ﷺ) وصحة نبوته أحدها: إنه أخبر عمّا في نفوس أعدائه، وما جرى على ألسنتهم، ولم يكن بلغه ذلك، فكان على ما أخبر.

(١) تفسير الميزان: ج ١٥ / ص ٧٥، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٢١ / ص ٦٧ باختلاف

يسير.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٣ / ص ٢٨٤.

وثانيها: إنه قال ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فانظر كيف انتشر دينه، وعلا أمره، وكثرت ذريته، حتى صار نسبه أكثر من كل نسب، ولم يكن شيء من ذلك في تلك الحال.

وثالثها: إن جميع فصحاء العرب والعجم، قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها مع تحديه إياهم بذلك، وحرصهم على بطلان أمره، منذ بعث النبي (ﷺ) إلى يومنا هذا، وهذا غاية الإعجاز. ورابعها: إنه سبحانه وعده بالنصر على أعدائه، وأخبره بسقوط أمرهم، وانقطاع دينهم، أو عقبهم، فكان المخبر على ما أخبر به. هذا وفي هذه السورة الموجزة من تشاكل المقاطع للفواصل، وسهولة مخارج الحروف، بحسن التأليف، والتقابل لكل من معانيها، بما هو أولى به، ما لا يخفى على من عرف مجاري كلام العرب^(١).

الوعد الالهي في سورة الكوثر:

أقول: في الآية وعد مؤكد بأن مبغضي النبي (ﷺ)، ورسالته العظيمة، والمسيئين إليه وإلى دين الإسلام، والقرآن بالكلام أو بالرسوم أو بحرق المصحف أو بافتراء الأحاديث، وتشويه السمعة سيكون مصيرهم انقطاع ذكرهم، واندثار أمرهم، وبترو وجودهم، وهذا ما أثبتته الوقائع سابقاً ولاحقاً، ولو كان عنده شيء من متاع الدنيا الزائلة فإنه لا قيمة له مقابل ما خسره من خير الدنيا والآخرة.

الآية الرابعة:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ ﴿آل عمران: ١٦٤﴾

السيدة الزهراء (عليها السلام) تذكر الأصحاب بنعمة^(١) النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿آل عمران: ١٦٤﴾.

بيان معنى المن:

(المن) ما يوزن به للأثقال الكبيرة^(٢)، وأشير به إلى ثقل هذه النعمة، وهي بعثة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالرسالة الإلهية، والمن من الله حسن لأنه إنعام فعلي، وكذا يحسن من الانبياء (صلوات الله عليهم اجمعين) ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص: ٣٩)؛ لان عطاءهم بغير جزاء، وإنما قبح المن من الناس لأنه بالقول، والكلام مما يسيء للآخر، ويوجب مهاتته ﴿لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (والمن مفسدة للصنعة)^(٣).

(١) قيس من نور القرآن ضمن درس التفسير الأسبوعي الذي ألقاه سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على فضلاء وطلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف يوم الأربعاء ٧/جمادى الأولى/١٤٤٥هـ - الموافق ٢٢/١١/٢٠٢٣م.

(٢) أنظر: لسان العرب - ابن منظور: ١٣ / ٤١٩.

(٣) الإرشاد: ١ / ٣٠٧، بحار الأنوار: ٧٤ / ٤٢١.

ففي الآية تذكير مؤكّد بـ(اللام)، و(قد) بالمنة العظيمة التي وهبها الله تعالى لعباده المؤمنين جميعاً من أول الإسلام إلى نهاية الدنيا لأن لفظ المؤمنين عام، ولا تختص هذه المنّة بمن كانوا على عهد النبي ﷺ، وإن كانوا هم المخاطبين لوضوح أثر هذه النعمة في حياتهم، بل لا تختص المنّة بالمؤمنين، وإنما تعمّ جميع البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ﴿لِيَكُونَ لِّلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١٠١)، وإنما ذكر المؤمنون خاصة لأنهم شكروا هذه النعمة قولاً وعملاً فتغنموا بها فعلاً حينما حرّم الآخرون أنفسهم منها بالتمرد والعصيان.

وهذه المنّة العظيمة هي ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ هذا النبي العظيم بالرسالة الإلهية الخاتمة، فصفة هذا الرسول أنه يعيش في أوساطهم، يأكل الطعام مثلهم، ويمشي في الطرقات معهم، ويشاركهم في شؤون حياتهم، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٦) ليكون مثلاً عملياً، وأسوة حسنة لهم، ولو كان من غير جنس البشر ويعيش في غير عالمهم لاستوحشوا منه وأنكروه، وما تأثروا به حيث يدعون أن له خصوصية كالملائكة مثلاً.

كما أنه ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وليس فقط منهم ومثلهم في طبيعته البشرية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠) فصلته بكم وثيقة وارتباطه النفسي بكم عميق، وفي ذلك تحفيز للمؤمنين أن يطيعوه، ويعملوا بشريعته أكثر حتى تتعمق هذه الصلة النفسية به .

مظاهر المنّة الإلهية:

وذكرت الآية الكريمة مظاهر هذه المنّة العظيمة، فهو ﴿يَتْلُو عَلَيَّهِمْ آيَاتِهِ﴾ التي تنزل من ربه، فهو واسطة الوحي الإلهي، والفيض الرباني بين الناس وخالقهم ويوصل إليهم رسائله تعالى متتابعة حسبما تصل إليه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهر قلوبهم من الامراض المعنوية كالغل والحقد والانتقام ويهدب نفوسهم من رذائل الشهوة والغضب والحرص والاستكانة والعبودية، ويحسن أخلاقهم بالعلاجات الروحية التي يفيضها الله تعالى عليه فهو (طبيب دوار بطبه)^(١) كما وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام).

معنى الكتاب والحكمة:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يشرح لهم هذا القرآن العظيم المنزل ويفسر آياته ويبين أسراره بالسنة الشريفة، فالحكمة إما من باب ذكر الخاص بعد العام لأن من صفات الكتاب أنه حكيم أو أنها السنة مقابل الكتاب، حيث يفتح لهم من كنوز العلوم والمعارف ما فيه سعادتهم، وهدايتهم، واستقامتهم، وحمايتهم من الضلال والانحراف، وصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥) ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ٢).

﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾ فقد كانوا قبل بعثة النبي ﷺ في جاهلية ظلماء، تفتك بهم الحماقات والأهواء والخرافات والحروب والصراعات،

(١) نهج البلاغة: ٢٠٧/١، الخطبة (١٠٨).

وهذا الفرق بين حال الضلال المبين الذي كانوا عليه وحالهم في الإسلام من الوحدة، والتآلف، والسمو، والسعادة واضح لمن قارن بين الوضعين.

تسليّة المسلمين بسبب ما حل بهم:

ووقوع هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن القرح الذي أصاب المؤمنين في أحد، فقتل من قتل، وجرح من جرح، وما أعقبه من الهزيمة النفسية والشكوك التي سرت إلى عقيدتهم ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٥) - فيه تخفيف على المسلمين وتسليّة عن مصائبهم، بأنهم مهما أصيبوا في أموالهم وأنفسهم وسائر أحوالهم الدنيوية فعليهم أن يصبروا ويحتسبوا ويتساموا على الجراح والمصائب بالتفاتهم إلى هذه النعمة العظيمة التي حباهم الله تعالى بها فتهون عليهم مصائبهم.

كمال النعمة ولآية أهل البيت (عليه السلام):

هذه النعمة وهي الإسلام وكمالها وتامها ولاية أهل البيت (عليه السلام) بحسب آية التبليغ في سورة المائدة وقوله تعالى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾^(١) (لقمان : ٢٠)، يلفت الإمام الصادق (عليه السلام) إليها نظر أحد المعتمدين ليخفف عنه شعوره بالحرمان، روى الشيخ الطوسي (رضوان الله تعالى عليه) في

(١) راجع تفسير الآية في كتاب (من نور القرآن: ٥ / ٢٥٠).

كتابه الأمالي بسنده عن الإمام الهادي (عليه السلام) عن آبائه عن موسى بن جعفر (صلوات الله عليهم أجمعين) قال (إن رجلاً جاء إلى سيدنا الصادق (عليه السلام) فشكا إليه الفقر، فقال (عليه السلام): ليس الأمر كما ذكرت وما أعرفك فقيراً. قال - الفقير ظناً منه أن الإمام (عليه السلام) يكذبه في ما ادعى من الفقر فقال: والله يا سيدي ما استبتت - أي ما حققت في حالي وما استوضححتها لتأكد من صدق كوني فقيراً - وذكر من الفقر قطعة والصادق (عليه السلام) يكذبه، إلى أن قال (عليه السلام) له: خبرني لو أعطيت بالبراءة مائة دينار - والدينار يساوي مثقالاً من الذهب - كنت تأخذ؟ - أي تتبرأ من الإسلام وولاية أهل البيت (عليهم السلام) بهذا الثمن - قال: لا - وبدأ الإمام يزيد المبلغ - إلى أن ذكر الإمام (عليه السلام) ألوف الدنانير والرجل يحلف أنه لا يفعل، فقال (عليه السلام) له: من معه سلعة يعطى بها هذا المال وهو لا يبيعها هل هو فقير؟^(١)

النعم المفاضة على البشرية بسبب النبي (ﷺ):

لقد كان النبي (ﷺ) سبباً لإفاضة نعم عظيمة على البشرية لا تعد ولا تحصى:

١- به (ﷺ) هداانا الله للإيمان والتوحيد وأخرجنا من ظلمات الكفر والإلحاد وظلم الشرك وذل عبادة الآلهة المزيفة ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٥٧) ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (الحجرات: ١٧) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ (النور: ٦١) ﴿وَإِنَّكَ

(١) الأمالي، للشيخ الطوسي: ٢٩٨، المجلس (١١)، ح ٥٨٤.

لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٢﴾ (الشورى: ٥٢).

٢- علمنا (ﷺ) الشريعة السمحاء التي تكفل كرامة الإنسان وسعادته وتضمن
العدالة الاجتماعية لكل الناس ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧) ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٦٦)، وكلما ابتعد الناس عن القانون الإلهي
ووضعوا لأنفسهم قوانين وقواعد في التيه والتخبُّط والانحطاط وجرَّوا
الويلات على البشرية ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤).

٣- إنه (ﷺ) وحَّد الأمة وألَّف بين قلوبهم بعد أن كانت الفرقة والتشتت
والتنازع والتخاصم يفتك بهم ويفنيهم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ
عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣) ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا
أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:
٦٣).

٤- إنه (ﷺ) خَلَّف لنا الثقلين كتاب الله وعترة أهل بيته المعصومين
المطهرين (سلام الله عليهم) ليواصلوا أداء رسالته الإلهية حتى تترسخ في

- عقول وقلوب ونفوس الناس؛ لأن عمر النبي (ﷺ) القصير وعدم الاستعداد الكافي للأمة حتى تتكامل بسرعة لم يسمحا بحصول التحول الكامل.
- ٥- اقتلع (ﷺ) من المجتمع الأغلال الفكرية والانحرافات العقائدية والتقاليد الاجتماعية البالية التي كانت تكبل عقول الناس وتعيق تكامل المجتمع وتوجه سلوكه نحو الدمار والفناء كالعصبية والجهل والتخلف والانتقام والظلم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).
- ٦- هدب (ﷺ) النفوس بالأخلاق الفاضلة وطهر القلوب من الرذائل والأمراض المعنوية التي كانت تجلب الشقاء والنكد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، وضرب لهم مثلاً أعلى في الأخلاق الحميدة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) وأسوة حسنة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(١).

(١) مجمع البيان: ١/ ٣٣٣، بحار الانوار: ٦٨ / ٣٨٢.

٧- إنه (ﷺ) الرحمة الواسعة المهداة إلى جميع المخلوقات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

٨- أكرمه الله تعالى بالشفاعة في أمته وهي من بركات المقام المحمود الذي وعده ليساعد الذين خلطوا أعمالهم الصالحة بأخرى سيئة حتى تُغفر لهم فيدخلون الجنة بلا منغصات ولا عوائق؛ روى الشيخ الطوسي في أماليه عن أنس بن مالك قال: (رأيت رسول الله ﷺ يوماً مقبلاً على علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يتلو هذه الآية ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨) فقال: يا علي إن ربي عز وجل ملكني الشفاعة في أهل التوحيد من أمتي وحظر ذلك على من ناصبك أو ناصب ولدك من بعدك^(١).

٩- ما ورد عنه (ﷺ) في تفسير قوله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥) أنه قال: (حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، قالوا: يا رسول الله وكيف ذلك؟ فقال عليه السلام: أما حياتي فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وأما مفارقتي إياكم فإن أعمالكم تعرض علي كل يوم فما كان من حسن استزدت الله لكم، وما كان من قبيح استغفرت الله لكم، قالوا: وقد رمت يا رسول الله؟ يعنون صرت رميماً فقال: كلا إن الله تبارك وتعالى حرّم لحومنا على الأرض أن تطعم منها شيئاً^(١).

(١) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ١ / ١٩١.

١٠- أنه (ﷺ) سبب لمغفرة الذنب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٦٤).

الزهراء (عليها السلام) تذكّر بالمنة الإلهية:

لقد ذكّرت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) أصحاب أبيها بهذه المنّة العظيمة واحتجّت بها عليهم لتحتّمهم على الالتزام بوصية رسول الله (ﷺ) التي بلّغها عن الله تعالى في أمير المؤمنين (عليه السلام) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، ولكي يفوا لرسول الله (ﷺ) بأجر رسالته في أهل بيته ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣) فقالت (عليها السلام) بعد أن وصفت أحوالهم في الجاهلية: (فأنار الله بأبي محمد ظلّمها، وكشف عن القلوب بؤهمها، وجلّى عن الأبصار غمّمها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم)^(١).

وقالت (عليها السلام): (وكنتم على شفا حفرة من النار، أدلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد ﷺ بعد اللتيا والتي)^(٢).

لكن القوم صمّوا أسماعهم عن نداء الحق ومضوا إلى تنفيذ إرادة شياطين

(١) الاحتجاج: ١/ ١٢٧.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٢٩.

الجن والإنس وزعيمهم يقول بنصّ العبارة: (اختارت قريش لأنفسها فأصابته ووفقت)^(١) متحدياً قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: ٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه المتبّعين للرسول الكريم (ﷺ) ..

(١) بحار الأنوار: ٤٠٨ / ٢٨، عن تاريخ الطبري وغيره.

الآية الخامسة:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿القلم: ٤﴾

معجزة النبي ﷺ في أخلاقه

الآية تخاطب رسول الله (ﷺ) وهي تقع ضمن مجموعة من الآيات الكريمة التي يظهر منها أنها نزلت لتسلية وتطيب خاطره والدفاع عن حريمه المقدس بعد الهجمات الشرسة التي شنها عليه طواغيت قريش فرموه بكل وصف قبيح لتنفير الناس عنه وعدم الاصغاء اليه ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿القلم: ٢-٣﴾.

فالآية تعطيه أعظم المقامات واختار الله تعالى من بينها أن يصفه بهذه الخصلة العظيمة.

وفي الآية تأكيد بعد تأكيد على أخلاقه العظيمة باستعمال ﴿إِنَّ﴾ و(اللام) ثم صيغة الوصف ﴿عَلَىٰ خُلُقٍ﴾ لتدل على رسوخها وثباتها فيه بحيث أنه تمكن منها واستعلى عليها وجعلها تحت سلطته وتحولت الى ملكات وسجايا ذاتية، ولو قال (إن لك خلقاً عظيماً) فانها تدل على الاتصاف من دون إفادة الثبات واللزوم إذ ان ما يملك يمكن ان يفقد.

وكيف لا يكون على هذه الاخلاق العظيمة وقد صنعهُ ربه بيديه وأدبه ورباه وبلغ به الغاية فيما يريد قال (ﷺ) (أدبني ربِّي فأحسن تأديبي)^(١)، حتى بلغ

(١) مجمع البيان: ٥٠/١٠، بحار الأنوار: ٣٨٢/٦٨.

الكمال، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (إن الله تبارك وتعالى أدب نبيه فلما انتهى به الى ما أراد قال الله تعالى له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، وفي رواية أخرى عنه (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل: أدب نبيه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، وقال تعالى في ذلك ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩)) فما ناله النبي (ﷺ) كان برحمة الله تعالى وحسن رعايته.

بيان حسن الخلق:

وعنوان حسن الخلق وان كان عاماً يشمل كل الاخلاق الحسنة والسجايا الكريمة، الا انه يطلق غالباً على جزء خاص منها وهو حسن المعاشرة مع الناس ومخالطتهم بالجميل والإحسان .

وبهذا اللحاظ يذكر حسن الخلق في عرض اخلاق حسنة أخرى رغم أنه يشملها بعنوانه العام كقول الإمام الصادق (عليه السلام): (اربع من كنّ فيه كمل ايمانه وإن كان من قرنه الى قدمه ذنوباً لم ينقصه ذلك قال: وهو الصدق وأداء الأمانة والحياء وحسن الخلق)^(٣) ولعل مراده (عليه السلام) بقوله: (وإن كان) مجرد فرض او المبالغة والا فأن صاحب هذه الخصال لا يكون كذلك، لأن كل صفة من الأربع كفيلة بمعالجة الكثير من الذنوب كما هو واضح.

(١) أصول الكافي: ٢٦٦/١.

(٢) أصول الكافي: ٢٦٦/١.

(٣) أصول الكافي: ٩٩/٢، ح ٣/باب حسن الخلق.

معنى حسن الخلق في الروايات:

وتشير الروايات أيضاً إلى ان هذا المعنى الذي ذكرناه لحسن الخلق هو المقصود في الآية فقد روى الصفار في بصائر الدرجات عنهم (عليه السلام) (إن الله أدب نبيه فأحسن تأديبه، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) فلما كان ذلك انزل الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، مع ان تلك الصفات داخله في حسن الخلق بمعناه الاعم فهي قسم منه وليست قسيماً له الا ان يراد به المعنى الخاص.

وروي أيضاً (ان رسول الله ﷺ) كان يمشي ومعه بعض أصحابه فأدركه اعرابي فجذبه جذباً شديداً، وكان عليه بُرد نجراني غليظ الحاشية فأثرت الحاشية في عنقه من شدة جذبه، ثم قال: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك، فالتفت اليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر باعطائه، ولما اكثرت قريش اذاه وضربه قال: اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون فلذلك قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

ويؤيد كون المراد من الآية هذه الاخلاق وليست كل الاخلاق الحسنة التي اتصف بها رسول الله ﷺ أنها الأنسب بسياق السورة التي تقارن بين سلوكه وسلوك المشركين وعاقبة كل منهما، قال السيد الطباطبائي (قدس سره) ((والآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه وتعظمه غير أنها بالنظر الى خصوص السياق

(١) بصائر الدرجات: ٣٧٨.

(٢) تنبيه الخواطر: ٩٩/١.

ناظرة الى اخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على اذى الناس وجفاء اجلافهم والعفو والاعماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك))^(١).

أقول: لكن هذا كله لا يقيد اطلاق وصف كل الاخلاق الحسنة التي اتصف بها رسول الله (ﷺ) العظيمة على جميع المستويات.

وبهذه الاخلاق كسب قلوب الناس فاهتدوا ببركتها الى الإسلام، في الرواية كان رسول الله (ﷺ) أجود الناس كفاً وأكرمهم عشرة، من خالطه فعرفه أحبه^(٢) وكان اعداؤه قبل اتباعه يعلمون عظمة اخلاق رسول الله (ﷺ)، لما فتح النبي (ﷺ) مكة ومكّنه الله تعالى من قريش التي اذاقته القتل والتجويع والتهجير والوان الأذى والعذاب (ودخل صنديد قريش الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم، فأتى رسول الله (ﷺ) البيت وأخذ بعضادتي الباب ثم قال: لا إله إلا الله أنجز وعده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، ثم قال: ما تظنون؟ وما أنتم قائلون؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن عم، قال: فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿قَالَ لَا تُثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢))^(٣).

وروى في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (نزل رسول الله (ﷺ) في غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٨٥/١٩.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣١/١٦.

(٣) بحار الأنوار: ١٣٢/٢١.

وبين أصحابه فرآه رجل من المشركين والمسلمون قيام على سفير الوادي ينتظرون متى ينقطع السيل فقال رجل من المشركين لقومه: أنا أقتل محمداً فجاء وشد على رسول الله (ﷺ) بالسيف، ثم قال: من ينجيك مني يا محمد؟ فقال: ربي وربك فנסفه جبرئيل (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن فرسه فسقط على ظهره، فقام رسول الله (ﷺ) وأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك مني يا غورث فقال جودك وكرمك يا محمد، فتركه فقام وهو يقول: والله لانت خير مني وأكرم^(١)، وقال: (أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً وخيركم لأهله)^(٢).

وان أهم الشواهد على عظمة أخلاقه تلقيه هذا الثناء وهذه الشهادة من الخالق العظيم دون ان يأخذه العجب او يشمخ بأنفه ويتعالى على الآخرين كأغلب الناس حينما يحصلون على ثناء وتبجيل من كبرائهم، ولم تضطرب أفكاره أو يفقد اتزان شخصيته او يتملكه عارض غير حسن، فتلقى هذا التكريم من ربه العظيم بنفس مطمئنة راضية متواضعة وقد حفلت كتب السيرة والحديث والتاريخ بشواهد لا تحصى من أخلاقه العظيمة.

حسن أخلاقه (ﷺ) دليل نبوته:

إن هذه الاخلاق السامية التي اتصف بها رسول الله (ﷺ) دليل واضح على نبوته ورسالته وانه من صنع الله تعالى فحسب ولم يكن من صنع بيئته وظروفه أو تلقيه من أحد لأن هذه المسميات كلها عاجزة عن انتاج مثل شخصية رسول

(١) الكافي: ٨/١٢٧/ح ٩٧، بحار النوار: ٢٠/١٧٩/ح ٦.

(٢) عيون اخبار الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ٢/٣٨.

الله (ﷺ) حيث كانت تلك البيئة والمجتمعات غارقة في الانحراف والفساد والجهل والضلال والتخلف.

إن أخلاق النبي (ﷺ) معجزة يتحدى بها الله تعالى من يدعون من دونه ليأتوا بنسخة مماثلة له وأنى لهم ذلك، فالآية نظير قوله تعالى ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (لقمان: ٧) وهذه اخلاق الله تعالى المتمثلة بالنبي (ﷺ) فأروني أين هي أخلاق الذين من دونه؟ حيث لم يكونوا الا على النقيض من ذلك، وقد صوّرت السورة بعد أن بيّنت ما عليه رسول الله (ﷺ) من الخلق العظيم والأجر غير المنقطع الذين يتصدون لمقاومته بما يستحقون من الأوصاف القبيحة ونهت عن اتباعهم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ^(١) مَهِينٍ • هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ • مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ • عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ • أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ • سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ (القلم: ٧-١٦)، وهذه هي اوصاف المستهزئين برسول الله (ﷺ) أمس واليوم كما هو واضح.

(١) (حَلَّافٍ) كثير الحلف واليمين (مَهِينٍ) وضعف الرأي حقيقر، (هَمَّازٍ) طعان في اعراض الناس عيَاب (مَشَاءٍ بَنِيمٍ) يمشي بالنميمة بين الناس فيفرق بينهم ويلقي العداوة والبغضاء (مَنَّاعٍ) ممسك عن الانفاق بخيل (مُعْتَدٍ) ظالم متجاوز الحدود (أَثِيمٍ) كثير الأثم والخطايا (عُتْلٍ) غليظ جافي (زَنِيمٍ) دعي لا يُعرف أبوه.

فلسفة الشاء على أخلاق النبي (ﷺ) من الله سبحانه وتعالى:

ان اختيار هذه الصفة في رسول الله (ﷺ) لتمجيدها والثناء عليها دليل على ثقل الاخلاق الحسنة في الميزان الالهي والأمر كذلك حتى انك لتجد الغرض المطلوب من العقائد والتشريعات هو الاتصاف بهذه الاخلاق الحسنة وتربية الأمة عليها وقد لخص الغرض في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠) وقد صرح النبي (ﷺ) بهذا الغرض بقوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)^(١)، ولخص شريعة الإسلام بالأخلاق الحسنة قال: (الإسلام حسن الخلق)^(٢).

حث النبي (ﷺ) اتباعه على حسن الخلق:

وكان يحث اتباعه على حسن الخلق كأفضل ما يدعو اليه، روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: (قال رسول الله (ﷺ) ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق)^(٣)، وقال: (إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم)^(٤)، ونقل الإمام الصادق (عليه السلام) قول جده رسول الله: (أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق)^(٥)، وقال: (ثلاث من لم تكن فيه فليس مني ولا من الله عز وجل،

(١) مجمع البيان: ١٠ / ٥٠٠.

(٢) كنز العمال: ٥٢٢٥، ميزان الحكمة: ١٣٣/٣.

(٣) عيون أخبار الرضا: ٩٨ / ٣٧ / ٢.

(٤) أصول الكافي: ١٠٠ / ٢ / ٤، باب حسن الخلق.

(٥) أصول الكافي: ١٠٠ / ٢ / ٦، باب حسن الخلق.

قيل: يا رسول الله وما هنّ، قال: جِلْمٌ يرد به جهل الجاهل، وحُسن خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معاصي الله عزوجل^(١).
وقال (أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً)^(٢)، وقال لزوجته ام سلمة (يا أم سلمة ان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة)^(٣).

أثار حسن الخلق:

ان حسن الأخلاق ليس أمراً ترفيلاً أو كمالياً بل فيه قوام الحياة، قال: (لو يعلم العبد ما في حسن الخلق لعلم أنه محتاج أن يكون له خلق حسن)^(٤)، وبه سعادة الآخرة كما تقدم في الأحاديث الشريفة مع سعادة الدنيا، قال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (لا عيش أهنأ من حسن الخلق)^(٥)، وتزداد الحاجة إليه لمن يكون في مواقع المسؤولية على اختلاف درجاتها كرب الأسرة ومدير الدائرة والمعلم في مدرسته والمربي والحاكم وغيرهم، روى الإمام الجواد (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن آبائه (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء فاني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)^(٦) وفي أحاديث أخرى خاطب بني هاشم بهذا.

(١) الخصال: ١/١٤٥ ح ١٧٢.

(٢) تفسير البرهان: ح ٩، عن تفسير علي بن ابراهيم.

(٣) الخصال: ١/٤٢.

(٤) بحار الأنوار: ١٠/٣٦٩ ح ٢٠.

(٥) علل الشرائع: ٥٦٠/ح ١، ميزان الحكمة: ٣/١٣٤.

(٦) عيون أخبار الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ٢/٥٣، امالي الصدوق: ٣٦٢/المجلسي: ٦٨/ح ٩

أساس الأخلاق:

وأساس الأخلاق الحسنة الإسلام والايمان بالله تعالى، ففي معاني الأخبار عن الإمام الباقر (عليه السلام) في قول الله عزوجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال: (هو الإسلام)^(١)، وروي ان الخلق العظيم هو الدين العظيم^(٢) فان النبي (ﷺ) جسّد القرآن وتعاليم الإسلام في حياته فكان أعظم الناس أخلاقاً حتى وصفه الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان رسول الله (ﷺ) خلقه القرآن)^(٣)، وهذا يعني ان طريق الوصول الى المقامات الرفيعة يمرّ من خلال القرآن، وكل شخص يرتفع سهمه من الاخلاق كلما ازداد اتباعاً للقرآن والتزاماً بالإسلام مما يدل على أنّ الاخلاق التي يدعو اليها الإسلام ليست مقتصرة على الاخلاق الشخصية كالصدق والأمانة والشجاعة والكرم والإحسان ونحو ذلك وإنما يسعى إلى تأسيس منظومة اخلاقية اجتماعية متكاملة تؤسس لمنهج عادل قويم يحفظ كرامة الانسان ويكفل له سعادته.

الأخلاق الاجتماعية للمجتمع الإسلامي:

ومن هنا يفتح الحديث عن الاخلاق الاجتماعية أي اخلاق الأمة كأمة غير اخلاق الأفراد كأفراد ويجعل الأمة كلها مسؤولة عنها ومن تلك الاخلاق، القيام بواجبات المواطنة وحفظ مصالح الدولة والشعب وحقوق الأقليات والتكافل والتعاون على البر والتقوى والعدالة الاجتماعية والتناصح والتواصي بالحق والصبر

(١) معاني الأخبار: ١ / ١٨٨.

(٢) تفسير البرهان: ٣ / ٢٣٧ ح ٢٥، عن تفسير علي بن ابراهيم.

(٣) تنبيه الخواطر: ٧٢، ميزان الحكمة: ٣ / ١٣٥.

والمرابطة في ثغورها وتحصين الأمة فكرياً وعقائدياً وثقافياً وسلوكياً والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى رأس الاخلاق الاجتماعية إقامة الدين وحفظ وحدة الأمة وتماسكها ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣) وقد سمينا في بعض بحوثنا مثل هذه الواجبات بالواجبات الاجتماعية في مقابل مصطلح الوجوب الكفائي^(١) الذي يردده المشهور وشرحنا الوجه في ذلك.

قابلية العادات والصفات للإصلاح:

ان سلوك الانسان وعاداته وصفاته قابلة للإصلاح والتغيير فليس صحيحاً ما يقال من انها غير قابلة لذلك وإن الإنسان مسيرٌ وفق ما جبلت عليه نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) ولذا تواترت الأنبياء والرسل لهداية الخلق وإصلاحهم، وألف العلماء كتباً في تهذيب الأخلاق وادعوها برامج في سلوك هذا الطريق، نقل العلامة المجلسي (قدس) عن الراوندي (رحمته الله) قال: ((الخلق السجية والطبيعة ثم يستعمل في العادات التي يتعودها الانسان من خير أو شر، والخلق ما يوصف العبد بالقدرة عليه، ولذا يُمدح ويُذم، ويدل على ذلك قوله خالق الناس بخلق حسن))^(٢).

إن مساحة الأخلاق الحسنة كلما اتسعت في المجتمع فانها تعود بالخير على الجميع، وقد يمن الله تعالى على اعدائه ببعض الاخلاق الحسنة لمصلحة اوليائه ففي الكافي ان الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ان الله عزوجل أعار اعدائه اخلاقاً من

(١) راجع: فقه الخلاف: ٨ / ١٥٩، ط. الثانية

(٢) بحار الأنوار: ٧١ / ٣٧٤.

اخلاق اوليائه لتعيش اولياؤه مع اعدائه في دولاتهم، وفي رواية أخرى: ولو لا ذلك لما تركو ولياً لله عزوجل الا قتلوه^(١).

تطبيق: معجزة لرسول الله (ﷺ) تبين أخلاقه

روى لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) معجزة تحققت لرسول الله (ﷺ) وكان شاهداً عليها، نذكرها تبركاً وإحياءاً لهذه المنقبة العظيمة ولناخذ منها بعض الخصائص النفسية والسمو الأخلاقي عند رسول الله (ﷺ)، فمن خطبة جليلة لأمير المؤمنين (عليه السلام) تسمى القاصعة قال: (وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ، وَأَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيُّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ). فقال (ﷺ): (وما تسألون؟) قالوا: (تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقل بعروقها وتقف بين يديك)، فقال: (إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحق؟) قالوا: (نعم). قال: (فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وإن فيكم من يطرح في القلب، ومن يحزب الأحزاب) ثم قال: (يا أيها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله، فأنقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بإذن الله!) فوالذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دوي شديد، وقصف كقصف أجنحة الطير، حتى وقفت بين يدي رسول الله (ﷺ) مرفرفة، وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله، وبععض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه.

فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمَ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عُلوًّا وَاسْتِكْبَارًا: (فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا)، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُوًّا: (فَمُرْ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمْرَهُ فَرَجَعَ، فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقْرَبَ بَأَنَّ الشَّجْرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصَدِيقًا بِبُيُوتِكَ، وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ)، فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: (بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا؟) (يَعْنُونََنِي) (١).

دروس وعبر من أخلاق النبي (ﷺ)

أقول: مما نستفيده منها باختصار: -

١- أدبه (ﷺ) مع ربه تبارك وتعالى ومعرفته التامة بالله تعالى وأنه لا يملك شيئاً أمام ربه وأنه (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) فيقول للمشركين لما سألوه (فإن فعل الله لكم ذلك) ولم ينسب الفعل إلى نفسه فما من شيء يتحقق له إلا بلطف الله تعالى وفضله وكرمه، بعكس منطوق الغافلين والبعيدين عن الله تعالى فإنهم يرون لأنفسهم شيئاً ويتبجحون به ويتفاخرون ويطغون، كما حكى الله تعالى عن قارون قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨)، ويأتي التعليق الإلهي ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: ٧٨).

والقرآن الكريم حرص كثيراً على ترسيخ هذه المعرفة قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧)، وقال تعالى في فرعون وقومه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (الشعراء: ٥٧) - ﴿٥٨﴾، مع أن فرعون وجيوشه هم الذين قرروا الخروج لكن بتدبير إلهي.

٢- عدم اليأس من هداية الناس والدعوة إلى الله تبارك وتعالى وإصلاح الأمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والإرشاد والتوجيه، حتى لو كان يعلم بعناد الآخر وإصراره على الخطأ فيقول (ﷺ) (وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير) فلم يتوقف ويقول ما الفائدة من دعوة هؤلاء وهم لا يرجي منهم خير؟ لأن الأمور والنتائج والعواقب بيد مدبرها الحقيقي، وليس على الإنسان إلا السعي الحثيث بكل ما أتاه الله تعالى، وقد مدح الله تعالى قوماً وأنجاهم من العذاب لأنهم لم يتقاعسوا عن أداء وظائفهم الإلهية مع اليأس ظاهراً من هدايتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٥).

٣- اعتماد لغة الحوار والحجة والبينة مع الآخر لتحقيق الفعالة بالأمر وعدم إكراههم على شيء أو استخدام وسائل العنف والضغط لإجبارهم على اعتناق ما تعتقد به، ولو كنت تملك القوى الخارقة الغيبية، وهذا هو منطق القرآن الكريم ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ﴿إِثْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٤).

٤- قساوة القوم الذين بُعث لهم رسول الله (ﷺ) وهمجيتهم بحيث يجري

لهم كل هذه المعجزات وهم يصرون على عنادهم واستكبارهم قال تعالى فيهم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة: ٧٤) وقلوب أولئك كانت من القسوة بحيث لم تسمح بتفجير شيء من ينابيع المعرفة والإيمان فيها، فالجبل يتصدع من هذه الكلمات وهم موتى لا حراك فيهم ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ١٦) وإلى اليوم نرى مثل هؤلاء الأقسام الذين تقام عليهم الحجج والبيئات الدامغة، ولا جواب لهم إلا العناد والاستكبار والمضي على منهجهم المنحرف ومثل هؤلاء أتذكركم عندما أصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥).

٥- شفقة رسول الله (ﷺ) التي لا حدود لها وقلبه الكبير بحيث لا يتوانى عن تقديم أي عمل ما دام يرجى منه صلاح الآخرين وهدايتهم رحمةً بهم لانقاذهم مما هم فيه من الضلال حتى لو كانوا من أسوأ خلق الله تعالى وأقسامهم فلم يكن (ﷺ) كأسلافه الصالحين من الأنبياء الذين دعوا على أقوامهم بالهلاك ﴿لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٦٦) وغاية ما كان يقول (ﷺ) عندما يصيبه بالأذى والتكذيب (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)^(١) ولم يشه (ﷺ) عن الماضي معهم استهزأؤهم وسخريتهم الواضحة من مطلبهم التعجيزي وكأنهم يتهكمون برسول الله (ﷺ) ويسفّهون دعوته.

إن وجود مثل هذا القلب الشفيق الرحيم خير حافز على العمل الإنساني النبيل، وهو موجود لدى الكثيرين ولكنه يحتاج إلى تحريك وإثارة والدليل على ذلك انه عندما يوجد انسان مبتلى أو مصاب بنكبة أو عاهة أو معدم يحتاج إلى مساعدة فإن الكثيرين تهتز قلوبهم بالشفقة والرحمة ويهبون لنجدته ومساعدته، وهذا عمل عظيم ولكن أليس أهم منه أن نهّب لهداية الضال وفاقد البصيرة والمنحرف والجاهل وهؤلاء أولى بالمساعدة والشفقة والرحمة، لأن حياتهم الباقية الدائمة في خطر، وهي أهم من حياتهم الدنيا.

٦- والدرس الأخير نأخذه من أمير المؤمنين (عليه السلام) بروايته لهذه المنقبة النبوية الشريفة، ولعلها كانت تضيع علينا لو لم ينقلها لنا أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلنتعلم منه أن لا نبخل على الناس بما نتعلمه من مسألة شرعية أو موعظة أو نصيحة أو منقبة وفضيلة لأهل البيت (عليهم السلام) أو شيء من سيرتهم الصالحة وأخلاقهم السامية أو كلمات العلماء ومواقفهم ومآثرهم وبذلك تنتشر الهداية ويزكو العلم والعمل الصالح وينمو ففي الحديث (العلم يزكو بالإنفاق)^(١).

الآية السادسة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ﴿الأحزاب: ٢١﴾

دعوة الى التآسي برسول الله (ﷺ)

تعريف الأسوة:

الاسوة بمعنى القدوة الذي يُتَّبَع في الأقوال والأفعال والصفات الشخصية، فالأسوة لك هو من لك به اقتداء والأسوة من الاتساء كالقدوة من الاقتداء فهو اسم وضع موضع المصدر على وزن فعله كاللُقمة والأكلة حيث تقال لما يُفعل به فالأسوة ما يؤتسى به وأصلها (أسو) بمعنى المداواة والإصلاح لذا يوصف الطبيب بأنه (آسي)، ويصلح به من الأفعال والصفات^(١).

والآية وإن كانت بصيغة الأخبار الا انها تتضمن الدعوة والالزام بالتآسي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله وغاياته وأهدافه وصفاته وملكاته لأن الانسان لا بد له من أسوة وقدوة ليتعلم منه ويأخذ عنه، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (الا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه)^(٢) فعليه أن يتحقق من كون الأسوة حسنة صالحة ليتبعها قال رسول الله (ﷺ): (إن أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من توفدون في دينكم وصلاتكم)^(٣).

(١) أنظر: تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي: ١٤٤ / ٨.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٤٥، من كتابه الى عثمان بن حنيف.

(٣) ميزان الحكمة: ١ / ١٢٤، عن البحار: ٢٣ / ٣٠ / ٤٦.

المستجيب للتأسي:

وتضيف الآية بأنه لا يستجيب لهذه الدعوة ولا ينتفع بها الا من وثق بالله تعالى وما عنده من الثواب الجزيل وخاف الآخرة وحرص على جلب الخير والسعادة والكمال والفوز في الآخرة لنفسه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

حكمة اختيار النبي (ﷺ) للتأسي:

ومن الطبيعي أن يختار الله تعالى لنا رسوله الكريم ليكون الأسوة الحسنة لنا لأنه أكمل الخلق وأرقى نماذج الإنسانية وقد اجتمعت فيه كل صفات الكمال، وكيف لا يكون كذلك وقد تولى الله تعالى صنعه وتربيته وتأديبه بحسب الحديث الشريف (أدبني ربي فأحسن تأديبي)^(١)، ومن بعده الأئمة المعصومون (عليهم السلام) من اهل بيته، قال (صلى الله عليه وآله): (من سره أن يحيى حياتي، ويموت مماتي ويسكن جنه عدن التي غرسها الله فليوال عليا من بعدي، وليوال وليه، وليقتد بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي، رزقوا فهما وعلما)^(٢)، وعنه قال في بيان منزلة الأئمة (عليهم السلام): (هم أبواب العلم في امتي، من تبعهم نجا من النار، ومن اقتدى بهم هدي الى صراط مستقيم، لم يهب الله عز وجل محبتهم لعبد الا ادخله الجنة)^(٣).

وبذلك يكون اتخاذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أسوة حسنة طريقاً لتطبيق الآية ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل: ٦٠) فقد صنعه الله تعالى ليكون وسيلة تحقيق هذا

(١) بحار الأنوار: ١٦ / ٢١٠، ٦٨ / ٣٨٢، ١٠٨ / ٢٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣ / ١٣٩ / ح ٨٥.

(٣) ميزان الحكمة: ١ / ١١٦، عن امالي الصدوق: ٧٤ / ٤٢.

الغرض فهو كتاب الله الناطق، حتى وصفه الإمام الصادق (ع) بذلك قال: (كان رسول الله (ص) خلقه القرآن)^(١).

فالتأسي به (ص) اتباع للقران الكريم، قال (ص): (الا واني تارك فيكم الثقلين: احدهما كتاب الله عز وجل، هو الحبل الى الله، ومن تبعه كان على هدى، ومن تركه كان على الضلالة) فاصل ما يُتأسى به القرآن الكريم وسنة رسول الله (ص) (فهما صنوان لا يفترقان)^(٢).

وكما ان القرآن شفاء وهدى ورحمة ونور وبيان وذكر ومبارك وحكيم ونحو ذلك مما ذكره القرآن الكريم فان رسول الله (ص) كذلك، وان القرآن وصف نفسه بأن فيه ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩) ﴿وَمَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، فكذلك رسول الله (ص) سفر واسع يجد فيه التواقون الى الكمال وطالبو السعادة والفلاح والنجاة كل ما يريدون.

ماذا يعني التأسي:

أن التأسي يعني جعل حياة الأسوة الحسنة معياراً وميزاناً لسلوك المتأسي وصفاته ويجعلها فرقاناً في حياته يميز به بين ما يصح فعله وما لا يصح، ويسعى المتأسي الى ان يكون مثلاً ونسخة من الاسوة.

(١) تنبيه الخواطر: ٧٢، ميزان الحكمة: ٣ / ١٣٥.

(٢) ميزان الحكمة: ١ / ١١٥، عن صحيح مسلم: ٤ / ١٨٧٤ ح ٢٤٠٨.

وصور امير المؤمنين (عليه السلام) اكمل صور التأسي برسول الله (ﷺ) قال (عليه السلام): (وقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علماً، ويأمرني بالافتداء به)^(١).

إن تقديم النبي (ﷺ) كأسوة حسنة يتطلب دراسة سيرته المباركة وتحليلها وعدم الاكتفاء بالسرد التاريخي والروائي، لتشخيص جوانب التأسي سواء على صعيد حياته الشخصية وملكاته وصفاته الذاتية أو على صعيد منهجه في سياسة الأمة ورعاية شؤونها وقد قمتُ بمحاولة في هذا المجال وطبعت في كتاب (الأسوة الحسنة).

وبالعودة إلى الآية الكريمة محل البحث نقول انها وقعت في سياق الحديث عن معركة الأحزاب وما رافقها من أهوال وكوارث ومخاوف حتى قال تعالى ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۗ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١٠-١١)، لكن اقتحام النبي (ﷺ) بنفسه الشريفة ميدان العمل فيضرب بالمعول هنا ليحفز الخندق، ويحمل التراب هناك، ويشارك المجاهدين في اهازيجهم واشعارهم الحماسية، رفع من الروح المعنوية لهم وسكب عليهم الطمأنينة حتى أنه كان أحياناً يلاطفهم ويرطب الأجواء فهو أسوة في شجاعته^(٢) وثباته وتواضعه وصدقه وتسليمه وعمله الدؤوب وحسن تخطيطه وتفانيه في سبيل الحق وغير ذلك مما افرزته سيرته المباركة والصبر على

(١) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة رقم: ١٩٢.

(٢) روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (كُنَّا إِذَا احْمَرَ الْبَأْسَ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فما يكون أحد أقرب الى العدو منه (بحار الأنوار: ١٦ / ٢٣٢).

ذلك كله، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (ولأن الصبر على ولاة الأمر مفروض لقول الله عز و جل لنبيه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)) وإيجابه مثل ذلك على أوليائه وأهل طاعته بقول ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١).

ولا يصح حصر مفاد الآية في تلك الأحداث بل هي دعوة عامة ﴿لَكُمْ﴾ أي لجميع البشرية أن تتأسى بالنبي (ﷺ) قال امير المؤمنين (عليه السلام): (اقتدوا بهدي نبيكم فإنه افضل الهدي، واستنوا بسنته فإنها اهدى السنن)^(٢)، و﴿كَانَ﴾ هنا ليست كان الناقصة التي تعني ثبوت الوصف في زمان وارتفاعه في زمان آخر، بل هي كان التامة التي تفيد الثبات، لأنه من شأنه ذلك وقد سبقتها (اللام) و(قد) لتفيد التحقق والتأكيد.

قال امير المؤمنين (عليه السلام): (فتأس بنبيك الأطيب الأطهر، فإن فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزى. وأحب العباد إلى الله المتأسى بنبيه، والمقتص لأثره. قضم الدنيا قضمًا، ولم يعرها طرفًا. أهضم أهل الدنيا كشحًا، وأخمصهم من الدنيا بطنًا، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله تعالى أبغض شيئًا فأبغضه، وحقر شيئًا فحقره، وصغر شيئًا فصغره.

(١) نور الثقلين: ٤ / ٥٣٥ / ح ٣٨.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١١٠.

ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله لكفى به شقا لله تعالى ومحادة عن أمر الله تعالى^(١).

وروى في مجمع البيان إن ثعلبة بن حاطب وكان رجلاً من الأنصار قال للنبي: (ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت)^(٢)، فلم يتأس بنبيه وآل أمره إلى الخسران وروي أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة: ٧٥)

ولا شك في عدم قدرة أحد على الوصول إلى منزلة رسول الله (ﷺ) لكننا مطالبون ببذل الوسع في تحقيق الحالة قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الا وإنكم لا تقدرُونَ على ذلك ولكن اعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد)^(٣)، وكلما اتسعت حالة التأسى ارتقت منزلة المتأسى، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (آل عمران: ٦٨).

التأسى بالنبي (ﷺ) في قيادة الأمة:

إن التأسى به لا يقتصر على حياته الشخصية فنستفيد منها في حياتنا كأفراد، بل على القادة أن يتأسوا به كأعظم قائد ومصلح عرفته البشرية واستطاع

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٦٠.

(٢) مجمع البيان: ٥٢/٥، نور الثقلين: ٤/٥٣٥ ح ٣٩.

(٣) نهج البلاغة: ٣/٧٠ رقم: ٤٥، من كتابه الى عثمان بن حنيف.

تأسيس خير أمة أخرجت للناس، وإن في سلوكه مع أصحابه في معركة الأحزاب درساً لكل المصلحين والقادة والزعماء والمسؤولين، وهكذا على الآباء أن يتأسوا به كأب والأزواج كزوج والأصدقاء كصديق، والمربين كمربي والسائرين الى الكمال كأفضل خلق الله تعالى، فهو طيب آسي حقاً كما وصفه أمير المؤمنين (عليه السلام) (طَيْبٌ دَوَّارٌ بَطْبُهُ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ - وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ - مِنْ قُلُوبِ عُمِّيِّ وَأَذَانِ صُمَّ - وَاللِّسَنَةِ بُكْمٍ - مُتَّبِعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ - وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ) (١).

الأسوة في مورد آخر:

لقد ورد لفظ الأسوة الحسنة في القرآن الكريم في موضع آخر، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا﴾ (المتحنة: ٤)، وقال تعالى بعدها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (المتحنة: ٦)، لكنها دعوة للتأسي بموقف محدد ذكرته الآية، اما الأسوة المحمدية فهي مطلقة في كل شيء، ولذا استدل بعضهم بالآية على عصمة النبي (ﷺ) لأن الله تعالى لا يدعو الى التأسي والاقْتداء بأحد في كل شيء الا اذا كان معصوماً من الخطأ والزلل، وتدل بالتبع على عصمة أئمة اهل البيت (عليهم السلام) لأن النبي (ﷺ) امر باتباعهم والاقْتداء بهم كما في الاحاديث المتقدمة.

ولا يخفى ما في الآية من تعريض بكثير من المسلمين الذين كانوا جزءاً من المجتمع الإسلامي الملتصق برسول الله (ﷺ) الا أنهم لم يحسنوا التأسي برسول الله (ﷺ) وخالفوه عن علم وعمد والشواهد كثيرة من سيرة الصحابة في حياته وبعدها كصلاة التراويح التي أقاموها رغم نهي النبي (ﷺ) عن صلاة الجماعة في المستحبات^(١)، وتحريم المتعة رغم إقرارهم بترخيص النبي (ﷺ) فيها^(٢)، والفرار من المعارك وترك النبي (ﷺ) محاطاً بالأعداء^(٣)، والانقلاب على الاعقاب في حياته وعند وفاته، واقضاء أمير المؤمنين (عليه السلام) من بعده رغم أخذه البيعة منهم على ولايته بعده^(٤) وظلم أهل بيته وغيرها.

فائدة وجود الأسوة:

ان وجود الأسوة الحسنة على الأرض من أعظم وسائل الاقناع برسالة الإسلام، وان كثيراً من الناس دخلوا الإسلام من دون ان يقرأوا أو يسمعوا عنه شيئاً لكنهم رأوا سيرة الأسوة الحسنة وهو النبي (ﷺ) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) من أهل بيته فاقتنعوا بأحقية ما يدعون إليه.

وان تأثير رسول الله (ﷺ) في أصحابه مما شهد به اعداؤه حتى تملكهم الرعب وملاهم يأساً واحباطاً، ولناخذ شاهداً على ذلك قول زعيم ثقيف عروة بن مسعود الثقفي لما أرسلته قريش ليستطلع خبر رسول الله (ﷺ) عندما نزل

(١) أنظر: صحيح البخاري: ٩٩ / ٧.

(٢) أنظر: بحار الأنوار - المجلسي: ٦٣٧ / ٣٠ - ٢٨ / ٥٣.

(٣) أنظر: مسند أحمد - أحمد بن حنبل: ٢٨٢ / ٩، ط. الرسالة.

(٤) أنظر: الكافي - الشيخ الكليني: ٣٤٤ / ٨.

الحديبية هل يريد زيارة البيت الحرام أم قتالهم، روى ابن هشام قال: (فقام من عند رسول الله ﷺ) وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق الا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء الا أخذوه، فرجع الى قريش فقال: يا معشر قريش: اني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم^(١).

أهمية وجود الاسوة في حياة الامت:

وهذا يبرز أهمية وجود الأسوة الحسنة في حياة الأمة، لعدم إمكان التفكيك بين الرسالة وحاملها وقد عبر أمير المؤمنين (عليه السلام) عن هذه الملازمة بقوله (عليه السلام): (اني والله ما أحثكم على طاعة الا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية الا واتناهي قبلكم عنها)^(٢) فعلى من يتصدى لشأن من شؤون الناس يجعله في مقام الاسوة والقدوة ان يؤهل نفسه أولاً لهذا المقام، روي عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه)^(٣).

ولذا قالوا: ان الواعظ إذا لم يكن متعظاً فلا يؤثر في القلوب ولا يهذب النفوس، ومن وصايا الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) لشيعته: (اتقوا الله وكونوا زيناً

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٢٠١ ط. دار الجيل.

(٢) نهج البلاغة: ٢٥٠/ الخطبة: ١٧٥.

(٣) بحار الأنوار: ٢/ ٥٦/ ح ٣٣.

ولا تكونوا شيناً، جرّوا إلينا كل مودة وادفعوا عنا كل قبيح^(١)، ولا يجروّن المودّة إلى أئمتهم (عليّهم السلام) الا عندما يعكسون صورة الأسوة الحسنة في حياتهم وقد بين الإمام (عليّهم السلام) ذلك في نفس الوصية فقال (عليّهم السلام): (فان الرجل منكم اذا ورع في دينه وصدق في حديثه وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا شيوعي فيسرّني ذلك)^(٢).

خطورة الأسوة السيئة:

وفي ضوء هذه الملازمة نفهم خطورة وجود القدوة السيئة والمنحرفة، قال امير المؤمنين (عليّهم السلام): (ولا يجنح بكم الغي فتضلوا عن سبيل الله باتباع أولئك الذين ضلوا وأضلوا)^(٣)، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۗ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٦٧-٦٨).

خصوصاً التي تحمل عنوان الاسلام وتدّعي العمل به كالمجاميع الإرهابية واجندات التعصب والتكفير والعنصرية فان خطرهما عظيم على الإسلام وينفر الناس من الشريعة الإلهية السمحاء، وقد اتخذ اعداء الإسلام هذا الاسلوب لمحاربة الاسلام ومحاصرته من خلال صناعة مثل هذه النسخ الضالة المنحرفة،

(١) تحف العقول: ٣٦١ ط. مؤسسة الأعلمي.

(٢) تحف العقول: ٤٨٨.

(٣) بحار الأنوار: ١١٦ / ٩٤، مصباح المجتهد: ٨٤٣ / ٧٥٦.

وخلق ما يعرف بالإسلام فويبا^(١) أي الخوف من الإسلام، من كتاب امير المؤمنين (عليه السلام) الى معاوية (لبئس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم)^(٢).

وسائل الاسوة لاصلاح الأمة:

ان الاسوة الحسنة قد لا يحتاج إلى الكلام مع الناس ليصلحهم ويهديهم وإنما يؤثر فيهم بسلوكه وأخلاقه وقد حث الأئمة (عليهم السلام) على ذلك بقولهم: (كونوا لنا دعاة صامتين)^(٣) و(كونوا لنا دعاة بأفعالكم لا بأقوالكم) وهكذا أثر أهل البيت (عليهم السلام) في الأمة بحيث تكفي دقائق من اللقاء بهم أو الاطلاع على سيرتهم والاستماع إلى حديثهم لانقلاب العدو الحاقداً إلى صديق حميم وهو يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤) تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤) والشواهد على ذلك كثيرة ومعروفة نذكر منها واحداً من حياة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فقد روى الشيخ المفيد في الارشاد وصاحب اعلام الوري، انه (عليه السلام) قد سجن عند القائد التركي (علي بن اوتامش) وكان شديد العداوة لآل محمد غليظاً على آل ابي طالب وقيل له افعل به وافعل - أي شدد عليه وعامله بقسوة - قال فما اقام الا يوماً واحداً حتى وضع خده له^(٤) وكان لا يرفع بصره إليه اجلالاً واعظاماً وخرج من

(١) الاسلام فويبا هو: الخوف من المسلمين والتحيز ضدهم والتحايل عليهم بما يؤدي الى الاستفزاز والعداوة والتعصب.

(٢) نهج البلاغة: كتاب ١٧.

(٣) مستدرک الوسائل: ١١٦/١، ٣١٠/٨.

(٤) وضع خده له: كناية عن التواضع.

عنده وهو أحسن الناس بصيرة وأحسنهم قولاً فيه^(١).

وقد عاتب العباسيون القائد التركي المتنفذ في الدولة صالح بن وصيف لعدم التضييق على الإمام (عليه السلام) فقال لهم صالح: (ما أصنع به وقد وكلت رجلين شر من قدرت عليه فقد صاروا من العبادة والصلاة إلى أمر عظيم، ثم أمر بإحضار الموكلين فقال لهما: ويحكما ما شأنكما في أمر هذا الرجل فقالا له: ما نقول في رجل يصوم نهاره ويقوم ليله كله لا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة فاذا نظر إلينا ارتعدت فرائصنا وداخلنا ما لا نملكه من أنفسنا)^(٢).

ان التأسي برسول الله (ﷺ) في حياته الشخصية والاجتماعية كفيل بإحداث نقلة إصلاحية عظيمة في حياة الأمة كالتى أحدثها هو حين صنع من القبائل العربية المتخلفة الجاهلة المتناحرة المنحطّة خلقياً أمة واحدة متماسكة حضارية قادت ما لا يقل عن نصف العالم المعروف آنذاك، وصنع من افراد المسلمين افضالاً نادريين.

مسؤولية الأمة تجاه التأسي بالنبي (ﷺ):

إن استيعاب السيرة الحسنة للنبي وتمثلها في حياتنا ليس فقط مسؤولية فردية لتحصيل القرب من الله تبارك وتعالى ونيل الكمالات وانما هي مسؤولية اجتماعية على الأمة أن تتحرك باتجاهها في ضوء التحديات الكثيرة التي تواجهها ومنها:

(١) بحار الأنوار: ٣٠٧/٥٠ ح ٤، عن الارشاد للمفيد: ٣٢٩ / ٢ - ٣٣٠ وإعلام الورى: ١٥٠/٢.

(٢) بحار الأنوار: ٣٠٨ / ٥٠ ح ٥، عن الارشاد للمفيد: ٣٣٤ / ٢ وإعلام الورى: ١٥٠/٢ - ١٥١.

١ - تسافل العالم الى مستوى من الجاهلية انحطَّ كثيراً عن الجاهليات السابقة^(١) وهو يلزمنا بانبعث رسالي جديد في موازاتها.

٢ - اننا مسؤولون عن التمهيد للدولة الكريمة المنتظرة وتعجيل الظهور الميمون، ومن متطلباته اقناع البشرية بالإسلام المحمدي الأصيل وهو المشروع الذي ينهض به الإمام (عليه السلام) وأفضل وسيلة لتحصيل هذه القناعة هو تجسيد الأسوة الحسنة في حياتنا، وقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: (فان الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)^(٢) وقد علمنا الإمام الحجة المنتظر (عليه السلام) في دعاء الافتتاح أن نقول: (اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ تُعِزُّ بِهَا الْأِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِهَا النِّفَاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ، وَالْقَادَةِ إِلَى سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)^(٣)، وهذه مرتبة عظيمة لا تنال الا بالتأسي برسول الله (ﷺ) وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين).

٣ - إن المسلمين اليوم ضائعون ممزقون متخلفون قد استمروا التبعية والعبودية لاعدائهم ومن يكيد لهم فهذا متخندق مع الغرب وذاك مع الشرق حتى تحالفوا مع اعدائهم ضد اخوانهم وأحد الأسباب المهمة في بلوغهم هذا الانحطاط فقدان الأسوة الحسنة فلا بد من إيجادها ليعودوا إلى حياة العزة والكرامة والانعقاد من العبودية الا لله تبارك وتعالى.

(١) راجع المقارنة بين الجاهليتين في ملحق (شكوى القرآن)، من نور القرآن: ٣/ ٢٨٣.

(٢) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٣٠٧/١، معاني الاخبار: ١٨٠.

(٣) مفاتيح الجنان: دعاء الافتتاح.

ملحق (١): كراهة عدم الاتيان بسنن النبي

ملحق (١)

كراهة عدم الاتيان بسنن النبي ﷺ ولو مرة واحدة في العمر

روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إني لأكره للرجل أن يموت وقد بقيت خلة من خلال رسول الله (ﷺ) لم يأت بها)^(١).

وجعل الإمام (عليه السلام) سنن النبي (ﷺ) وسيرته ميزاناً يعرف بها الإنسان درجة صلاحه، فقد روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله خصّ رسوله (ﷺ) بمكارم الأخلاق فامتحنوا أنفسكم، فإن كانت فيكم فاحمدوا وارغبوا إليه في الزيادة منها)^(٢).

وهذا يدعونا إلى البحث والتحري عن سنن النبي (ﷺ) حتى نتمكن من التأسّي بها، ونحن لا نتوقع التمكن من الإتيان بها جميعاً، لكن علينا أن نسعى إلى تحقيق أكبر مقدار نستطيعه ونحافظ عليه وعندئذ يوفّقنا الله تعالى لأزيد من ذلك فنلتزم به ونحافظ عليه فنوفّق للمزيد وهكذا بالتدرّج.

وسنن النبي (ﷺ) ومكارم أخلاقه تفوق حد الحصر، وما بين أيدينا هو ما نقل لنا منه عبر الروايات أما مقاماته وخصاله وملكاته فلا يعرفها إلا الله تبارك وتعالى.

(١) بحار الأنوار: ١٦ / ٢٥٤، عن مكارم الأخلاق للطبرسي: ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة كتاب جهاد النفس أبواب جهاد النفس باب ٤ / ح ١.

نماذج من سنن النبي (ﷺ) من القرآن والسنة:

ونحاول في هذه العجالة أن نقف عند بعض هذه السنن وأول مصدر لسنته (ﷺ) وآدابه التي أدبه بها ربّه هو القرآن الكريم، وقد سجّل لنا جملة منها كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)
 وقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٩١)

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم: ٦٠)

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْءٍ إِيَّيَّ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (الكهف: ٢٣)
 وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩)

وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

ومن الروايات الجامعة لمكارم أخلاقه (ﷺ) وسنته: وصيته لأمير المؤمنين (عليه السلام) التي رويت في الكتب المعتمدة عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (ﷺ) لعلي (عليه السلام): يا علي اوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ثم قال: اللهم

اعنه، اما الاولى فالصدق لا يخرجن من فيك كذبة ابداء، والثانية الورع لأتجرأً على خيانة ابداء، والثالثة الخوف من الله كأنك تراه، والرابعة كثرة البكاء من خشية الله عز وجل يني لك بكل دمة بيت في الجنة، والخامسة بذل مالك ودمك دون دينك، والسادسة الاخذ بسنتي في صلاتي وصيامي وصدقتي، اما الصلاة فالخمسون ركعة، واما الصوم فثلاثة ايام في كل شهر خميس في اوله، وأربعاء في وسطه، وخميس في آخره، واما الصدقة فجهدك حتى يقال: اسرفت ولم تسرف، وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الزوال، وعليك بقراءة القرآن على كل حال، وعليك برفع يديك في الصلاة، وتقليبهما، عليك بالسواك عند كل صلاة، عليك بمحاسن الاخلاق فاركبها، عليك بمساوئ الاخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومن الا نفسك^(١).

وقد تضمنت هذه الوصية عدة محاور من سنته الشريفة منها على صعيد الصفات القلبية - كالورع والخوف من الله تعالى - ومنها على صعيد الخصال النفسية - كالصدق - ومنها على صعيد الأعمال الخارجية كالصوم والصلاة والصدقة.

ويعلمنا النبي (ﷺ) أن العمل بهذه السنن والأخذ بها لا يتحقق إلا بالطفاف إلهية خاصة، لذلك فإنه (ﷺ) يدعو لأمر المؤمنين (ﷺ) (اللهم أعنه). وقد علمنا الأئمة المعصومون (عليهم السلام) أن ندعو نحن أيضاً بهذا الدعاء كالذي ورد في الدعاء اليومي لشهر شعبان (اللهم فأعنا على الاستئان بسنته (ﷺ) فيه)^(٢).

(١) وسائل الشيعة كتاب الجهاد أبواب جهاد النفس، باب ٤/ح ١.

(٢) مفاتيح الجنان: ٢٠٨.

سنة الاجتهاد في العبادة:

كان (ﷺ) يجتهد في العبادة فقليل له: (يا رسول الله غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وأنت تجهد هذا الاجتهاد؟! فقال (ﷺ): أفلا أكون عبداً شكوراً^(١))، وصفة العبودية لله تعالى وحده والتحرر من طاعة غيره هي مصدر كل الكمالات الأخرى لذلك اختارها الله لتكون الصفة التي يسلم عليه بها يوماً في صلواتنا (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله).

عمل عبادي يحقق الاستننان بسنة النبي (ﷺ).

وأذكر لكم عملاً عبادياً بسيطاً لو واظبتم عليه تكونون ممن أخذ بسنة النبي (ﷺ) وجدّه إبراهيم الخليل (عليه السلام) حيث أمرنا بالتأسي به أيضاً قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (الممتحنة: ٤) وهي صلاة ركعتين يوم الجمعة بين الظهر والعصر، تقرأ في كل منهما بالحمد مرة والتوحيد سبع مرات فإذا فرغت منها تقول (اللهم اجعلني من أهل الجنة التي حشوها البركة وعمارها الملائكة مع نبينا محمد (ﷺ) وأبينا إبراهيم (عليه السلام)، روي عن الأئمة (عليهم السلام): أن من صلاها لم تضره بليّة ولم تصبه فتنة إلى الجمعة الأخرى، وجمع الله بينه وبين محمدٍ وبين إبراهيم (عليهما السلام)^(٢).

سنة التزويج:

ومن سنن النبي (ﷺ) التي أكّد عليها وذمّ تركها الزواج وحبذا أن يكون

(١) وسائل الشيعة كتاب الجهاد أبواب جهاد النفس، باب ٤/ح ٢.

(٢) مفاتيح الجنان: ٩٠ أعمال يوم الجمعة فقرة ٢٦.

مبكرًا فقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (تزوجوا فإنّ التزويج سنة رسول الله (ﷺ)، فإنه كان يقول: من كان يحبّ أن يتبع سنتي فإنّ من سنتي التزويج، واطلبوا الولد فإنّي مكاثر بكم الأمم) (١).

سنة منع اغتياب:

ومن سننه (ﷺ) منع نقل أي كلام عن الآخرين يؤدي إلى إيجاد حزازة في الصدر على الإخوان لذلك روى عن ابن مسعود عنه (ﷺ) أنه قال: (لا يبلغني أحدٌ منكم عن أصحابي شيئاً فإنّي أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) (٢).

سنة ذم الكذب:

وكانت أبغض خصلة له (ﷺ) الكذب فقد روي عن أم المؤمنين عائشة قولها: (كان أبغض الخلق إليه الكذب) وقالت: (كانت (ﷺ) إذا أطلع على أحدٍ من أهل بيته كذبَ كذبةً لم يزل معرضاً عنه حتى يحدث توبة) (٣).

سنة الرحمة والعفو:

وكان يحبّ صفة الرحمة للناس والشفقة عليهم والعفو عن إساءاتهم وقضاء حوائجهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، أبواب مقدماته، باب ١/ ح ٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٦ / ٢٣١ عن مكارم الأخلاق: ١٧.

(٣) ميزان الحكمة: ٨ / ٥٧١ عن كنز العمال: ح ١٨٣٧٩ و ١٨٣٨١.

وكان (ﷺ) يقول: (أيتها الناس إنما أنا رحمة مهداة)^(١).
وسئِلَ الإمام الصادق (عليه السلام) بِمَ سَادَ النَّبِيُّ (ﷺ) الْخَلْقَ، فَأَجَابَ بِمَا مَضْمُونُهُ:
بِخَصْلَتَيْنِ الْعَفْوِ عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا^(٢).

تصوروا لو أنّ هذه الصفات (الصدق، الرحمة، العفو إلى المسيء، العمل على تحقيق مصالح الناس وإسعادهم) توفّرت في قادة البلاد هل تصل الحال إلى ما نحن عليه الآن من التمزّق والتناحر والصراع الطائفي والعرقي والفساد والعبث بأموال الشعب، فإذا أردنا الحل فإنه يبدأ من الالتفات إلى هذه المبادئ السامية والأخلاق الكريمة حتى تتحوّل إلى خلق ثقافة عامة مبنية عليها، والعمل الجاد لترسيخها والله تعالى وليّ التوفيق.

سنة النبي (ﷺ) في الذكر:

ومن سنّته (ﷺ) ما روته السيدة الزهراء (صلوات الله عليها) قالت: (دخل عليّ رسول الله (ﷺ) وقد افترشت فراشي للنوم، فقال لي يا فاطمة: لا تنامي إلا وقد عملت أربعة: ختمت القرآن، وجعلت الأنبياء شفعاك، وأرضيت المؤمنين عن نفسك، وحججت واعتمرت، قال هذا وأخذ في الصلاة، فصبرت حتى أتمّ صلاته، قلت: يا رسول الله (ﷺ)، أمرت بأربعة لا أقدر عليها في هذا الحال، فتبسّم (ﷺ)، وقال: إذا قرأت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات فكأنك ختمت القرآن، وإذا صلّيت عليّ وعلى الأنبياء قبلي كُنَّا شفعاك يوم القيامة، وإذا

(١) ميزان الحكمة: ٥٤٢/٨ عن الطبقات الكبرى: ١/١٩٢.

(٢) أنظر: بحار الأنوار - المجلسي: ١٧/١٠٢، - كشف الغمّة في معرفة الأئمّة - الإريلي: ٢/٤٢٤.

استغفرت للمؤمنين رضوا كلهم عنك، وإذا قلت: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فقد حججت واعتمرت^(١).

ومن مستحبات ما قبل النوم تسييح الزهراء (عليها السلام) والنوم على طهور وقراءة سورة التكاثر للوقاية من فتنة القبر كما روي عنه (عليها السلام)^(٢).

(١) صحيفة الزهراء (عليها السلام) - الشيخ جواد القيومي: ١٦٤.

(٢) أنظر: الكافي - الشيخ الكليني: ٤٦٨/٣، - بحار الأنوار - المجلسي: ٣٣٥/٨٢، - ثواب الأعمال -

ملحق (٢): حاجتنا الى الاسوة الحسنة

ملحق (٢)

حاجتنا الى الاسوة الحسنة^(١)

إن أي رسالة إصلاحية ومنها رسالة الإسلام، لابد لها لكي تنجح في بناء أمة من شكلين من المقومات سميتهما الذاتية والموضوعية، وقلنا إن الذاتية منهما لها دعامتان:

مقومات بناء الامّة:

الأولى: ما يرجع إلى ذات الرسالة، أعني شريعة الإسلام التي توفرت فيها كل عناصر الكمال من الاستيعاب لكل شيء، كما قوله تعالى: ﴿مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، ومن خطابها للجميع في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، ومن خلودها قوله: (حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة)^(٢)، ومن صيانتها من الانحراف والتغيير، قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) وغيرها مما لا يحتاج إلى بيان، لأنها صنعة الله تبارك وتعالى الذي له الأسماء الحسنى.

(١) محاضرة القيت على حشد من فضلاء الحوزة العلمية وطلبتها في مسجد الرأس الشريف يوم ١٦/ربيع الأول/١٤٢٣هـ - المصادف ٢٨/٥/٢٠٢٠م، في ذكرى المولد النبوي الشريف، ونشرت في موسوعة خطاب المرحلة: ٢٩٠/١ ثم تلتها محاضرة أخرى في تلك الفترة واعيد تسجيلها كمحاضرات لقناة الانوار الفضائية سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، وقد طبعت في كتاب (الاسوة الحسنة).

(٢) تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي: ١٤ / ٣٢٢ - بحار الأنوار - المجلسي: ٣٨ / ٢٩.

الثانية: ما يرجع إلى ذات الرسول، وهو النبي محمد ﷺ وهو أكمل الخلق، ربته يد الرعاية الإلهية، لعدم وجود من هو أكمل منه حتى يُربيه ويأخذ بيده في مدارج الكمال، وعن ذلك قال رسول الله ﷺ: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)^(١). ولا تكون الرسالة فاعلة ومؤثرة وتؤدي دورها في حياة الأمة إذا لم يكن حاملها مستوعباً لها قد أشرب بها وتمثلها في حياته وجسدها في سلوكه وواقعه، حتى عاد صورة خارجية لها وعادت صورة نظرية له، لذا لما سُئِلت إحدى أمهات المؤمنين عن سيرة رسول الله (ﷺ) وأخلاقه قالت باختصار: (كان خلقه القرآن)^(٢).

ولعدم إمكان التفكيك بين النظرية - ولا أقصد بالنظرية ما يراد منها في المصطلح أعني المعلومة القابلة للصحة والخطأ، وإنما أعني مجموع ما احتوت عليه الرسالة من أصول وفروع وأخلاق التي أسسها القرآن الكريم - والتطبيق، أي بين الرسالة وسلوك القائمين عليها، صار الناس لا يقتنعون بأي رسالة مهما كانت ترفع من مبادئ ومثل وأخلاق عالية ونبيلة إذا كان حاملوها والقائمون عليها أول من يخالفها.

وهذا أحد أسباب انحطاط المسلمين وتشوه صورة الإسلام، فكيف يقتنع الناس بحرمة شرب الخمر إذا كان حاكم المسلمين أو ولاته يشربونها على منابر المسلمين؟ وكيف يقتنعون بحرمة الغناء أو السفور أو ممارسة الفاحشة إذا كان الخليفة يعقد الليالي الحمراء لإقامتها؟

(١) كنز العمال: ١١ / ٤٠٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦ / ٣٤٠.

ونحن - الحوزة العلمية وكل مؤمن رسالي - حملة رسالة إصلاحية كيف نستطيع أن نردع الناس عن الغيبة، وإهانة المؤمن إذا كنا نلوكها بالسنتنا؟! وكيف نمنعهم من مشاهدة الأفلام والمسلسلات إذا كان هذا الجهاز اللعين في بيوتنا؟! وكيف نأمرهم بالصلاة في أوقاتها إذا كنا ننام عن صلاة الصبح؟ وكيف نحثهم على صلاة الليل ونحن لا نؤديها؟ أو نحثهم على إفشاء السلام ونحن لا نرد التحية بمثلها؟ فضلاً عما هو أحسن منها، وكيف نقنعهم بترك التدخين ونحن نزاوله ونصرف الأموال في سبيله بدلاً من أن ننفقها في قضاء حوائج المؤمنين وما أكثرهم اليوم.

هذا الترابط الوثيق بين الرسالة وسلوك حاملها عبّر عنه أمير المؤمنين (عليه السلام):
 ما أمرتكم بطاعة إلا كنت أول من يؤديها، ولا نهيتكم عن معصية إلا كنت أول من يجتنبها^(١)، ولذا قالوا: إن الواعظ إذا لم يكن متعظاً لم يؤثر في القلوب ولم يهذب في النفوس.

لا قيمة للعلم إذا لم يقترن بالعمل:

ومن هنا أكدت أحاديث المعصومين (عليهم السلام) على ضرورة اقتران العلم بالعمل، وأنه لا قيمة للعلم إذا لم يقترن بالعمل، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ١٧) قال: (يعني بالعلماء من صدق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم)^(٢)، وعن سليم

(١) تفسير كنز الدقائق: ٢ / ١٩٤.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ١ / ٣٦ / ح ٢.

بن قيس الهلالي قال: (سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام) يحدث عن النبي (ﷺ) أنه قال في كلام له: العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة^(١)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا أرتحل عنه)^(٢)، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أيها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلكم تهتدون، إن العالم العامل بغيره كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق عن جهله، بل قد رأيت أن الحجة عليه أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه منها على هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما حاير باير)^(٣)، وعن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿فَكُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمُنَاقَاةُ وَمِنْهَا لَعْنَةٌ يُكَلِّفُهَا اللَّهُ مَا كَانَ خَالِفاً يَظُنُّ إِذْ يَخِيصُّ يَوْمَ تَمْطُرُ الْأَمْطَارُ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَى الْأَرْضِ وَالْأَرْضُ فَاسَّةٌ فَلْيَمْشِكُوا بِهَا صَافِرِينَ﴾ (الشعراء: ٦٤) قال (عليه السلام): (هم قوم وصفوا عدلاً بالسنتهم ثم خالفوه إلى غيره)^(٤).

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ١ / ٤٤ / ح ١.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ١ / ٤٤ / ح ٢.

(٣) الكافي - الشيخ الكليني: ١ / ٤٥ / ح ٦.

(٤) الكافي - الشيخ الكليني: ١ / ٤٧، ح ٤.

نتائج الترابط بين الرسالة والرسول:

هذه الوشيجة بين النظرية والتطبيق أو قل بين الرسالة وسلوك حاملها نخرج

منها بعدة نتائج:

١ - إن الشريعة كلما كانت أكمل فحاملها يكون أكمل، ولما كانت شريعة الإسلام أكمل الشرائع الإلهية فيكون رسول الله (ﷺ) أكمل الخلق

وأشرفهم.

٢ - إن شريعة الإسلام خالدة ودائمة، فيكون وجود المعصوم (عليه السلام) دائماً

ومستمراً، وهو ما نعتقد به ودلت عليه الأحاديث الشريفة التي مضمونها: (لا

تخلو الأرض من حجة قائم مشهور أو خفي مستور)^(١)، وما جاء في حديث

الثقلين: (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً:

كتاب الله، وعترتي أهل بيتي)^(٢).

٣ - إن الاعتداء على حامل الرسالة وممثليها من أنبياء أو أئمة (عليهم السلام) إنما هو

اعتداء على الشريعة نفسها، وبالعكس فإن أي اعتداء على الشريعة بتحريفها

أو تميمها أو مخالفتها إنما هو اعتداء على حامل الرسالة نفسه، لذا ورد في

تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ (البقرة: ٦١) أي بتحريف تعاليمهم

ومخالفتها وتشويهها، فليعلم هؤلاء الذين يعصون الله تبارك وتعالى بترك

الصلاة أو الخمس أو السفور أو التبرج أو ترك فريضة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر أو يشيعون الفاحشة في المجتمع المسلم بنشر الصور

(١) الأمالي - الشيخ الصدوق: ٢٥٣.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت): ٢٧ / ٣٣ / ح ٩.

الخلاعية وفتح محلات الفسق والفجور إنما يقتلون بها رسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين والأئمة الطاهرين (عليهم السلام).

٤ - إن الإسلام إنما يتقدم وينتشر وتحصل القناعة به بتقدم أبنائه - خصوصاً العلماء والحوزة الشريفة والمؤمنين الرساليين - وتكاملهم وحسن تجسيدهم له، فحينما يقول الحديث: (العلماء أمناء الرسل، وحصون الإسلام)^(١)، إنما يشير إلى هذه المسؤولية المزدوجة (أعني المسؤولية النظرية أو قلة العلمية، ببيان محاسن الإسلام وعظمة تشريعاته وتكاملها وقدرتها على قيادة البشرية نحو السعادة والصلاح، والمسؤولية العملية بتمثيل الإسلام في سلوكهم وتفصيل حياتهم) فهاتان مسؤوليتان لا تنفكان عن بعضهما.

وقد وعدت الأحاديث الشريفة بأن الله تعالى يقيض لهذا الدين في كل زمان من يمثله هذا التمثيل، ليكون حصناً حقيقياً للإسلام، قال (عليه السلام): (فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)^(٢)، فكونوا من هذا الخلف، فإنها فرصة متاحة لأي أحد يعمل بجهد واجتهاد لتأهيل نفسه لهذا الموقع، والله تعالى لا يبخل بإعطاء المستحق حقه وهو القائل: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥).

(١) ميزان الحكمة - الريشهري: ٣ / ٢١٠١.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ١ / ٣٢ / ح ٢.

أهمية الأسوة الحسنة:

لأجل هذه النقاط ركز القرآن الكريم على أهمية الأسوة الحسنة في تربية البشر وهدايتهم وإصلاحهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) فقد يؤثر الأسوة الحسنة في حياة الناس أكثر مما تؤثر فيهم كتب كثيرة، وأكدته الأحاديث الشريفة كما في قوله (عليه السلام): (كونوا لنا دعاة صامتين... كونوا لنا دعاة بأفعالكم لا بأقوالكم)^(١).

خطورة القدوة السيئة:

وبمقدار ذلك تكون خطورة القدوة السيئة^(٢) والعياذ بالله، لذا ورد التهديد الكبير للعلماء إذا نكبوا عن الصواب وفاقوا الطريقة المثلى، لأن هذا يؤدي إلى إغراض الناس عن الشريعة، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم، فإن كل محب لشيء يحوط ما أحب، وقال: أوحى الله إلى داود (عليه السلام): لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريرين، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم)^(٣)، وعن حفص بن غياث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (يا حفص، يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد)^(٤)، وعنه

(١) مستدرک الوسائل: ١/ ١١٦.

(٢) كالمطرب والممثل والرياضي.

(٣) الكافي - الشيخ الكليني: ١/ ٤٦/ ح ٤.

(٤) الكافي - الشيخ الكليني: ١/ ٤٧/ ح ١.

إنه قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): قال عيسى بن مريم (عليه السلام): (ويل لعلماء السوء كيف تلظى عليهم النار)^(١)، وقد اشتهرت كلمة بعضهم: (إذا فسد العالم فسد العالم).

أثر الاسوة الحسنة في الحياة:

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى عرض صورة الأسوة الحسنة في حياتنا، فنحن مسؤولون أكثر من أي وقت مضى عن دراسة حياة رسول الله (ﷺ) وسيرته دراسة تحليلية، لكي نتمثلها في حياتنا وتكون نبزاً لنا، ليس فقط في حياته الشخصية الخاصة لكونه أكمل المخلوقات وأشرفها وأحقها بالاقتراء في حياته العامة، بل لكونه أعظم مصلح اجتماعي عرفته البشرية، ولكونه مؤسس خير أمة أخرجت للناس من العدم، ولكون قيادته المباركة وفرت للبشرية أسعد عصر من عصورها، هذه الأبعاد المتعددة في شخصيته جعلته أولى الناس بالتأسي والاقتراء لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وأراد السعادة لنفسه ولأمته.

وقد ذكرت في بعض المناسبات وجهاً لمعنى الكلمة العامية: (إن سفرة الحسين واسعة)، ويمكن أن يراد بها عدة معانٍ بحسب ما أراد بها قائلوها، لكنني أفهم لها معنى واقعياً غير ما ذكره، وهو أن حياة الحسين (عليه السلام) سفرٌ مبارك يتسع كل ما يريده الطامحون إلى الكمال التواقون إلى السعادة الفارون من الحضيض، وجدُّه أولى بهذه السعة منه (عليه السلام)، فلنأخذ من هذا السفر المبارك ما يعيننا على مسؤولياتنا التي قلنا إنها أضخم من أي يوم مضى من أكثر من جهة:

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ١/٤٧/ح ٢.

مسؤوليتنا اليوم أضخم من الماضي:

١- إننا نواجه جاهلية عاتية تضرب بإطنابها أرجاء الأرض في أفكارها واعتقاداتها وفي سلوكياتها وأهوائها ونزعاتها^(١)، بل إن جاهلية اليوم جمعت كل مساوئ جاهليات الأمس القريب والبعيد، وقد عقدت فصلاً طويلاً في كتاب (شكوى القرآن) لبيان مفهوم الجاهلية بحسب ما يستفاد من القرآن، وذكرت خمس عشرة نقطة التقاء بين الجاهليتين^(٢) وخرجنا بنتيجة أن الجاهلية ليست فترة زمنية ومرحلة تاريخية انتهت بظهور الإسلام، وإنما هي نمط من أنماط الحياة تتردى إليه البشرية وتسقط فيه كلما ابتعدت عن شريعة الله تبارك وتعالى.

فما أحوجنا إلى أن نستلهم من سيرته كيفية مواجهة هذه الجاهلية بحيث استطاع أن ينقلهم في مدة ضئيلة من عمر الزمن هي ثلاثة وعشرون عاماً، من حضیض الجاهلية إلى قمة الإسلام السامقة^(٣)، وقد ذكرت في نفس الكتاب عدة دروس مستفادة من هذه التجربة^(٤).

(١) من فاسقات نصبن فخاخ الفتنة والإغراء، إلى بورصات اقتصادية يسيل لها اللعاب، إلى فنانيين لا عمل لهم إلا تدمير الأخلاق والقيم الاجتماعية، إلى قوانين وضعية تبيح اللواط وتجيز الزواج بين الذكور، إلى الزنا الذي يفوح برائحته الكريهة وأمراضه الفتاكة كالإيدز.

(٢) تجدها في بحث (شكوى القرآن)، الملحق بقبس الآية: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠) في من نور القرآن: ٢٨٤/٣.

(٣) فحاشا لله تعالى أن يترك جاهلية اليوم سدى ولا يبعث لها مصلحاً معصوماً هو الحجة ابن الحسن المهدي أرواحنا لمقدمه الفداء.

(٤) تجدها في كتاب (شكوى القرآن): وقد تقدم.

٢ - إننا نقرب بسرعة من يوم الظهور المبارك لبقية الله الأعظم ﷺ، ومن شروطه وصول البشرية إلى قناعة كاملة بالإسلام، وقد قلنا قبل قليل: إن القناعة بالإسلام كنظام ورؤية للحياة لا تنفك عن القناعة بسلوك حامله ومعتقيه، فكلما كان التطبيق أكثر صدقاً كان أسرع في حصول هذه القناعة، وقد وردت التطمينات بأن الإسلام لا يحتاج إلى جهد كبير من أبنائه لتحصل قناعة الآخرين به، لأنه يغلب العقول ويفتح القلوب بلا عناء كثير، بخلاف المبادئ الأرضية التي لا تستطيع أن تُحصّل هذه النتيجة بكل أساليب الإغراء أو البطش والتهديد، وقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام): (إن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)^(١)، و(كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً)^(٢).

والتاريخ شاهد على ذلك، فإن المغول - وهم أكثر الشعوب وحشية - ما لبثوا أن دخلوا الإسلام بعد أن اكتسحوا بلاده قتلاً ونهباً وتدميراً، وها هو ذا الغرب ينتابه القلق من إقبال أبنائه على الإسلام، فتقول إحصائية في بريطانيا: (إن عشرين ألف امرأة بريطانية اعتنقت الإسلام إحداهن أستاذة جامعية أعلنت إسلامها في كلمة ألقته في تجمع في حدائق هايد بارك الشهيرة في قلب لندن)، وسوف ترى عن قريب كيف أن الإسلام يفتح قلوب أعدائه إلا من ضرب عليها إبليس بالأغلال كالصهاينة.

ألسنا ندعو الله تبارك وتعالى أن ينتصر بنا لدينه وأن يجعلنا من أنصار وليه الأعظم؟ بل نقرأ في دعاء الافتتاح أن نكون من الدعاة إلى طاعته تبارك وتعالى

(١) بحار الأنوار: ٣٠ / ٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٦١ / ٦٥.

والقادة إلى سبيله في دولته الكريمة؟ فما هي الخطوة الأولى والمهمة التي رسمها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) وشرحها أمير المؤمنين نفس رسول الله (ﷺ) بقوله (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد)^(١).

الحرب التي يعيشها الإسلام اليوم:

٣- إننا نعيش حرباً شعواء على الإسلام بأشكال مختلفة، أحدها الحرب العسكرية التي يسمونها الحرب ضد الإرهاب، وقد اتحدوا جميعاً وتناسوا خلافاتهم وكل عداوات الأُمس ليكونوا يداً واحدةً في هذه الحرب، وقد أعلنت الأخبار اليوم (٢٠٠٢/٥/٢٨م) - وأنا أكتب هذه السطور - أنهم وضعوا المسمار الأخير في نعش الحرب الباردة بالاشتراك في اتخاذ القرار بين روسيا وحلف شمال الأطلسي.

وهذا الشكل من الحرب واضح وملتفت إليه، لكن الأخطر منه هو الحرب الخفية بتشويه صورة الإسلام وتمييع أحكامه وإفراغه من مضامينه والاكتفاء بالشكليات، فسوقوا لنا أنه لا مانع من أن تتحجب المرأة ولكن على الطريقة الأمريكية أو الفرنسية، ولا بأس بأن يلتزم الشاب بالصلاة والصوم مادام غريباً في أفكاره وولائه ومظهره، وأن يكون اهتمام الناس منصباً على الازدياد من المظاهر الدنيوية فلا يستقر في دار حتى يطمح إلى أحسن منها، وسرعان ما يبدل سيارته إلى أحدث موديل أو أثاثه، أو يتفاخر بكثرة أمواله، هذا غير ضياعه في المتع المتنوعة من

(١) نهج البلاغة: ٣ / ٧٠.

رياضة وفن، فلا يلبث أن يمل من متعة حتى يأتوه بغيرها، ليبقى في هذه الدوامة والدائرة المفرغة، ولا يلتفت إلى أهدافه الحقيقية رغم أن القرآن صريح وواضح: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

أهم أسباب ضياع الأمة:

ومحل الشاهد إننا لو درسنا أسباب هذا الضياع لوجدنا أن أهمها غياب القدوة الحسنة التي تبهر العقول وتدخل القلوب وتقنعهم بالاتباع والتأسي وتلغي كل ما سواها، وقد دأب الإنسان على المتابعة والمشاكله للشخصيات التي ينهر بها حتى في الأشياء التي لا علاقة لها بسبب انبهاره، فمثلاً هو يعجب به كبطل أفلام أو رياضي إلا أنه يقلده في ملبسه وحرركاته ومظهره، بل حتى أفكاره ومعتقداته أحياناً، فإذا غابت عن حياته الأسوة والقدوة الحسنة، فإنه سينجذب إلى الأسوة السيئة من رياضي أو فنان أو بطل فلم وهمي ونحوه.

علينا ألا نتبوا موقعا إلا بجدارة:

لذا تجد من أهم العوامل التي جذبت الناس إلى الإسلام الانبهار والذوبان في شخصية رسول الله ﷺ، التي ظلت مؤثرة في نفوس أصحابه حتى بعد وفاته بل إلى اليوم، فإن الكثير ممن اعتنقوا الإسلام إنما اعتنقوه إعجاباً بسيرة رجاله،

كرسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء والحسن والحسين (عليهم السلام).

وهذا - أي تأثير شخصية النبي (ﷺ) في نفوس أصحابه - مما شهد به الأعداء وجعل الرعب يملكهم ويملأهم الشعور بالإحباط واليأس من المواجهة، وعندما خرج وفد من قريش لاستطلاع أخبار النبي (ﷺ) وأصحابه فوجدهم محذقين به يتبركون بتراب أقدامه، ولا يدعون ماء وضوئه يسقط إلى الأرض بل يتقاسمون قطراته^(١).

وقد اقتضت المشيئة الإلهية أن لا يتبوأ النبي (ﷺ) هذا المقام الرفيع إلا بعد أن ملك القلوب وخطف الألباب بأخلاقه وحسن سيرته، حتى سمّوه في الجاهلية بـ(الصادق الأمين)، وما وجدوا له خطله في قول ولا زلة في فعل، وألقى عليهم الحجة بذلك حين أعلن دعوته قائلاً: (لو قلت لكم أن وراء هذه الأكمة جيش جاءوا للإغارة عليكم أتصدقونني؟ قالوا بأجمعهم: نعم، لأنك الصادق الأمين، قال: فإني رسول الله إليكم ونذير لكم من بين يدي عذاب أليم، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا)^(٢).

وهذا درس يمكن أن نستفيده من سيرة رسول الله (ﷺ) غير ما ستأتي الإشارة إليه أن لا نتبوأ موقِعاً اجتماعياً إلا حينما نكون أهلاً له، بحيث تتوفر القناعة الكاملة لدى الأمة باستحقاق هذا الموقِع.

(١) أنظر: مسند أحمد: ٤/ ٣٢٤، - السنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ٢١٩، - بحار الأنوار: ١٧/ ٣٢-٣٣.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٩.

وحياته ﷺ حافلة بالكثير مما يتأسى به، وكيف لا يكون كذلك وهو صنو القرآن الذي هو ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩) و﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) وهو كذلك، والقرآن شفاء وهدى ورحمة ونور وبيان وذكر ومبارك وحكيم وهو كذلك، وقد أشبعنا البحث عن هذه الملازمة في كتاب (شكوى القرآن).

ما هي الأمور التي يمكن أن نتأسى بها؟

ولكي نختصر الوقت ونخفف عنكم المؤونة نلفت أنظاركم إلى بعض ما يمكن أن نتأسى به من حياته ﷺ ويعيننا على أداء مسؤولياتنا، وسنجعله على شكل نقاط، وهي عبارة عن سلسلة محاضرات بعنوان (الأسوة الحسنة في بناء الذات وإصلاح المجتمع)^(١) لكنني أختصرها لكم بذكر عناوينها وقد ذكرت بعضها في مناسبات متعددة، لكن تذكرها ضروري، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ومنها:

١ - المعرفة بالله تعالى والإخلاص له، فما من كلمة يقولها أو فعل يفعله أو ترك يتركه إلا الله تبارك وتعالى، ولو خير بين أمرين لأختار أرضاهما لله، وكان على ذكر دائم لله دل عليه ما روي من مكارم أخلاقه، حيث تجد له في كل حال ذكراً، ف للأكل دعاء، وللنوم دعاء، وللتخلي دعاء، وللوضوء دعاء، وللسفر دعاء، فكانت حياته كلها عبادة وفناء تام في الله سبحانه، وإذا اقتضت طبيعته البشرية وبدنه المادي أن يعطيه حقه من النوم والأكل ونحوهما مما يراه غفلة عن الله تبارك

(١) طبعت لاحقاً في كتاب بعنوان (الأسوة الحسنة للقادة والمصلحين).

وتعالى وتقصيراً في وظائف العبودية، فكان يستغفر الله سبحانه من ذلك حتى نزل الوعد من قبل المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ١-٢) وإن كان الاعتقاد أنهم (عليه السلام) إذا ناموا نامت أعينهم فقط، أما قلوبهم فهي واعية متصلة ببارئها، كما هو المنقول عنهم (عليه السلام)^(١).

وقد ربي أصحابه المخلصين على هذه العبودية الكاملة، فيوصي أبا ذر (رضي الله عنه): (يا أبا ذر، اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٢)، ويقول له ما معناه: يا أبا ذر إنك تستطيع أن تجعل كل حياتك طاعة لله تبارك وتعالى حتى أكثر الأمور ارتباطاً بشهوات النفس كإتيانك امرأتك، فقال أبو ذر (رضي الله عنه): وكيف يا رسول الله؟ - فبينها له: - أليس في هذا العمل إدخال السرور على أهلك وتحصين نفسك وزوجتك من الحرام وزيادة عدد النسمة الموحدة لله، وكل تلك النيات وغيرها طاعات وقربات إلى الله تعالى)^(٣).

ولمعرفته بحقيقة العبودية لله سبحانه كان كثير العبادة لا يفتر عنها^(٤)، وقد قال: (قرة عيني الصلاة)^(١) لأنها معراجة وقربانه واتصاله بالحبيب، يصلي حتى تتورم

(١) أنظر: ميزان الحكمة - الريشهري: ٤ / ٣٠٢٠.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٧٤ / ٧٤.

(٣) شعب الإيمان - البيهقي: ٧ / ٥١٤.

(٤) واعلم أن باب الله تعالى مفتوح للجميع حيث لا يخل في ساحة تعالى ولكن الأمر يحتاج شيئاً من الالتفات والهمة والمواظبة على العبادة وخصوصاً قراءة القرآن وأدعية المعصومين (عليه السلام) فإنها تؤثر تأثيراً نورانياً في النفس وإن لم تقرأ بخشوع.

قدماه فيقف على واحدة ويرفع الأخرى لتستريح قليلاً فأشفق الله عليه بقوله:
﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٦﴾-﴿٧﴾ (طه: ٦-٧).

الإعراض عن الدنيا المحللة:

٢ - الإعراض عن الدنيا وعدم الاغترار بها، وطبعاً نقصد بالدنيا المحللة منها لا المحرمة، لأن اجتناب المحرمات من أول شروط العصمة المتحققة فيه والاهتمام بالأعمال الصالحة، فقد أوصى (ﷺ) قيس بن عاصم المنقري: (يا قيس، إن مع العز ذلاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكل شيء حسيباً وعلى كل شيء رقيباً، وإن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، وإن لكل أجل كتاباً، وإنه يا قيس لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لثيماً أسلمك، لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه، ولا تبعث إلا معه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإنه إن كان صالحاً لم تأنس إلا به، وإن كان فاحشاً لا تستوحش إلا عنه، وهو عمك) (٢).

نزل جبرائيل الأمين (عليه السلام) على رسول الله (ﷺ) يوماً وقال له: (إنّ العلي الأعلى يُقرؤك السلام ويخصك بالتحية والإكرام وهو يقول لك أن لو شئت صيرت لك تهامة ذهباً وفضةً وأنت على ما أنت عليه من المقام الرفيع عند الله تبارك وتعالى، فقال رسول الله ﷺ: حبيبي جبرائيل ثم ماذا؟ قال: الموت، قال: إذن دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، أما اليوم الذي أجوع فيه فأسأل ربي وأصبر، وأما اليوم الذي

(١) الخصال - الشيخ الصدوق: ١٦٥/ح ٢١٨.

(٢) الخصال: ١١٤.

أشبع فيه فأشكر ربي^(١)، فما الذي يضرنا لو قللنا إقبالنا على الدنيا واكتفينا منها بالضروري لنكون من المخفين الذين يقال لهم جوزوا، لا المثقلين الذين يقال لهم حطوا.

الثبات على الحق:

٣ - قوة الإرادة والثبات على الحق، فلا يحدد عنه مهما كانت المغريات أو الضغوط، وهو القائل لعمه أبي طالب (عليه السلام) لما جاءته قريش وعرضت عليه عروضاً مقابل تخليه عن الدعوة إلى الله، إن شاء ملكاً ملكناه أو مالاً جمعنا له أو امرأة زوجناه أجمل نساءنا، قال: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أموت دونه)^(٢).

ويقول عليه السلام عن إيمان المؤمن بأنه (أقوى من الجبل. قيل: وكيف يا رسول الله؟ قال: لأن الجبل يُستقل منه بالمعاول ولا يُستقل من إيمان المؤمن شيء)^(٣)، لم يشنه الأذى الجسدي ولا المعنوي عن مواصلة رسالته، فقد وصفوه بأسوء الصفات: ساحر، كذاب، مجنون، واتهموه بأشنع التهم حتى لم يسلم من الطعن في شرفه كما في حديث الإفك الذي تقصه سورة النور.

٤ - الاهتمام بأمور المسلمين وهو عليه السلام القائل: (من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع منادياً ينادي بالمسلمين فلم يجبه فليس

(١) بحار الأنوار: ٤٢ / ٢٧٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٦٧ / ٢ - السيرة النبوية - ابن كثير: ٤٧٤ / ١.

(٣) الكافي - الشيخ الكليني: ٥ / ٦٣ / ح ١.

بمسلم^(١)، أين نحن من هذا الشعور بالمسؤولية وتذويب الأنانية لمصلحة الأمة، وهل يسوغ لنا أن نهتم بأنفسنا ونعتني بمصالحنا الخاصة ونترك حبل المجتمع على غاربه ولا تتحرك مشاعرنا لما يُعانيه فنعمل على مساعدته بما نستطيع، حتى إنه كان يسعى بمشاريع الزواج والتوسط والشفاعة لانجاز هذا الامر، فبيعت جووير إلى الدلفاء أشرف نساء قومها بني بياضه من الأنصار لتزوجه بوساطته .

٥ - الاهتمام بالقرآن الكريم شغفاً به. لأنه رسالة الحبيب وهل تُمل رسالة الحبيب؟ وامثالاً لأمره تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ (المزمل: ١-٥).

وكان يطلب من ابن مسعود أن يتلو القرآن عليه، فيقول ابن مسعود: اقرأه عليك، وقد نزل عليك، فيقول: (أحب أن أسمعك منك)، يريد أن يمتع جميع جوارحه بكلام الله تعالى، فيقرأ ابن مسعود وعين رسول الله (ﷺ) تفيض من الدمع^(٢).

وكان لا ينام حتى يقرأ سور المسبّحات، أي التي تبدأ بكلمات التسبيح، ويوصي بتلاوة القرآن وتدبر معانيه والعمل به، ويبين الثواب العظيم لذلك، وقد بينا بعضاً منه في كتاب (شكوى القرآن).

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ٣٣٧/١٦ / ح ٣.

(٢) أنظر: صحيح مسلم: ١٩٦/٢.

وإنك لتشعر أنّ أي مصلح اجتماعي أو قائد عظيم لا يكون ناجحاً إلا إذا عاش في ظل القرآن وتربى في أحضانه وتفاعل مع آياته.

٦ - التواضع^(١) بحيث كان الأعرابي يدخل إلى المسجد فيقول: أيكم محمد؟^(٢) لأنه لم يتميز عن أصحابه بمجلس أو ملبس أو أي شيء آخر، يواسي في حياته أدناهم، وهو يفعل ذلك أدباً مع الله تعالى واستشعاراً للحقارة في حضرة الربوبية.

٧ - عدم الاستماع إلى النميمة ونقل الكلام السيئ عن أصحابه خصوصاً من المتزلفين وضعيفي النفوس، فكان إذا أراد أحد أصحابه أن ينقل كلاماً سيئاً عن أحد منعه، وقال له: (أحبُّ أن أمضي عنكم وأنا سليم الصدر)^(٣).

٨ - عدم اتخاذ بطانة وحاشية غير مخلصه لله تعالى، أو تفكر في الانتفاع من مواقعها وجني مكاسب شخصية ولو على حساب الدين والأمة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران: ١١٨).

(١) روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في كتاب غرر الحكم هذه الروايات:

١ - لو رخص الله سبحانه في الكبر لأحد من الخلق لرخص فيه لأنبيائه لكنه كره إليهم التكبر ورضي لهم التواضع.

٢ - ثلاث يوجبن المحبة حسن الخلق حسن الرفق و لتواضع.

٣ - أشرف الخلائق التواضع الحلم ولين الجانب.

(٢) سنن أبي داود: ١ / ٢٦١ / ح ٤٨٦.

(٣) بحار الأنوار: ١٦ / ٢٣١، عن مكارم الأخلاق: ١٧.

٩ - الالتزام بالأخلاق الفاضلة، وقد امتدحه الله تبارك وتعالى عليها قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٥)، وفي وصيته لأمر المؤمنين (عليه السلام): (عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، عليك بمساوئ الأخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلو من إلا نفسك)^(١)، وقد جعلها محور رسالته قائلاً: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٢)، وهذه النقطة وحدها تستوعب مجلدات من الكلام والمصادر حافلة بالشواهد التفصيلية^(٣).

١٠ - التركيز على أداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير الشديد من التقاعس عن أدائها، فقد قال: (كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فليل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فليل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)^(٤) وهذه المراحل الثلاث كلها وصلتها الأمة كما هو واضح، وعنه: (إن الله عز وجل لي بغض المؤمن الضعيف الذي لا

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٨ / ٧٩ / ح ٣٣.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٦٨ / ٣٨٢.

(٣) جاء في كتاب أخلاق أهل البيت (عليهم السلام) تعريف حسن الخلق: هو حالة نفسية تبعث على حسن معاشرته الناس ومعاملتهم بالبشاشة وطيب القول، وكما عرفه الإمام الصادق (عليه السلام) حينما سئل عن حده فقال: (تلين جناحك وتطيب كلامك وتلقى أخاك ببشر حسن). وقال (عليه السلام): (إن شئت أن تُكرم فلن وإن شئت أن تُهان فأحسن) تحف العقول. وقال (عليه السلام): (إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم). من لا يحضره الفقيه.

(٤) الكافي: ٥ / ٥٩.

دين له، فقيل: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له، قال: الذي لا ينهي عن المنكر^(١)، وكان ﷺ يقول: (إذا أمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من الله)^(٢)، فاحذروا أيها الأخوة من التواكل والتخاذل والتقايس عن أداء هذه الوظيفة الإلهية العظيمة.

١١ - الاهتمام بنشر العلم والمعرفة في جميع الحقول، وكان يوصي أمته قائلاً: (اطلبوا العلم ولو في الصين)^(٣) باعتبارها أبعد نقطة مقصودة يومئذ، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: ((سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم من مظانه واقتبسوه من أهله، فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة فيه تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله تعالى لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والترزين عند الأجلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، تُقتبس آثارهم ويُهدى بأفعالهم، وينتهي إلى رأيهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم...)^(٤) إلى آخر الحديث، وفي معركة بدر جعل مما يفدي الأسير نفسه أن يعلم عشرة

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٥ / ٥٩ / ح ١٤.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ٥ / ٥٩ / ح ١٣.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت): ٢٧ / ٢٧ / ح ٢٠.

(٤) الأمالي - الشيخ الطوسي: ٣٨ / ٤٨٧.

من المسلمين. فأين أدعياء الحضارة اليوم من هذا التفكير الواعي في ذلك الزمان البعيد؟

١٢ - احتضان الشباب ورعايتهم فقد أوصى : (أوصيكم بالشباب خيراً فأنهم أرق أفئدة)^(١)، لأنّ قلوبهم ما زالت نقية وقريبة العهد بالفطرة، ولم تتكدر بالذنوب فتحرم من نور المعرفة، فلا عجب أن يكون أسبق الناس إلى اتباعه هم الشباب، وفي رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) يسأل أحد أصحابه: كيف حال دعوتكم في الكوفة؟ فأخبره بأنها تواجه صعوبات كثيرة وقلة استجابة، فقال (عليه السلام) ما معناه: (عليكم بالأحداث، فإن قلب الحدث كالأرض الطيبة)^(٢)، وقد بسطت الكلام نسبياً عن ذلك في محاضرات (الحوزة ومشاكل الشباب).

١٣ - محاربة العادات الاجتماعية السيئة والقضاء عليها، فمثلاً كانت قريش لا تزوج نساءها لغيرها، فزوج ضباعة بنت عمه الزبير بن عبد المطلب وهي من أشرف بيوتات قريش إلى المقداد بن الأسود، وزوج زينب ابنة عمته من متبناه زيد بن حارثة، ثم تزوجها بعده، وقد كان العرب لا يتزوجون زوجات متبنيهم، ويوصي بالبنات ويقول: إنهن حسنات، ويبين عظمة ابنته الزهراء وشرفها في قوم

(١) جواهر الحكمة - الريشهري: ٢٠.

(٢) تحف العقول - ابن شعبة الحراني: ٧٠.

كانوا يثدون البنات ويعتبرونهن عاراً، بل إن الله سمى ابنته الكوثر وجعل نسله منها، والأبتر هو من غيره بعدم الولد^(١).

١٤ - الحث على الحضور في المساجد وصلاة الجماعة والشعائر الدينية، فعن الصادق (عليه السلام) قال: (اشترط رسول الله (ﷺ) على جيران المسجد شهود الصلاة)^(٢)، وقال: (لينتهين أقوام لا يشهدون الصلاة أو لآمرن مؤذناً يؤذن ثم يقيم ثم أمر رجلاً من أهل بيتي وهو علي (عليه السلام) فليحرقن على أقوام يبوتهن بحزم الحطب، لأنهم لا يأتون الصلاة)^(٣).

ويحذر الأمة من أن يشكوهم المسجد والقرآن والعترة يوم القيامة، فعن جابر قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (يجيء يوم القيامة ثلاث يشكون لله عز وجل: المصحف، والمسجد، والعترة، يقول المصحف: يا رب حرفوني ومزقوني، ويقول المسجد: يا رب عطلوني وضيعوني، وتقول العترة: يا رب قتلونا وطرردونا وشرردونا، فاجثوا للر كبتين للخصومة، فيقول الله جل جلاله لي: أنا أولى بذلك)^(٤).

وقد حررنا شكويين^(٥) منها بعنوان (شكوى المسجد) و(شكوى القرآن)، ويصل الاهتمام إلى درجة أن رجلاً أعمى يأتيه فيقول له: أنا ضيرير البصر وربما أسمع

(١) للوقوف على مصادر هذه الاحداث أنظر: الكافي - الشيخ الكليني: ٥ / ٣٤٤ / ح ٢١٠، - المستدرک على الصحيحين - الحاكم: ٤ / ٢٤، - تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني: ١٢ / ٤٢٠، - ميزان الحكمة الريشهري: ٤ / ٣٦٧٢، - تفسير القرطبي: ٢٠ / ٢٢٢.

(٢) ثواب الأعمال - الشيخ الصدوق: ٢٣٢.

(٣) الأمالي - الشيخ الصدوق: ٥٧٣.

(٤) الخصال - الشيخ الصدوق: ١٧٥.

(٥) ثم حررت الثالثة بعنوان: (شكوى الإمام (عليه السلام)).

النداء ولا أجد من يقودني إلى الجماعة والصلاة معك، فقال له النبي: (شُد من منزلك إلى المسجد حبلاً واحضر الجماعة)^(١).

١٥ - التشديد على الوحدة بين المسلمين وعدم إعطاء أية فرصة لإيقاع الفرقة بينهم، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ (آل عمران: ١٠٣) وفسر النبي (ﷺ) حبل الله الذي بالاعتصام به تحفظ وحدة المسلمين فقال: (واني تارك - مخلف - فيكم الثقلين: الثقل الأكبر القرآن والثقل الأصغر عترتي أهل بيتي، هما حبل الله ممدود بينكم وبين الله عز وجل ما إن تمسكتم به لم تضلوا، سبب منه بيد الله وسبب بأيديكم)^(٢).

مكيدة اليهود في تفريق المسلمين:

وذاث يوم عمل بعض اليهود على الوقعة بين الأوس والخزرج، وذكرهم بعداوتهم في الجاهلية ومن قتل من أشرفهم، حتى ثارت عصيتهم فتواعدوا القتال كما كانوا يفعلون في الجاهلية، فبلغ رسول الله (ﷺ) ذلك، فخرج مسرعاً يجر رداءه حتى وافى القوم قبل أن يقع السيف بينهم، فوعظهم وذكرهم، فتابوا وعادوا إلى رشدهم^(٣). فاحفظوا وحدتكم أيها الأحبة ولا تعطوا فرصة للأعداء ليوقعوا بينكم فلا يوجد شيء يستحق الاختلاف بيننا.

(١) تهذيب الأحكام - الشيخ الطوسي: ٣ / ٢٦٦ / ح ٧٣.

(٢) كتاب الغيبة - النعماني: ١ / ٤٨.

(٣) تفسير القرطبي: ٤ / ١٥٥.

١٦ - الإكثار من ذكر الموت^(١)، وكان يسميه هادم اللذات، ويقول: (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: وما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن)^(٢)، وكان يقول: (إنني ما أطبقت عيني إلا وظننت إنني لا أفتحهما، ولا أفتحهما إلا وظننت إنني لا أطبقهما)^(٣)، ولذكر الموت فوائد عديدة: العظة والاعتبار وتحقير الدنيا وعدم الإكتراث بها، ترقيق القلوب، استباق الخيرات، والإكثار من الأعمال الصالحة، وغيرها.

١٧ - الاهتمام بالمرأة من حيث تثقيفها وتعليمها وإعطاؤها حقوقها وهو بذلك يرد على الأفكار والمعتقدات الجاهلية التي تمتنها وتجعلها سلعة بيد الرجل يقضي

(١) إتماماً للفائدة نورد هذه الرواية من كتاب مصباح الشريعة ص ١٧١: قَالَ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (ذَكَرُ الْمَوْتِ يُمِيتُ الشَّهَوَاتِ فِي النَّفْسِ وَيَقْطَعُ مَنَابِتَ الْعَقْلِ وَيَقْوِي النَّفْسَ بِمَوَاعِدِ اللَّهِ وَيُرْقُّ الطَّبْعَ وَيَكْسِرُ أَعْلَامَ الْهَوَى وَيُطْفِئُ نَارَ الْحِرْصِ وَيُحَقِّرُ الدُّنْيَا وَهُوَ مَعْنَى مَا قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) فَاكْرُ سَاعَةَ خَيْرٍ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ وَذَلِكَ عِنْدَ مَا يَحُلُّ أَطْنَابَ خِيَامِ الدُّنْيَا وَيَشُدُّهَا فِي الْآخِرَةِ وَلَا تَسْكُنُ بِزَوَالِ الرَّحْمَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَوْتِ بِهِذِهِ الصِّفَةِ وَمَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِالْمَوْتِ وَقَلَّةِ حِيلَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ وَطُولِ مُقَامِهِ فِي الْقَبْرِ وَتَحْيِيرِهِ فِي الْقِيَامَةِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) اذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَاتِ قِيلَ وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ الْمَوْتُ فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَلَا فِي شِدَّةٍ إِلَّا اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَالْمَوْتُ أَوْلُ مَنْزِلٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَآخِرُ مَنْزِلٍ مِنَ مَنْزِلِ الدُّنْيَا فَطُوبَى لِمَنْ أَكْرَمَ عِنْدَ النَّزُولِ بِأَوْلِيهَا وَطُوبَى لِمَنْ أَحْسَنَ مُشَايَعَتَهُ فِي آخِرِهَا وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ بَنِي آدَمَ وَهُوَ يُعَدُّ أَبْعَدَ فَمَا أَجْرَأَ الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَا أضعَفَهُ مِنْ خَلْقٍ وَفِي الْمَوْتِ نَجَاةُ الْمُخْلِصِينَ وَهَلَاكُ الْمُجْرِمِينَ وَلِذَلِكَ اشْتَقَّ مَنْ اشْتَقَّ الْمَوْتَ وَكَرَهُ مَنْ كَرَهُ قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ كَرَهُ اللَّهُ لِقَاءَهُ).

(٢) عوالي اللثالي - ابن أبي جمهور: ٢٧٩ / ١.

(٣) جامع الأحاديث - السيوطي: ٦ / ٣٣ / ح ٤٦٤١.

بها حاجته ثم يرميها في سلة المهملات، فبين تعالى أن المرأة كالرجل في المسؤولية وتحمل التكليف في قوله تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

وربى ابنته الزهراء (عليها السلام) لتكون سيدة نساء العالمين، وكان يبين لها تفاصيل رسالته العظيمة كما كانت هي تلتقط أخبار أبيها أولاً بأول من خلال ولديها الحسين (عليه السلام)، وكان يستقبل النساء ويجيبهن عن أسئلتهن وقد صدرت منه كلمات ثناء وإطراء على عدد منهن كأمة سلمة وأم أيمن وأسماء بنت عميس وهند أخت عبد الله والد جابر الأنصاري وغيرهن، وبذلك أعطاهن دورهن الكامل في الحياة بشكل لم تُعْطِه لهن أي شريعة أو نظام، حتى المتشدقين بحقوق المرأة اليوم وهم يريدونها بذلك أن تكون وسيلة لإشباع شهواتهم وغرائزهم ويمتهنون بذلك كرامتها.

اللهم أحينا حياة محمد وآل محمد وأمتنا مماتهم، رب أدخلني في كل خير أدخلت فيه محمداً وآل محمد وأخرجني من كل سوء أخرجت منه محمد وآل محمد برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الآية السابعة:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ﴿يوسف: ١٢٨﴾

البصيرة بوصلة السلوك الإنساني

تبيّن الآية واحدة من وظائف الأنبياء والرسل والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومن تبعهم وحمل رسالتهم من العلماء العاملين الرساليين، وهي الدعوة الى الله تبارك وتعالى قولاً وفعلاً وعرض المشروع الإلهي على الناس واقناعهم به وهدايتهم.

وتبيّن الآية أيضاً واحدة من مميزات هؤلاء القادة وخصائصهم التي تميزهم عن غيرهم من الزعامات وتُعرّف الأمة كيف يفرزون قياداتهم الحقّة عن طلاب الدنيا ولو بأسم الدين.

وهذه الخصوصية هي الصراحة والشفافية مع الأمة ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ وامتلاك الرؤية الثاقبة والنظر الدقيق ووضوح الأهداف وآليات العمل لديه المعبر عنها في الآية بـ (البصيرة) وهي البوصلة التي ترسم المسار الصحيح للإنسان في كل حركاته وسكناته، وهذه البصيرة من الله تعالى والى الله تعالى، وما دام على بصيرة من ربه فلا تخبط في مسيرته ولا تناقض في أهدافه ولا تحركه الشهوات والانفعالات ولا تؤثر عليه هتافات الناس ولا تزويق المتزلفين ولا تخدعه المكائد والحيل وهذا لا يُدرك إلا بلطف الله تعالى.

معنى البصر والبصيرة:

والبصر والبصيرة أصلهما واحد وهي النظر والرؤية المدركة المنتجة للعلم

والمعرفة وليست كل رؤية ونظر قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٨) فهم كالحيوانات لها عيون تنظر بها لكنها لا تفيدها علماً ولا معرفة، عن النبي (ﷺ) قال: (ليس الاعمى من يعمى بصره، إنما الاعمى من تعمى بصيرته)^(١).

وكم من حالة او موقف ينظر اليه كثيرون لكن القليل ممن ينظر اليه بفكر واعتبار وتأمل ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩) وإن كانت مفتوحة وينظرون بها الى الأشياء، وإنما يستفيد مما حوله في الحياة من كان له بصرٌ وبصيرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣) وليس لكل من لديه عين ينظر بها، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (بالاستبصار يحصل الاعتبار)^(٢).

الفرق بين البصر والبصيرة:

والفرق بين البصر والبصيرة ان الأول بالعين والثانية بالقلب والعقل فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على حجة بينة واضحة من ربي ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

واضافة ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ اليه تشریف لهم بالحاق دعوتهم بدعوته المباركة، وأعلى مراتب البصيرة التامة ما عند المعصومين (عليهم السلام) لذا فأنهم القدر المتيقن من

(١) كنز العمال: ١٢٢٠.

(٢) غرر الحكم: ٤٣٥١.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ وفي أصول الكافي بسنده عن أبي جعفر (عليه السلام) في تفسير هذه الآية قال: (ذاك رسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين (عليه السلام) والاصبياء (عليه السلام) من بعدهما)^(١).

فهؤلاء القمم من أهل البصائر هم من يجب اتباعهم والأخذ عنهم ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥).

تفاوت مرات البصيرة:

ثم تتفاوت مراتب البصيرة عند اتباعهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في حمل الرسالة المباركة والدعوة الى الله تعالى بحسب درجة تقواهم وقربهم من الله تعالى وبحسب نقاوة فطرتهم وسلامة عقولهم وتفكيرهم وطهارة نفوسهم وقلوبهم ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤)، فهذه باختصار المقننات الذاتية أي من نفس الانسان لتحصيل البصيرة وتهيئة الانسان نفسه لها وهي (التقوى، طاعة الله تعالى، نقاء الفطرة، سلامة العقل والفكر، طهارة النفس والقلب).

وسائل تحصيل البصيرة:

وخير وسيلة لتحصيل البصيرة التدبر في القرآن الكريم ومعرفة آياته، وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بهذا، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: ١١٤)

(١) تفسير العياشي ج ٢ ص ٢٠١.

وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿بَصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٣)، وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (بالهدى يكثر الاستبصار)^(١).

ومن أهم وسائل تنوير البصيرة مراقبة النفس وإصلاح عيوبها وأخطائها، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أبصر الناس من أبصر عيوبه وأقلع عن ذنوبه)^(٢)، وعنه (عليه السلام) قال: (ألا وإن أبصر الأبصار ما نفذ في الخير في طرفه، ألا إن أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبلة)^(٣).

الاستفادة من المواعظ في تحصيل البصيرة:

ومن موجبات البصيرة الاستفادة من المواعظ والعبر وتذكر أيام الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٣).

لذا لا نستغرب ممن فقد هذه الأدوات لتحصيل البصيرة وتنويرها أن يضل بنفس القرآن الكريم الذي هو زاد المستبصرين، ويستعمل القرآن نفسه لإضلال الناس وصرفهم عن اهل البصيرة، روي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٤٤) بسنده عن عمر

(١) غرر الحكم: ٤٨١٦.

(٢) غرر الحكم: ٣٠٦١.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة / ١٠٥.

بن الخطاب قال: (كنا عند رسول الله ﷺ) مجتمعين وأنا أعرف الحزن في وجهه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قلت: يا رسول الله! إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا قال ربنا؟ قال: أتاني جبريل آنفاً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فمم ذلك يا جبريل؟ قال: إن أمتك مفتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، فقلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون ويتبع القراء أهواء الأمراء فيمدون في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل؟ فبم سلم من سلم منهم؟ قال: بالكف والصبر، إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعه تركوه^(١).

فقدان البصيرة عند أكثر الناس:

لقد عانى النبي ﷺ والأئمة (عليهم السلام) من فقدان البصيرة لدى أكثر الناس ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٣) وابتلي أمير المؤمنين (عليه السلام) بحرب أناس يحوطون بالجمل ويتبركون بخروجه ويشمونهم ويقولون ما أطيب ريح روث جمل أمنا أم المؤمنين، وابتلي (عليه السلام) بقتال أناس في صفين لا يفرقون بين الناقة والجمل ويصدقون كل شيء يقال لهم وإن علياً لا يصلي، ومثل هؤلاء الاقوام من فاقد البصيرة موجودون في كل زمان ومكان يُبتلى بهم القادة المصلحون ويكونون عقبة كؤود في طريقهم.

ولذا كان الأئمة (عليهم السلام) يشكون من ندرة أهل البصيرة في اتباعهم، ففي الحديث المعروف لأمير المؤمنين (عليه السلام) مع كميل (يا كميل بن زياد إن هذو القلوب أوعيةٌ فخيرها أوعاها) الى أن قال (عليه السلام) (إن ههنا لعلماءً جمًّا - وأشار إلى صدره - لم أصب له خزنة^(١) بلى أصيب لقنا غير مأمون، مستعملا آلة الدين في طلب الدنيا، يستظهر بحجج الله على أوليائه وبنعم الله على معاصيه أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، اللهم لا ذا ولا ذاك، أو منهوما باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرما بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين ولا من ذوي البصائر واليقين)^(٢).

البصيرة صفة المؤمنين:

إن أوضح ما يميّز الاتباع الحقيقيين للنبي وآله الكرام (عليهم السلام) أنهم على بصيرة من امرهم ومنهم أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) فمما خاطبه به الإمام الصادق (عليه السلام) في زيارة وارث المعروفة قوله: (وأنك مضيت على بصيرة من امرك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبيين)^(٣) وهكذا كان أصحاب ابي عبد الله (عليه السلام) المستشهدين بين يديه يشهد بذلك العدو قبل الصديق، فقد روى أصحاب التواريخ والمقاتل انه لما كثرت المبارزة بين أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) وجيش يزيد وكان النصر لأصحاب ابي عبد الله (عليه السلام)، صاح عمرو بن الحجاج الزبيدي (يا حمقى أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً

(١) من هنا يصنّف (عليه السلام) أنواع الناس الى أربعة أصناف غير جديرين بحمل علمه (عليه السلام).

(٢) نهج البلاغة (من كلامه (عليه السلام) لكميل بن زياد).

(٣) مفاتيح الجنان: ٥١١.

مستمتين لا يبرزن لهم منكم أحد، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم^(١). وهكذا إذا كنا صادقين في مولاتنا للإمام الحسين (عليه السلام) ونصرتنا له (ونصرتي لكم معدة)^(٢) (يا ليتنا كنا معكم)^(٣) وصادقين في انتظار امامنا المهدي الموعود (عليه السلام) والمشاركة في بناء دولته المباركة فعلينا أن نستزيد من البصيرة في علاقتنا مع ربنا، وهذا ما ورد في أدعية الغيبة وتعجيل الظهور، وفي احدها (وارزقنا مرافقة اوليائك ووليك الهادي المهدي الى الهدى وتحت لوائه وفي زمرته شهداء صادقين على بصيرة من دينك إنك على كل شيء قدير)^(٤).

فقدان البصيرة سمة المجتمع غير الإيمانى:

يستفاد من القرآن الكريم أن من سمات المجتمع البعيد عن التربية الإيمانى هو فقدان البصيرة والقدرة على تمييز الحق من الباطل، وانقلاب موازين النظر عنده في الأمور كلها.

ولنأخذ مثلاً على ذلك حيث نجد المجتمع الجاهلي البعيد عن النظرة الإلهية يعيش لذيابه ويراه غاية أمله فيصارع من أجل الاستزادة منها ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤). لكن المجتمع الربانى يعتقد بوجود الآخرة ويعمل لها لأنها الحياة الباقية،

(١) مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمى: ١٥ / ٢.

(٢) مفاتيح الجنان: ٥٤٤-٥٠١.

(٣) مفاتيح الجنان: ٥٤٤-٥٠١.

(٤) البحار: ٣٠٢ / ٩٨، عن اقبال الاعمال والبلد الأمين والتهذيب.

ويرى الحياة الدنيا مزرعة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

والمورد الآخر اغترارهم بما عندهم من قوة وإمكانات مادية هائلة فيظنون أنهم الرب الأعلى المدبر لأموال الناس ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ﴾ (الشعراء: ٤٤).

أما المنطق الرباني فيؤكد حقيقة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨) و ﴿إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: ٢٦٥) ويصف أولئك المغرورين بأنهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

التحذير من فقدان البصيرة:

وقد حذر رسول الله (ﷺ) أمته من الرجوع إلى هذه الحالة بعد أن أنقذهم الله تعالى بالإسلام، ووقعهم مرة ثانية في فتنة فقدان البصيرة وإنقلاب موازين النظر في الأمور واعتبرها (ﷺ) الحالة الأشد خطورة من وقوع المنكر والفساد نفسه، ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال النبي (ﷺ): كيف بكم إذا فسدت نساءكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقل له: ويكون ذلك يا رسول الله (ﷺ)؟ فقال: نعم وشرُّ من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقل له يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم

وشرُّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً^(١).

السيد زينب (عليها السلام) وتصحيح المفاهيم المقلوبة:

وقد وقعت الأمة في هذه الفتنة بعد رسول الله (ﷺ) وبلغت ذروتها في عهد يزيد بن معاوية، ولهذا كان من الأدوار المهمة التي أدتها ربيبة القرآن والنبوة والإمامة العقيلة زينب (عليها السلام) هي إعادة الأمة إلى وعيها وبصيرتها، وتصحيح موازين النظر عندها، ولناخذ مثلاً على ذلك جانباً من خطابها، فقد كان يزيد وابن زياد وأزلامهم يعتقدون أنهم هم المنتصرون فأخذتهم سكرة الغلبة ونشوتها كما وصفتهم العقيلة زينب (فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا)^(٢).

وتصبح مشكلة المفاهيم المقلوبة أخطر حينما تُستغل لخداع الناس وتُجعل دليلاً على شرعية حكم أولئك الطواغيت وسلطتهم، وهذا ما تبّهت إليه العقيلة زينب (صلوات الله عليها) (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء أن بنا على الله هوناً وبك عليه كرامة!! وأن ذلك لعظيم خطرك عنده، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨) ^(٣).

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب ١ ح ١٢.

(٢) الاحتجاج: ٢/ ١٢٣، والبحار: ٤٥/ ١٥٧.

(٣) الاحتجاج: ٢/ ١٢٣، والبحار: ٤٥/ ١٥٧.

السيدة زينب (عليها السلام) تبين من هو المنتصر الحقيقي:

فهي (سلام الله عليها) لم تكتفِ بالإدلاء بحقيقة أنّ هذا ملكنا وسلطاننا خاصة ونحن أحقّ بالأمر من هذا الظالم المدّعي، ولكن فضحت هذه الأساليب لخداع الناس وأيقظتهم بأنّ هؤلاء المتسلّطين ليسوا هم أصحاب الحق، ولا يزال إلى اليوم من يموّه على الناس ويكتسب شرعيته من كثرة الأتباع وشهرة العنوان وإغداق الأموال لفرض الأمر الواقع وإقناعهم بأنّ سلطته شرعية وإبعاد الحق عن أهله.

فتواجه العقيلة زينب الطاغية يزيد بالحقيقة الدامغة وبيان المنتصر الحقيقي (فكّد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحونّ ذكرنا، ولا تميت وحيناً، ولا تدرك أمدنا، ولا ترخص عنك عارها. وهل رأيك إلّا فند، وجمعك إلّا بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة وآخرنا بالشهادة)^(١).

ووقفت نفس الموقف في الكوفة أمام الطاغية عبيد الله بن زياد حينما قال شامتاً: (الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأبطل أهدوثكم).

فتصدت له بشجاعة وبلاغة أخذتهما من أبيها أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلة: (الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه، وطهّرنا من الرجس تطهيراً، إنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا بن مرجانة).

وحاول أن يغطي فشله وهزيمته بمزيد من الشماتة قائلاً: (كيف رأيت صنع الله بأخيك) فأجابت (سلام الله عليها): (ما رأيتُ إلّا جميلاً، هؤلاء قومٌ كتب الله

(١) انظر: الاحتجاج: ٢/١٢٣، والبحار: ٤٥/١٥٧.

عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجَّ وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذٍ، ثكلتك أمك يا بن مرجانة) (١).

هكذا أعادت العقيلة زينب الأمور إلى نصابها وبينت من هو المنتصر الحقيقي وهزمت هؤلاء الطواغيت وجيوشهم الجرارة التي غلبت بالسيف لكنّها هُزمت بالبيان والحجة الدامغة فقلبت أفراحهم أحزاناً.

علينا أن نستفيد من الدرس الزينبي:

وعلينا نحن أن نستفيد من هذا الدرس الزينبي ونُصحِّح جملة من المفاهيم والرؤى والنظريات التي أريد بها خداع الناس وتسييرهم بالاتجاه الذي يريده أصحاب تلك الأجنداث الهدامة، ولناخذ على ذلك مثلاً من عالم المرأة ممّا حاولوا به خداعها ودفعوها إلى ما يريدون من الانحلال والفساد ومزاحمة الرجال وترك وظيفتها الأساسية في بناء الأسرة الصالحة وتنشئة الجيل الصالح وهو شعار (المساواة).

أبواق المساواة بين الرجل والمرأة:

فهل المساواة مطلب عقلائي؟ وبتعبير آخر هل إن المساواة حق دائماً؟ والجواب هو النفي، نعم إذا كان المطلوب مساواة الرجل والمرأة بالاستحقاق والجزاء فهذا حق وقد كفله الشارع المقدّس ﴿أَنِّي لَأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ

اللَّهِ أَتَقَاكُمْ ﴿١٣﴾ (الحجرات: ١٣) سواء كان ذكراً أو أنثى.

فلسفة التمايز بين الرجل والمرأة:

أما إذا أرادوا بالمساواة مماثلة المرأة للرجل في الوظائف والأعمال التي يؤديانها فهذا مطلبٌ غير عقلائي، بل فيه ظلمٌ للمرأة، لأن طبيعة خلقها وفسولوجيتها وسايكولوجيتها تنسجم مع وظائف غير ما كُلف به الرجل، فالمساواة هنا من الظلم وليس من العدالة، ومثله كمثل الطبيب الذي يعطي نوعاً واحداً من الدواء إلى مرضى متنوعين، وكالمدرّس الذي يعطي درجة واحدة لكل طلبته في الامتحان مع تفاوت إجاباتهم، وهذا هو الظلم بعينه والمطلوب تحقيق العدالة وهي قد تقتضي المساواة وقد لا تقتضي المساواة بحسب الموارد وهذا ما كفلته الشريعة المقدسة، فلو أعطينا للولد ميراثاً بقدر البنت لكان ظلماً، لأن الرجل هو الذي يصرف على المرأة ويكفل لها كل احتياجاتها فهي تشاركه في حصته، ولا يشاركها في حصتها فكيف يتساويان في الاستحقاق.

فهذه المراعاة لتكوين كل من الرجل والمرأة وطبيعة وظائفهما مما تقتضيه الفطرة، وجرت عليه سيرة العقلاء، ويشهد به الواقع وخذ نماذج عشوائية من ترقية مجتمعات الغرب المدعية للتحرر وانظر هذه المراعاة، كتشكيلة الحكومة أو عدد الطيارين أو عدد قادة الوحدات العسكرية وقيادات الجيش وانظر نسبة النساء إلى الرجال ستجدها ضئيلة فأين المساواة التي يريدون تسويقها إلينا؟

مصطلح سن اليأس:

وبهذه المناسبة نشير إلى مصطلح متداول يخص المرأة وهو ((سنّ اليأس))

الذي يراد به عمر الخمسين للمرأة وتُسمى المرأة باليائس، وهو قد يكون له منشأ صحيح حيث يحصل فيه اليأس من الإنجاب لانقطاع الدورة الشهرية، إلا أن هذا العنوان أخذ على إطلاقه وكأنه سن اليأس من الحياة، مما ولد شعوراً عندها بالإحباط وفقدان الأمل وأنها أصبحت لا قيمة لها وانتهى دورها في الحياة وأحيلت على التقاعد كما يُقال، فتعثرها أعراض نفسية وعصبية قد تفاقم المشكلة عليها، وهذه الأعراض ليس لها أصلٌ فسيولوجي أو عضوي كما يشهد به الأطباء، أي أن بلوغ المرأة هذا العمر لا يصاحبه أي تغيير في جسمها يقتضي هذه الأعراض، وإنما هي نتائج صنعتها المرأة بنفسها بسبب ذلك الشعور الذي غذاه المصطلح البائس.

فالأليق أن يُسمى هذا العمر للمرأة (سن الكمال والنضج وتمام الرشد) لا كتمال تجربة المرأة في الحياة بعد أن تكون قد ربّت جيلاً كاملاً وتعلّمت الكثير، وهو سن التفرغ لنفسها ولآخرتها ولزوجها بعد أن انتهت من وظائف الحمل والإنجاب والتربية، وشبّ أبنائها وبناتها فهم يعينونها على قضاء حوائجها فهذا العمر فرصة مثمرة لكي يجتمع الزوجان من جديد على حياة زوجية يتفرغان لبعضهما ويلتفتان لآخرتهما وينشغلان لما يقربهما إلى الله تعالى من الطاعات والقربات مما لم تكن مشاغلها السابقة تسمح لهما بها، كالسفر لأداء الحج والعمرة وزيارة المعصومين (صلوات الله عليهم) والصلاة المستحبة والصوم وقضاء ما فات ومطالعة الكتب، والمساهمة في الأعمال الخيرية والتبليغ الديني والوعظ والإرشاد وغيرها من فرص الكمال.

الآية الثامنة:

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ﴿الحجر: ٣٣﴾

إعلان الهوية

التماهي في الذوبان:

من مظاهر تقصيرنا الذي تحول إلى مشكلة تعيق تقدّم العمل الإسلامي الرسالي هو عدم إبراز هويتنا اما ضعفاً أو مجاملة أو مداهنة أو خوفاً على بعض المصالح والامتيازات أو لأي سبب آخر، ونقصد بهويتنا كل الانتماءات التي تشكل عناصر هذه الهوية، فنحن مسلمون ننتمي للإسلام، ونحن من الموالين لأهل البيت (عليه السلام)، ونحن نتبع المرجعية الفلانية ونقلدها.

فعلى صعيد الهوية الإسلامية نجد أن بعض المسلمين - في بعض المجتمعات المتمدنة كما يزعمون - قد يترك الصلاة بين زملائه في العمل أو في الجامعة حتى لا يعرف انه مسلم، أو المرأة تضعف عن لبس الحجاب العفيف لأنها لا تستطيع أن تواجه تعليقات الآخرين، أو يجلس شخص على مائدة الشراب أو يسمع الغناء حتى لا يقال عنه انه (معقد) أو (متخلف)، أو يجاري الآخرين في لبسه ومظهره الخارجي واندماجه معهم في سلوكهم المنحرف حتى يقال عنه أنه متمدن متحضر مثلهم.

وعلى صعيد الهوية الشيعية نجد من يترك المشاركة في إحياء الشعائر الحسينية المهذبة المسنونة شرعاً، أو يعرض عن قضية فاطمة الزهراء (عليها السلام) وما جرى بعد رسول الله ﷺ، أو يخفي شهادته لأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية، أو

السجود على التربة ونحوها.

والذي يقلد المرجعية المعينة لا يصرح بذلك ويحاول التمويه والابتعاد عن انتسابه إليها ونحوها من الأمثلة على التخلي عن الهوية وما تقتضيه انتماءاته لتلك الهوية من التزامات.

آثار الضعف في إبراز الهوية:

إن هذا الضعف عن إبراز الهوية لا يضر فقط في دينه وآخوته ويسقطه من عين الآخرين لاتهامه بالنفاق، بل انه يضر بكل المشروع الذي ينتمي إليه لأنه يؤدي إلى تمييع الهوية وتضييعها، ولأنه إذا لم يعلن انتماءه ويبيّن نقاط القوة فيه ودواعي تبنيّه له، فكيف سيدعو الآخرين إليه ويقنعهم به؟، وكيف سيتقدم المشروع الرسالي؟ ولو أن السلف الصالح لم يقيم بواجبه تجاه هويته ويبيّنوها بوضوح ويدافعوا عنها بالحجج الدامغة لما وصلت إلينا بهذه القوة والثبات والمناعة مضمخة بدماء الشهداء ومداد العلماء.

التعايش مع الآخر لا يعني التنازل عن المبادئ:

إنّ الوحدة والتقارب والتعايش مع الطوائف الإسلامية أو مع الديانات الأخرى، أو مع الشرائح المتنوعة لا تستلزم التنازل عن المبادئ والمعتقدات التي ثبتت صحتها، فليعمل كلُّ بما ثبت عنده صحته بالحجة والبرهان، وإذا كان غير متبّيت من معتقداته وانتماءاته فيجب عليه إعادة النظر فيها ومراجعتها وطلب الدليل عليها، وليس اخفاؤها والمجاملة فيها.

الآية الكريمة تصر على تحمل مسؤولية الانتماء:

لقد كان من أوائل الأوامر التي وجهها الله تبارك وتعالى إلى رسوله الكريم في بداية الدعوة الإسلامية قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِنََّّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿الحجر: ٩٤-٩٥﴾ والصدع هو إحداث الشق في الاجسام الصلبة كالحديد والشق واستعير لفصل الأمور وقطعها فصنع النبي (ﷺ) بدعوته في مواجهة طواغيت قريش وسدنة الأصنام التي بلغ تعدادها (٣٦٠) صنماً حولوها إلى كيانات لمصالحهم وامتيازاتهم الواسعة، ولم يكن مع النبي (ﷺ) إلا أمير المؤمنين (عليه السلام) وخديجة بنت خويلد (عليها السلام)، وأصر على تحمل المسؤولية حتى فتح الله تعالى على يديه، ولا نطيل بالشواهد من سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة الزهراء (عليها السلام) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام).

وعلى هذا النهج سار الصلحاء من اتباع أهل البيت (عليهم السلام)، فيقف أبو ذر الغفاري (رضوان الله تعالى عليه) في عقر ديار معاوية ويقول: سمعت جيبى رسول الله (ﷺ) باذنيّ هاتين وإلّا صُمتا يقول، ثم يذكر فضائل الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وانظر إلى موقف الصحابة الاثني عشر الذين احاطوا بمنبر الأول حينما تقمص الخلافة بعد رسول الله (ﷺ) وادلوا بشهاداتهم وحججهم وقد ذكرها الطبرسي في كتاب الاحتجاج^(١).

لنتحدث عما يجب فعله لا ما فعلوه بنا:

روينا لكم في حديث سابق اننا في موسم الحج عام ١٤٢٤هـ وجهنا إلى أن

(١) الاحتجاج - الطبرسي: ٧٠ / ١.

نرفع أصواتنا بشكل جماعي اثناء الطواف حول الكعبة بدعاء الفرج (اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن.....)^(١) ليلتفت المسلمون القادمون من حوالي (١٨٠) دولة في العالم إلى إمامهم الحق ويسألوا عنه ويتعرفوا عليه ويهتدوا إلى نوره، وكنا على ثقة بأنه سيتجاوب معنا الموالون، وهذا ما حصل وكان له وقع واثر ولم يستطع المناوؤن منعه واستمرت هذه السنّة إلى اليوم ونسأل الله تعالى أن تبقى وتستمر وتتسع حتى يأذن الله لوليه بالظهور المبارك.

إننا كثيراً ما نتحدث عن مؤامرات الأعداء واستهدافنا وانهم يفعلون كذا وكذا، ولا نتحدث إلا القليل عمّا يجب أن نفعله نحن في مواجهتهم والقيام بمسؤولياتنا، ومنها هذا التكليف بالاصحار والاعلان عن عناصر الهوية.

ويجب الالتفات إلى أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله تبارك وتعالى، وأوصى نبيّه الكليم وأخاه هارون وهما يتوجهان إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد ﴿أذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٣-٤٤).

الآية التاسعة

﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ﴿الْمُدَّتُّرُ: ②﴾

الأمر بالإنذار لإصلاح المجتمع وهدايته

﴿الْمُدَّتُّرُ﴾ أصلها المتدثر والمخاطب هو رسول الله (ﷺ) حتى ورد في الرواية^(١) أن من اسمائه ذلك ويعني عرفاً من ألقى عليه كساءً أو غطاءً وتلفف به لأجل النوم أو وقاية من البرد ونحو ذلك.

بيان معنى المدثر:

وهو في اللغة أوسع من ذلك إذ يعني التدثر (تضاعف شيء وتناضد بعضه على بعض)^(٢) كما في معجم مقاييس اللغة أي تراكم وتكاثر شيء على شيء ولذا يطلق على المال الكثير: الدثر، فالمعنى الأوسع للمتدثر هو المحاط والمتغطي بما يمنعه من الحركة والفعالية سواء كان مادياً كما يفهم العرف أو معنوياً كالكسل والترف وحب الراحة والخوف والقلق والاضلال الدنيوية التي تعيق الحركة نحو التكامل مثل المال والمكانة الاجتماعية والأهل والولد وغير ذلك.

الأمر بتبليغ دين الله تعالى:

فآيات الكريمة تأمر النبي (ﷺ) بأن ينهض من دثاره ويقوم بالإنذار

(١) روى الكلبي عن ابي عبد الله الصادق (عَلَيْهِ) قال (قال لي: كم لمحمد اسم في القرآن؟ فقلت به اسمان أو ثلاث فقال (عَلَيْهِ): يا كلبي له عشرة أسماء) ثم ذكر منها ما في آية المدثر (راجع بحار الأنوار: ١٠١ / ١٦)

(٢) معجم مقاييس اللغة - ابن فارس: ٣٢٨ / ٢.

وتبليغ الرسالة الإلهية التي كُلفَ بها، ويشهد سياق الآيات أنها من أوائل ما نزل من القرآن الكريم حتى روى بعضهم أنها أول ما نزل منه ففسّر الدثار بأنه ((اعتزاله (ﷺ) وغيبته عن النظر فهو خطاب له بما كان عليه في غار حراء))^(١)، لكن ما ورد في سبب نزولها وتعرّف النبي (ﷺ) على الوحي النازل عليه من قبل، مضافاً إلى تضمن الآيات لتكذيب قريش يدل على أنها مسبوقه بآيات البعثة النبوية الشريفة، فربما كانت الآيات الأولى التي أمرت بإعلان الدعوة إلى الإسلام والجهر بها بعد ان كانت سرّية في بدايتها، أو ان المقطع الأول من السورة نزل أولاً قبل التكذيب لإعداد النبي (ﷺ) للمسؤولية القادمة شأنها في ذلك شأن مطلع سورة المزمل من دون ان تدل على ان حالة التدرّج أو التزمّل موجودة فعلاً وبذلك يصح القول بأنها أول ما نزل من القرآن بعد العلق أو هي والحمد ونحو ذلك.

بيان المراد بالذثار:

ويمكن أن يراد بالذثار مرحلتين زمنيتين من مراحل الرسالة الإسلامية: المرحلة الأولى: بعد نزول الوحي مباشرة حيث امتلأ النبي (ﷺ) هيبة من ثقل الرسالة التي كُلفَ بها وحلّت به رعشة وقشعريرة فتدرّج وهنا جاءه الأمر بأن يتجاوز هذه الحالة ويستعد نفسياً وروحياً لحمل الرسالة الإلهية. روى في الدر المنثور عن البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم بالإسناد عن يحيى بن ابي كثير قال: (سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من

(١) حكاة السيد الطباطبائي (ﷺ) في تفسير الميزان: ٨٧ / ٢

القرآن فقال: يا أيها المدثر قلت: يقولون اقرأ باسم ربك الذي خلق فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك قلت له مثل ما قلت، قال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله (ﷺ) قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رعباً فرجعت فقلت: دثروني فدثروني، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾^(١).

المرحلة الثانية: بعد ما لاقاه النبي (ﷺ) من تكذيب قريش واستهزائهم بالرسالة وتحشيد المجتمع ضد الرسول الكريم (ﷺ) فبلغ به الغم والضغط النفسي مبلغاً كبيراً فتدثر بسبب الشعور بالاحباط لالتقاط الأنفاس كما يقال والتخفيف عن نفسه الشريفة فأمره الله تعالى أن يخرج من حالة الانكفاء على الذات وان لا يكثر بجمعهم وحشدهم وقوتهم فإن الله تعالى سيتكفل بدحرهم جميعاً ولنطلق هو (ﷺ) بمشروعه الإلهي.

روى في الدر المنثور بسنده عن ابن عباس (أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحرٌ، وقال بعضهم: ليس بساحرٍ، وقال بعضهم: كاهنٌ، وقال بعضهم: ليس بكاهنٍ، وقال بعضهم: شاعرٌ، وقال بعضهم: ليس بشاعرٍ، وقال بعضهم: سحرٌ يؤثر (وأجمع قولهم على أنه سحرٌ يؤثر) فبلغ ذلك النبي (ﷺ) فحزن وقنع رأسه وتدثر، فأنزل الله - عزَّ

وجلّ - ﴿يَأْيُهَا الْمُدِّبُ﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ﴿ وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ﴿ وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ ﴿ وَلَا تَمُنْ تُسْتَكْثِرُ ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿ (المدثر: ١-٧).

الأمر بالجهر بالدعوة الإلهية:

فالآيات الكريمة فيها معنى كنائي وتعبير عن الانتقال من مسؤولية العمل على إصلاح الذات وتهذيب النفس - حيث كان النبي (ﷺ) يتعبد لوحده - إلى مسؤولية العمل الاجتماعي وإصلاح الأمة والفرق بينهما واسع بحيث ان الأول كالقعود مقابل القيام والآن انتهى زمن القعود والخلو عن المسؤولية الكبيرة وحن زمن العمل.

وفي ضوء هذه الرواية والتفسير فإن الآيات الكريمة تفيد ان اشعال الحروب والتعامل بقسوة وبطش وخلق العراقيل متوقعة ممن يخافون على مصالحهم من كل أصحاب الدعوات الرسالية وليس دعوة النبي (ﷺ) فقط فلا يصح مواجهتها بالتوقف عن العمل والانحسار والانغلاق على الذات لأن العمر أقصر من ان يضيع بالقعود والتدثر والنفس ميالة إلى الدعة والراحة فلا بد من ملئ الحياة بالقيام والنهوض والحركة والاقدام واقتحام الصعاب وتعبئة كل الطاقات المادية والمعنوية وإبلاغ الرسالة ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨) ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣) ولا بد من هذا القيام لله تعالى وإن كان الشخص صالحاً في نفسه وملتزماً بالشرعية الا ان هذا لا يكفي بل عليه ممارسة الإنذار والإصلاح للمجتمع ما دام في المجتمع باطل وانحراف وفساد حيث يجب عليه تغييره والنهي عنه وهو المعنى الذي تفيدته سورة العصر وغيرها.

عاقبة مخالفة الشريعة:

والسمة الواضحة لهذه الرسالة الإنذار والتخويف من عاقبة الخروج عن أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِسَانَكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (مريم: ٩٧)، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (القصص: ٤٦)، وعدم ارسال النذر اليهم يشعروهم بالطمأنينة والراحة ونسيان الله تعالى ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ (الأعراف: ٥٥)، فان العامة لا يصلحهم الا الخوف، روي (عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ))، قَالَ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ ذَنْبٍ قَدْ مَضَىٰ لَمْ يَدْرِ مَا صَنَعَ اللَّهُ فِيهِ وَعُمْرٌ قَدْ بَقِيَ لَمْ يَدْرِ مَا يَكْتَسِبُ فِيهِ مِنَ الْمَهَالِكِ فَهُوَ لَمْ يُصْبِحْ إِلَّا خَائِفًا وَلَا يُصَلِّحُهُ إِلَّا الْخَوْفُ^(١) ثم تأتي البشارة بعد التخويف والإنذار. وفي هذا الإنذار التنبيه إلى الخطر القريب في الدنيا والآخرة رحمة للناس لأن الله تعالى غني عنهم لكن شففته على عباده أوجبت أن يواتر إليهم رسله بالإنذار ليجتنبهم المخاطر.

أسس العمل الرسالي:

وتذكر الآيات التي تليها الأسس التي يركز عليها العاملون الرساليون الذين يسعون إلى الاصلاح في دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى، نشير إليها باختصار:

١- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ٣) ان تؤمن بان الله تعالى أكبر من ان يوصف ولا يعجزه شيء وكل قوة مهما كانت عظيمة فهي أمامه أوهن من بيت العنكبوت فلا موجب للخوف من أي قوة معارضة تمتلك المال والسلطة

(١) الكافي: ٧١ / ٢.

والجيوش لأن الخوف سيؤدي إلى المداهنة والتخلي عن المبادئ وهذا يعني الهزيمة وعلى المؤمنين العاملين أن يكونوا كما وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) (عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم)^(١) وعليهم أن يسقطوا من اعتبارهم كل ما دون الله تبارك وتعالى ولا يجعلوه من اهتمامهم.

٢- ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ﴾ (المدثر: ٤١) ويمكن فهمها عن ظاهرها أي تطهير الثياب وهو صحيح موافق للأحكام الشرعية أو عدم إطالة الثياب فتخط في الأرض كما في بعض الروايات، ولعل المراد بها المعنى الكنائي ويكون المراد تطهير الثياب الاتصاف بالنزاهة وعفة اللسان واليد والجوارح كلها وطهارة القلب وسمو الاخلاق وحسن السيرة والالتزام بأحكام الشريعة، وجامع هذه الخصال التقوى وقد وصف القرآن الكريم التقوى باللباس قال تعالى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكُمْ خَيْرٌ ذَلِكُمْ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأعراف: ٣٦) وهذا التعبير متداول في اللغة العربية ففي خطبة الإمام السجاد (عليه السلام) (أنا ابن نقيات الجيوب)^(٢) وقال الشاعر في مدح أهل البيت (عليهم السلام)

مطهرون نقيات ثيابهم تجري الصلاة عليهم كلما ذكروا
ويطلق اللباس على الزوجة، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) فتكون الآية آمرة باختيار الزوجة الصالحة لأهمية دورها في حياة العاملين الرساليين من عدة جهات.

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٤٥ / ١٧٤.

٣- ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر: ٥) فيجب تجنب كل أشكال المعاصي والمظالم وعدم الانجرار وراء الفتن ومكائد الشيطان واهواء النفس الأمارة بالسوء وعليهم التثبت مما يقال وعدم مداهنة الظالمين والجائرين.

٤- ﴿وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر: ٦) فلا تعتد بنفسك ولا تثق بعملك ولا تمنّ به على الله تعالى ولا على الناس فان ما عندك هو من فضل الله تعالى ورحمته ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات: ٧) فالمن يبطل العمل ويحبطه ويعرّض صاحبه لغضب الله تعالى فيمحوا اسمه من المؤمنين، من وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لمالك الأشتر ﴿وَأَيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رِعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ﴾^(١) فاذا تواضع لله تعالى وعرف ان ما عنده توفيق من الله تعالى وواظب على الشكر عليه أغدق الله تعالى عليه المزيد من النعم.

٥- ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ٧) لأن العمل شائك ويسير العامل في حقول من الأغلام المادية والمعنوية حتى وصفت مواجعتها بالجهاد الأكبر فلا بد من ان يتمسك بالصبر على الصعاب ليواصل الطريق ويثبت على خط الاستقامة وان يكون صبره في الله والله تعالى.

الموعظة أن الآية الشريفة:

إذن لتتأسى بالنبي (ﷺ) في هذا الخطاب القرآني وبنفض دثار الكسل والتردد وسائر الأمور المحبطة وننطلق في ميدان الدعوة الى الله تبارك وتعالى

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

بالحكمة والموعظة الحسنة بعد ان نبني أنفسنا بالخصال الكريمة التي ذكرتها
الآيات الشريفة.

الآية العاشرة:

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿التوبة: ١٢٨﴾

الحرص على هداية الخلق

ذكرت الآية ١٢٨ من سورة التوبة عدة أوصاف وملكات للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) وهي صفات يجب ان يتحلى بها كل أولياء الأمور ابتداءً من رب الأسرة إلى رئيس الدولة تأسياً بالنبي (ﷺ) بحسب ما حث عليه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

تعريف الحرص:

ومحل الكلام وصفه بأنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويُعرف الحرص لغة بأنه أعلى درجات الرغبة المفرطة الشديدة مقرونة بالعمل من أجل جلب نفع أو دفع ضرر.

وهو بذاته لا يوصف بمدح أو ذم الا بحسب متعلقه، فقد يكون مذموماً كالحرص على الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (البقرة: ٩٦)، وروى الشيخ الكليني (٢٥٣٥) في الكافي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (من علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدة الحرص في طلب الدنيا،

والإصرار على الذنب)^(١).

وقد يكون محموداً، وصفة كمال كما في الآية محل البحث، فتعريف الراغب في المفردات بأنه ((فرط الشره وفرط الإرادة))^(٢) إن أراد به المذموم خاصة كما يظهر منه فهو قاصر، لأن حكمه يتبع متعلقه مدحاً وذمماً.

الحرص في الأحاديث الشريفة:

وقد يطلق الحرص في الأحاديث الشريفة الدائمة له بلا ذكر المتعلق ويراد به ما كان متعلقه مذموماً لأنه الغالب في الناس كقول رسول الله ﷺ: (الحرص محروم، وهو مع حرمانه مذموم في أي شيء كان، وكيف لا يكون محروماً وقد فرّ من وثاق الله)^(٣) وقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (الحرص ذميمة المغيبة)^(٤) وقوله (عليه السلام): (الحرص ذل وعناء)^(٥) وقوله (عليه السلام) (الحرص عبد المطامع)^(٦).

الحرص من صفات الانسان:

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن رسوخ هذه الصفة السيئة لدى الإنسان الا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج : ١٩-٢١) وقال تعالى: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ

(١) الكافي: ٢ / ٢٩٠.

(٢) مفردات غريب القرآن - الراغب الأصفهاني: ١١٣.

(٣) بحار الأنوار: ٧٣ / ١٦٥ / ح ٢٦.

(٤) وما يليه: غرر الحكم: رقم ٤٣٠، ٦٩١، ٦٢٥.

(٥) غرر الحكم: ص ٤٣ الرقم ٧٤١.

(٦) غرر الحكم: ص ٤٠ الرقم ٦٧٦.

الشُّحُّ ﴿النساء: ١٧٨﴾.

ماهية حرص النبي ﷺ:

وبالرجوع إلى الآية الكريمة، فإنّ من صفات النبي (ﷺ) أنه حريص عليكم جميعاً أيها الناس ولا تختص بالمؤمنين برسالته أكثر من حرص الأم على أولادها، ولم يذكر المتعلق للدلالة على العموم، فهو يجتهد في هدايتكم وإصلاحكم وسعادتكم، ويتفانى في جلب نفع الدنيا والآخرة لكم ودفع الضرر عنكم، وكل ما يصدر منه يؤدي إلى هذا الغرض وإن لم يستطيعوا فهمه أحياناً.

حكمة ورود الآية الشريفة في سورة التوبة:

ولعل الغرض من وجود الآية في سورة التوبة التي تتحدث عن غزوة تبوك وما رافقها من عناء ومشقة وجهد وبلاء هو لثبيت إيمانهم بالقيادة النبوية المباركة، وإنّ كل ما يأمر النبي (ﷺ) به وينهى عنه إنما هو نابع من هذه الصفات المباركة، فلا يتوهموا أن تكليفهم بالأفعال الشاقة كالجهاد وإنفاق المال في تلك الغزوة الشاقة العسيرة يعبر عن عدم اهتمام واكتراث بهم.

ولم يدخر جهداً في ذلك إلى درجة أنه أشرف على الهلاك من شدة الجهد النفسي والبدني والتأسف لعدم استطاعته هداية كل الناس وهي لعمري أعلى درجات الحرص عليهم، فأشفق الله تبارك وتعالى عليه وخاطبه بقوله عزّ من قائل: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣)، والبخع قتل النفس غمّاً، فحثّه الله تبارك وتعالى على أن لا يهلك

نفسه حزناً وأسفاً وليدعهم وما يختارون ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٥٦)، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

روى البخاري بسنده عن أنس قال: (أَنَّ غَلامًا يَهُودِيًّا كان يَخْدُمُ النَبِيَّ ﷺ) فمرض فأتاه النبي ﷺ (يَعُوذُهُ) فقال له النَّبِيُّ: (أَسْلِمُ) فنظر إلى أبيه وهو جالسٌ عند رأسه فقال له أطمعُ أبا القاسمِ قال: فأسلمَ قال: فخرَجَ النبي ﷺ من عنده وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار^(١)، وبقدر هذا الشكر الصادر من أعماق قلبه الشريف، كان الأسف لو أفلتت منه نفس إلى النار.

ورغم كل هذا الجهد كانت النتيجة كما ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١١٣) فالتقصير ليس من جهة النبي ﷺ لأنه عمل بأعلى درجات الحرص، الا أنهم لم يكونوا موفقين في خياراتهم بسبب اتباعهم الشهوات والاهواء، وطاعتهم للشياطين الذين يخدعونهم بأمر زائفة زائلة، وينسونهم الحياة الآخرة الباقية، فيكلهم الله تبارك وتعالى إلى ما اختاروا ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (النحل: ٢٧) فالحرص على هدايتهم لا يكفي ما لم يقترن بإرادة حقيقية منهم للتغيير نحو الأحسن.

إن الحرص على الناس صفة عظيمة تستحق التركيز عليها وبيانها وتعبئة الأمة للاتصاف بها، وكلما ازدادت دائرة الحريصين على مصالح الأمة ونفع العباد

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على

وهدايتهم إلى ما يصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة فإن المجتمع يكون بخير، كما أن فقدان هذه الصفة هو الذي يفسر الأحوال السيئة التي تعيشها الأمة مع وفرة الإمكانيات المادية والبشرية التي من الله تعالى بها عليها، وذلك لأنها ابتليت بتسلط شرذمة متجردة من هذه الصفة النبوية المباركة.

إمام الزمان (عج) وحرصه على هداية الأمة:

إن خير من يجسد هذه الصفة اليوم هو إمامنا المهدي الموعود (صلوات الله عليه) فإنه أولى الناس باتباع جده المصطفى، وهذا ما يزيد الموالين اطمئناناً وسكينةً بأنهم في رعاية أحرص الناس عليهم، ولو لم تكن في انتظاره (عليه السلام) وترقب ظهوره الا هذه الفائدة لكفى، وقد عبّر عن ذلك في رسالته إلى الشيخ المفيد (رحمه الله تعالى) بقوله: (أنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء أو اصطلمكم الأعداء فاتقوا الله جل جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حم أجله ويحمى عنها من أدرك أمله)^(١).

رسالة إلى الحوزة العلمية:

فعلينا أن نربي أنفسنا على هذه الصفة الحميدة، وأخص بالذكر الحوزة العلمية والمؤمنين الرساليين فهم أولى الناس بالتأسي برسول الله (ﷺ) وآله الكرام، روى أحد السادة الفضلاء أنه اعتاد أن يروي لأسرته بعض قصص الذين تشرفوا بلقاء الإمام المهدي (عليه السلام) والمعجزات التي جرت على يديه الشريفتين

(١) الاحتجاج: ٢/ ٣٢٣.

من التي ذكرها الميرزا النوري (رضوان الله تعالى عليه) في كتابه (النجم الثاقب) وغيره، وكان يلمس تأثيرها الروحي على المتلقين، فانقدحت في ذهنه فكرة أن يدوّن مجموعة منها في كراس وجعل له عنوان (رسالة شفاء) ويوزعه على المرضى المصابين بأمراض مستعصية عجز الأطباء عن معالجتها، وقام بهذه الجولات، وكانت المفاجأة: ان مئات من هؤلاء شفوا ببركة تعلقهم بإمامهم الحريص عليهم، وما بعثه فيهم من الأمل والاطمئنان والسمو الروحي عند اطلاعهم على هذه الرسالة، وكانوا ينهمكون بقراءتها ساعات يذهلون فيها عن أنفسهم وعمّا حولهم، بحيث كان الأطباء يتعجبون من حصول هذا التغير غير الطبيعي في حالتهم.

فما الذي دفع هذا السيد الفاضل إلى القيام بهذا العمل المضني والمكلف غير هذه الخصلة الكريمة التي تعلّمها من القرآن الكريم وسيرة النبي العظيم ولا تجدها عند غير من تربى في هذه المدرسة الشريفة.

إنّ الناس حينما يجدون هذه الصفة في الواعظ والمبليغ والمربي والمعلم والمسؤول فإنهم ينقادون اليه ويأخذون منه، لأنهم يجدونه صادقاً في جلب الخير لهم وتحقيق مصالحهم وهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة لوجه الله من دون ان ينتظر منهم ﴿جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ١٠).

لذا فإن لهذه الصفة أهميتها في نجاح الدعوة إلى الله تبارك وتعالى لرسوخ قناعة الناس بحاملها، وأما فقدانها فإنه يكون منقراً من صاحبها، وإذا كان ذا عنوان ديني فالنفور يكون من الدين نفسه.

الآية الحادية عشر:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿طه: ١١٤﴾

أدب طلب العلم

قال النبي (ﷺ): (أدبني ربي فاحسن تأديبي)^(١) ومما أدب الله تعالى به نبيه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) وقد اخذ النبي (ﷺ) بهذا الادب وسائر الآداب الربانية فكان يطلب الزيادة في العلم باستمرار ويدعو (اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال)^(٢) حتى روي عنه قوله: (إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الى الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم)^(٣).

التأسي بطلب العلم:

وإذا كان النبي (ﷺ) في مقامه السامي يطلب الزيادة باستمرار فنحن اولى، مضافاً الى أننا مأمورون بالتأسي بالنبي (ﷺ) وهذا الادب الشريف منه، فالازدياد مطلوب في كل زمان وفي كل مكان حيث يوجد علم نافع، ويبقى الانسان طالب علم وإن حاز على أعلى الالقاب العلمية ولا معنى للتخرج وإنهاء الدراسة أو التعطيل إلا بالتحول من مجال الى مجال انفع منه، وإلا حُرْمنا من البركة التي أشار إليها النبي (ﷺ) في حديثه المتقدم؟.

(١) الكافي: ١/٢٦٦/٤ ح ٤.

(٢) الدر المنثور: ٤/٣٠٩.

(٣) ميزان الحكمة: ٦/١٤٥، عن كثر العمال ٢٨٦٨٧.

في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾

وأول ما يستوقفنا في هذا الأدب الإلهي استعمال لفظ الرب في الدعاء من دون الأسماء الحسنی الأخری، لإلفات نظر الداعي إلى هذه العلاقة الوجدانية الحميمة والعناية التربوية الخاصة التي يوليها الله تعالى لعبده، ولاستدرار الرحمة والشفقة الإلهية الخاصة، لان لفظ الربوبية دال على التربية والاعتناء بإنشاء الشيء وصناعته ورعاية صلاحه حالاً بعد حال إلى أن يبلغ تمامه هذه العلاقة التي يفتخر بها أمير المؤمنين (عليه السلام) في مناجاته (اللهي كفى بي فخراً أن تكون لي رباً)^(١) بينما الذل والصغار في اتخاذ الهة وارباب مزيفين تصنعها أوهام البشر.

وفي ذلك درس حاصله ان من اهم وظائف العلماء والحكام والمسؤولين والمربين واولياء الأمور في الاسرة والمجتمع هي تعليم الناس وتثقيفهم وتبصرتهم بالامور حتى يكون سلوكهم رشيداً، وذكر ذلك امير المؤمنين وهو يعدد واجبات الإمام تجاه الأمة (وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيلا تعلموا)^(٢)

في معنى أن الآية لسانها الدعاء:

والدعاء الذي ورد في الآية الكريمة، وكلّ دعاء ليس مجرد كلمات تُحرّك بها اللسان وانما يعبر عن أهداف وطموحات وغايات يريد الانسان ان يصل اليها ويحققها بلطف الله تعالى وتوفيقه فعليه ان يهيئ المقدمات ويتخذ الاسباب الموصلة الى الغاية، فعندما يطلب الانسان الزيادة المستمرة في العلم عليه ان يسعى

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٩٤ / ٩١.

(٢) نهج البلاغة: ١ / ٨٤ خطبة ٣٤.

لتحصيل هذا العلم من مصادره الطبيعية من خلال المطالعة والاستماع الى كل معلومة نافعة ومن خلال التلقي ممن عنده هذا العلم والاستفادة منه كما هو شأن الجامعات والمعاهد والمدارس والحوزات العلمية وامثالها، والدعاء يكون حينئذٍ طلباً من الله تعالى لتيسير هذه الأسباب الطبيعية لتحصيل العلم.

لا تغفلوا عن العلم الغيبي:

وهذه هي المصادر البشرية للزيادة من العلم أي العلم المكتسب من الآخرين، ونغفل عن المصادر الغيبية أو الالهية للازدياد من العلم وهي مصادر أوسع وأثقى وأعمق وأكثر تأثيراً والذي سنسمع وصف النبي (ﷺ) له بأنه لا جهل معه، كمن يريد ان يسقي أرضه الزراعية فتارةً يفتح لها قناة تأتيه بالماء من النهر مع ما يحمل في طريقها من الأوساخ والأوبئة، وأخرى يفجر من الارض ينبوعاً صافياً نقياً، فكذلك القنوات التي تغذي العقل والقلب بماء العلم والمعرفة فإنها تارة تؤخذ من الآخرين، وتارة تتفجر من باطن الانسان، وقد فسّر قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس: ١٤) بالعلم ممن يأخذه لأن العلم غذاء الروح، ففي الكافي عن زيد الشحام عن أبي عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿عبس: ١٤﴾ قلت: ما طعامه، قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): علمه الذي يأخذه مِمَّنْ يأخذه^(١).

مصادر العلم الغيبي:

ومن هذه المصادر:

١- التقوى: قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢) فالتعليم الالهي يتعقب التقوى وهو العلم اللدني الذي ورد في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥)، وعن النبي (ﷺ) (لو خفتم الله حق خيفته لعلمتم العلم الذي لا جهل معه)^(١) وهو العلم اللدني.

قال الشاعر:

شكوتُ الى وكيع سوء حفظي فأرشدني الى ترك المعاصي
وعلّله بأن العلم نورٌ ونور الله لا يؤتى لعاصي^(٢)

وكلما ازداد الانسان تقوى وابتعاداً عما يُسخط الله تعالى وعملاً بما يرضيه كان أكثر انفتاحاً على الاسباب الالهية وكانت مرآته أصفى وأنقى فتنعكس فيها حقائق العلوم حتى تبلغ الذروة عند المعصومين (عليه السلام)، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما من ليلة جمعة إلا ولأولياء الله فيها سرور قلت: كيف ذلك؟ جعلت فداك قال: إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله (ﷺ) العرش ووافى الائمة (عليهم السلام) ووافيت معهم فما أرجع إلا بعلم مستفاد ولولا ذلك لنفد ما عندي)^(٣)، وسئل

(١) ميزان الحكمة: ٢٠٣/٦، عن كنز العمال ٥٨٨١.

(٢) يُنسب هذا الشعر الى الشافعي. أنظر: تفسير الآلوسي: ٩٠/٦ - موسوعة الرقائق والأدب - ياسر

الحمداني: ٤٨٠/١

(٣) اصول الكافي: ١/ كتاب الحجة، باب في أن الائمة (عليهم السلام) يزدادون في ليلة الجمعة، ح ٣.

الإمام الصادق (عليه السلام) (إنا نسئلك أحياناً فتسرع في الجواب وأحياناً تطرق ثم تجيبنا؟ قال: نعم انه ينكت في أذاننا وقلوبنا فاذا نكت نطقنا وإذا أمسك عنا أمسكنا)^(١)، وهذا المصدر هو الذي يفسر الظاهرة الغريبة التي بدأت مع الإمام الجواد (عليه السلام) وولده الإمام الهادي (عليه السلام) بقيامهما بأعباء الإمامة وقيادة الأمة ومناظرة العلماء في مختلف الفنون وهما صبيان في الثامنة من العمر وعجز الآخرون عن تفسيرها لعدم إيمانهم بالعقائد الحقّة.

٢- من خلال العمل به، فان العمل بما تعلم وتطبيقه ينتج علماً جديداً عن رسول الله (ﷺ) قال: (من تعلّم فعمل علّمه الله ما لم يعلم)^(٢) فهذه إذن زيادة في العلم حصل عليها من خلال العمل بما علم، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ما زكا العلم بمثل العمل به)^(٣)، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) (من عمل بما يعلم علّمه الله ما لا يعلم)^(٤)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (العمل مقرون الى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم)^(٥).

وهكذا تستمر جدلية التأثير والترابط بين العلم والعمل، زيادة ونقصاً، فمن عمل بالعلم ازداد، ومن لم يعمل بعلمه يفقده، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال:

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ٩١ / ١٩ عن بصائر الدرجات.

(٢) ميزان الحكمة: ٢٠٢ / ٦، عن كنز العمال: ح ٢٨٦٦١.

(٣) غرر الحكم: ٩٥٦٩.

(٤) اعلام الدين: ٣٠١.

(٥) منية المرید: ١٨١.

(مَنْ عِلْمَ عَمَلٍ وَالْعِلْمُ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ)^(١).

وهذه الحقيقة جارية في كل المجالات فمن اكتسب معلومة اخلاقية وعمل بها سيوفق الى درجة أعلى، ومن استفاد نظرية علمية اكااديمية ثم اجرى تجارب ومحاولات عليها فانه سيتوصل الى نتائج ومعلومات جديدة، حتى على مستوى الطالب الذي يطالع دروسه فانه عندما يلخص ويستذكر ويخطط ويرسم او يحلّ المسائل الرياضية بيده يحصل على معلومات لا يحصل عليها من يكتفي بمطالعة الكتاب .

٣- ومن خلال إنفاقه اي نشره وتعليمه من لا يعلمه بأي وسيلة للنشر التي اتّسعت اليوم وأصبح بإمكان الشخص أن يخاطب الآخرين في العالم كله، من وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل بن زياد وهو يقارن بين المال والعلم قال (عليه السلام): (وَالْمَالُ تَنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ)^(٢) والتجارب اثبتت ايضا صحة هذا المسلك فأن من يتصدى للتدريس وتعليم الآخرين وينشر ما عنده من العلم فانه يشعر بزيادة في العلم لم يحصلها من احد، عن الإمام الحسن (عليه السلام) قال: (عَلَّمَ النَّاسَ، وَتَعَلَّمَ عِلْمَ غَيْرِكَ، فَتَكُونُ قَدْ اتَّقَنْتَ عِلْمَكَ، وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَعْلَمْ)^(٣) هذا غير الثواب الكثير لمن علّم الناس شيئا ينتفعون به ولو كان حديثاً شريفاً أو مسألة شرعية أو عملاً صالحاً أو... وقد وردت في ذلك روايات كثيرة نكتفي بواحدة منها عن رسول الله (ﷺ) (يجيء الرجل يوم القيامة وله من

(١) نهج البلاغة: ٣٦٦.

(٢) نهج البلاغة: ١٤٧.

(٣) كشف الغمة: ١٩٧/ح ٢.

الحسنات كالسحاب الركام أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا ربّ أنى لي هذا ولم أعملها؟ فيقول: هذا علمك الذي علّمته الناس، يُعمل به من بعدك^(١).

وقد جُمع هذان المصدران للمعرفة في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عن ابيه (عليه السلام) قال: (جاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الانصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع له، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ له، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه؟ قال: ثم نشره^(٢).

فهذه هي مراحل تحصيل العلم وازدياده: الإنصات للمعلومة والإصغاء إليها ووعيتها ثم حفظها واستيعابها ثم العمل على طبقها وتحويلها الى الواقع ثم نشرها وتعليمها للآخرين.

في معنى قوله تعالى: ﴿زِدْنِي﴾:

ويظهر من كلمة ﴿زِدْنِي﴾ وتعقب هذه الفقرة لقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه: ١١٤) إن الحصول على هذا العلم تدريجي فكلما وصل الى مرتبة وحفظها وعمل بها أعطيت له مرتبة جديدة فاذا حفظها وعمل بها أستحق الاعلى وهكذا ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٢١)، وهذه نتيجة صحيحة إذ ان العلم لا يهجم دفعة واحدة من غير توفر القدرة على تحمله، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من زاد علمه على عقله كان وبالاً

(١) بحار الانوار: ٢ / ١٨ / ح ٤٤.

(٢) الفرقان: ١٩ / ٩١، عن الخصال.

عليه)، وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (كل علم لا يؤيده عقل مظلة)^(١).

في معنى قوله تعالى: ﴿عِلْمًا﴾:

هذا بالنسبة لزيادة العلم، اما كلمة (علم) فنلاحظ فيها انها مطلقة فالزيادة مطلوبة في كل علم ولا تختص بالعلوم الشرعية، نعم لا بد من تقييدها بالعلم النافع في الدنيا او الاخرة اي فيه صلاح الناس كما ورد في الدعاء النبوي المتقدم في بداية البحث، وعن امير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (خير العلوم ما اصلحك)^(٢)، وعنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (خَيْرُ الْعِلْمِ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ رَشَادَكَ وَشَرُّهُ مَا أَفْسَدْتَ بِهِ مَعَادَكَ)، وعنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (رب علم أدّى الى مضلتك)^(٣).

لذلك نجد في حياة الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ) انه كما كان يدرّس العلوم والمعارف الدينية فانه كان يدرّس العلوم الطبيعية فتخرج على يديه جابر بن حيان في الكيمياء وله كتاب في الفلسفة يشرح فيه تشريح جسم الانسان ووظائف الاعضاء باسم توحيد المفضل وتوجد روايات في الحساب والفلك وغيرهما. ولأن العمر قصير لا يتيسر معه الاحاطة بكل العلوم فضلاً عن العمل بها لذا لا بد من الاقتصار على الافضل والاحسن والاكثر صلاحاً عن رسول الله (ﷺ) قال: (العلم أكثر من ان يُحصى، فخذ من كل شيء أحسنه)^(٤)، وفي حديث عن

(١) غرر الحكم: ٨٦٠١، ٦٨٦٩.

(٢) غرر الحكم: ٤٩٦٣، ٥٠٢٣.

(٣) غرر الحكم: ٥٣٥٢.

(٤) ميزان الحكمة: ١٩٩/٦، عن كنز الفوائد ٣١/٢.

أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (خذوا من كل علم أحسنه، فإن النحل يأكل من كل زهرة أزينه، فيتولد منه جوهران نفيسان: أحدهما فيه شفاء للناس، والآخر يستضاء به) (١).

وأنفس العلوم وأشرفها وأهمها المعارف الدينية من العقائد والأخلاق والأحكام لأنها أكثر التصاقا بعلاقة الانسان بربه ودينه وما يضمن له السعادة في دنياه وآخرته، من وصية الإمام علي لولده الحسن (عليه السلام) (ورأيت ... ان ابتدأك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله، وشرائع الاسلام واحكامه، وحلاله وحرامه، لا اجاوز ذلك بك الى غيره) (٢).

الدعوة الى أن تكونوا من حملة العلم:

في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) (عليكم بالتفقه في الدين، ولا تكونوا اعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يترك له عملاً) وعنه، (عليه السلام) قال: (لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا) (٣).

فإذا نال قسطاً وافراً من العلم بالمقدار الذي يستطيع به إرشاد الناس وهدايتهم كان من أهل الحديث الشريف عن الإمام الجواد (عليه السلام) (من تكفل بأيتام آل محمد المنقطعين عن امامهم المتحيرين في جهلهم الأسراء في أيدي

(١) غرر الحكم: ٥٠٨٢ - نهج البلاغة.

(٢) جواهر البحار: ج ٧٤ / كتاب الروضة / باب وصية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي (عليه السلام) وإلى محمد بن الحنفية عن نهج البلاغة.

(٣) أصول الكافي: ١ / كتاب فضل العلم / باب ١ / ح ٧-٨.

شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا فأستنقذهم منهم وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين برد وساوسهم وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم ليُفضّلون عند الله تعالى على العباد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء، وفضلهم على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء^(١).

هذا الخير الذي لا يضاهيه خير في هذه الدنيا طالما دعانا الله تعالى إليه في كتابه، وحثنا عليه الأئمة المعصومون (عليهم السلام)، وتبعاً لذلك فقد طالبنا كل ذوي العقول النيرة والهمة العالية والشعور بالمسؤولية أن يرتبوا أوضاعهم ويهيئوا المقدمات للالتحاق بالحوزات العلمية الدينية ويحظون بهذه المقامات العالية.

وينبغي هنا الالتفات إلى حقيقة وهي أنه كلما ازداد اهتمام الله تعالى في كتابه والمعصومين (عليهم السلام) بشيء فهذا يعني أن مدخلته في التكامل والقرب من الله تعالى أقوى، والاهتمام بتحصيل العلوم والمعارف الدينية بلغت الذروة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه وأحاديث الأئمة (عليهم السلام) بحيث تجاوزت المئات في كل منهما، فلا بد أن نفهم ونستوعب هذه الرسالة من الله تعالى ورسوله وأهل بيته الكرام (عليهم السلام).

(١) بحار الانوار: ٦/٢، عن الاحتجاج وتفسير العسكري (عليه السلام).

الآية الثانية عشر:

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ﴿سورة القلم: ٥﴾

لا مساومة على المبادئ الحقّة

تكشف الآية الكريمة لرسول الله (ﷺ) عن خدعة يتخذها الكفار والمشركون والمكذّبون كأسلوب لمواجهة دعوته المباركة وإيقاف انتشارها وذلك من خلال سعيهم بكل رغبة واهتمام إلى أن تدهنهم^(١) وتتوصل معهم إلى انصاف حلول - كما يقال - ترضيهم ويرضونك فتتنازل عن بعض مبادئك وتقبل بواقعهم الفاسد والمنحرف مقابل ان يعترفوا بك وبألهك ورسالتك ويخففوا من ضغظهم عليك أو يتقاسمون معك المنافع والامتيازات.

وقدّموا عروضاً في ذلك كقول عتبة بن ربيعة (يا ابن أخي إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّيت به احلامهم، وعبت به ألهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من أبائهم فاسمع مني اعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله (ﷺ): قل أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا)^(٢)، وفي مرة أخرى جاءه

(١) أي تلاففهم وتلاينهم وتكون مرناً معهم، مأخوذة من الدهن الذي يلبّن الاجسام الصلبة ويسهل حركتها ويستعمل لفظ المداينة في الحالة المذمومة.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٩٣.

مجموعة من اسياذ قريش وطواغيتهم فقالوا: (يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وانت في امرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً)^(١).

وكان الرد الحاسم على مثل هذه المحاولات في الآية السابقة عليها ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكذِبِينَ﴾ (القلم: ٨) وفي سورة الكافرون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (الكافرون: ١-٢) وفي آية أخرى ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: ٤٩) فقطع عليهم كل طرق المساومة والمداهنة رغم انه (ﷺ) كان في اصعب الظروف واحلكها ويعاني الوان الألم والتضييق والتجويع والتعذيب والقتل.

ويتوجه أهل الباطل إلى هذا الأسلوب بعد أن يعجزوا عن القضاء على الحق وتطويقه ومنع الناس من اتباعه ويصبح امراً واقعاً لا يستطيعون الغاءه فيلجأون إلى المساومة وعقد الصفقات ويتخذون مختلف الوسائل لدفع أهل الحق للقبول بهذه المساومة فيهددونهم بالقتل والتجويع تارة أو يطمعونهم تارة أخرى أو يبشوا عليهم الاشاعات بإعلام قوي فاعل للضغط عليهم نفسياً وعزلهم اجتماعياً أو التأثير على اتباعهم لينفضوا عنهم.

الأهداف التي يسعى لها أعداء الحق:

وهم بذلك يحصلون على أكثر من هدف:

١- كسب الشرعية لباطلهم من دون ان يخسروا شيئاً لان ما عندهم أو هام وضلالات ودنيا زائفة لذلك فانهم يريدون منك المداهنة اولاً لانهم مستعدون لكل شيء يحفظ مصالحهم كلها او بعضها.

٢- اسقاط أهل الحق في أعين اتباعهم حين يتنازلون عن بعض مبادئهم وإظهارهم منافقين يتبعون الدنيا بالدين.

وفي هذا الادب الإلهي لنبية الكريم (ﷺ) درس لكل الرساليين وأصحاب المبادئ أن يحافظوا على استقامتهم ويتمسكوا بالحق الذي امنوا به وساروا عليه ولا ينساقوا وراء المطامع فيدخلوا في صفقات مع أهل الباطل، وهذا الامتحان جارٍ في كل حقول الحياة ولا يختص بمجال العقيدة فيشمل السياسة والتجارة والعمل الوظيفي وأصحاب المهن فكل هؤلاء وغيرهم يتعرضون لهذه المساومات وطلب المداهنة على حساب المبادئ والاستقامة وحتى الزعامات الدينية أيضاً فانهم معرضون لهذا الابتلاء وحينئذٍ يمتاز أهل المبادئ حقاً الذين لا يساومون عليها عن الذين يتاجرون بها ويضحون بها في اول مغنم يعرض عليهم، فيصبحون العوبة بيد أهل الباطل يسيرونهم وفق اغراضهم، لا يفرق في ذلك بين رجال الدين او غيرهم.

وكثيرةً هي التحالفات التي وقعت بين الحكومات الجائرة والسلطة الدينية فالثاني يوفر للأول الغطاء الشرعي ويمكنه من رقاب الناس ويوفر الأول للثاني الامتيازات والمنافع والجاه والنفوذ ويقف الاثنان معاً متحدين في مواجهة العاملين

الرساليين الذين يريدون ايقاظ الأمة وتوعيتها وتوجيهها نحو الصلاح، والمشكلة جارية حتى على صعيد الافراد فانهم يفضلون الزعامات الدينية التي تؤمن لهم هذه المصالح والامتيازات وتغض الطرف عن انحرافاتهم ومظالمهم مقابل ما يوصلون اليهم من أموال يفضلونهم على القيادات الرسالية التي تنصحهم وتبين لهم عيوبهم ولا تداهنهم ولا تجاملهم، وهذا انحراف كبير في ثقافة الأمة وتدينها لذا كان القرآن الكريم حازماً في رفض هذه الحالة ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: ٦٣).

فالدرس الذي أخذناه من النبي (ﷺ) والقرآن الكريم أن لا مساومة على المبادئ الحقّة، وسار على هذا النهج الائمة المعصومون (عليهم السلام) لذا نجد في صفاتهم التي تسجلها نصوص زياراتهم (ولا لأحداً فيك مطمع)^(١).

(١) الأماي - الشيخ الصدوق: ٣١٤.

الآية الثالثة عشر :

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا لَكَ إِذَا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (فصلت: ٤٦)، ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ٨٧)،

القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين

من السنن الجارية في الأمم عبر التاريخ تعرّض المصلحين والعاملين الرساليين وعلى رأسهم الأنبياء والرسل والأئمة المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) إلى الإيذاء المادي والمعنوي من قبل المتسلطين والطواغيت وأصحاب النفوذ (الذين يسميهم القرآن بالملأ) وأتباعهم من الجهلة والمنتفعين والغوغاء ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (فصلت: ٤٦)، ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ٨٧)، مما يسبب لهم المأ وحرناً لتضيق به صدورهم وييدي الله تبارك وتعالى على لسان أوليائه الحسرة والألم والتفجع لهذا الموقف السلبي ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس: ٣٠)، فيخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية بانه تعالى يعلم ما يحل به ويجري عليه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨) ورعايتنا مستمرة ودائمة ويعلمه الاجراء الذي يتخذه لتحصيل الطمأنينة وتخفيف هذه الآلام، قال تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) و﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٨-٩٩).

ويحكي القرآن الكريم فصولاً عديدة من هذه المواجهة تضمنت أقسى ألوان البطش والقسوة والانحطاط من قبل المعسكر الآخر وأسمى ألوان الصبر

والمصابرة والجهاد والرحمة والشفقة من أولياء الله وعباده الصالحين، ورغم أن الإيذاء المادي المشتمل على القتل والتشريد والتعذيب الجسدي والسجن والتجويع وغيرها كان قاسياً إلا أن ما يؤلم الصالحين أكثر هو الإيذاء المعنوي بالإعراض عن الاستماع إلى الحق وإتباعه وخلط الأوراق على الناس بالافتراء والكذب وقتل الشخصية بالتسقيط والتشويه لان الثاني هو الذي يحول دون نجاح مشروعهم الرسالي ويضع الحواجز بينهم _ أي المصلحين _ وبين الناس فيؤلمهم ابتعاد الناس وعدم اهتمامهم إلى الحق وتنعمهم بالرحمة التي جاؤوهم بها من ربهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، أما الأول فإنه يؤدي إلى التعاطف معهم والالتفات إليهم واعتناق مبادئهم ولو بعد حين للشعور بمظلوميته.

غفلة المؤمنين وإيذائهم للمصلحين :

ومما يزيد في شدة وطأة الإيذاء المعنوي أن أتباع نفس الرسل والمصلحين يساهمون فيه عن علم وعمد أو عن جهل وغرور وأناية بسوء تصرفهم وبعضياتهم وعدم الالتزام بتعاليم قادتهم وبضعفهم وتشتتهم والخلافات بينهم ونحوها، بينما لا يتوقع صدور النوع الأول من الأتباع والموالين.

مواساة القرآن الكريم للنبي الأكرم (ﷺ):

وكان الإيذاء المعنوي أشد على قلب رسول الله (ﷺ) الذي وصفه الله تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، لذا كان ربّه الكريم الرحيم يسلي قلبه ويخفف عن آلامه ويطيّب خاطره ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ

فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ (النحل: ١٢٧)، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٢٨﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٢٩﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٧-٩٩).

المواساة في سورة القصص:

بل إن سوراً كاملة نزلت لهذا الغرض كسورتي القصص ويوسف (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)، فالأولى تصف حالة الاستضعاف التي كان عليها قوم موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) حيث كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم وفي ذلك البلاء العظيم ولد موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فكان من لطف الله به وتدبيره له أن يأخذه فرعون الطاغية نفسه ويرعاه حتى أصبح رجلاً رافضاً لما عليه فرعون وقومه ثم غادر مصر خوفاً من القتل حتى ورد ماء مدين وتزوج هناك ثم عاد نبياً رسولاً كليماً لله تبارك وتعالى بمعجزة عظيمة يدعو فرعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى واستطاع أن يهدي بمعاجزه سحرة فرعون وآمن به من آمن حتى عبأ له فرعون من الجيوش ما لا قبل لموسى والمؤمنين بهم ففلق الله تبارك وتعالى لموسى البحر وأنجاه ومن معه وأغرق فرعون وجنوده لينتصر موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ويقيم الحق والعدل وقد عبّر الله تبارك وتعالى عن هذا التدبير بتعبير رقيق ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه: ٢٣٩)، أي لتُصنع هذه القيادة الفذة برعاية وتدبير مباشرين من الله تبارك وتعالى، وفي نهايتها تصل السورة إلى الهدف وهو تطيب قلب رسول الله (ﷺ) والتخفيف عن آلامه التي اشتدت في السنين الأخيرة من وجوده المبارك في مكة حيث حوَّصر ثلاث سنين في الشعب حتى فقد ناصرته خديجة (عَلَيْهَا السَّلَامُ) وأبا

طالب (عليه السلام) ثم أمر بالهجرة ومغادرة مكة التي تعلق بها قلبه فوعده الله تبارك وتعالى بأنه عائدٌ إليها ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، وما مرت إلا ثمان سنوات - وهي ليست كثيرة في عمر الزمن - حتى تحقق الوعد الإلهي بفتح مكة.

المواساة في سورة يوسف:

وتتحدث سورة يوسف عن ذلك الغلام الصغير الذي حسده أخوته فalcوه في الجب ليهلك ولم يكن هناك أمل بنجاته لكن التدبير الإلهي أتاه بقافلة لتستقي فخرج مع الدلو وباعوه في مصر إلى عزيزها الذي رباه واعتنى به ثم قرّبه لما وجد عنده علماً وحكمة وتدبيراً وأمانة وصار بيد النبي الكريم مقاليد أمور الولاية بعد وفاة عزيزها وجاء نفس أخوته الذين كادوا له معترفين بجريمتهم طالبين العفو والصفح فتعامل معهم بسمو الأخلاق.

هكذا يلفظ الله تعالى بعباده وهكذا يصنع أوليائه ويدبر شؤونهم، وهكذا يخيب كيد الباغين والحاسدين والمنافقين والكافرين ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).

عبرة من آام الصالحين:

إن ما يمرّ بنا اليوم من بلاء وما مرّ بنا أيام صدام وغيره من الطواغيت لا يستحق أن يذكر في جنب ما أصاب أولياء الله الصالحين في الأمم السالفة حيث ورد في الروايات أنهم نشروا بالمناشير وقرضوا بالمقاريض وحفرت لهم أخاديد النار والقوا فيها ففضوا حرقاً (سورة البروج) والمتوقع من المتهاكين على السلطة

وحب الدنيا أن يفعلوا ما هو أسوأ لولا لطف الله تبارك وتعالى، فخير ما يسليكم
ويطمئن قلوبكم وينور بصائركم ويثبت أقدامكم هو القرآن الكريم فاتخذوه قائداً
وهادياً.

وقد عشت مثل هذه التجربة مع القرآن ولا زلت أعيش لذة الأيام التي
قضيتها في كنفه في ثمانينات القرن الماضي حينما كنت حبيساً في الدار لا ادري
في أي لحظة يقبض عليّ الطغاة ويعدمونني الحياة.

وإن مما يخفف الآلام والمصاعب ويدفعنا إلى بذل المزيد من الجهود هو
أن نلتفت إلى النعمة التي منحنا الله تبارك وتعالى إياها في هذا الزمن حيث تتوفر
أعظم فرصة لبناء المستقبل الزاهر لامتنا وننفض غبار السبات الذي أصابها منذ
أكثر من ألف عام، ونمهد لدولة الحق والعدل بناء أنفسنا ومجتمعنا ومؤسساتنا
على أسس الإخلاص والتقوى والعمل الصالح بعيداً عن المتصارعين على الدنيا
الفانية الزائلة.

لقد كان أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) يتسابقون إلى الموت فرحين
مسرورين لان الإمام (عليه السلام) كشف لهم عن بصائرهم فرأوا منازلهم في الجنة أي
رأوا نتائج تضحياتهم والمستقبل العظيم لما يقومون به فصغر في أعينهم ما يلاقون
من ألم الجراح وهذا التفسير منسجم مع ما نعتقده من تجسّم الأعمال.

وإذا كانت تلك التضحيات لإبقاء الحياة وجذوة الضمير والايمان في جسد
الأمة فإن تضحيات اليوم ستؤدي إلى بعثها من جديد وحركتها نحو بناء دولة
الحق والعدل.

الآية الرابعة عشر:

﴿وَبَضْعٌ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف: ﴿١٥٧﴾)

رسول الله (ﷺ) ورفع الاغلال عن أمته

بيان مفردات الآية الشريفة:

يبين هذا المقطع من الآية مظهراً من مظاهر الرحمة الالهية وصفة من صفات النبي (ﷺ) وغرضاً من إرساله بهذه الشريعة السمحاء ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ﴿٧٨﴾).

و(الإصر) الشد الوثيق لذا توصف علاقة الأرحام بالآصرة واستعمل المصطلح في الكيمياء فيقال: (الآصرة الأيونية والآصرة التساهمية) ويُطلق على العهد والميثاق بالإصر لأنه يشد صاحبه الى الالتزام به قال تعالى: ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ (آل عمران: ﴿٨١﴾) ولما كان الشد الوثيق يشكّل عبئاً ثقيلاً ومشقةً على صاحبه أُطلق الإصر على الجمل الشاق وما يحبس الشيء ويمنعه بالقوة، فالإصر هنا في الآية ما يثبّت الناس عن فعل الخيرات ويمنع من تحصيلهم الثواب.

﴿وَالْأَغْلَالَ﴾ بمعنى القيود كما هو واضح، والمقصود بها هنا الأغلال المعنوية والعملية التي يشق عليهم تحملها والالتزام بها، وتعيق سعيهم لنيل السعادة والفلاح.

بيان معنى الآية:

فيكون معنى الآية ان الهدف من الشريعة الالهية التي جاء بها النبي (ﷺ) هو رفع وإزالة هذه الآصار والأغلال عن الناس ليعيشوا السراحة واليسر في حياتهم وليكونوا أحراراً في دنياهم غير مُكبّلين بالقيود التي تعيق حركتهم نحو الكمال والسعادة والفلاح ببركة إرسال النبي (ﷺ) الى هذه الامة المرحومة .

ويمكن ان نفهم عدة أشكال لهذه الأعباء والأغلال والمعوقات التي بُعث النبي (ﷺ) بالشريعة الاسلامية لرفعها ووضعها عن الأمة:

١- أنه ألغى من حياتهم التشريعات الشاقة التي كتبت على الامم السابقة عقوبة لهم أو أنهم ابتدعوها من عندهم كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٠) أو قطع الاعضاء التي تقع في الخطيئة أو قرض موضع النجاسة من البدن والثوب أو صوم الوصال ونحو ذلك، هذه التي جمعها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) او الرهينة والانعزال ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد: ٢٧).

٢- أنه حررهم من كل القيود والأغلال العقائدية والفكرية والنفسية والاجتماعية التي تصيب بصيرته بالغشاوة وتضرب على عقله بالقيود فيعمى عن رؤية الحق وتكبّل إرادة الناس وتعيق حركة الاصلاح لأننا بعد ان عرفنا معنى الإصر والأغلال وأنها ما يمنع الناس عن الترقى والكمال فإذا هي تشمل كل ما يعيق هذه الحركة سواء كانت قيوداً للفكر أو السلوك أو الاعتقاد أو التعامل مع الآخرين وغير ذلك.

فمن الأغلال العقائدية: الشرك والكفر والإلحاد والوثنية، ومن الاغلال الفكرية: الجهل والغفلة والتخلف والخرافة، ومن الأغلال الاجتماعية: الطبقية والتمييز والاستكبار والاستضعاف والاستعباد والفقر والظلم والحرمان والموروثات والتقاليد البالية التي تكون حجرة عثرة في طريق الاصلاح، ومن الأغلال النفسية الحقد والكراهية والغرور والأنانية والتعصب سواء كان لأشخاص أو عشائر أو فِرَق أو أحزاب أو قوميات أو طوائف أو حتى مرجعيات دينية، لأنها هذه كلها وغيرها مما يصدّ عن الحق ويضع غشاوة على بصيرته ويفسد فطرته ويعيق حركة التكامل ويمنع الانسان من اختيار الطريق الصحيح بحرية و ارادة وموضوعية، وكيف يستطيع من كُبل بواحد أو أكثر من هذه القيود أن يصل الى الحق ويتعرف عليه فضلاً عن التوفيق للعمل به لذا ورد في الدعاء (اللهم أرني الحق حقا حتى أتبعه)^(١).

٣- إن المراد بالآصار والأغلال: الصعوبات والبلاءات التي تُصيب الانسان، فوضعها عن المسلمين يُراد منه أن النبي (ﷺ) بيّن لهم الوسيلة التي تحميهم وتجنبهم من هذه البلاءات والكوارث التي تصيب الناس عندما ينغمسون في المعاصي ويتمردون على السنن الإلهية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) فمن الرحمة الالهية التي جاء بها النبي (ﷺ) للبشرية أنه علمهم كيف يخلصون أنفسهم ومجتمعاتهم من هذه البلاءات ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّنْسُوا

(١) إعانة الطالبين - البكري الدمياطي: ١ / ٢١٥، وفي بحار الأنوار- المجلسي: ٨٣ / ١٢٠.

كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْحِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦١﴾ (يونس ١٠٨).
وقد اعترف الغرب اليوم بعد عجزه عن إيقاف تمدد الأمراض الفتاكة كالإيدز وامثاله والصراعات التي تهلك الحرث والنسل بان العلاج الناجح الوحيد هو بالعودة الى الإيمان بالله والقيم الروحية والمبادئ الانسانية.

دلالات مستخلصة من الآية الشريفة:

ومضافا الى ما تقدم من الوجوه ومستويات الفهم فأنا نستطيع ان نستخلص عدة دلالات من هذه الفقرة القرآنية:

أولاً: ان الشريعة الالهية توفر الحرية الحقيقية للإنسان لأنها تحرره من كل القيود والاعلال التي تكبله، فهي تخلصه أولاً من عبودية نفسه الأمارة بالسوء التي تدعوه الى طاعة الشهوات والاهواء والانفعالات وهي لا عقل لها فتوقعه في المهالك وهذه نتيجة حتمية لا تحتاج الى دليل لأن الواقع المزري للبعيد عن القانون الالهي شاهد على ذلك، وتخلصه ثانياً من عبودية غيره من بني جنسه من البشر كالحكام المستبدين والطواغيت وسدنة المعابد وأدعياء العناوين المقدسة المتاجرين بالدين من أجل الدنيا وحيازة المغنم والمصالح لذواتهم على حساب الناس، وتحرره من القلق والأوهام والضيق والاضطراب وكل الضغوط ﴿أَلَا يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

فالحرية بمعناها الانساني النبيل تحققها الشريعة الالهية الحقّة أما الابتعاد عنها فيؤدي الى الشقاء والهلاك والالم في الدنيا قبل الآخرة، وليست الحرية بمعنى الانفلات والتمرد على السنن الإلهية الحاكمة في الكون والانسان.

ثانياً: إن هذه الشريعة المباركة دليل على صدق النبي (ﷺ) في دعواه بأنه مرسل من الله تبارك وتعالى لهداية البشر وإصلاحهم، لأنه حارب كل تلك الأغلال والآصار وسعى بكل جهده لتخليص الناس منها فدعا الناس الى توحيد الخالق العظيم ونبذ كل الالهة المصطنعة ووضع لهم قوانين العدالة والمساواة بين الناس جميعاً أمام القانون وحارب الطبقة والتمييز ونشر الأخلاق والفضيلة ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والظلم، وحثَّ على العلم والمعرفة بشكل مذهل.

ولو كان مدعياً بغير حق وابتغى بدعواه الوصول الى السلطة والنفوذ وحياسة الدنيا لأستعبد الناس واستأثر بخيراتهم ولأبقاهم على قيود الجهل والغفلة والتخلف ليسيطر عليهم ويتمكن من مقدراتهم كما يفعل كل الطغاة والمستبدين. وهذا معيار ينفع في تمييز القيادات الحقة في كل المجالات واولها القيادات الدينية التي يفترض انها تمثل نيابة المعصومين (عليه السلام)، لأن القرآن الكريم ومنه هذه الآية عامٌ شاملٌ لكل البشر وخالدٌ الى قيام يوم الساعة ولا يمكن تحجيم دوره بفترة نزوله.

ثالثاً: ان الآية فيها وعد وترغيب وتطمين للمؤمنين بأنهم إذا امنوا بالنبي (ﷺ) وأتبعوا تعاليمه واستقاموا على دينه فان الله تعالى سيرفع عنهم الكثير من الصعوبات والمكاره والبلاءات، وسيضع عنهم هذه الأغلال والآصار، وسيرحمهم.

رابعاً: إن هذه الفقرة من الآية الكريمة تعرّفنا على جانب مشرق من سيرة النبي (ﷺ) وثمرات شريعته المباركة إذ لولا كونه رحيماً شفيقاً ودوداً له أخلاق عظيمة لما استطاع تأدية هذا الدور المبارك في رحمة العباد، وبهذه المعرفة نزداد حباً لأن المعرفة تولد الحب، وهل يمكن أن يحب الانسان شيئاً يجهله ولا يعرف

عنه شيئاً، والحب يحرك نحو اتباع المحبوب وهو رسول الله (ﷺ).
خامساً: إن الآية والمعرفة التي استخلصناها منها تحمّلنا مسؤولية إعانة رسول
الله (ﷺ) في تحقيق أهدافه المذكورة وهي وضع الآصار والأغلال عن الأمة
وتحريرها من قيودها من خلال تفعيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
لمساعدة الناس على إزالة هذه الآصار والأغلال، والشاهد على ذلك أن نفس
هذه الآية تضمنت دعوة مباشرة لاتباعه ليعينه على رسالته الخالدة فيقع اجرهم
على الله تبارك وتعالى وعلى رسوله الكريم قال تعالى في ذيل هذه الآية ﴿فَالَّذِينَ
آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
(الأعراف: ١٥٧) وهذه الآية وسائر آيات القرآن الكريم ليست خاصة بأصحابه
الذين كانوا معه، بل تشمل كل المؤمنين به الى نهاية الدنيا، وهم جميعا مطالبون
بهذه النصرة والمؤازرة والإعانة، وتختتم الآية بقول حازم وهو أن هؤلاء الذين
يجمعون هذه الأوصاف هم المفلحون لا غيرهم لأنها ظاهرة في الحصر.
أعاننا الله تعالى وجميع المؤمنين على أن نكون بهذه الصفات بلطفه وكرمه.

الآية الخامسة عشر:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

﴿سورة الإسراء: ٧٦﴾

صلاة الليل وسيلة الإعداد لتحمل المسؤوليات الكبيرة ونيل المقامات الرفيعة

بيان الفاظ الآية الشريفة:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ يمكن أن تكون (من) بيانية لبيان خصوصية التهجد في الليل وعظيم بر كاته، مما سنذكره لاحقاً ان شاء الله تعالى ولأنَّ النهار من شأنه النشاط والحركة فلا يحتاج العمل فيه إلى بيان فناسبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (المدثر: ٢)، أما الليل فهو للنوم والسكون فالعمل فيه يحتاج إلى تنبيه لعدم قضاء الليل كله في النوم.

ويمكن أن تكون (من) تبعيضية أي بعض الليل، والتبعيض يمكن أن يستفاد من الباء أيضاً كما في آية الوضوء، وقد حددت آيات سورة المزمل هذا البعض، قال تعالى ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ٢-٤).

﴿فَتَهَجَّدْ﴾ الوجود هو النوم ومعنى تهجد أي قاوم النوم وتكلف اليقظة فيكون من استعمال الشيء فيما يقابله، كما يقال متأثم إذا كره الاثم^(١)،

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة هجد.

وكالتمريض الذي اشتق من المرض الا انه يعني معالجة المرض .
 وربما^(١) كان اصل معناه النوم المتقطع فيكون من يستيقظ ويصلي ثم يرجع
 الى النوم يقال له يتهجّد كما سننقل من فعل رسول الله (ﷺ).
 او ان يكون معناه الركود كما قيل في اللغة واستعماله في النوم مجازي
 فاستعير لقيام الليل لما فيه من الخشوع والاستكانة.

﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾ أي صلِّ نافلة تكون فرضاً زائداً خاصاً بك وهبة إضافية لك يا
 رسول الله (ﷺ) حيث أن قيام الليل واجب عليه خاصة^(٢) ومستحب لبقية الأمة،
 وبتنقيح المناط قد يدلّ على وجوب صلاة الليل على ولاة أمور المسلمين.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تَرَجَّى وأمل بأن يبلغ بهذا القيام
 في الليل المقام المحمود عند الله تعالى، ويمكن ان يراد به مقام الرسالة العظمى
 والولاية الكبرى أو إظهار دينه على الدين كله^(٣)، أو الشفاعة الواسعة المقبولة، أو
 تفضيله على الخلق أجمعين كما في الدعاء له (ﷺ) (اللهم أعطه الدرجة
 والوسيلة من الجنة وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون)^(٤)، ولا داعي

(١) المقام المحمود في سورة الاسراء المباركة: ٢١٣.

(٢) رواه الشيخ الطوسي في التهذيب: ٢ / ٢٤٢ / ح ٩٥٩ عن الإمام الصادق (عليه السلام).

(٣) كما ورد في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) والدعاء له (اللهم ابعثه مقاما محمودا تنصر به دينك،
 وتقتل به عدوك، وتببر به من نصب حربا لآل محمد، فإنك وعدت ذلك وأنت لا تخلف الميعاد)
 الكافي: ٤ / ٥٧٥.

(٤) الكافي: ٤ / ٥٥١.

للاقتصار على أحدها كالشفاعة في تفسير المقام المحمود فإنها ذكرت في الروايات من باب التطبيق.

وفيها إلفات الى إن الله تعالى هو الذي يمنح الشفاعة لأوليائه ﴿أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ إكراماً لهم وإظهاراً لجلالة قدرهم، ولا يعني بأي حال أنهم أرحم من الله تعالى بعباده.

حكمة استعمال صيغة الترجي في الآية:

واستعمال صيغة الترجي وليس صيغة الجزم والقطع بترتب النتيجة على الفعل ليس بلحاظ مشيئة الله تعالى لبلوغ النبي (ﷺ) المقام المحمود فإن إرادة الله إذا تعلقت بأمر فإنما ﴿يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢) ونتيجة حتمية بالنسبة لرسول الله (ﷺ) فإنه وعد له (ﷺ) والله لا يخلف الميعاد وإنما الترجي والأمل بلحاظ الأمة التي يتوقع منها الاستئان بسنة رسول الله (ﷺ) فهم مخاطبون بالآية تبعاً لرسول الله (ﷺ) ولهم ما وعدت به الآية بحسب المقامات المناسبة لهم كالشفاعة في الأهل وسائر المؤمنين، فلعل عرض النتيجة بصيغة الترجي لإحداث المزيد من الرغبة والعزم، كالذي ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ١٢٤) لحث النبي موسى وأخيه هارون (عليهما السلام) على بذل الوسع في دعوة فرعون إلى الإيمان والتوحيد، والله تعالى يعلم أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى.

أو لإلفات النظر الى أن الجزاء الحسن من الله تعالى كرم وتفضل وليس استحقاقاً لما يقوم به العبد من عمل صالح حتى تكون نتيجة حتمية، وليس لنا إلا الرجاء والأمل بفضل الله تعالى.

أو لبيان أن نفس الفعل لا يوجب هذه النتيجة بذاته وتلقائياً بل لا بد من انضمام كمالات أخرى كالإخلاص وإتقان العمل.

أو لإبقاء القلب متعلقاً بالله خائفاً من التغيير والبداء ما دام في الدنيا، فهذه الحالة للقلب فيها خير كثير، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (رُبط جنان لم يفارقه الخفقان)^(١) وقال الإمام السجاد (عليه السلام): (وإن في اللفهف إلى جودك والرضا بقضائك عوضاً من منع الباخلين)، أو لعله مثل قوله تعالى في شأن أهل الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ (هود: ١٦٨) فبعد أن عرفوا الله في الجنة علموا أن التعلق به سبحانه أكثر تطميناً للقلب من التعلق بثبات عالم الآخرة، وأن التعلق بالمعطي أفضل من التعلق بالعطاء حتى وهو عطاء غير مجدود.

ويؤيده ما روي عن الصادق (عليه السلام) أنه ذكر أن المحتوم قد يغيره الله فيظهر فيه البداء فقليل له: (نخشى أن يبدو لله في المهدي، فقال: المهدي من الموعود والله لا يخلف الميعاد)، فمتعلق وعد الله مما لا يخضع للبداء الذي يخضع له كل شيء في الكون.

(١) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ٢٠٩/١.

دور صلاة الليل في إعداد القائد المصلح:

وقد بينت آيات سورة المزمل المتقدمة أن قيام الليل يهيئ لأداء الأدوار الكبيرة وتحمل المسؤوليات العظيمة، وتمتها ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل: ٥-٦) سنوحي إليك قولاً يحمل مسؤولية عظيمة وفيه معاني عميقة، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ١١)، وهو ثقيل في آثاره ونتائجه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف: ٩)، وهو ثقيل في ما يسببه لمن يصدع به من مصاعب ومشاق ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢).

وقيل إن القول الثقيل تبليغ الأمر بخلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) من بعده، لأن الآية التي سبقتها أمرت بترتيل القرآن ويأتي بعده إلقاء القول الثقيل. فلكي تتحمل هذه الأثقال استعن بناشئة الليل أي العبادة التي تُنشئها في الليل لأنها أصعب مراساً وأشد على النفس وأثبت للإيمان وأصدق في الأداء وأدعى لحضور القلب، لانقطاع الشواغل، وفيها امتحان للإخلاص ففي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) (يعني بقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾: قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عز وجل^(١) ولا يريد به غيره)^(١) لذا فإنها تكون أحسن إنتاجاً وتحقيقاً للغرض.

(١) أي أنه (عليه السلام) فسّر ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ بالإخلاص، فإن الرجل إذا قام في الليل وترك الراحة والرياء كان عمله خالصاً، وظهرت فيه العبودية والولاية، حتى روي من كتب الفريقين أن اختصاص الملاء الأعلى في الدرجات والكفارات.. ومنها إسباغ الوضوء في السبرات.. جعلها الله مما يختصم الملاء

معرفة الأولياء بأهمية قيام الليل وأثاره:

ان أولياء الله تعالى عرفوا ما لقيام الليل من وسيلة لنيل رضا الله تعالى فواظبوا عليه، وإن الذين بلغوا ما بلغوا من مقامات كانت علامتهم المميزة مواظبتهم على قيام الليل، لاحظ أن موسى (عَلَيْهِ السَّلَام) قضى أربعين يوماً وليلة في المناجاة إلا أن الله تعالى خصّ الليالي بالذكر ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٤).

فإذا كنتم من الساعين لنيل تلك المقامات - وحريراً بكل عاقل أن يكون كذلك - فأعدّوا أنفسكم بهذه الرياضة المعنوية لتساعدكم على نيل المقامات الحميدة والخصال الكريمة.

لذا تضمنت الوصايا التي قدّمها رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لأمر المؤمنين (عَلَيْهِمُ السَّلَام) وهو يُعَدُّه لخلافته العظمى تركيزاً على صلاة الليل، عن الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَام) (كان في وصية النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لعلي (عَلَيْهِ السَّلَام) أن قال: يا علي، أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ثم قال: اللهم أعنه.... - إلى أن قال - وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل) (١).

الأعلى في ثوابها ومما فسّر به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ... قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ... أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (ص: ٦٥-٦٦) وهو من عين ص التي يُشتق منها كل ذكر. (راجع كتاب: عين الذكر في سورة ص المباركة).

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) الحر العاملي: ١٤٦/٨ ح ٥.

(٢) رواها في وسائل الشيعة عن المشايخ الثقات في أصولهم في عدة مواضع منها في كتاب الصلاة، أبواب بقية الصلوات المندوبة، باب ٣٩/ ح ١.

ومن سنن النبي (ﷺ) في صلاة الليل:

ومن سننه (ﷺ) أنه كان يفرّق صلاة الليل على أجزاءه ليكون في جميع وقته مستأنساً بلقاء ربه ففي التهذيب بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: وذكر صلاة النبي (ﷺ) قال: كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه ويوضع سواكه تحت فراشه ثم ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثم قلب بصره في السماء ثم تلا الآيات من آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠) ﴿١﴾ فما بعدها الآيات، ثم يستن^(١) ويتطهر، ثم يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات على قدر قراءة ركوعه وسجوده على قدر ركوعه^(٢)، يركع حتى يقال: متى يرفع رأسه ويسجد حتى يقال: متى يرفع رأسه، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد ويصلي الأربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثم يستيقظ ويجلس ويتلو الآيات من آل عمران ويقلب بصره في السماء، ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين، ثم يخرج إلى الصلاة^(٣) ورواه الكليني في الكافي بسند صحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) وفيه (ثم قال: لقد كان لكم في رسول

(١) لعل الكلمة في الأصل (ثم يستنك)، والسواك سنة لغيره بما سنّه هو (ﷺ) للناس من أفعاله.

(٢) قراءة الركوع هي ما يُقرأ من سور، وقول (عليه السلام): (على قدر قراءة ركوعه) أي أن مدة ركوعه مساوية لمدة القراءة في كل ركعة.

(٣) وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٥ ح ١، التهذيب: ٢/ ٣٣٤ ح ١٣٧٧.

الله (ﷺ) أسوة حسنة، قلت: متى كان يقوم؟ قال: بعد ثلث الليل^(١) وفيه قال: في حديث آخر: (بعد نصف الليل)^(٢).

أهمية قيام الليل عند الامام العسكري (عليه السلام):

وقد اختصر الحديث المروي عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) هذه الأهمية بقوله (الوصول إلى الله تعالى سفر لا يدرك إلا بامتطاء الليل)^(٣) أي أن الأعمال الصالحة الموصلة إلى الله تعالى لا بد أن تُتَوَجَّح بصلاة الليل لتوصل إلى الهدف.

وهذا الحديث له دلالات عديدة منها:

أولاً: أن الوصول إلى الله تعالى ممكن ولكنه يحتاج إلى حركة وسلوك وقطع مسافة بما يتطلب ذلك من جهد وجهاد، وأنه يحتاج إلى مركب يمطيه ليقطع به الطريق وهي صلاة الليل، وأن يتجرد من الاعتماد على كل شيء مما يتعلق به قلبه ورائه كالمسافر الذي يهجر وطنه وداره وأهله وماله ومنصبه وجاهه وعلاقاته وسائر تعلقاته.

ثانياً: ويفيد الحديث أيضاً أن الصلوات المفروضة قد لا يكفي اتخاذها وسيلة لقطع هذا السفر ولا بد من امتطاء صلاة الليل معها ليتحقق الوصول إلى الهدف

(١) وهذا مما يُستدل به على أن وقت صلاة الليل يبدأ قبل منتصف الليل بعد مضي ثلثه، ومما يدلّ على ذلك آيات سورة المزملّ الماضية فان فيها (نصفه، أو زد عليه) والزيادة على النصف تعني القيام قبل منتصف الليل.

(٢) وسائل الشيعة: ٣/ ١٩٦/ ح ٢، الكافي: ٣/ ٤٤٥/ ح ١٣.

(٣) بحار الأنوار: ٣٧٩/٧٨، مسند الإمام العسكري: ٣٧٩، الأنوار البهية للمحدث القمي: ١٦١.

بإذن الله تعالى، وإن الصلاة بشكل عام هي أداة هذا العروج إلى الله تعالى ولعل هذه المعاني منشأ الكلمة المشهورة على ألسنة العلماء (الصلاة معراج المؤمن)^(١) فهذه كلها معاني يمكن استفادتها بوضوح من الحديث الشريف.

ثالثاً: ويظهر من الحديث الشريف أن السائر إلى الله تبارك وتعالى يتعرض إلى مخاطر كالتالي يتعرض لها المسافر فلا بد له من وسيلة منجية له من المهالك، وصلاة الليل هي المنجية في هذا السفر الطويل، إلا أن يقربه الله تعالى (وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ)^(٢)، فالمسافر يتعرض إلى عدة مخاطر: كالتيه والمزالق الخطيرة والوحوش المفترسة وقطاع الطرق وفقدان الزاد، وهذه المخاطر بوجودها المناسب موجودة لمن يريد السفر إلى الله تبارك وتعالى، فقطاع الطرق هم المتلبسون بالدين والمتظاهرون بالمعرفة الذين يضللون الناس بشبهاتهم ويتدعون لهم أفكاراً منحرفة، وفقدان الزاد بضياح العمر من دون تقديم عمل صالح (آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر)^(٣) والوحوش المفترسة هم شياطين الجن

(١) قال الشيخ محمد الريشهري: ((لا يخفى أن عبارة (الصلاة معراج المؤمن) مع كثرة تداولها على الألسن بحيث صارت من أشهر الكلمات في وصف الصلاة، لم نجد لها مصدراً مسنداً إلى النبي (ﷺ) أو الأئمة (عليهم السلام)، وهذا بعد أن استقصينا كلمات أصحاب الكتب في شتى العلوم ووجدناها في أكثر من ثلاثين موضعاً من عباراتهم، علماً أن كتب السنة كلها وكتب الشيعة جلها إلا ما دون في القرون الأخيرة - كروضة المتقين وبحار الأنوار للمجلسين أعلى الله مقامهما والرواشح السماوية للمحقق الداماد (قدس سره) - خالية منها، فالظاهر أنها ليست برواية بل من عبارات علمائنا المتأخرين رضوان الله تعالى عليهم)) (كتاب: الصلاة في الكتاب والسنة: ١٥).

(٢) مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي

(٣) نهج البلاغة - خطب الإمام علي (عليه السلام): ١٧ / ٤.

والإنس الذين يزيّنون كل قبيح من الدنيا والشهوات ليقعوا الإنسان في المعاصي، ويقبّحون كل حسن من الهداية والصلاح ليطفئوا في قلبه نور الإيمان، ويتحقّق التيه بعدم أخذ العلم والمعرفة من أصلهما ومعدنهما، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعداً من حاجته)^(١).

ثواب صلاة الليل:

هذا كله من ناحية أثر صلاة الليل في تحصيل الارتقاء في سلّم الكمال، أما من ناحية الثواب فقد ورد في صلاة الليل فضلٌ عظيم ففي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) قال (عليه السلام): (ما من عمل حسن يعمله العبد وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل، فإن الله تعالى لم يبين ثوابها لعظيم خطرها عنده، فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ • ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٦-١٧) (٢).

وفي حديث قدسي (إن العبد ليقوم في الليل فيميل به النعاس يميناً وشمالاً وقد وقع ذقنه على صدره فيأمر الله تعالى أبواب السماء فتفتح ثم يقول للملائكة: انظروا إلى عبدي ما يصيبه في التقرب إليّ بما لم أفترض عليه، راجياً مني لثلاث

(١) بحار الأنوار: ١/ ٢٠٩/ ح ١١، عن نهج البلاغة.

(٢) بحار الأنوار: ٨٧/ ١٤٠.

خصال: ذنباً أغفره له، أو توبة أجددها له، أو رزقاً أزيده فيه، اشهدوا ملائكتي أنني قد جمعتهن له^(١).

وروى الإمام الصادق (عليه السلام) قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله) لجبرئيل (عليه السلام): عطني: فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، واعلم أن شرف^(٢) المؤمن صلاته بالليل، وعزه كفه عن أعراض الناس^(٣).

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (الركعتان في جوف الليل أحب إلي من الدنيا وما فيها)^(٤).

وتوجد روايات كثيرة في الآثار الدينية والدينية المباركة التي تترتب على أداء صلاة الليل كسعة الرزق وبهاء الوجه ورفع الهم والغم وإبعاد الحسد وغفران الذنوب وأنها نور في القيامة وأنس وضياء في القبر وغير ذلك، بفضل الله تعالى وكرمه.

ولأن صلاة الليل بهذه المنزلة العظيمة فإنها لا تُنال إلا بتوفيق خاص ويحرم منها من ليس أهلاً لها، في الرواية (جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي

(١) وسائل الشيعة: ٥ / ٢٧٢.

(٢) معنى الشريف في الدنيا هو الشخص الذي يشار إليه بالبنان وتتعلق فوائد الناس به وتأثيره على حياتهم، وأما في الآخرة فهم الذين يشفعون للناس ويستغفرون لهم، وهو ما يفعله المصلي لصلاة الليل من الاستغفار لأهله وذويه وكأنها مكافأته بعد الصلاة إذ تقر عينه بمغفرة الله لهم وقبول شفاعته فيهم.

(٣) وسائل الشيعة: ٥ / ٢٦٩.

(٤) علل الشرائع: ٣٦٣.

طالب (عليه السلام) فقال: إني قد حُرمت الصلاة بالليل فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) أنت رجل قيّدتك ذنوبك^(١).

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إني لأمُتُّ الرجل قد قرأ القرآن ثم يستيقظ من الليل فلا يقوم، حتى إذا كان الصبح قام يبادر بالصلاة)^(٢).

تهجد الامام الحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء:

هذا الحبّ لله تعالى وامتطاء الليل للوصول إليه سبحانه هو الذي أراده الإمام الحسين (عليه السلام) حينما طلب من ابن سعد تأجيل المعركة من عصر يوم التاسع إلى صبيحة يوم عاشوراء، فقد روي أن عمر بن سعد زحف بجيشه نحو معسكر الإمام الحسين (عليه السلام) عصر يوم التاسع فأرسل أخاه العباس (عليه السلام) ليستعلم خبرهم فقصدهم في عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحيب بن مظاهر فقال لهم العباس (عليه السلام): (ما بدا لكم، وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حُكمه أو ننازلكم! قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم) ثم أتى إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بما عرض عليه عمر بن سعد قال: (ارجع إليهم: فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية، لعلنا نصلي لربنا الليلة، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنني قد كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار)، فبات الحسين (عليه السلام) تلك

(١) وسائل الشيعة: ٥ / ٢٧٩.

(٢) بحار الأنوار: ٨٣ / ١٢٧ / ح ٧٩.

الليلة راکعاً ساجداً باکياً مستغفراً متضرعاً، وبات أصحابه ولهم دوي كدويّ
النحل^(١).

جزاهم الله تعالى عن الإسلام وأهله خير جزاء المحسنين.

(١) تاريخ الطبري: ٤١٦/٥، الكامل في التاريخ: ٥٥٨/٢، البداية والنهاية: ١٧٦/٨ الإرشاد: ٨٩/٢

مناقب ابن شهر آشوب: ٩٨/٤، مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: ٢٥١/١ وغيرها.

الآية السادسة عشر:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿الفتح: ١﴾

الفتح السلمي^(١)

فضل قراءة سورة الفتح:

وردت في فضل قراءة سورة الفتح أحاديث عديدة، كالذي رواه أبي بن كعب عن النبي (ﷺ) قال: (من قرأها فكأنما شهد مع محمد فتح مكة)، وفي رواية أخرى (فكأنما كان مع من بايع محمداً تحت الشجرة)^(٢)، وروى الشيخ الصدوق بسنده عن عبد الله بن بكير عن أبيه قال: قال أبو عبد الله: (حصنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت إيمانكم من التلف بقراءة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فإنه إذا كان ممن يدمن قراءتها ناداه مناد يوم القيامة حتى يسمع الخلائق: أنت من عبادي المخلصين ألحقوه بالصالحين من عبادي، فأسكنوه جنات النعيم، وأسقوه الرحيق المختوم بمزاج الكافور)^(٣)، وفي صحيح البخاري عن النبي (ﷺ) قال: (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)^(٤)، وفي كتاب

(١) قبس قرآني ضمن محاضرات تفسير (من نور القرآن) التي تلقى كل يوم اربعاء على طلبة البحث الخارج وتاريخ القبس ١٦/ربيع الثاني/١٤٤٥هـ- الموافق ١١/١١/٢٠٢٣م.

(٢) مجمع البيان: ٩٨/٩. البرهان في تفسير القرآن: ٦١/٩.

(٣) ثواب الأعمال: ١١٥.

(٤) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾،

طب الأئمة (عليهم السلام) بإسناده عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كنت عند علي بن الحسين (عليهما السلام) إذ أتاه رجل من بني أمية من شيعتنا فقال له: يا ابن رسول الله ما قدرت أن أمشي إليك من وجع رجلي، قال (عليه السلام): أين أنت من عوذة الحسين بن علي (عليهما السلام)؟ قال: يا ابن رسول الله وما ذاك؟ قال: ثم ذكر الآيات السبع الأولى من السورة، قال: ففعلت ما أمرني به، فما حسست بعد ذلك بشيء منها بعون الله تعالى^(١).

سبب نزول سورة الفتح:

وقد نزلت السورة في صلح الحديبية والاتفاق الذي جرى بين النبي (ﷺ) ومشركي قريش وبيعة الرضوان تحت الشجرة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨) في السنة السادسة للهجرة على ما تشهد به آيات السورة، والروايات الواردة في سبب نزولها، فما ورد في بعض الروايات من أنها نزلت في فتح مكة كقول الإمام الرضا (عليه السلام): (فلما فتح الله على نبيه مكة قال يا محمد ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾^(٢)، ورواية عائشة في الدر المنثور عن النبي (ﷺ) قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: فتح مكة^(٣)، يحمل على ما ورد فيها من الوعد بفتح مكة ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨)، أو لأن صلح الحديبية مهّد لفتح مكة بعد سنتين، وقبله فتح خيبر وإنهاء الوجود اليهودي

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٣٣ ح ١١.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٣٢ ح ٨.

(٣) الدر المنثور: ٧/ ٥١٠، ط. دار الفكر.

الخيث في جزيرة العرب، أو لأن فتح مكة قد بدأ تحقيقه فعلاً من يوم الحديبية باقتحام عقيدة الإسلام مكة وإذعان قريش ببعجزهم عن مواجهة الإسلام، أو قل إن فتح مكة سياسياً وعقائدياً واجتماعياً قد تحقق في صلح الحديبية وإن تأخر عسكرياً إلى السنة الثامنة للهجرة.

والآية قابلة للانطباق على الفتوحات المادية والمعنوية إلى يوم القيامة، ومنها ما يحصل اليوم من تفوق الإسلام على سائر الأديان والأيدولوجيات والأنظمة والقوانين بالبراهين والحجج والقوانين المحكمة والمبادئ السامية، وانتشاره السريع في الدول الغربية المادية وإقبال الناس أفواجاً وجماعات على اعتناقه، فهذه كلها فتوحات مستمرة بفضل الله تعالى، إلى أن يحصل الفتح الأعظم بظهور قائم آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) (وأعنا على ذلك بفتح منك تعجله)^(١).

احداث صلح الحديبية:

وخلاصة الواقعة^(٢): إن النبي (ﷺ) خرج من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهدي سبعين بدنة وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وليس غازياً، وخرج معه ألف وأربعمائة على أكثر الأقوال وتخلّف عنه كثيرٌ من الأعراب ﴿سَيَقُولُ لَكَ

(١) من دعاء الافتتاح الذي يتلى في ليالي شهر رمضان المبارك.

(٢) عن تفسير علي بن إبراهيم: ٣٠٩ / ٢، الكافي: ٣٢٢ / ٨، مجمع البيان: ١٠٥ / ٩، البرهان في تفسير

القرآن: ٦١-٦٤، سيرة ابن هشام: ٣ / ١٩٦-٢٠٤.

الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُ لَنَا﴾ (الفتح: ١١)، وهم كاذبون في دعواهم، وإنما تخلفوا خوفاً من بطش قريش، لأنهم اعتقدوا جازمين أن هذه السفارة عملية انتحارية إذ كيف يجازف النبي (ﷺ) ويخرج بهذا العدد من المعتمرين المسالمين ويقدم نفسه وأصحابه لقمه سائغه لقريش المتجبرة ذات العدة والعدد التي حشدت لقتاله قبل عام واحد عشرة آلاف مقاتل حاصروا المدينة في واقعة الأحزاب ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنَّ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ (الفتح: ١٣).

ولما علمت قريش بتوجهه (ﷺ) دفعت بجيش مدجج بالسلاح لمواجهته وتقدمتهم كتيبة من الفرسان على رأسها خالد بن الوليد، ولكن النبي (ﷺ) سلك طريقاً غير المتعارف فوصل حدود مكة من أسفلها وليس من شمالها كما هو المفروض للقادم من المدينة وتجنب ملاقاتهم، ففوجئت قريش بالنبي (ﷺ) والمسلمين ينزلون في الحديبية على مشارف مكة على حد الحرم الآمن ولا يستطيعون قتاله، وأسقط ما في أيديهم وعلاهم الذل والهوان، وحينما وصل النبي (ﷺ) الحديبية أسفل مكة بركت ناقته فقال الناس: خلأت الناقة -أي حرنت عن المشي- فقال: (ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها) ثم أمر الناس بالنزول، وأرسل من يطمئن قريشاً بأنه جاء زائراً ولم يأت لقتال، لكنهم أصرّوا على عدم دخوله وقالوا: ((وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب)) وتبادلوا الرسائل، حتى تدخل

عروة بن مسعود الثقفي^(١) والتقى بالنبى (ﷺ) ورأى الأخلاق العظيمة لرسول الله (ﷺ) وتفانى أصحابه بين يديه، فعاد إلى قريش وقال لهم: ((يا معشر قريش: إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم)).

فأرسلت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله (ﷺ) وقالوا له: ((أنت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً)) فوافق النبي (ﷺ) على الصلح، وكتبنا بذلك كتاباً رفض سهيل افتتاحه بالبسملة والاكتفاء بما تعارفوا عليه في الجاهلية وهو قول (باسمك اللهم)، كما رفض أن يذكر إلى جنب أسم محمد (ﷺ) وصفه بأنه رسول الله ووافق النبي (ﷺ) وجاء فيه: ((هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة - أي صدور منطوية على ما فيها- وأنه لا إسلال ولا إغلال- أي لا سرقة خفية ولا خيانة- وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت

(١) الذي روي أنه المقصود في الآية الكريمة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣٦).

بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)) وكان كاتب الصحيفة علي بن أبي طالب (عليه السلام)^(١).

موقف بعض الصحابة من صلح الحديبية:

وقد اعترض عمر بن الخطاب على قبول النبي (ﷺ) بشروط الصلح وقال له: ((علام تعطي الدنيا في ديننا)) وكأنه يريد أن يدفع الصحابة نحو قتال قريش بإثارة العصبية فيهم^(٢)، ووافق على ذلك جماعة رغبة في القضاء على المسلمين لأنهم قلة ومسالمون وفي قبضة قريش وقال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ (الفتح: ١٣) ولعلمهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح: ١٦) والمراد بالكفر هنا كفران النعمة وحق الطاعة وليس المشركين الذين ما فارقوا الجاهلية حتى يُعَيَّرُوا بها أو

(١) في تفسير القمي: (قال رسول الله ﷺ): يا علي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة، فوالذي بعثني بالحق نبياً، لتجيبن أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد. فلما كان يوم صفين ورضوا بالحكمين، كتب: هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب: هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): صدق الله وصدق رسوله، أخبرني رسول الله ﷺ) بذلك، ثم كتب الكتاب) (البرهان: ٦٤ / ٩).

(٢) ولا أدري من أين أتته الشجاعة في مواجهة قريش وهو القائل بكل جين ووقاحة قبل معركة بدر حينما استشار النبي (ﷺ) أصحابه في قتال قريش بعد ان أفلتت القافلة ((إنها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت، ولا ذلت منذ عزت، ولم نخرج على أهبة الحرب))، بحار الأنوار: ٢١٧ / ١٩.

تحتاج الحماية الجاهلية إلى جعل جديد فقال له النبي (ﷺ): (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني).

وأخرج البيهقي عن عروة قال: (أقبل رسول الله (ﷺ) من الحديبية راجعاً فقال رجلٌ - لم يسمه - من أصحاب رسول الله (ﷺ): والله ما هذا بفتح لقد صُدِدنا عن البيت وصدَّ هدينا وعكف رسول الله (ﷺ) بالحديبية ورد رجلين^(١) من المسلمين خرجا فبلغ رسول الله (ﷺ) قول رجال من أصحابه - ممن هم على شاكلة ذلك الرجل -: إن هذا ليس بفتح فقال رسول الله : بئس الكلام، هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون

(١) وهما أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وكان معتقلاً في مكة ومكبلاً بالحديد فأفلت وقدم على رسول الله (ﷺ) مستجيراً وأبوه سهيل لا زال عند رسول الله (ﷺ) يكتب الوثيقة ويوقعها نيابة عن قريش، والآخر هو أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي لجأ إلى النبي (ﷺ) بعد وصوله المدينة، فردهما رسول الله (ﷺ) إلى قريش التزاماً ببنود الاتفاقية، ولما كبر هذا الشرط على المسلمين قال (ﷺ): من جاءهم منا فأبعده الله ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام في قلبه جعل له مخرجاً، (مجمع البيان: ١٠٦/٩). وكان رسول الله (ﷺ) يطمئنهم بأن الله سيجعل لهم مخرجاً وهذا ما حصل فقد قام هؤلاء بحرب عصابات ضد قريش من كمين اتخذوه مما اضطر قريش إلى إلغاء هذا الشرط وأن يقبلهم رسول الله (ﷺ).

بالله الظنوننا؟ قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا، فأنزل الله سورة الفتح^(١).

أقول: الرجل الذي لم يسمه هو عمر بن الخطاب بقرينة ما أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وآخرين عن عمر أنه سأل رسول الله (ﷺ) عن شيء ثلاث مرات فلم يجبه حتى ذهب ثم دعاه النبي (ﷺ) وقال له: (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة أحب إليّ من الدنيا وما فيها) وقرأ سورة الفتح.

من نتائج صلح الحديبية:

لقد تحقق بصلح الحديبية فتح ظاهر بين النبي والمسلمين لمسوا بركاته عاجلاً، ولعظمة هذا الفتح فقد نسبته الله تعالى إليه مباشرة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: ١)، وفي هذه النسبة ﴿إِنَّا﴾ موعظة للمؤمنين بأن الله تعالى حاضر في كل شيء ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، فعلى المؤمنين أن يلتفتوا إلى رعاية الله تعالى المباشرة لهم، وأن يتيقنوا أنه ما من نصر بل كل توفيق يحصل إلا بلطفه وتأيده تبارك وتعالى.

وكان من مظاهر هذا الفتح:

١- توقف الحرب مع قريش وحصول المسلمين على الأمن من ويلات الحروب المتكررة التي أشار النبي (ﷺ) إلى بعضها في كلمته الآتفة، قال تعالى: ﴿أَوَّلًا

يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَتُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكِّرُونَ ﴿التوبة: ٣٦﴾، وعاد النبي (ﷺ) والمسلمون سالمين منتصرين إلى المدينة ومعهم عهد بدخول مكة آمنين العام المقبل بعد أن كانوا يظنون أن قريشاً ستبيدهم في الصحراء، كما في الآية (١٢) المتقدمة.

٢- توفر الأجواء المناسبة لانتشار الدعاة والمبلغين والانفتاح على قبائل العرب وإقناعهم بالإسلام، بعد أن رفعت الغشاوة عن أعينهم، وكُسِرَ الحصار الإعلامي على رسول الله (ﷺ) بالتشويه والافتراء والتسقيط، وعرفوا سمو أخلاق رسول الله (ﷺ) وإنه جاء بالعدالة والكرامة والسلام والأخلاق الحميدة وقد نجحت الخطة، حتى خرج مع النبي (ﷺ) إلى مكة بعد سنتين لفتحها عشرة آلاف مقاتل بينما لم يزيدوا في الحديبية عن ألف وأربعمائة، وهذا يعني أن عدد المسلمين تضاعف خلال سنتين عدة أضعاف عددهم خلال تسعة عشر عاماً من عمر الرسالة، قال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (فما انقضت تلك المدة حتى كاد الإسلام يستولي على أهل مكة)^(١).

٣- انتزاع اعتراف قريش بالوجود الإسلامي كأمر واقع فأذعنوا له وجاؤوا طالبين الصلح وهم أكثر عدة وعدداً ومعهم حلفاؤهم من قبائل العرب، وبذلك انقلبت موازين الحرب لصالح رسول الله (ﷺ).

٤- التمهيد للفتح الأعظم وهو فتح مكة بعد سنتين، بسبب حرق قريش لبنود الصلح بعد أن أدركت أنه ليس لمصلحتها وأنه أدى إلى عزل قريش وتفككها

حيث اقتنع عدد كبير من رموزهم بالإسلام والتحقوا بالنبي (ﷺ) في المدينة كخالد بن الوليد قائد الفرسان.

٥- تفرغ النبي (ﷺ) لتقوية جبهته الداخلية عقائدياً وأمنياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ومعالجة الأخطار الكامنة فيها الآتية من المنافقين في المدينة ومن اليهود في خيبر خارج المدينة، حيث استأصل وجودهم في السنة التالية ودعم اقتصاده الفتى الضعيف بما غنم من أموالهم في الحروب المتعددة معهم وتوجه إلى خارج الجزيرة لقتال الروم في مؤتة، ووجه رسائل إلى ملوك الفرس والروم والحبشة يدعوهم إلى الإسلام.

دروس مستفادة:

ومن الدروس المستفادة من هذا الفتح أن من الممكن تحقيق النصر والفتح سلماً وبدون قتال من خلال معاهدات الصلح، وأن الشعوب يمكنها أن تحقق النصر على العدو الظالم المستبد وتقع الدنيا بقضيتها العادلة بمسيرات سلمية تخرج العدو وتسلب منه كل الذرائع لاستعمال العنف ضدهم فيدعن لمطالبهم، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ذكرتها في بيان عن جدوى المسيرة المليونية في زيارة الأربعين والنتائج المباركة المترتبة عليها^(١).

وبذلك لا نستبعد ما ورد في الدعاء للإمام المهدي الموعود (ﷺ) (حتى تسكنه أرضك طوعاً) وهو ما تناولته مفصلاً في حديث سابق^(٢).

(١) موسوعة خطاب المرحلة: ٤ / ٢٨٠-٣٥٣.

(٢) موسوعة خطاب المرحلة: ١٣ / ١٨٧.

الآية السابعة عشر:

اللَّهُ تَعَالَى يَتَكْفَلُ بِمَعَالِجَةِ تَبَعَاتِ الْعَمَلِ الرَّسَالِيِّ (١)

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ﴿الفتح: ٢﴾

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح: ١) والظاهر أن اللام للغرض، أي أن الله تعالى أنجز لنبيه هذا الفتح لتحقيق عدة بركات، قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿الفتح: ٢-٣﴾، ومحل البحث الفقرة الأولى.

تفسير معنى الذنب في الآية:

وعلى المعنى المعروف من الذنب وهو معصية الله تعالى وأن المغفرة رفع استحقاق المؤاخذة والعقاب، فإن الآية لا يمكن فهمها على ظاهرها، لأنها تنسب صدور الذنوب من النبي (ﷺ)، ونحن نعتقد أنه معصوم منها على جميع المستويات الصغيرة والكبيرة قبل النبوة وبعدها بحسب الأدلة العقلية والنقلية، وقد أدبه ربه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٥) فكيف يرتكب ما يخاف منه؟، كما أنه على هذا المعنى لا يبدو

(١) كلمة أُلقيت على طلبة البحث الخارج ضمن درس الأسبوعي لتفسير القرآن يوم الأربعاء

الارتباط بين الفتح وغفران الذنوب الذي يقتضيه التعليل واضحاً، مع ما يمكن أن يقال بأن التعهد بمغفرة ما تأخر من الذنوب أي المستقبلية التي لم تقع بعد فيه إغراء بالمعصية، فهذه إشكالات ثلاث تأتي على هذا المعنى من الذنب.

وجوه تفسير الآية عند العامة:

وبناءً على المعنى المعروف للذنب فقد ذكر مفسرو العامة وجوهاً لتفسير الآية لا تنسجم مع عقيدتنا الحقّة في سعة عصمته (ﷺ) التي لا يوافقنا عليها العامة، قال الطبرسي (رضوان الله عليه) ناقلاً عنهم: ((فمنها: أنهم قالوا: معناه: ما تقدم من معاصيك قبل النبوة وما تأخر عنها.

ومنها: قولهم: ما تقدّم قبل الفتح وما تأخر عنه.

ومنها: قولهم: ما وقع وما لم يقع، وعلى الوعد بأنه يغفر له إذا وقع))^(١).

أقول: لا يمكن قبول مثل هذه الوجوه المخالفة للعقيدة الحقّة، مضافاً إلى أنها غير واضحة التفرع عن الفتح المبين كما يظهر من (لام) الغرض، قال السيد الطباطبائي (قدّس سرّه): ((اللام) في قوله ﴿لِيَغْفِرَ﴾ للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ، فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ومن المعلوم أن لا رابط بين الفتح وبين مغفرة الذنب ولا معنى معقول لتعليله بالمغفرة))^(٢).

(١) مجمع البيان: ٩٩ / ٩.

(٢) الميزان: ٢٥٧ / ١٨. ط. الأعلمي - بيروت.

علماء الشيعة وتفسير الآية:

لذا فيجب تفسير الآية بما لا يتنافى مع عقيدتنا في عصمة الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)، قال الطبرسي: ((ولأصحابنا فيه وجهان من التأويل أحدهما: إن المراد ليغفر لك الله ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر بشفاعتك، وأراد بذكر التقدم والتأخر ما تقدم زمانه، وما تأخر، كما يقول القائل لغيره: صفحت عن السالف والآنف من ذنوبك. وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للاتصال والسبب بينه وبين أمته.

ويؤيد هذا الجواب ما رواه المفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) قال: (سأله رجل عن هذه الآية فقال: والله ما كان له ذنب، ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي (عليه السلام) ما تقدم من ذنبهم وما تأخر)^(١). وروى عمر بن يزيد قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) عن قول الله سبحانه ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال: ما كان له ذنب، ولا هم بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعة، ثم غفرها له))^(٢).

أقول: إن كان يقصد ثبوت أصل الشفاعة للنبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين)، فهذا ثابت بالكتاب والسنة وهو صحيح في نفسه فقد أكرم الله تعالى نبيه بالشفاعة، وقد روي أنها المقام المحمود الذي وعده الله تعالى، لكن التعليل

(١) مجمع البيان: ٩/ ١٨٤، ط. الأعلمي - بيروت. هكذا رواها الطبرسي مرسلة في مجمع البيان، والموجود في (البرهان: ٩/ ٦٧) عن تأويل الآيات رواية عن مجاهيل ولا تنتهي إلى المعصوم إذ فيها محمد بن سعيد المروزي - وهو غير المذكور في معجم الرجال - قال: (قلت لرجل.. إلى آخره).

(٢) علل الشرائع: ١٧٣/ ح ١.

والتفريع على الفتح غير واضح، مضافاً إلى أنه معنى لا يصح على إطلاقه لمخالفته لصريح القرآن ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨)، ولا تقبل بسريان عقيدة النصارى إلينا بأن المسيح صُلب ليفتدي أتباعه إلى يوم القيامة، فإن فيه إغراء الأمة بالمعاصي.

وأما رواية عمر بن يزيد فإنها لا تصلح شاهداً على ما ذكر من المعنى، وإنما تعني أن الأفعال السيئة لأمتها التي تلحقه تبعثها والمسؤولية الأخلاقية عنها باعتبارها القائد الأعلى لهم، قد غفرها الله تعالى له وهذه التبعات وابتلاء النبي (ﷺ) بأمته مستمرة حتى بعد وفاته، وهذا أحد الوجوه التي يمكن حمل استغفار المعصومين (عليهم السلام) من الذنوب عليها.

ثم قال (ذات السبيل): ((والثاني: ما ذكره المرتضى (قدس الله روحه) أن الذنب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، والمراد ما تقدم من ذنبهم إليك في منعهم إياك عن مكة، وصدّهم لك عن المسجد الحرام، ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل الإزالة، والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه أي: يزيل الله تعالى ذلك عنك، ويستر عليك تلك الوصمة، بما فتح لك من مكة، فستدخلها فيما بعد. ولذلك جعله جزاءً على جهاده، وغرضاً في الفتح، ووجهاً له قال: ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه، لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ﴾ معنى معقول، لأن المغفرة للذنوب لا تعلق لها بالفتح، فلا يكون غرضاً فيه.

وأما قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ ... وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فلا يمتنع أن يريد به ما تقدم زمانه من فعلهم القبيح بك وبقومك)).

أقول: هذا وجه حسن ومنسجم مع ما سنختاره إن شاء الله تعالى لأن إضافة المصدر إلى مفعوله سائغ كقولك: (جئت طالباً وعظك) فإنه قابل للحمل على وعظه للمقابل ووعظ المقابل له فيكون اللفظ مجملاً وحمالاً لوجوه لكنه غير مخل لأن المراد يعرف من القرائن، نعم قد يشكل على هذا الوجه بأن الذنب هنا اسم مصدر وليس مصدر.

قال (قَلْبِيَّ): ((وقيل أيضاً في ذلك وجوه آخر:

منها: أن معناه: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك - أي أن الوعد افتراضي، وفيه: أنه خلاف الظاهر من الامتنان بمغفرة ذنوب فعلية.-

ومنها: أن المراد بالذنب هناك ترك المندوب، وحسن ذلك، لأن من المعلوم أنه ممن لا يخالف الأوامر الواجبة، فجاز أن يسمى ذنباً منه، ما لو وقع من غيره لم يسم ذنباً، لعلو قدره ورفع شأنه)).

وفيه: عدم وضوح الارتباط بينه وبين الفتح ليكون غرضاً له.

ثم قال (قدس سره) ((ومنها: أن القول خرج مخرج التعظيم، وحسن الخطاب كما قيل في قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ (التوبة: ١٢) وهذا ضعيف، لأن العادة جرت في مثل هذا أن يكون على لفظ الدعاء))^(١).

تفسير آخر للذنب:

أقول: يمكن أن يكون الذنب مشيراً إلى ما تقتضيه الطبيعة البشرية المتضمنة للجسد من القصور في أداء وظائف العبودية لله تعالى لابتلائها بالحاجات الحياتية

(١) مجمع البيان: ٩٩/٩-١٠٠. ط. مؤسسة التاريخ العربي - بيروت.

كالنوم والأكل وشؤون العائلة، وتكون المغفرة - التي تعني الستر ومحو الآثار - بمعنى تكميل هذا النقص الذاتي الذي تقتضيه الطبيعة البشرية ليكون في أكمل الصفات التي تناسب حمل الرسالة الإلهي.

وقد يشكل عليه بأنه غير واضح الارتباط بالفتح بحسب إفادة اللام للتعليل، ويجاب بالمعنى الواسع للفتح الذي ذكرناه في تفسير الآية الأولى، وبانسجام هذا المعنى مع النعم المذكورة في بقية الآية.

ويمكن أن نذهب في اتجاه آخر لمعالجة الإشكال ونقول: إن أصل الإشكال قد يكون لا موضوع له، لأن معنى الذنب أوسع من معصية الله تعالى وإنما هي مما استعمل فيها لفظ الذنب لأنها من مصاديقه ولا يقتصر معناه عليها، فإنه لغةً ((كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً بذنب الشيء، ولهذا يسمى الذنب تبعه اعتباراً لما يحصل من عاقبته))^(١).

أقول: فيمكن أن يطلق على ترك الأمور الراجحة عقلاً أو شرعياً وإن لم تكن من المعاصي، كما يطلق الذنب على التبعة وفق نظر المجتمع أو القوانين الوضعية، كقول النبي الكريم موسى ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (الشعراء: ١٤) ولم يصدر منه ذنب بالمعنى المعروف وهو مخالفة التكليف الشرعي؛ لأنه انتصر لمظلوم ولكنه كان يُعدّ مذنباً بحسب قانون الظلمة.

ومن مصاديق هذه الفكرة ما روي من وجه يناسب جعل المغفرة غرضاً مترتباً على الفتح ومرتباً به من دون أن يلزم منه مخالفة التكليف الشرعية، وهو

(١) مفردات الراغب، مادة الذنب.

ما لحقه من تبعات سيئة عند المشركين والكفار من قومه وغيرهم بسبب دعوته المباركة وخروجه عن تقاليد قومه وتمردّه عليهم فهم يعدّونه مذنباً، بل أن بعض أصحابه كان يعدّ النبي مذنباً بتوقيع عقد الصلح مع مشركي قريش واعتقدوا إن فيه حيفاً على المسلمين وجابوه بقولهم: ((لماذا نعطي الدنيا في ديننا)) وكانوا يدفعون باتجاه القتال، فمنّ الله تعالى عليه بمغفرة هذه الذنوب أيضاً، وأزالها من نفوسهم بظهور بركات الفتح.

ففي العيون بسنده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: (حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى (عليه السلام)) فقال له المأمون: يا ابن رسول الله، ليس من قولك: الأنبياء معصومون؟ قال: بلى.. إلى أن قال: فأخبرني قول الله عز وجل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟

قال الرضا (عليه السلام): لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله (ﷺ) لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. ﴿وَانظُرْ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ (ص: ٥-٧) فلما فتح الله عز وجل على نبيه مكة قال له يا محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ مكة ﴿فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر؛ لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على

إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم ذلك مغفوراً بظهوره عليهم. فقال المؤمنون: لله درك أبا الحسن^(١).

أقول: هذا الوجه يظهر بوضوح المناسبة بين الفتح ومغفرة الذنب وهو مبني على المعنى الواسع للذنب الذي أشرنا إليه، فإن المستكبرين وأصحاب الامتيازات يعتبرون خروج النبي (ﷺ) على نظامهم الاجتماعي، وسعيه الدؤوب لتحرير الناس من استعبادهم وما تسبب من قتل ساداتهم وإذلالهم، من أعظم الذنوب لذلك فقد شنوا عليه الحروب بكل أشكالها العسكرية والاقتصادية والإعلامية والاجتماعية، ومارسوا أقذر أساليب التشويه والتسقيط والافتراء لإبعاد الناس عنه، فلما فتح الله تعالى لنبيه في الحديبية وما تلاه من فتح مكة تلاشت كل تلك الحروب، وظهر زيف الادعاءات، وقلت قيمة تلك المؤاخذات بانقلاب الموازين واتضح المصلحة، وانكشفت حقيقة الإسلام ونبيّه العظيم لكل المغفلين المضللين ومحا الله تعالى عنه آثار كل تلك الذنوب التي نسبت إليه وفق القوانين الظالمة للمشركين، فهذا هو المعنى الأقرب للآية الكريمة^(٢).

والظاهر أن هذه المغفرة على نحو الوعد وليس الحتم والإلزام، أي على نحو شرط الفعل وليس شرط النتيجة لحاجتها إلى الاستغفار المستمر، وإلا لا يبقى

(١) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٧٤ - ١٨٠، باب ١٥/ ح ١، ط. الأعلمي - بيروت.

(٢) وهو معنى جارٍ في غير المسلمين كما نراه اليوم حين نقرأ لبعض الغربيين مؤاخذاتهم لما نُقل لهم من أفعال نبي الإسلام ومعاركه (ﷺ) ثم حين يتعمقون أكثر ويصححون موازين التفكير عندهم ويدققون في النقولات المزيفة يصحح الله تعالى نظرتهم لنبي الإسلام كما صححه لمشركي مكة ومسلمي يوم الحديبية.

موضوع لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد: ١٩) وبذلك يندفع إشكال الإغراء بالمعصية.

تفسير قوله تعالى (ماتأخر):

والمراد بما تأخر: التبعات الاجتماعية اللاحقة التي تحصل بسبب استمرار
الرسالة المباركة في الدعوة إلى الله تعالى، ونبذ عبادة الطواغيت وسائر ما يُتَّبَع
ويطاع من دون الله تعالى، واتساع الدعوة المباركة وإصرارها على إصلاح الواقع
الفاسد فتحصل تلقائياً تبعات جديدة.

الدرس والموعظة من الآية:

وفي الآية الكريمة أكثر من درس وموعظة:

١- أننا إذا عملنا لله تعالى مخلصين فإن الله تبارك وتعالى يتكفل بالدفاع عنا
وإحباط كل محاولات الأعداء للنيل منا بالتشويه والتسقيط والافتراء وإزالة
آثارها وتغيير قناعات المضللين.

٢- إن على القيادات الرسالية أن تنتبه إلى ما تسببه حركتهم الرسالية من تبعات
اجتماعية لدى القريب والبعيد وتسعى إلى علاجها؛ لأن بقاءها يعيق تقدم
المشروع الرسالي وانتشاره.

إنارة: وينبغي الالتفات إلى أن الأجوبة المتقدمة كانت بلحاظ ما ورد من
الإشكال على هذه الآية الكريمة، ويكون الإشكال أوسع وأوضح ويحتاج إلى

أجوبة أخرى في موارد إقرار المعصومين (عليهم السلام) واعترافهم الوارد في الأدعية
والمناجاة وقد قدمنا في محاضرة سابقة^(١) عشرة أجوبة لفهم مثل هذه الكلمات.

(١) من نور القرآن: ٣٦٧/٤.

الآية الثامنة عشر:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران: ﴿١٥٩﴾﴾

الرحمة بالمؤمنين

من ابرز الصفات الكريمة التي سجّلها القرآن الكريم للنبي (ﷺ): الرحمة بالمؤمنين، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، كقوله تعالى ﴿حَرِيصٌ عَلَیْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ﴿١٢٨﴾)، وكان الغرض من بعثه الشريفه الرحمة بالعباد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ﴿١٣٧﴾)، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ (الأعراف: ﴿١٥٦-١٥٧﴾).

ومنها، الآية التي نحن بصدددها، وهي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ﴿١٥٩﴾)، وتستخلص منها عدة دروس:

دروس من الرحمة النبوية:

١- أهمية صفة الرحمة في القائد والمسؤول الذي يريد التآسي بالقيادة النبوية المباركة؛ لأنها سر نجاح القادة، والمسؤولين في حركتهم نحو نفع الأمة، ورعايتها، وهي أساس كل احسان ومعروف تقدّمه للآخرين، وإن

أساس التفاف الناس حول القائد هي الاخلاق، اما اللفظ الغليظ فقد يضيّع حقه؛ لافتقاده هذه الصفة، لذا كانت من الوصايا المهمة التي وجهها أمير المؤمنين (عليه السلام) الى مالك الاشر لما ولاه مصر، قال (عليه السلام): (وَأَشْعُرُ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ)^(١)، أي ان قلبك حتى لو كان غير ممتلئ بالرحمة التي هي ضرورية لنجاح عملك، فعليك أن تتكلفها، وتدرّب قلبك عليها، وتستشيرها في باطنك حتى تصبح ملكة راسخة، فان الصفات، والملكات الحسنة يمكن تحصيلها بالتهذيب، والتدريب.

وهذه الصفة يحتاج الى استشعارها كل أحد؛ لأننا كلنا مسؤولون وإن كان بدرجات متفاوتة، ففي الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)^(٢)، فرّب الاسرة مسؤول عن اسرته، ومدير الدائرة كذلك عن دائرته، ومثله المعلم عن طلبته، والوزير عن وزارته، والضابط عن جنوده، والمرأة عن بيتها واطفالها، وهكذا.

ولما سُئِلَ أحدهم من هو أحبُّ أبنائك اليك؟ لم يجب بأنه فلان، أو فلان، وانما قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود^(٣)، والجامع المشترك لهؤلاء هو حاجتهم الى الرحمة والشفقة أكثر من غيرهم.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي (عليه السلام): ٨٤ / ٣.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٣٨ / ٧٢ - صحيح البخاري - البخاري: ١٢٥ / ٣ - صحيح ابن حبان - ابن حبان: ٣٤٣ / ١٠.

(٣) أنظر: جامع المسانيد والسنن - ابن كثير: ٧٤٣ / ٦ - الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني: ٢٥٣ / ٥.

٢- ان هذه الصفة، وسائر خصال الخير، والكمال، لا يمكن تحصيلها بالسعي، والعمل، وحده، بل لابد من توفيق إلهي، ولطف بالعبد، فوصفت الآية الرحمة أنها ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، عن الإمام الجواد (عليه السلام) قال: (المؤمن يحتاج الى توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه)^(١).

٣- ان القائد هو محور وحدة الأمة؛ إذا كان رحيماً، ليناً، شفيقاً، وهو سبب تفرقتها، وتشتتها، وانقضاضها؛ إذا كان فظاً، غليظ القلب، قاسياً لا يهتم بشؤون الرعية، ولا يتواضع لهم، ولا يتفقدهم.

ولأن أهل البيت (عليهم السلام) ورثوا أخلاق النبي (صلى الله عليه وآله)، وصفاته الكريمة، فقد كانوا محور اجتماع الأمة، ووحدتها، وهذا ما عبّرت عنه الصديقة الزهراء (عليها السلام) بقولها: (وَطَاعَتَنَا نِظَامًا لِلْمَلَّةِ، وَإِمَامَتَنَا أَمَانًا مِنَ الْفُرْقَةِ)^(٢)، فاذا وجدت امة متوحدة فاعلة، فاعلم ان رحمة الله شملتها، والعكس بالعكس، وقد نقل معروف بن فيروز الكرخي قوله: (إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً فتح له باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل)^(٣).

٤- الاجراء التربوي والاصلاحي الذي مارسه النبي (صلى الله عليه وآله) مع أصحابه،

(١) تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٤٥٧. وورد مثله عن الإمام الصادق (عليه السلام). أنظر: المحاسن-

أحمد البرقي: ٢/ ٦٠٤- وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ١٢/ ٢٥.

(٢) الاحتجاج- الشيخ الطبرسي: ١/ ١٣٤.

(٣) اقتضاء العلم العمل- الخطيب البغدادي: ٧٩- حلية الأولياء- الأصبهاني: ٨/ ٣٦١.

فان الآية جاءت في السياق القرآني الذي تحدّث عن ملابسات معركة أحد^(١)، والهزيمة التي حلّت بالمسلمين بعد الانتصار الذي تحقّق اول المعركة؛ نتيجة عصيان بعضهم لأوامر رسول الله (ﷺ)، فأنهزم الجيش إلا أفراد قلائل ثبتوا حول رسول الله (ﷺ)، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين (عليه السلام).

وتسببت الهزيمة في استشهاد سبعين من اجلاء الصحابة، بينهم عم رسول الله (ﷺ) حمزة بن عبد المطلب، والمتوقع من القادة في مثل هذه المواقف انزال العقوبات الصارمة بحق المنهزمين، مضافاً الى العقاب الإلهي؛ لارتكابهم جريمة (الفرار من الزحف).

لكن الله تعالى وجّه نبيه الى اجراء عكس المتوقع، وهو قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وليس هذا فحسب، بل اعادة الثقة بأنفسهم، وإشعارهم بدورهم الفاعل في حياة الأمة، والمشاركة في قراراتها المصيرية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وفي هذا درس مهم لأولياء الأمور على جميع الأصعدة، بان يعتمدوا أسلوب العفو، والصفح، وزرع الثقة في نفس المخطئ، وقلع شعوره بالنقص، والدونية، لينقلب تماماً على خطأه، ويعود الى الوضع الصالح السوي.

ولو تعاملنا بيننا بهذه الخصال النبوية الكريمة لشملتنا الرحمة، والالطاف الالهية، وحلّ الكثير من مشاكلنا بلطف الله تعالى.

(١) أنظر: تاريخ الطبري- الطبري: ١٨٧/٢- الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ١٤٨/٢- شرح نهج

البلاغة- ابن أبي الحديد: ٢١٣/١٤.

الآية التاسعة عشر:

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ ﴿سورة الأنبياء: ١١﴾

النبي (ﷺ) مكفور النعمة

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (الأنبياء: ١١) وتفسير الآية باختصار ان كل عمل يقوم به الانسان فيه رضا لله تعالى ونفع للخلق فإن الله تعالى يكتب ذلك العمل ويثبته لصاحبه بما لا نُحيط من أشكال الكتابة وأنواع الشهود لشكره عليه لأن الكفران هنا بمعنى الجحود والانكار وعدم الشكر، وأصل الكفر في اللغة ستر الشيء، وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك شكرها، فكفران السعي تغطيته وإهماله وعدم المجازاة عليه، ويقابله شكر العمل لذا عبّر تعالى عن نفس هذه الحقيقة في آية اخرى بقوله تعالى ﴿وَكَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإنسان: ٢٢)، وقد ورد الشكر - كفعل وسلوك - مقابل الكفر في آيات عديدة كقوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧) وقال تعالى ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٢٠).

معنى شكر العمل:

ومعنى شكر العمل إثابة صاحبه عليه بالجزاء المناسب ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٥)، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

(الزلزلة: ﴿٧﴾) لكن هذه الآية وغيرها كآية ١١٢ من سورة طه الآية تفيد أن قبول الاعمال مشروط بالإيمان بالله تعالى وسائر العقائد الحققة.

قيمة العمل الصالح:

وقد أطلقت الآية ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ لكي لا يقلل الانسان من شأن أي طاعة فكل عمل صالح مهما ظن الانسان أنه لا قيمة له فإن الله تعالى سوف لا يكفره أي لا يهمله قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ﴿١٣٠﴾) فليس من الضروري القيام بأعمال كبيرة حتى يكون مرضياً عند الله تعالى.

وما دام العمل مسجلاً عند الله تعالى ويُشكر عليه فلا يهمه (أولاً) إن كان له تأثير في المجتمع أو لا يكون لأن هذا شيء بيد الله وقد يأتي تأثيره بعد زمن أو ينضم إلى عمل غيره فيصنع التأثير، ولا يهمه (ثانياً) إن أطلع عليه أحد وعرف انه الفاعل أو لم يطلع لأن المهم انه بعين الله تعالى ومكتوب عنده تبارك وتعالى.

فاستحضر هذه المعاني يدفع الانسان الى العمل ويرفع الهمة ويزيد من النشاط ويترد الكسل والشعور بالإحباط.

فلا كفران لسعيه:

فهذا تفسير مختصر للآية ككل أما غرضي هنا فهو الوقوف عند هذه الفقرة ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ إذ المفروض ان إثابة المحسن على إحسانه وعدم اهمال العمل الصالح بلا مكافأة قضية فطرية ومن الضروريات ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

الإِحْسَانُ ﴿الرحمن: ٦٦﴾ فلا تحتاج القضية الى بيان فلماذا يذكره الله تعالى؟
والذي يزيد السؤال إلحاحاً ذكر هذه الحقيقة مراراً في القرآن الكريم
بنفس التعبير - أي عدم الكفران - كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ
يُكْفَرُوهُ﴾ (آل عمران: ١١٥) أو بتعبير آخر كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (طه: ١١٢) أو التعبير بما
يقابله وهو الشكر كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإنسان: ٤٢)
وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩) ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٦).

يمكن القول أن الغرض هو لبيان وتقرير بعض تفاصيل عقيدة الايمان
بالمعاد واليوم الآخر والحساب ومجازاة الاحسان والاساءة وهذا ظاهر من كثير
من الآيات، والذي أريد أن أضيفه أن الغرض هو لتطمين المحسنين وعاملي
الصالحات مما يرونه من الحالة المؤسفة الغالبة لدى البشر وهي التنكر للمنعم
وكفران النعمة على عكس ما هو المطلوب منهم الى حد احتاج عدم كفران
الاحسان والعمل الصالح الى بيان وتبديد مخاوف حيث أصبح المعروف منكراً
والمنكر معروفاً.

الكفر بنعمة الله تعالى:

وأول مكفور النعمة هو الله تبارك وتعالى قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧) وقال تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

(الإسراء: ٨٩) وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣) حتى أصبح كفران النعمة صفة ملازمة لسلوك البشر إلا من عصم الله قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ (الشورى: ٤٨) والكفور هو المبالغ في كفران النعمة، وقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة في آية أخرى باستعمال ﴿إِنَّ﴾ وإدخال اللام قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (الزخرف: ١٥) مما أوجب حالة التأسف والاستغراب قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: ١٧) على خلاف الأدب النبوي المبارك، روى السيد ابن طاووس في الاقبال كان النبي (ﷺ) يقول - إذا أكل بعض اللقمة قبل تمامها - (اللهم لك الحمد أطعمت وأسقيت ورويت، فلك الحمد غير مكفور ولا مودّع ولا مستغنى عنك)^(١).

الكفر بنعمة النبي (ﷺ):

ولرسول الله (ﷺ) أسوة بربه في كونه مكفور النعمة ومجودها وهو أعظم النعم الإلهية على المخلوقات وقد قرن الله تعالى إنعامه بإنعام نبيه تعظيماً له وتكريماً قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: ٧٤) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٣٧) ولأهل البيت (عليهم السلام) أسوة برسول الله ، وكذلك اتباعهم من المؤمنين، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (كان رسول الله (ﷺ) مكفراً لا يشكر معروفه، ولقد كان معروفه على القرشي والعربي والعجمي، ومن كان أعظم معروفاً من رسول الله (ﷺ) على

(١) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس الحسني: ١١٦ س ٢٤، وروي في كتب العامة مثله.

هذا الخلق وكذلك نحن أهل البيت مكفرون لا يشكر معروفنا وكذلك خيار المؤمنين لا يشكر معروفهم^(١) وهي حقيقة مرة تكشف عن بعض صور الانحطاط في الاخلاق والسلوك البشري.

ومظاهر كفر البشر نعمة النبي (ﷺ) عديدة: -

(ومنهم) من لم يؤمن برسالته أصلاً وهم أكثر الناس قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١١٣).

(ومنهم) من آمن ظاهراً بالرسالة إلا انه بعيد كل البعد عن مضمونها كالفاسقين والمنافقين ووصلت الجرأة بهم الى أن يقولوا له في وجهه الكريم وهو في اللحظات الأخيرة من حياته (ان الرجل ليهجر).

(ومنهم) من تنكر له في عترته ونصب لهم العداً حسداً وظلماً فأرتكبوا أعظم الكبائر حتى قتلوا أهل بيته وذريته وهم يشهدون ظاهراً لله تعالى بالتوحيد والى النبي (ﷺ) بالرسالة.

(ومنهم) ظاهره التدين والالتزام بالعبادات الفردية إلا انه يُقصي شريعة رسول الله (ﷺ) عن الحياة ويمنع من تطبيقها ويدعو الى تحكيم القوانين الوضعية بعنوان (الحكومة المدنية) وهل توجد مدنية وحضارة حقيقية بغير الإسلام والقرآن والسيرة النبوية المباركة.

(ومنهم) من يريد التخلي عن سنته الشريفة التي هي بيان كتاب الله تعالى تحت عنوان الحداثة والتجديد وإعادة قراءة النصوص الشرعية بما يناسب الثقافة

(١) بحار الانوار: ٧٥ / ٤٢ / ح ٣، عن علل الشرائع: ٥٦٠ / باب ٣٥٣ / ح ٢.

المعاصرة وتمادى بعضهم فأسقط قدسية كلام المعصوم (عليه السلام) ونحو ذلك. وبالأمس القريب حينما نجح بعض الإخوة في إقرار قانون بمنع تجارة الخمر وبيعها لم نجد مدافعاً عنه من الإسلاميين ومرجعياتهم إلا النادر فيدخلون على رسول الله (ﷺ) حتى بهذه النصره الضئيلة، أليس هذا من كفر النعمة؟! وهكذا تجد صدق ما وصف به أمير المؤمنين (عليه السلام) رسول الله (ﷺ) من أنه مكفر لا يُشكر معروفه حتى من المنتسبين اليه، فعلياً ان نتبه لأنفسنا ونكون من الشاكرين لنعمة رسول الله (ﷺ) وأهل بيته الطاهرين (صلى الله عليهم اجمعين) بشكرهم والثناء عليهم والصلاة عليهم ونشر ذكرهم المبارك والدعوة اليهم وإتباع أقوالهم وأفعالهم.

آثار كفران النعمة:

ان خطورة هذا السلوك - كفران النعمة - لا يقتصر على العقوبة الوخيمة لصاحبه وقد أشرنا الى جانب من هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ۗ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾^(١) (إبراهيم: ٢٨-٢٩) حتى ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أربعة أسرع شيء عقوبة رجل أحسنت اليه ويكافيك بالإحسان اليه إساءة)^(٢).

بل يكون له أثر اجتماعي وهو ما يعبر عنه بقطع سبيل المعروف، روي عن

(١) راجع: القبس/٧٣، ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ (إبراهيم: ٢٨)، من نور القرآن: ٢ / ٣٣١

(٢) بحار الانوار: ٤٢ / ٧٥ عن الخصال: ١ / ٢٣٠ باب الأربعة / ح ٧١.

الإمام الصادق قال: (لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل: وما قاطعو سبيل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره)^(١).

وإن كان المفروض بالإنسان أن لا يمنعه عدم شكر إحسانه على تقديم المزيد من عمل الخير طلباً لرضا الله تعالى وقد طمأنته الأحاديث الشريفة على حسن جزائه عند الله تعالى، عن رسول الله (ﷺ) قال: (أفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم من الله وسيلة المحسن يكفر إحسانه)^(٢) وعنه قال: (يد الله فوق رؤوس المكفرين ترفرف بالرحمة)^(٣) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (لَا يُزْهَدُكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٤).

معنى كون المؤمن مكفر النعمة:

وقد فسرت بعض الأحاديث معنى ان المؤمن مكفر النعمة، فقد روى الشيخ الصدوق في علل الشرائع عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (الْمُؤْمِنُ مُكْفَرٌ، وَذَلِكَ أَنْ مَعْرُوفَهُ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يُنْشَرُ فِي النَّاسِ، وَالْكَافِرُ مَشْهُورٌ وَذَلِكَ أَنْ مَعْرُوفَهُ لِلنَّاسِ يَنْتَشِرُ فِي النَّاسِ وَلَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ)^(٥).

(١) وسائل الشيعة: ١٦/باب ٨ من أبواب فعل المعروف/ح ١.

(٢) بحار الانوار: ٧٥/٤٤ عن نوادر الراوندي: ٩.

(٣) علل الشرائع: ٢/٥٦٠/الباب ٣٥٣/ح ٢.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ٢٠٤.

(٥) بحار الانوار: ٧٦/٢٦٠، عن علل الشرائع: ٢/٥٦٠/باب ٣٥٣/ح ١.

أقول: مُكْفَرٌ على وزن مُعْظَمٌ وهو مجرود النعمة مع إحسانه، وذلك إما لأنه يصنعه لدى الفقراء والضعفاء المحتاجين وهؤلاء ليس لهم جاه اجتماعي وكلام مسموع حتى ينتشر ذكره بينما الكافر والمنافق يجعل معرفه في المشاهير والمتصدرين ووسائل الاعلام (والملا) بحسب التعبير القرآني فيروجون لمن أحسن إليهم.

(أو) لأن المؤمن يصنع معرفه خفية من دون رياء أو شهرة فلا يُعرف، والكافر يصنعه علانية لان غاية ما يطلب هو الرياء والسمعة بين الناس فتنحسق له. (أو) ان الله تعالى يريد حماية المؤمن من الرياء وحبط العمل فلا ينشره وتكفر نعمته ليزيد من ثوابه في الآخرة بينما المنافق والكافر لا خلاق لهما في الآخرة فيأخذون جزاءهم في الدنيا.

وذكر ابن الأثير معنى آخر لقوله (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (المؤمن مكفر) قال: (أي مرزأ في نفسه وماله لتكفر خطاياها)^(١) وهو معنى صحيح في نفسه ودلت عليه روايات اخرى إلا انه لا يناسب أحاديث المقام وربما أورده ابن الأثير لأنه لم ينظر في بقية الحديث.

الآية العشرون:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْتِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

احياء الشعائر الدينية

نحاول فهم الآية ودلالاتها وما نستفيده من دروس من خلال نقاط:

تعريف الشعائر:

١- (شعائر) جمع (شعيرة) وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة^(١): يُقال للواحدة (شَعارة) وهو أحسن من (شعيرة) وهي العلامة الدالة التي تُدرك ولكن بلطف ودقة، فشعائر الله كل ما دلّ على الله تعالى وكان علماً لطاعته والاشعار: الاعلام من طريق الحس، و(المشاعر) المعالم جمع (مشعر) وهي المواضع التي اشعرت بعلامات.

وتتضمن معنى الدقة واللطافة لذا سمي (الشَعْر) لدقته^(٢)، والشعور دقة الادراك، والشاعر لأنه يشعر بفطنته بما لا يفتن له غيره.

فهذه المناسك والشعائر والمشاعر رموز تعبّر عن التوجه الى الله تعالى وطاعته وتوصل الى التقوى التي هي الغاية من الشعائر فهذه الشعائر وسائر الاعمال لها قوالب شكلية وإنما تكتسب أهميتها من تحصيل حقائقها، لذا جعل تعظيم الشعائر من حركة القلوب وتكاملها وليست مقتصرة على حركات الجسد وأعضاء

(١) معجم مقاييس اللغة- ابن فارس: ٣/١٩٤

(٢) والشعار: هو الثوب الرقيق الذي يلي الجسد ويلامس الشعر ويقال في لغة العرب للقراب الملاصق للمودّة (أنت الشعار دون الدثار) أي اللباس الملاصق وليس الخارجي.

الجسم، فليتبته الى هذه الحقيقة من يريد تعظيم الشعائر بصدق فالمنافقون والفاسقون قد يؤدون الشعائر الشكلية كما كانوا في زمان رسول الله (ﷺ) يحضرون الصلاة في المسجد ويخرجون في الغزوات لكنها لا قيمة لها لأنها خالية من التقوى.

وقد أمرنا الله تعالى باحترامها وتقديسها وحفظ حدودها، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ (المائدة: ١) أي لا تنتقصوها ولا تنتهكوا حرمتها ولا تضعوها، وما دام تعظيم الشعائر من تقوى القلوب، فإن من لم يعظم شعائر الله فانه من اهل القلوب القاسية التي لم تذق حلاوة التقوى.

الشعائر المطلوب تعظيمها:

٢- وقد ورد تعظيم الشعائر مطلقاً في الآية ولم يُحدّد بشكل معين فتشمل التعظيم بالمشاركة فيها والدعوة اليها والتعريف بحقيقتها أو المساهمة بالمال او التشجيع والدفاع عنها ضد من يشوهها ويخذل الناس عن المشاركة فيها وينتقصها ونحو ذلك.

والتعظيم ليس له صيغة خاصة وانما هو لكل شعيرة بحسبها فقد يكون بالاهتمام بها واعطائها الأولوية في حياة الانسان، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:

﴿٢٤﴾، وقد يكون بانتقاء افضل افرادها كما في قوله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

لطافة حقائق هذه الشعائر:

٣- ولأن الشعيرة ما يدرك بدقة ولطافة فإن حقائق هذه الشعائر ومعانيها تخفى على غير الفطن الواعي الذي يهديه الله بلطفه فالحج الذي كله شعائر ومشاعر قال تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (الحج: ٣٦) وقال تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٢٥) والآية محل البحث وردت في سياق مناسك الحج وقال تعالى ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٩٨).

تعرض للتشكيك والاستهزاء والسخرية وكان بعض الزنادقة الملحدين يحضر موسم الحج^(١) ويقول: الى متى تطوفون بهذه الأحجار لأنهم لم يدركوا المعاني الروحية فيها وحقائق هذه الأفعال التي تدعو الى التوحيد الخالص ونبذ الشركاء، وأنى لأحد أن يدركها إلا ان يكون من أصحاب القلوب التقية العارفة بحقائق هذه الأفعال، وهكذا الشعائر الحسينية تتعرض للتشكيك والانتقاص والازدراء لنفس السبب وغيره.

الضمير في كلمة (أنها):

٤- الضمير في قوله تعالى (فأنها) يمكن أن يعود الى الشعائر نفسها فأنها من التقوى، ويمكن أن يعود الى التعظيم وقد جمع ليكون مناسباً للشعائر أي

(١) أنظر: أصول الكافي - الشيخ الكليني: ١/٧٤/ح ٢

فأن هذه التعظيمات من تقوى القلوب.

أهم الشعائر المأمور بإحيائها:

٥- ومن أهم الشعائر التي أمرنا بتعظيمها الاحكام الشرعية والقوانين الإلهية في كل شؤون الحياة ومفاصل المجتمع فان الالتزام بهذه القوانين واقامتها بين الناس ودعوتهم اليها والدفاع عنها هو من تعظيم شعائر الله الذي هو من تقوى القلوب، وان من يقف في طريق إقرار هذه القوانين وأخذ الدين دوره في حياة الانسان والمجتمع تحت خديعة (الدولة المدنية) وامثالها هو ناقص الورع والتقوى.

وجوب تعظيم الشعائر الحسينية:

٦- وتعظيم الشعائر الإلهية واجب على الجميع بالمقدار الذي يتحقق فيه المطلوب، الى درجة انه إذا تقاعس الجميع وجب على ولي الامر إجبارهم عليه ففي رواية صحيحة عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (لو أن الناس تركوا الحج لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) لكان على الوالي ان يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال انفق عليهم من بيت مال المسلمين)^(١).

ومن زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) نتوسع الى زيارة الائمة المعصومين (عليهم السلام) وتعظيم مشاهدهم المشرفة لانها سبب لتحصيل الألفاظ الإلهية مما لا يمكن تحصيله في أي موضع آخر.

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، أبواب وجوبه وشرايطه، باب ٥ ح ٢.

وانقل لكم هذه الرواية التي تدل على مدى اهتمام الأئمة (عليهم السلام) بالشعائر والمشاعر الإلهية، وموضوع الرواية الحرم الحسيني المطهر ففي كتاب الكافي لثقة الإسلام الشيخ الكليني عن أبي هاشم الجعفري - وهو من أصحاب الأئمة المخلصين ومن ذرية جعفر الطيار - قال: بعث أليّ أبو الحسن الامام الهادي (عليه السلام) في مرضه فما زال يقول ابعثوا الى الحير - أي الحائر الحسيني - فقلت له: جعلت فداك أنا اذهب الى الحير فقال: أنظروا في ذلك - أي تدبروا الأمر جيداً واختاروا رجلاً مناسباً لأن المتوكل العباسي كان ينزل أشد العقوبات بزائري قبر الحسين (عليه السلام) -، قال أبو هاشم فذكرت ذلك لعلي بن بلال فقال: ما كان يصنع في الحير وهو الحير - أي ان الامام الهادي (عليه السلام) هو الامام المعصوم الحجة من الله تعالى فما حاجته الى التوسل بقبر جده الحسين (عليه السلام) -، فقدمت العسكر - أي سامراء والامام فيها - فدخلت عليه فقال لي اجلس حين أردت القيام فلما رأيته أنس بي ذكرت له قول علي بن بلال فقال لي ألا قلت له - ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يطوف بالبيت ويقبل الحجر، وحرمة النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمن أعظم من حرمة البيت وأمره الله عز وجل أن يقف بعرفة، وإنما هي مواطن يحب الله أن يذكر (وفي رواية: يتعبد) فيها فأنا أحب أن يدعى لي حيث يحب الله أن يدعى فيها^(١).

ومن هذا الوجوب نستنتج انه علينا ان نراقب واقعنا بدقة فإذا وجدنا فريضة وشعيرة الهية معطلة او تقاعس المجتمع في أدائها كصلاة الجمعة او الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، او إقامة القوانين الإلهية فعلىنا المبادرة لإحيائها،

(١) بحار الانوار: ٢٢٥/٥٠ عن الكافي: ٥٦٧/٤-٥٦٨ ح ٣.

وكذا اذا وجدنا احد المشاعر المقدسة مهجوراً فعلياً اعمارها بالزيارة والدعاء والذكر كالتقصير الذي حصل في زيارة الامامين العسكريين بعد التفجير الاجرامي والفتنة الطائفية عام ٢٠٠٦ او الشعائر الفاطمية التي نهضتم لحياتها منذ عام ٢٠٠٦-١٤٢٧ وكذا الشعائر الزينية التي وفقتم للمشاركة فيها.

احترام المؤمنين من تعظيم الشعائر:

٧- ورد في الرواية أعلاه أن (حرمة المؤمن أعظم من حرمة البيت) فإذن من تعظيم الشعائر احترام المؤمنين وإكرامهم والتواضع لهم وقضاء حوائجهم خصوصاً إذا كانت له مزية اضافية ككونه احد الوالدين او من الارحام او الجيران او من وأهل العلم والفضل ونحو ذلك فلا تغفلوا عن هذا المعنى، ولا تخسروا هذه الفضيلة وتتنازعون بينكم من اجل المال او كلمة قيلت او أي سبب آخر للنزاع والتباغض والتباعد.

حكمة إضافة الشعائر لله تعالى:

٨- ان الشعائر أضيفت الى الله تعالى (شعائر الله)، فالشعائر والمشاعر لا تكون مقدسة وموصلة الى تقوى القلوب الا اذا كانت بحجة شرعية من الله تعالى وتقع ضمن الاطار الإلهي العام الذي رسمه المعصومون (سلام الله عليهم)، اما بعض الطقوس المبتدعة فقد تكون جائزة اذا لم تحرم بعنوان ثانوي كالأضرار بالبدن او تشويه سمعة المذهب، لكنها ليست مقدسة ولا راجحة لانها ليست من الله تعالى.

وكذا ظاهرة انتشار الكثير من القبور المنسوبة الى أولاد وبنات الائمة
الطاهرين من دون وجود دليل يثبت صحة هذه النسبة فهي وهمية لا مستند لها
وقد توضع اساطير وقصص خرافية او تحكى منامات لبعض العجائز كدليل على
قدسية هذه القبور، وهي في الحقيقة ليست مشاعر مقدسة ولا يجوز زيارتها لأنها
ليست من شعائر الله تعالى.

الآية الحادية والعشرون :

﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ
وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿سورة المائدة: ٦٧﴾

يوم الغدير عيد الله الأعظم

كل آيات القرآن عظيمة وجليلة، وهذه الآية من أعظم الآيات القرآنية وأجلها قدراً لأنها أسست لمستقبل الإسلام بعد النبي (ﷺ) وخلوده وحفظته وصانته من الانحراف والتشويه في أهم منعطف ومفصل تاريخي بوفاة النبي (ﷺ) وغياب شخصه عن مسرح الحياة.

بيان مفردات الآية الشريفة:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ أمر متوجه إلى الرسول (ﷺ) وخوطف بهذا العنوان بصفته حامل رسالة إلهية عظيمة مهيمنة على كل الأديان وقيمة عليها وخالدة تنظم شؤون الحياة لكل البشرية مدى الأجيال، ولأنه رسول فإنه لا يملك الا تبليغ الرسالة كما يريد المرسل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤).

﴿بَلِّغْ﴾ أي أوصل الرسالة بوضوح وحسم وهو تعبير أقوى من (أبلغ) ولا يتحقق التبليغ الا بأمرين: كون البيان واضحاً معبراً عن المطلوب بدقة، وكونه معلناً صريحاً وحاسماً ومشهوراً للناس.

﴿مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ ولم يذكره صريحاً تعظيماً له وللإشارة إلى أنه منزل إليك من الله تعالى وليس لك أي يد فيه حتى لا يتهم بمحاباة أو مصلحة شخصية وغير ذلك، ولأنه منزل إليك فليس لك خيار إلاّ تبليغه.

وهذا الأمر المراد تبليغه لا يراد به كل ما انزل إليك - كما قال بعض العامة - لأن الجملة تصبح لغواً وتحصيل حاصل مع الجملة التالية وتصبح كالتالي ((وإن لم تبليغ ما انزل إليك فما بلّغت ما انزل إليك)).

وليس هو قضية التوحيد أو النبوة أو البعث يوم القيامة ونحو ذلك من العقائد الحقّة لأن هذه كلها بلّغها النبي (ﷺ) منذ بداية البعثة من دون تردد فلا تحتاج إلى التطمين التالي ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وليس هذا الأمر من قبيل الأحكام الشرعية لأنها بلّغت كلها تدريجياً بحسب نزول الآيات الآمرة بها.

وإنما هو أمر محدد أنزله الله تعالى إليك في آيات سابقة وبوحي متكرر في مناسبات متعددة لتبليغه ولكنه لم يكن حاسماً قاطعاً كما يراد تبليغه الآن، وهو أمرٌ مهم وخطير بحيث أنه يعدل الرسالة كلها، وإن لم يبليغه فكأنه لم يبلغ الرسالة كلها كما أفاد الجزء التالي من الآية.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ اختار الرب دون الأسماء الحسنى وإضافه إليه (ﷺ) لإظهار مزيد من الرحمة والحنو على رسول الله (ﷺ) بأن هذا الأمر أنزله ربك الذي ربّاك وتكفل بك وحماك ونصرك وأعلى شأنك فلتطب نفسك وليطمئن قلبك.

﴿وَأِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جملة لم يرد مثلها في القرآن الكريم وتعزز التأكيدات المتكررة على تبليغ هذا الأمر، وظهرها التهديد إلا ان هذا المعنى غير وارد لأن النبي (ﷺ) لا يحتمل فيه عدم التبليغ حتى يذكر جزاؤه، وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١١٤) فالآية في حقيقتها تعبير عن أهمية القضية بحيث ان اهمالها يعني التفريط بكل الرسالة وكأنه (ﷺ) لم يفعل شيئاً خلال مدة الدعوة التي تجاوزت عشرين عاماً.

وكان يُشَقَّ على النبي (ﷺ) تبليغ هذا الأمر لأنه كما يظهر من الآية يتعلق بـ ((حكم نازل، فيه شوب انتفاع للنبي (ﷺ) واختصاصه بمزية حيوية مطلوبة لغيره أيضاً يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه، فكان النبي (ﷺ) يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه وشدّد فيه، ووعد العصمة من الناس وعدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه))^(١).

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ليس المقصود بالناس اليهود وأمثالهم لأنهم قد قضى عليهم قبل ذلك بسنين ولم تبق لهم باقية، ولا يراد بهم المشركون لأن شوكتهم كسرت بفتح مكة ودخلوا في الإسلام طوعاً أو كرهاً، وإنما المراد بهم جماعة من أصحاب النبي (ﷺ) كان يتوقع منهم التمرد والعصيان والانشقاق.

(١) تفسير الميزان - السيد الطباطبائي: ٤٨ / ٦.

ولأن هذا الأمر يعرضه (ﷺ) للاتهام بأنه يتغني به مصلحة شخصية أو محاباة^(١) وقد بلغ النبي (ﷺ) أحكاماً فيها ما يفسر على أنه مصلحة شخصية له كتروجه بأكثر من أربعة ولم يكن فيها حزازة ولا تردد لأنها لا تتعارض مع مصالحهم، لكن هذا الأمر المقصود بالآية من نوع خاص، لأنه يمسّ مصلحة مهمة لهم ويهدم طموحاً ملحاً ينتظرون تحقيقه وهو خطر عظيم قد يؤدي إلى إنهيار الكيان الإسلامي فأحبّ النبي (ﷺ) تأجيل تبليغه إلى وقت الضرورة لأنه يتعلق بما بعد وفاته (ﷺ).

التبليغ بولاية الامام علي (عليه السلام):

وهذا التحليل العقلاني المستفاد من ظاهر الآية الكريمة وتسلسل فقراتها ينسجم مع ما ورد في مصادر العامة والخاصة من نزولها في التبليغ بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) الأمر بعد رسول الله (ﷺ) وقد نزلت فيه منذ بداية الدعوة

(١) روى الحسكاني في شواهد التنزيل (عن ابن عباس وجابر قالا: أمر الله محمداً (ﷺ) أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله (ﷺ) أن يقولوا حابي ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ الخ فقال رسول الله (ﷺ) بولايته يوم غدير الخم).

وروى عن زياد بن المنذر عن أبي جعفر محمد بن علي (عليه السلام) إلى أن قال (إن جبرئيل هبط إلى النبي (ﷺ) فقال: ان الله يأمرك أن تدلّ أمتك على وليهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم ليلزمهم الحجة من جميع ذلك، فقال رسول الله (ﷺ): يا ربّ ان قومي قريبوا عهد بالجاهلية وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل الا وقد وتره وليهم، وإني أخاف - أي من تكذيبهم - فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ (شواهد التنزيل: ١٩١/١-١٩٢) وراجع تفسير الآية في أسباب النزول للواحدي ونزول القرآن لأبي نعيم.

الإسلامية آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ١١٤) فجمع النبي (ﷺ) بني هاشم وأنذرهم ثم أخبرهم بأن علياً وزيره وخليفته. وتواتر الاخبارات حتى آية الولاية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) لكنها لم تصل إلى درجة التبليغ القاطع الحاسم وإقامة احتفال التنصيب الرسمي كما يقال، خشية أن يتهموه (ﷺ) في ابن عمه.

ولما علم الله تعالى أن أجله (ﷺ) قريب أمر بإنجاز الأمر فوراً وقد أشار (ﷺ) إلى ذلك فإنه قال قبل تبليغ الأمر (أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي...).

وهذه القضية المهمة التي جعل تبليغها يعادل تبليغ الرسالة كلها هي تعيين القيادة المعصومة التي تخلف النبي (ﷺ) وتواصل حمل رسالة الإسلام وصيانتها ونشرها لتستمر في أداء دورها، أي نقل ارتباط الرسالة من الحامل الشخصي وهو النبي (ﷺ) إلى الحامل النوعي لها الذي يتصف بصفات الرسول (ﷺ) وعلى رأسها العصمة والعلم وهو أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن بعده الأئمة الطاهرون من بنيه (صلوات الله عليهم أجمعين) فان دوام الرسالة وحفظها يتحقق بوجود المؤهل لحملها والا تموت الرسالة بموت حاملها كما حصل في شرائع الأنبياء السابقين حيث بقيت عرضة للتلاعب والتزوير وقد شرحنا ذلك في بحث مستقل^(١).

(١) سيأتي بعنوان (كيف خطَّط رسول الله (ﷺ) للخلافة من بعده)

المؤامرة بعد رحيل النبي (ﷺ):

وان مصدر قلقه (ﷺ) علمه بأن قوماً من أصحابه كانوا يتطلعون للسلطة من بعده و ينتظرون موته (ﷺ) ليمسكوا بزمامها مدعومين بقطاع واسع ممن اسلموا كرهاً وانصياعاً للواقع أو طمعاً في أن يكون لهم شيء في دولة الرسول الكريم (ﷺ) خصوصاً من قريش، وهذا ما ورد على لسان عمر بن الخطاب في أكثر من محاوره مع ابن عباس وفي أحداها قال يا بن عباس! أتدري ما منع قومكم منه بعد محمد؟ فكرهت أن أجيئه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمر المؤمنين يدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاخترت قريش لأنفسها ووفقت^(١) وهذا يعني ان قريشاً كانت تجتمع وتناقش كيفية الاستيلاء على السلطة بعد رسول الله (ﷺ) وفق مصالحها هي وليس مصلحة الإسلام، وقد عزمت على انتزاع الأمر من علي (عليه السلام).

وهذا ما كشف عنه أمير المؤمنين (عليه السلام) واشتكى منه لاحقاً بقوله (اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفئوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقا كنت أولى به من غيري)^(٢).

وهؤلاء هم من كان يخشى النبي (ﷺ) من فتنهم وتقليبهم الأمور لو نصب علياً خليفة من بعده، وكثير منهم ينظر إلى النبي (ﷺ) على أنه ملك وزعيم نجح في بسط سلطانه كأبي سفيان في كلمته التي قالها عندما بويع لابن عمه عثمان

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٣٠ ط. مصر الأولى في ذكر سيرة عمر من حوادث سنة ٢٣ هـ

(٢) نهج البلاغة: ٣٣٦ الخطبة ٢١٧.

بالخلافة (تلاقفوها يا بني أمية تلاقف الكرة بيد الصبيان فوالذي يحلف به أبو سفيان فلا جنة ولا نار ولا معاد)^(١) وأكد بها قوله السابق حينما رأس جيش رسول الله (ﷺ) على مشارف مكة وقد اضأوا النيران فقال للعباس بن عبدالمطلب (لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً)^(٢) فقال له العباس (ويلك انها النبوة).

فلم يكن خوف رسول الله (ﷺ) على نفسه فقد صدع بالدعوة وحيداً ولم يشنه بطش قريش وقسوتها ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب: ٣٩).

أخذ البيعة لأمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير :

فأمن الله تعالى نبيه من هذه المخاوف، وصدق وعده حينما انهال الجميع فوراً على بيعه أمير المؤمنين (عليه السلام) إماماً وخليفة من بعد رسول الله (ﷺ)، وكان اول المبايعين أبا بكر وعمر وهما يقولان (هنيئاً لك يا ابن ابي طالب، أصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة)^(٣) وفي رواية أخرى قال ابن الخطاب (بخ بخ لك يا ابن ابي طالب)^(٤) وظلّ يكرر الاعتراف بولاية علي (عليه السلام) في كل مناسبة^(١) كما سيأتي ان شاء الله تعالى.

(١) الجوهري: السقيفة ٣٩ - ٤٠، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢ / ٤٤.

(٢) بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٤، مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤٧١.

(٣) مسند أحمد: ٤ / ٢٨١ وسنن ابن ماجه باب فضائل علي، والرياض النضرة: ٢ / ١٦٩.

(٤) شواهد التنزيل: ١ / ١٥٧ - ١٥٨.

ولما تم الأمر استبشر النبي (ﷺ) وملاه السرور واطمأن على خلود الإسلام والقرآن ومستقبل الرسالة لأن الله تعالى قيض لها من يحفظها ويصونها ونزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ يَيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) لأن فئات كثيرة كانت تعول على وفاة النبي (ﷺ) للتخلص من الإسلام بعد أن فشلت كل خطتهم ومؤامراتهم للقضاء عليه، أما اليوم فقد دخل اليأس قلوبهم لأن النبي (ﷺ) وإن ارتحل بشخصه إلى الرفيق الأعلى فإنه سيبقى محفوظاً بأخيه وصنوه علي بن أبي طالب (صلوات الله وسلامه عليه).

ان هذا الذي أوردنا من التفسير الظاهر من الآية الكريمة ينطبق تماماً على القضية التي نزلت فيها ونقلها جمع كبير من الصحابة أحصي منهم (١١٠) ذكرت أسماؤهم في المصادر^(٢) وألف جمع غفير من علماء الفريقين كتباً خاصة فيه فقد

(١) أورد جملة منها في (الفرقان في تفسير القرآن: ٤٣/٩) منها ما أخرجه الطبراني وفي الفتوحات الإسلامية: ٣٠٧/٣. حكم علي مرة على اعرابي بحكم فلم يرضَ بحكمه فتلبَّبه عمر بن الخطاب وقال له: ويلك إنه مولاك ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

(٢) راجعها في بحار الأنوار: ٣٧/١٨١-١٨٢ وذكرهم باسمائهم في (الفرقان في تفسير القرآن: ٩/٢٥) وأضاف لهم التابعين وتابعيهم وفي سائر القرون وقد أوفى المرحوم العلامة الأميني البحث والاستقصاء وسجّل كل هذه الاسماء و الوثائق في المجلد الأول من كتاب الغدير: ٢١٤-٢٢٣ وبذل صاحب تفسير الفرقان جهداً وافياً في استقصاء مصادر التفسير والحديث والتاريخ (الفرقان في تفسير القرآن: ٢٣/٩)

صنف مسعود بن ناصر السجستاني^(١) كتاب (الدراية في حديث الولاية) من سبعة عشر جزءاً روى فيه الحديث عن ١٢٠ صحابياً^(٢) وألف فيه ابن عقدة^(٣) الذي وثقه ارباب المذاهب وسمى كتابه ((الولاية ومن روى غدیر خم)) ورواه من ١٠٥ طريق وألف الطبري^(٤) صاحب التفسير والتاريخ ((كتاب الولاية)) وروى الحديث من خمس وسبعين طريقاً^(٥).

نص حادثة الغدير:

ونقل النص من مصادر العامة فقالوا ((لما صدر رسول الله من حجة الوداع نزلت عليه في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة آية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ فنزل غدیر خمّ من الجحفة وكان يتشعب منها طريق المدينة ومصر والشام ووقف هناك حتى لحقه من بعده وردّ من كان تقدّم ونهى أصحابه عن سمرات متفرقات بالبطحاء أن ينزلوا تحتهنّ، ثم بعث إليهن فقمّ ما تحتهن من

(١) محدّث، قال عنه بعض مؤرخيه ان فوائده من الأخبار لا تحصى توفي سنة ٤٧٧ هـ (الاعلام

للزركلي: ١١٧ / ٨)

(٢) بحار الأنوار: ٣٧ / ١٢٦.

(٣) أحمد بن محمد، حافظ مكثّر فقد كان يقول: احفظ مئة ألف حديث بأسانيدھا توفي سنة ٣٣٢

هـ (الاعلام: ١ / ١٩٨)

(٤) محمد بن جرير: مؤرخ مفسر إمام مجتهد قلده بعض الناس عرض عليه القضاء وديوان المظالم

فأبى، صاحب التاريخ المعروف ووصف بأنه أوثق المؤرخين، له تفسير مطبوع بثلاثين جزءاً وكتب

كثيرة أخرى توفي سنة ٣١٠ هـ (الاعلام: ٦ / ٢٩٤)

(٥) بحار الأنوار: ٣٧ / ١٨٣.

الشوك ونادى بالصلاة جامعة وعمد إليهنّ وظلّل لرسول الله (ﷺ) بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فصلى الظهر بهجير ثمّ قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ وقال ما شاء الله أن يقول، ثمّ قال: ((إنّي أوشك أن أدعي فأجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنك بلّغت ونصحت فجزاك الله خيراً، قال: ((أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنّة حقّ وأنّ النار حقّ؟)) قالوا: بلى نشهد ذلك. قال: ((اللهمّ أشهد)) ثمّ قال: ((ألا تسمعون؟)) قالوا: نعم. قال: ((يا أيّها الناس إنّي فرط وأنتم واردون عليّ الحوض وإن عرضه ما بين بصري إلى صنعاء فيه عدد النجوم قدحان من فضّة، وإنّي سائلكم عن الثقلين، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما)). فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: ((كتاب الله، طرف بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به، لا تفلتوا ولا تبدّلوا؛ وعترتي أهل بيتي، وقد نبأني اللطيف الخبير أنّهما لن يتفرقا حتّى يردا عليّ الحوض، سألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدموهما فتهلّكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلّكوا، ولا تعلّموهما فهم أعلم منكم)) ثمّ قال: ((ألستم تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟)) قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ((ألستم تعلمون - أو تشهدون - أنّي أولى بكلّ مؤمن من نفسه؟)) قالوا: بلى يا رسول الله. ثمّ أخذ بيد عليّ بن أبي طالب بضبعه فرفعها حتّى نظر الناس إلى بياض إبطيهما، ثمّ قال ((أيّها الناس! الله مولاي وأنا مولاكم؛ فمن كنت مولاه، فهذا عليّ مولاه. اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأنصر من نصره، وأخذل من خذله، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه)). ثمّ قال ((اللهمّ اشهد)) ثمّ لم يتفرقا - رسول الله وعليّ - حتّى نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿المائدة: ٣﴾. فقال رسول الله (ﷺ): ((الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضا الرب برسالتي والولاية لعلي))^(١).

وروى جمع من علماء العامة عن ابن مسعود أنه قال (كنا نقرأ على عهد رسول الله (ﷺ) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ - أَنْ عَلِيًّا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ - وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾)^(٢).

معنى (المولى) الوارد في يوم الغدير

ومما اشكلوا به ان المولى لها عدة معانٍ في اللغة كالناصر والحبيب وغيرهما فلا تتعين بولي الأمر، وهو احتمال مدفوع بصريح الحديث النبوي الشريف لأنه (ﷺ) بين مراده من الولي، وتكذبه أيضاً ظروف الحادثة فهل أوقف النبي (ﷺ) تلك الجموع الحاشدة ليقول اني أحب علياً وأنه نصرني ونحو ذلك من الأمور الواضحة عند كل أحد.

ان مما يؤسف له تحكم الاهواء والعصبيات في اذهان المفسرين الذين لم يستقوا علومهم من أهل بيت النبوة (ﷺ) فشرقوا وغربوا واوردوا وجوهاً في

(١) نقلناه بواسطة معالم المدرستين للمرحوم السيد مرتضى العسكري: ١/٤٨٣-٤٨٦ عن مجمع الزوائد للهيتمي: ٩/١٠٥ و ١٦٣-١٦٥ وشواهد التنزيل للحسكاني: ١/١٩٢-١٩٣ ومسند أحمد: ٤/٢٨١ وسنن ابن ماجه ١/٤٣ ح ١١٦ وغيرها.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن: ٩/١٩ عن الحافظ ابن مردويه: ١٠٨، الدر المنثور: ٣/٢٩٨، الشوكاني في فتح القدير، الاربلي في كشف الغمة.

تفسير الآية وسبب نزولها مما لا يناسب أجواء نزول الآية وظروف الحدث، ولا يليق صدوره منهم وفيهم ذوو عقول كبيرة والمهم عندهم صرفها عن الحقيقة التي نزلت الآية لبيانها ورواها جمع كبير من الصحابة والتابعين مع انهم يكتفون في تفسير الآية برواية واحدة عن هذا الصحابي أو ذاك ولا نريد الاطالة في عرض هذه الوجوه ومناقشتها.

أقول: واذا كانوا إلى اليوم يرفضون سماع هذه الحقيقة والايان بها مع تواتر روايتها والقطع بصدورها فكيف كانوا في لحظة الحدث مما يعطينا فكرة عن مخاوف رسول الله (ﷺ) من إبلاغ هذا الأمر.

وظل أمير المؤمنين وأهل بيته (عليهم السلام) وشيعته يؤكدون هذا الحق الثابت حتى لا يضيّعه المحرّفون، ومن أقواله (عليه السلام) في ذلك (فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه حتى يوم الناس هذا)^(١).

وقال في الخطبة الشفشقية (أما والله لقد تقمصها فلان (ابن أبي قحافة) وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحي)^(٢).

وقال (عليه السلام) (لقد علمتم أنني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه)^(٣).

(١) نهج البلاغة: ٤٩ الخطبة ٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٧ الخطبة ٤.

(٣) نهج البلاغة: ١٠٢ الخطبة ٧٤.

وقال (عليه السلام) (فوالله إني لأولى الناس بالناس، لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحدا. إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم)^(١).

وقال (عليه السلام) (فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده (ﷺ) عن أهل بيته ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلا اثتيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (ﷺ)! فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدمًا، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم، التي إنما هي متاع أيام قلائل)^(٢).

يوم الغدير عيد الله الأعظم:

واعتبر الأئمة المعصومون (عليهم السلام) يوم الغدير أعظم أعياد الإسلام لعظمة النعمة التي من الله تعالى بها فأكمل بها الدين ورضي الإسلام لنا ديناً، روى الكليني بسنده عن سالم قال (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟ قال: نعم أعظمها حرمة. قلت: وأي عيد هو جعلت فذاك؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول الله (ﷺ) أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه)^(٣) ومثلها عدة روايات في نفس الباب.

(١) نهج البلاغة: ١٩٤ الخطبة ١٣٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٥١ الخطبة ٦٢.

(٣) وسائل الشيعة: ١٠ / ٤٤٠ / أبواب الصوم المندوب، باب ١٤ / ح ١.

وفي آمالي الشيخ الصدوق بإسناده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آباءه (عليهم السلام) قال (قال رسول الله ﷺ): يوم غدیر خم أفضل أعياد أمتي وهو اليوم الذي أمرني الله تعالى ذكره فيه بنصب أخي علي بن أبي طالب (عليه السلام) علماً لأمتي يهتدون به من بعدي وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين وأتمّ على أمتي فيه النعمة ورضي لهم الإسلام دينا^(١).

وروى الشيخ في التهذيب عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (وهو عيد الله الأكبر)^(٢).

لذا يعبر الإمام الباقر (عليه السلام) بأسف وحسرة عن تضييع الأمة لهذا الأمر الإلهي العظيم الذي يعدل الرسالة كلها، بقوله (عليه السلام): (تعطى حقوق الناس بشهادة شاهدين وما اعطي أمير المؤمنين (عليه السلام) حقه بشهادة عشرة آلاف نفس يعني الغدير) ومثله عن الإمام الصادق (عليه السلام).

أعمال يوم الغدير:

وقد جعل الأئمة (عليهم السلام) برنامجاً عبادياً مكثفاً في هذا اليوم شكراً لله تعالى على هذه النعمة وجعل عليها ثواباً عظيماً كالصوم والصلاة والدعاء والصدقة وتبادل التهاني مع المؤمنين، وزيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) ولو من بعد لمن يتعذر عليه زيارة مرقد الشريف عن قرب، روى ابن أبي نصر قال (كنا عند الرضا (عليه السلام)

(١) تفسير نور الثقلين: ١/ ٣٦٨ ح ٢٩ من تفسير سورة المائدة

(٢) وسائل الشيعة: ٨/ ٨٩ أبواب الصلوات المندوبة، باب ٣/ ح ١.

والمجلس غاص بأهله فتذكروا يوم الغدير فأنكره بعض الناس^(١) فقال الرضا (عليه السلام): حدثني ابي عن ابيه (عليه السلام) قال: ان يوم الغدير في السماء أشهر منه في الأرض) ثم قال: (يا ابن ابي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين (عليه السلام)) وبعد ان ذكر ثواب ذلك قال: (والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)^(٢).

درس وعبرة:

ويمكن أن نفهم من الآية الكريمة أن على العاملين الرساليين ان لا يترددوا ولا يتلكأوا في نصره مشروع الإسلام والتحرك به مهما حاول الناس - بكل ما يحويه اللفظ من استصغار في هذا الموضوع - وضع العراقيل وبث التهم والشبهات لأن الله تعالى يعصمه من هذه المكائد والخبث والشيطنة، وإنه تعالى ينصر من ينصره ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠) وقد ورد هذا المعنى في خطبه لأمير المؤمنين (عليه السلام) قال فيها (فأمروا بالمعروف وانها عن المنكر، واعلموا ان الأمر بالمعروف والنهي عن النكر لن يقرباً أجلاً ولن يقطعاً رزقاً)^(٣).

(١) الظاهر ان ذلك كان أيام ولايته العهد زمن المأمون فكان مجلسه الرسمي عاماً لكل الناس وليس للموالين فقط.

(٢) وسائل الشيعة: ١٤ / ٣٨٩ أبواب المزار، باب ٢٨ / ح ١.

(٣) وسائل الشيعة: ١٦ / ١٢٠ ، أبواب الأمر والنهي، باب ١ / ح ٧.

ملحق : كيف خطط رسول الله للخلافة من بعده

ملحق

كيف خطط رسول الله (ﷺ) للخلافة من بعده^(١)

الإمامة ضرورة عقلائية:

إن الإمامة وولاية أمر الناس ضرورة اجتماعية لا يختلف فيها اثنان، وقد أطبق عليها جميع العقلاء، ولا يمكن لحياة المجتمع المتحضر ونظام معاشه أن يستقيم بدون إمام ورئيس يدير مع جهازه شؤون الأمة ويدبر أمورها. فوجود النظام الحاكم في المجتمع بمنزلة العقل في جسم الإنسان الذي يوجّه بوصلة الحياة، وبدونه تحصل الفوضى والتشتت والصراعات وتضيع مصالح العباد والبلاد.

ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذلك: (لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمين به السبيل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ أو يُستراح من فاجر)^(٢).

(١) محاضرتان ألقاهما سماحة الشيخ محمد العقبوي على طلبة الحوزة العلمية في مسجد الرأس الشريف المجاور لمقر أمير المؤمنين (عليه السلام)، في النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير يومي (١٦، ١٧ ذي الحجة ١٤٢١هـ - ١٢، ١٣ آذار/٢٠٠١) وقد أضاف إليهما بعض الزيادات الضرورية. وقام أحد الفضلاء لاحقاً بتخريج النصوص من مصادرها.

(٢) نهج البلاغة: ١/٨٧ الخطبة ٤٠.

ضرورة الإمامة في الشرع:

والحكم في الشرع ضروري كذلك فقد أجمع علماء الإسلام على ضرورة وجود إمام، وإذا كان بينهم خلاف ففي التفاصيل كيفية تعيين الإمام ومؤهلاته وصلاحياته لا في أصل احتياج الأمة، فأبناء العامة يقولون بالشورى^(١)، أو أن الأمر لمن غلب حتى لو قهر الأمة بالسيف^(٢) وتقمّص إمامتها قهراً، ونحن -الإمامية- نقول أنها بالنص^(٣)، وأنها حق جعله الله تبارك وتعالى لمن اجتمعت فيه شروطها، سواء سمحت له الظروف بالقيام فعلاً بالأمر أو صودرت حرите ومُنِع من ممارسة دوره كاملاً، كما في الحديث الشريف: (الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)^(٤) أي قاما بالأمر أو قعدا عنه لأي سبب من الأسباب.

وقد اهتم رسول الله (ﷺ) بهذا الأمر بدقة، فكان (ﷺ) لا يُخرج سرية إلا عليها أمير مهما قلّ أفرادها، بل في الحديث عن رسول الله (ﷺ): (الإمام الجائر

(١) البخاري: باب رجم الحبلى، ٤/ ١٢٠ عن معالم المدرستين، المراجعات المراجعة ٨٠.

(٢) الأحكام السلطانية ص ٧-١١ لقاضي القضاة أبو يعلى الفراء الحنبلي - عن معالم المدرستين - أقوال مدرسة الخلفاء ص ٥٥٨.

(٣) أحصى الصافي الكلبيكاني في كتابه (منتخب الأثر) أكثر من خمسين رواية في هذا المجال، وقال بعد ذلك النصوص الواردة في ساداتنا الأئمة الاثنا عشر بلغت في الكثرة حداً لا يسعه مثل هذا الكتاب وكتب أصحابنا في الإمامة وغيرها مشحون بها واستقصاؤها صعب جداً (منتخب الأثر ص ١٤٥ والرواية الأولى منتخب الأثر ص ٩٧ باب ٨ فيما يدل على الأئمة الاثنا عشر بأسمائهم) (نقلاً عن مدخل إلى الإمامة).

(٤) البحار: ١٦/ باب ١١/ ٣٠٧.

خير من الفتنة^(١) و: إذا خرج اثنان للسفر فليؤمرا أحدهما^(٢)، وكان (ﷺ) إذا خرج لغزوة لا يترك المدينة بدون خليفة له^(٣)، بل روي في حديث: (والِ ظُلومٌ غشومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم)^(٤)؛ لأنه به تحفظ الثغور وتقوم مصالح العباد، لذا تعامل الأئمة (عليهم السلام) بإيجابية مع السلطات الحاكمة في ما فيه مصالح العباد وحفظ النظام الاجتماعي ورفقي الدولة الإسلامية وصيانة كرامتها، إلى درجة أنهم جوزوا في بعض الظروف دفع الزكاة والخراج إلى السلطة وجعلوها مبرئة للذمة كأنها واصله إليهم^(٥).

المصالح المهمة من تعيين الخليفة:

في ضوء هذه الضرورة المجمع عليها عقلاً وشرعاً كان من مسؤوليات حامل الرسالة - أي رسالة - ووظائفه بل أهمها على الإطلاق تعيين الخليفة والإمام البديل لعدة مصالح مهمة:

١ - ديمومة الرسالة واستمراريتها في أداء دورها، فإن أية رسالة مهما كانت تمتلك من نقاط قوة - كرسالة الإسلام - تموت بموت صاحبها، فإنه من

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميشم البحراني: ١٠٣/٢.

(٢) المحجة: ٤/ آداب السفر عن أبو داود: ٣٤/٢، عن أبي هريرة عن النبي ص قوله: (إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحداكم).

(٣) معالم المدرستين: ١/ ذكر من استخلف الرسول (ﷺ) على المدينة في غزواته.

(٤) ميزان الحكمة للريشهري: ٣/ ٢٣٦٧، والغرر والدرر: ح ١٠١٠٩.

(٥) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين، باب ٢٠.

المقطوع به ارتباط الرسالات والدعوات بحاملها القيمين عليها المدافعين عنها المستوعبين لأسرارها، لذلك فإنها تنتهي بنهاية صاحبها إلا أن يواصل الطريق من هو جدير بحملها، وأنت ترى الرسالات السماوية - وهي أكمل الدعوات - حُرِّفَتْ وشُوِّهَتْ بعد فترة يسيرة من غياب أصحابها^(١).

٢- قطع الطريق أمام غير المؤهلين لهذا المنصب الإلهي، فإن الإمرة والزعامة خصوصاً الزعامة الدينية بما لها من قدسية وهيبة وجاه من أهم ما تنزع إليه النفس الأتارة بالسوء، ففي الحديث: (آخر ما ينزع من قلوب الصديقين حب الجاه)^(٢) إذن سيكون المتربصون بها كثيرين والحالمون بها والساعون إلى تحصيلها أكثر.

وقد اعترفوا أنه ما عانت الأمة من شيء كما عانت من مسألة الإمامة والخلافة وأن الولايات التي أصابتها والدماء التي سفكت ترجع في الأصل إلى هذا الأمر، وهذا واضح تاريخياً.

٣- صيانة الأمة من التشتت وحمائتها من التمزق، فإن من شأن تعدد المتصددين لهذا المنصب أن تتعدد الأحزاب والفرق الموالية لهم، وكلُّ يجرُّ النار إلى قرصه، فيتمزق أمر الأمة وتصبح طرائق قديداً، وها هي الأجيال بعد الأجيال

(١) كمثل على ذلك المسيحية بمجرد أن رفع عيسى (عليه السلام) أصبح الإنجيل الذي هو حاوي على كل ما يتعلق بالرسالة عدة أناجيل مزورة وموضوعة كإنجيل متي ويوحنا ولوقا ومرقس فلم يبق من الدين المسيحي إلا الاسم.

(٢) المحجة البيضاء ج ٦ / فصل حب الجاه ص ١٠٧.

تدفع ثمن التيه والضياع وآل أمرها إلى الانحلال، لذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ١٦) وحبل الله الممدود إلى الخلق هما الثقلان كتاب الله وأهل بيت نبيه (صلوات الله عليهم أجمعين) كما دلت عليه النصوص الشريفة^(١). وقد أشارت الزهراء (عليها السلام) إلى هذه الفكرة المهمة في خطبتها فقالت: (وجعل إمامتنا نظاماً للملة)^(٢) أي بها تنتظم أمورهم وتستقر.

٤- إن حامل الرسالة لا يستطيع أن يستمر بمشروعه حتى النهاية ويقدم كل ما عنده قبل أن يطمئن إلى وجود البديل؛ لأنه قبل ذلك يخشى على مستقبل الرسالة، فإذا أحرز اجتماع الشروط في الشخص البديل استطاع أن يتقدم بلا تردد أو خوف على مستقبل الرسالة، هذا الخوف الذي أشار إليه نبي الله موسى (عليه السلام)، لذا كان أول دعاء له: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي﴾ أشدُّ به أزرِي • وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي • (طه: ٣٩-٣٢) وفي كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام): (لَمْ يُوجِسْ مُوسَى (عليه السلام) خَيْفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلْبَةِ الْجُهَّالِ وَدَوَلِ الضَّلَالِ)^(٣).

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن).

(٢) البحار: ٦/٢٣ / ٣١٥.

(٣) نهج البلاغة، خطبة: ٤ / ٣٩.

شرفية موقع الإمامة في الفكر الإسلامي:

هذه أمور يدرکها كل عاقل، ويزداد الأمر وضوحاً كلما ازدادت أهمية الرسالة كدين الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين وخالداً إلى يوم القيامة، فهو - أي الإسلام - بهذه السعة والشمول طويلاً - على مدى الزمان - وعرضاً - لجميع البشر -، وكلما تعاضم منصب الشخص الراحل والغائب عن الساحة ازدادت المسؤولية والأخطار حول المنصب.

وأشرف موقع هو إمامة المسلمين وولاية أمورهم وخلافة رسول الله (ﷺ) التي قدر لها أن تشمل شرق الأرض وغربها، كما بشر بذلك رسول الله (ﷺ) عندما كان يحفر مع المسلمين في الخندق وضرب على صخرتين فأضاءت له (١) ولهم، وأكدها القرآن ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً﴾ (الفتح: ٢٠) ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف: ١٣)، فكيف لا تتناوشه المطامع وتتجاذبه الأهواء.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى):

أفمثل رسول الله (ﷺ) يجهل هذه الأمور الواضحة، وهو المتصل بسبب إلى الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣) - (٤)، وهو القائل: (من مات ولم يوص مات ميتة جاهلية) (٢) فهل يكون هو (ﷺ)

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر - هاشم معروف الحسني: ١ / ٢٩٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب - بن شهر آشوب: ١ / ٢١٧.

أول من يخرج عن ربة الإسلام ويموت على الجاهلية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (الكهف: ٥٠)، أم يقال أن هذا الحديث وارد في الوصية بالمال ونحوه للورثة وغيرهم؟ فهل هذه الأمور أهم من الوصية بالأمة وحفظ كيائها من الضياع؟!.

أم يقال أنه (ﷺ) فوجئ بأجله قبل أن يفكر بمستقبل الأمة وقبل أن يستعد للتخطيط للبديل مهما كان شكله وصيغته، وهو الذي نعى نفسه مراراً وصرح بقرب وفاته في حجة الوداع، وحينما قال: (إن جبرائيل كان يعارضني بالقرآن في السنة مرة، وعارضني في هذه السنة مرتين، وما ذلك إلا لدنو أجلي) (١).

أم يقال أنه (ﷺ) لم يكن حريصاً على الأمة ولا مهتماً بأمرها، فلتواجه قدرها بنفسها ولو آل أمرها إلى الفناء، ولتذهب أتعابه سدى ﴿كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل: ٩٤)، وهذا لا يصدر من أبسط الناس؛ فالراعي لا يترك غنمه إذا خرج لحاجة أو سفر حتى يعين لها راعياً، ولم يفعلها الخلفاء من بعده، فالأول نص على الثاني، وهو يقول: إني أخشى أن ألقى الله وقد تركت أمة محمد (ﷺ) دون أن أولي عليها أحداً (٢)، وجعل الثاني الأمر شورى بين ستة من أصحاب رسول الله (ﷺ) (٣)، وقد أرسلت إليه أم المؤمنين عائشة بعدما طعن: أن أوص من يخلفك، ولا تترك أمة محمد بعدك هملاً وبدون راعٍ.

(١) صحيح البخاري باب عرض جبرائيل القرآن على النبي.

(٢) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١ / ١٦٤ - ١٦٥ في شرحه للخطبة الشقشقية.

(٣) راجع معالم المدرستين: ١ / ٥٤٤.

خطر الاعتراض من الداخل الإسلامي:

فكيف برسول الله (ﷺ) أكمل العقلاء وسيد الحكماء، وهو يرى بعينه الأخطار المحدقة بالأمة من الداخل والخارج، ففي الداخل كان المنافقون والمرجفون في المدينة - على تعبير القرآن - والقائلون: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨) وقد ازدادت شوكتهم بعد الفتح حيث استسلم الكثير ممن يتربص بالإسلام وبنبيه السوء رضوخاً للأمر الواقع، ولم يسلموا ولم يقتنعوا بالإسلام و﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

وكانوا يعارضون تصرفات رسول الله (ﷺ) علناً وينتقدونه ويشككون في صحة أفعاله، والشواهد على ذلك كثيرة كما في صلح الحديبية^(١) حينما منعوا رسول الله (ﷺ) من التوقيع على وثيقة الصلح، وعندما عارضوا الإحلال من الإحرام في متعة الحج^(٢)، وحينما منعه من كتابة كتاب لا يضلون بعده أبداً في

(١) راجع نظريات الخليفين: ١.

(٢) عن معالم المدرستين: ٢/ في رواية الصحابي البراء بن عازب بسنن بن ماجه ومسنده أحمد ومجمع الزوائد قال: خرج رسول الله (ﷺ) وأصحابه فأحرمنا بالحج فلما قدمنا مكة، قال: (اجعلوا حجكم عمرة) فقال الناس: يا رسول الله قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة؟ قال: (انظروا ما أمركم به فافعلوه) فردوا عليه القول، فغضب فانطلق ثم دخل على عائشة غضبان فرأت الغضب في وجهه، فقالت: من أغضبك أغضبه الله، قال: (ما لي لا أغضب وأنا أمر أمراً فلا أتبع).

رزية يوم الخميس^(١)، وحينما كانوا يصلون نوافل رمضان جماعة في المسجد وقد نهاهم (ﷺ) عن ذلك مراراً^(٢)، وحينما تخلفوا عن جيش أسامة رغم لعنه (ﷺ) للمتخلفين عنه^(٣).

مضافاً إلى أن الانتشار السريع للإسلام وقصر فترته بالنسبة لعظمة الوظيفة التي جاء من أجلها، وهي نقل أمة كاملة من حضيض الجاهلية وظلماتها إلى نور الإسلام وسعادته أدّى إلى وجود قاعدة عريضة في المجتمع لم تصل إلى درجة كافية من فهم الرسالة واستيعابها والتفاعل مع تفاصيلها، وهم معرضون للانهايار والهزيمة مع أول امتحان يواجههم في حالة غيابه (ﷺ)، وقد أخبره بذلك القرآن الكريم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

(١) رزية يوم الخميس: ما أخرجه البخاري بسنده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، قال: لما حضر رسول الله (ﷺ) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (ﷺ) لهم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي (ﷺ) قال لهم رسول الله (ﷺ) قوموا عني، فكان بن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (ﷺ) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم. (وقد تم التصرف في الحديث إذ نقلوا المعنى فقط لان اللفظ الثابت هو أن النبي يهجر ولكنهم حرفوه تهذيباً للعبارة ودفاعاً عن عمر. (المراجعات: المراجعة ٨٦).

(٢) الوسائل: كتاب الصلاة باب عدم جواز الجماعة في صلاة النوافل في شهر رمضان، الحديث الأول.

(٣) راجع في استقصاء هذه الموارد كتاب (النص والاجتهاد) للسيد شرف الدين.

انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴿١٤٤﴾ (آل عمران: ١٤٤) وهو ما وقع فعلاً حين ارتدت الجزيرة ولم يبق على الإسلام إلا تلك الثلثة القليلة في المدينة المنورة التي عرقتها التجارب وصلّبت عودها الامتحانات المتتالية مع رسول الله (ﷺ)^(١).

نموذج من الانحراف الإسلامي:

وقد أشارت عائشة إلى هذا الانحراف الذي حصل في مسيرة المسلمين عندما كانت تحرّض على الثورة ضد الخليفة الثالث عثمان، يروي الطبري^(٢): كانت السيدة عائشة من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله (ﷺ) فنصبته في منزلها، وكانت تقول للدخلين إليها: هذا ثوب رسول الله لم يبلّ وقد أبلى عثمان سنته، وقالوا إنها كانت أول من سمى عثمان نعتلاً (اسم أحد اليهود بالمدينة) وكانت تقول: (اقتلوا نعتلاً! قتل الله نعتلاً) هذا ولم يمرّ على وفاة رسول الله (ﷺ) أكثر من عقدين من الزمان.

حملات اليهود بعد رحيل النبي (ﷺ):

وكان في الداخل اليهود الذين لا ينسون لرسول الله (ﷺ) وللإسلام القضاء عليهم وإخراجهم من ديارهم وقتل رجالهم وسبي نساءهم وزوال دولتهم

(١) وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة المائدة آية ٥٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) تأريخ الطبري ٣/ ٤٧٧ وقد نقلناه عن كتاب (بنور فاطمة اهتديت) / ١٩٠.

ونفوذهم في المدينة، لذلك كانت هجمة التشكيكات التي بثوها في الأمة بعد وفاته (ﷺ)، وأسئلتهم المتنوعة الكثيرة التي كانت تعجز خليفة المسلمين وأصحاب رسول الله (ﷺ)، فأصيب المسلمون بالإحباط والضعف والهزيمة أمامهم، وكانت حملة منظمة وليست اعتباطية ظهرت فجأة بعد غياب رسول الله (ﷺ) وإقصاء الخليفة الحق الذي كان لهم بالمرصاد رغم إبعاده عن القيادة الدنيوية، لكنه كان يرى مصلحة الدين وإعلاء كلمة التوحيد فوق كل شيء، حتى اشتهرت كلمة الخليفة الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)^(١) وما علمنا أنه احتاج إلى أحد سواه^(٢).

العدو الخارجي والكييد بالإسلام:

ومن الخارج كان هناك المتربصون بالإسلام شراً الذين أعيتهم الحيل في القضاء عليه، حيث بدأوا بتعذيب أصحابه (ﷺ) وقتلهم، ثم حاصروه ومن معه في شعب أبي طالب اقتصادياً واجتماعياً، ثم تآمروا على قتله فهاجر إلى المدينة^(٣) وبات علي في فراشه^(٤) ثم جهزوا الجيوش لقتاله واستئصال أمره فلم يفلحوا في

(١) أخرجه سبط بن الجوزي، أسد الغابة ٤/ ٢٢، الإصابة القسم ١/ ٢٧٠، تهذيب التهذيب ٧/ ٣٢٧، عن نظريات الخليفتين لنجاح الطائي.

(٢) جعل الخليل بن أحمد الفراهيدي ذلك دليلاً على إمامته حينما سئل ما الدليل على إمامة أمير المؤمنين وخلافته لرسول الله (ﷺ) قال: احتياج الكل إليه وعدم احتياجه للكل.

(٣) حياة محمد (ﷺ) نهاية الفصل السادس والفصل السابع لمحمد حسين هيكل.

(٤) حياة محمد (ﷺ) الفصل العاشر لمحمد حسين هيكل.

القضاء عليه (ﷺ)^(١)، ولم يبق أمامهم إلا نهاية حياته لتموت دعوته بموته (ﷺ)، بل حاول بعضهم فعلاً اغتياله أكثر من مرة كمحاولة رؤساء بني عامر، والمحاولة التي جرت أثناء مسيره إلى تبوك حيث حاول بعض المتآمرين تنفير ناقته (ﷺ) ليلقوه من السفح وتتقطع أوصاله، وقد أعلم (ﷺ) الصحابي حذيفة بن اليمان بأسمائهم حتى سمي صاحب سر رسول الله (ﷺ)، وكان الخليفة الثاني لا يصلي على أحد حتى يصلي حذيفة ليعلم أنه ليس من المنافقين^(٢).

وفي الخارج كانت أيضاً الدولتان الرومية والفارسية اللتان بدأتا تفكران جدياً في أمره (ﷺ) بعد أن غطى نوره الجزيرة كلها من اليمن جنوباً إلى تخوم الشام والعراق شمالاً، بل إنه (ﷺ) بدأ التحرش بالدولة الرومية في معركة مؤتة^(٣) وغزوة تبوك، وأرسل الرسائل إليهم يدعوهم إلى الإسلام بلهجة الواثق بالنصر والمستعلي عليهم (أسلم تسلم).

التحديات الجسيمة أمام النبي (ﷺ):

كل هذه المصاعب والتحديات التي تواجه الأمة بعد وفاته (ﷺ) كانت نصب عينه (ﷺ) وهو صاحب القلب الرحيم الذي نذر حياته لله تبارك وتعالى ولإصلاح الإنسانية وإنقاذها من الظلمات إلى النور، وقد وصفه القرآن الكريم:

(١) حياة محمد (ﷺ) الفصل الثالث عشر لمحمد حسين هيكل.

(٢) راجع (المحلى) لابن حزم الأندلسي، (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد عن (نظريات الخليفين: محاولة اغتيال النبي).

(٣) معركة مؤتة: كانت في سنة ثمان من الهجرة.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، فكيف يترك أمر الأمة سدى؟! ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥) و﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (فاطر: ٣) فهذا الاحتمال - أي ترك الأمة سدىً من دون إرشادها إلى من يتولى أمرها - مرفوض قطعاً.

بقي احتمالان آخران تبنت كل واحدٍ منهما طائفة من المسلمين.

عقيدة العامة في الإمامة:

الأول: - وهو الذي التزم به العامة - إيكال الأمر إلى الأمة نفسها فهي تختار من تشاء، وهو مرفوض أيضاً لعدة وجوه:

١ - قصور الأمة عن تحمل مثل هذه المسؤولية، وقد عجزت عن أقل من هذا الأمر عندما واجهت التحديات بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، حتى بعد أن نالت تربية إضافية خلال عقود من السنين.

ففي خلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما بدأ أصحاب رسول الله (ﷺ) يتقاتلون بينهم لم يعرفوا حكم هذه الحالة، عن الشافعي: أخذ المسلمون السيرة في قتال المشركين من رسول الله (ﷺ) وأخذوا السيرة في قتال البغاة من علي (عليه السلام) (١).

وبعد ذلك بعقود مرتّ الدولة الإسلامية بأزمة مع الدولة الرومية، عندما

(١) كشف الغمة : ١ / ١٢٤، شرح نهج البلاغة: ٩ / ٢٣٠.

أرادت أن تسكّ عملة فيها شتم نبي الإسلام وتتداول في بلاد المسلمين، فأنقذ الموقف الإمام الباقر (عليه السلام)^(١)، وهكذا ظلّت الأمة عاجزة عن حل مشكلاتها لولا وجود الأئمة (عليهم السلام)^(٢)، حتى اكتملت التربية بعد (٢٦٠) عاماً باستشهاد الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فدخلت الأمة مرحلة (وسطية) بين الوجود الفعلي للإمام والغيبة التامة، فكانت الغيبة الصغرى التي استمرت (٧٠) عاماً لتبدأ الغيبة الكبرى بعد أن رسم الأئمة (عليهم السلام) كل المعالم الرئيسية والخطوط العامة لمسيرة الأمة، وقبل هذه المراحل المتتابعة من التربية كانت الأمة عاجزة.

وكان هذا العجز واضحاً في الصدر الأول للإسلام لقرب عهدهم بالجاهلية الهمجية وقلة فترة الرسالة وانشغالهم عن استيعاب تفاصيلها، كما عبّر الخليفة الثاني حينما سئل عن قلة استفادته من رسول الله (ﷺ) قال: (ألهانا الصفق بالأسواق)^(٣)، ويقول بعضهم: كنّا نغتنم فرصة مجيء الإعرابي يسأل من رسول الله (ﷺ) لتتعلم أحكام ديننا. فمع عجزهم عن هذه الأمور الجزئية، كيف يوكل إليهم أمر الإمامة التي بها قوام الأمة.

٢- لو كان لهذا الأمر وجود لبين رسول الله (ﷺ) تفاصيله إلى الأمة،

(١) رواه الدميري في حياة الحيوان عن المحاسن والمساوي للبيهقي ورواه بهذا المضمون عن شذرات العقود للمقرئزي عن سيرة الأئمة الاثني عشر/القسم الثاني/الإمام الخامس محمد الباقر (عليه السلام) لهاشم معروف الحسني.

(٢) الغيبة الصغرى والكبرى للسيد الشهيد محمد صادق الصدر (قدس سره).

(٣) صحيح مسلم: ٢/٢٣٤، في كتاب الآداب، صحيح البخاري: ٣/٨٣٧، مسند أحمد: ٣/١٩، سنن الدارمي: ٢/٢٧٤، سنن ابن داود: ٢/٣٢٠، مشكل الآثار: ١/٤٩٩. (عن كتاب الغدير: ٦/١٥٨).

فيوضح صيغة الاختيار، ومن الذين لهم هذا الحق، وما هي شروط المرشحين للإمامة وضوابط الاختيار، ومن هو الحاكم فيها عند الاختلاف، وهكذا.

ونحن نعلم أن رسول الله (ﷺ) لم يغفل عن أبسط تفاصيل الشريعة، كآداب المائدة وأحكام التخلي، فكيف يغفل عن مسألة الإمامة وهي أصل الشريعة وأساسها؟!.

٣- عدم التزام نفس الخلفاء الذين أعقبوه بمبدأ الاختيار، فالأول نص على الثاني^(١)، والثاني جعله بين ستة من المهاجرين، فهل تراهم أول مخالفين لسنة رسول الله (ﷺ)^(٢)، بل إن الخليفة الثاني يقر ويعترف (أن بيعة أبي بكر فلتة (أو فتنة) وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه كائناً من كان)^(٣).

٤- إن هذا المنصب العظيم له مؤهلاته الدقيقة التي لا يعلمها إلا المطلع على الأسرار ومن لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وأولها العصمة؛ لاشتمزاز الناس من الأخذ ممن يتورط في الذنوب، وكما يظهر من الآية الشريفة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج ١ شرح الخطبة الشقشقية.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج ١ شرح الخطبة الشقشقية، سيرة الأئمة ج ١، وسيأتي في الهوامش القادمة مزيد من التفصيل.

(٣) شرح النهج ج ٢ ص ٢٣، المراجعات / المراجعة ٨٠، مسند أحمد ٥٥/١، البخاري ١١١/٤، تاريخ الطبري ٤٤٦/٢. (عن نظريات الخليفين).

﴿١٢٤﴾، إنها مرتبة فوق النبوة والرسالة ولا يبلغها الرسول إلا بعد اجتيازه لامتحانات عسيرة، وقد ورد في تفسيرها أن الله اتخذ إبراهيم عبداً خالص العبودية، أي معصوماً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، ثم ابتلاه ربه بكلمات فأتهمهن، ونجح في تلك الاختبارات فاستحق التكريم الإلهي ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(١).

وأنت لو استقرأت الآيات الشريفة وجدتها تنسب الإمامة إلى الجعل الإلهي، كالأية المتقدمة وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ (الأنبياء: ٧٣)، وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)، لذا قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٢٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

٥- إن كون الإمامة بالتعيين والنص الإلهي مرتكز في أذهان المسلمين عامة حتى عند من لم يعتقدوا به ظاهراً، لكن كلماتهم وأفعالهم تبرز ذلك، والشاهد على ذلك ما ورد في روايات عديدة أن الناس كانوا يرددون قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤) عندما يطلع أحدهم عن كتب

(١) سورة البقرة: ١٢٤، راجع تفسير الميزان وأصول الكافي/كتاب الحجّة.

على سيرة أهل البيت (عليهم السلام) ومواقفهم النبيلة السامية، فكأنه مرتكز في أذهانهم جميعاً أن حمل الرسالة أمر مجعول من قبل الله تبارك وتعالى، وليس لأحد أن يتدخل فيه.

٦- إن رسول الله (ﷺ) نفسه لم يعط لنفسه الحق في تنصيب من يلي الأمة، وإنما أوكل الأمر إلى الاختيار الإلهي، ففي سيرة ابن هشام^(١) لما دعا الرسول بني عامر للإسلام، وقد جاءوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال النبي (ﷺ): (الأمر لله يضعه حيث يشاء). إذا كان الأمر كذلك فكيف يُدعى إيكاله إلى الأمة.

عقيدة مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في الإمامة:

الثاني: ولم يبق إلا الاحتمال الآخر، وقد تبنته مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، وأرسى قواعده رسول الله (ﷺ) واستوعبه الصفوة من أصحابه ودافعوا عنه وصرحوا به رغم الوعيد والتهديد ومضوا عليه شهوداً وشهداء.

وهذا موافق لسنة الله التي جرت في أنبيائه ورسله حيث كان لهم جميعاً أوصياء^(٢)، فلماذا لا يكون لرسول الله (ﷺ) وصي ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِّنْ

(١) السيرة النبوية ٢/ ٤٢٤.

(٢) وقد سلسل المسعودي في كتاب (إثبات الوصية) اتصال الحجج وأوصياء الأنبياء من لدن آدم حتى خاتم النبيين -صلوات الله عليهم أجمعين- وأوصياءه. عن معالم المدرستين: ١/ ٢٨٣.

الرُّسُلِ ﴿الأحقاف: ٩﴾ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ١٣)، وقد ألفت كتب عديدة في هذا المجال بعنوان (إثبات الوصية) وأشهرها للمسعودي^(١)، وهذا المسلك يقتضي تهيئة الشخص البديل وإعداده ليكون مؤهلاً لمواصلة وظائف ومسؤوليات الإمام والخلافة والقيادة النائبة بشكل تام وكامل وفاعل.

وهذا الاحتمال يبدو منسجماً مع النتائج التي تمخضت عن التحليل السابق وفي ضوء القابليات والمؤهلات التي اجتمعت في أمير المؤمنين (عليه السلام)^(٢) الذي قيل في كثرة فضائله: (لقد أخفى أوليائه فضائله خوفاً، وأخفاها أعداؤه حسداً وحقداً، وظهر ما بين ذلك ما ملأ الخافقين)^(٣)، وعن أحمد بن حنبل: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله (ﷺ) من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب)^(٤).

وكان تميزه واضحاً عن بقية أصحاب رسول الله (ﷺ) بكل صفات الكمال،

(١) المسعودي هو: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود توفي سنة ٣٤٦هـ وفي ترجمته بطبقات الشافعية ٣٠٧/٢ قيل كان معتزلي العقيدة، وأشار إلى هذا الكتاب الكتبي في فوات الوفيات ٤٥/٢، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ٩٤/١٣ وقال: له كتاب البيان في أسماء الأئمة، وفي الميزان لابن حجر ٢٢٤/٤: له كتاب تعيين الخليفة، سماه في الذريعة وغيرها: إثبات الوصية. (معالم المدرستين ج ٢).

(٢) وأنا إلى هنا أتكلم بشكل موضوعي ووفق الظروف المنظورة بعيداً عن النصوص وأقيم سلوك رسول الله (ﷺ) كمؤسس أمة ومنشئ مجتمع مدني جديد وقائد ناجح حكيم.

(٣) سيرة الأئمة الاثني عشر ج ١ علي وبيت المال ص ٣١٩.

(٤) مستدرک الحاكم ١٠٧/٣ بحسب كتاب (بنور فاطمة اهتديت) ١٣٦.

وكان التفاف الواعين المخلصين من أصحاب رسول الله (ﷺ) حوله معروفاً في حياة رسول الله (ﷺ) وبعد وفاته (ﷺ)، كسلمان^(١)، وأبي ذر^(٢)، والمقداد^(٣)، وعمار^(٤)، وعزز ذلك الرعاية الخاصة والإعداد المركز الذي كان يحيطه به (ﷺ) منذ نعومة أظفاره والتي وصفها أمير المؤمنين نفسه بقوله: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزَلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعْنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ (ﷺ) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَكْثَمَ مَلَكٍ مِنْ

(١) سلمان الفارسي أو المحمدي: كان أكثر أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) علماً وحكمة، وكان والياً على المدائن في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، توفي في المدائن التي كان والياً عليها في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين وقيل أول سنة ست وثلاثين وغسله ودفنه أمير المؤمنين (عليه السلام).

(٢) أبو ذر: جندب بن جنادة: تقدم إسلامه وتأخرت هجرته، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله (ﷺ)، توفي منياً بالربذة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.

(٣) المقداد بن الأسود الكندي: قال الرسول (ﷺ): (إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة من أصحابي واخبرني أنه يحبهم، فقيل: من هم؟ فقال: علي والمقداد وسلمان وأبو ذر).. توفي سنة ٣٣ هجرية. (الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥١/٣، والإصابة ٤٣٣/٣ - ٤٣٤ عن معالم المدرستين ج ١).

(٤) أبو اليقظان عمار بن ياسر: أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان المشركون يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم فمر بهم النبي (ﷺ) فقال (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، فمات ياسر في العذاب وطعنت أمه بحربة أبي جهل، شهد عمار المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) واستشهد بصفين مع علي (عليه السلام) وقد جاوز التسعين من عمره.

مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ
 أَتْبَعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ امَّةٍ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عِلْمًا مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي
 بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ
 بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ
 الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ
 عَلَيْهِ (ﷺ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: (هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ
 عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ،
 وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ) (١).

وهكذا هو منه (ﷺ) حتى فارقت روحه الدنيا، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام):
 (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ (ﷺ) أَنِّي لَمْ أَرُدُّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى
 رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ).

وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ،
 نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا. وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ
 سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمَرَتْهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ (ﷺ) وَالْمَلَائِكَةُ
 أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ: مَلَأَ يُهْبِطُ، وَمَلَأَ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْئَةً (٢)
 مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْيَجِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟ (٣).

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ١٥٧/٢.

(٢) الهينمة: الصوت الخفي.

(٣) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ١٧١-١٧٢.

الدور العلوي في الحفاظ على الدين:

ولقد أدى (عليه السلام) دوره بنجاح بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، وحفظ الإسلام من الضياع، وكان وجوده والأئمة (عليهم السلام) من بنيه بحق أماناً للأمة من الانحراف، بحيث يستغيث الخليفة الثاني ويتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن^(١)، فكانت خلافة أمير المؤمنين لمقام رسول الله (ﷺ) وإمامة الخلق من بعده نتيجة طبيعية ومنطقية لتسلسل التفكير أعلاه لا يسع أي منصف أن يحيد عنها، ولم يكن النص الذي سنشير إليه - وهو حديث الغدير - هو الذي جعل من علي (عليه السلام) إماماً وخليفة بعد رسول الله (ﷺ) حتى يناقشوا في دلالاته والمراد منه، لا لشيء إلا لتصحيح الواقع الذي حصل بأي ثمن كان وبأية طريقة، ولو بإنكار وجود الشمس في رابعة النهار. فعلي (عليه السلام) هو الإمام بما حمله من صفات الكمال قبل النص وإنما جاء النص للإشارة إليه ولتعريفه ولقطع العذر وإتمام الحججة على المخالفين ولحسم الموقف ووضع النقاط على الحروف - كما يقولون -.

التخطيط للخلافة:

ولعظمة هذه المسألة وأهميتها فقد كان التخطيط والتمهيد لها يثوق عين رسول الله (ﷺ) ويقض مضجعه، فإنه يخشى ردود الفعل من هذه الأمة وهو خوف محمود كخوف موسى (عليه السلام) الذي ذكره القرآن وأشارنا إليه، ليس شخصياً وإنما على مستقبل الأمة التي هي جديدة عهد بالإسلام وما زالت روااسب

(١) أشار إلى كلمته المشهورة (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن).

الجاهلية لم تمنح من ذاكرتها، وما زال التعصب يتحكم فيها^(١)، فكيف يستطيع أن يضمن ولاءها لهذا القرار الهام الذي يصعب على النفوس الحالمة بالخلافة والقلوب المملوءة حسداً وحقداً على علي (عليه السلام) أن تنصاع إليه، كذاك الفهري الذي ما إن سمع بحديث الغدير وتنصيب علي (عليه السلام) خليفة بعد رسول الله (ﷺ) ومبايعة المسلمين له حتى جاء إلى رسول الله (ﷺ)، فقال له: هذا الأمر منك أم من الله؟ فقال (ﷺ): إنه من الله. فقال: إن كان هذا من الله فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم. فما خرج منه (ﷺ) حتى نزلت عليه صاعقة من السماء. وقد ورد أنه سبب نزول قوله تعالى: ﴿سَأَلِ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (المعارج: ١-٢)^(٢).

(١) لاحظ كشاهد على ذلك كيف أن بشير بن سعد وأسيد بن حضير بادرا إلى بيعة أبي بكر خشية أن يفوز بها سعد بن عبادة.

عن كتاب النص والاجتهاد المورد الأول يوم السقيفة ص ٨٠. واجتماع أكثر الأنصار في السقيفة يرشحون سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، لكن ابن عمه بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي وأسيد بن حضير سيد الأوس كانا ينافسانه في السيادة، فحسدها على هذا الترشيح وخافا أن يتم له الأمر فأضمرأ له الحبكة مجمعين على صرف الأمر عنه بكل ما لديهما من وسيلة وصافقهما على ذلك وعويم بن ساعدة الأوسي، ومعن بن عدي حليف الأنصار.. وكان مع ذلك ذوي بغض وشحناء لسعد بن أبي عبادة...

(٢) روى الثعلبي الذي هو من قدوة مفسري المخالفين في شأن نزولها -انظر هامش ج ٨ تفسير الرازي لأبي مسعود ص ٢٩٢ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠٢ ونور الأبصار ص ٦٩- أنه لما كان النبي (ﷺ) بغدير خم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي (عليه السلام) فقال من كنت مولاه فعلي مولاه فشاع ذلك وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى... النبي (ﷺ) وهو في ملأ من أصحابه، فقال: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وانك رسول الله ففعلناه وأمرتنا أن نصلي خمساً

الإعلان العظيم تكمل في يوم الغدير:

وبالمقابل كان (ﷺ) لا يستطيع السكوت عن إنفاذ هذا الأمر وهو يرى نهايته تقترب، والأعداء يتربصون بدينه الدوائر، فكيف يهدأ له بال ويقرّ له قرار قبل أن تنعقد البيعة لعلي (عليه السلام).

حتى أذن الله تبارك وتعالى له بالتبليغ، بل أمره به وطمأنه من مخاوفه هذه بأنه سيعصمه من الناس، وبين أهمية هذا الأمر بأنه وحده في كفة وباقي الرسالة كلها في كفة، فقال عز من قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

فليس غريباً أن تدرج هذه الآية المباركة وآية الولاية التي سبقتها ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) في سورة المائدة التي يستشف المتأمل فيها أن غرضها تأسيس المجتمع المسلم، وبيان مميزاته الرئيسية ومقوماته وأسس كيانه، وعرض نقاط الفرق بين المجتمع الذي يقوم على أساس الإسلام والمجتمع الذي ليس

فقبلنا وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان فقبلناه وأمرتنا أن نحج البيت فقبلناه ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه وهذا شيء منك أم من الله، فقال النبي (ﷺ): والذي لا إله إلا هو من الله، فولى الحارث بن النعمان يريد راحته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء واتنا بعداب اليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله وانزل الله تعالى ﴿سَأَلِ بِعَذَابِ رَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (حق اليقين في معرفة أصول الدين ج ١ / الآية الثالثة الدالة على أن الإمام بعد رسول الله (ﷺ) هو علي (عليه السلام)).

كذلك كائناً ما كان وإن سمي نفسه مسلماً، فإنه في مفهوم القرآن (مجتمع جاهلي)، فالبينونة بين المجتمعين كاملة في الأحكام (كآيات أوفوا بالعقود وحرمة الكلب والخنزير وغيرها) وفي من له حق الولاية (فقد تكررت كثيراً آيات ولاية المؤمنين والبراءة من الكافرين)، وفي الشريعة التي تنظم الحياة ﴿أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.. هُمُ الظَّالِمُونَ.. هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿المائدة: ٤٤-٤٦-٤٧-٥٠﴾ وتمامها وعقد نظامها آية التبليغ وآية الولاية.

أعظم الأعياد في الإسلام:

ثم جعل يوم الحسم هذا أعظم عيد في الإسلام، ففيه كمل الدين وتمت النعمة بعقد البيعة والولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام)، وامتن الله تبارك وتعالى على عباده بذلك فقال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وجلس رسول الله (ﷺ) يتقبل التهاني بهذا الإنجاز العظيم ويقول لأصحابه: هنتوني هنتوني بابت عمي أمير المؤمنين. وأفرد له خباءً ليسلموا عليه ويباعوا عليه خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين، واستأذنه شاعره حسان بن ثابت أن يقول شعراً في المناسبة، فأذن له فأنشأ:

يناديهم يوم الغدير نبهم
بخم فأسمع بالرسول مناديا
وفيها يقول:

فقال له: قم يا عليُّ فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
وأول من سلم عليه الشيخان وهما يقولان له: بخ بخ لك يا بن أبي طالب،
أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة^(١).

وقد نظم هذه الحقيقة التاريخية الدامغة أجيال من الشعراء جيلاً بعد جيل^(٢)،
ومنهم عمرو بن العاص الخضم الألدُّ لعلي بن أبي طالب في قصيدته الجلجلية
التي بعثها إلى معاوية يذكره ببعض الحقائق التي تناساها، ومما جاء فيها^(٣):

وكم قد سمعنا من المصطفى	وصايا مخصصةً في علي
فأنحله إمرة المؤمنين	من الله مستخلف المنحل
وقال: فمن كنت مولياً له	فهذا له اليوم نعم الولي
فبخبخ شيخُك لما رأى	عُرى عقد حيدر لم تحلل
فقال: وليكم فاحفظوه	فمدخله فيكم مدخلي

(١) أخرج الواحدي في تفسير (يا أيها الرسول بلغ ...) من طريقين معتبرين عن عطية عن أبي سعيد
الخدري قال: نزلت هذه الآية يوم غدیر خم بعلي بن أبي طالب، فلما بلغ الرسالة بنصه (ﷺ) على
علي (ﷺ) بالإمام وعهد إليه بالخلافة أنزل الله عز وجل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ...﴾ وأول من هنا
علي (ﷺ) في يوم الغدير هما: أبو بكر وعمر بقولهما: أمسيت يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن
ومؤمنة. (أخرجه الدار قطني - الفصل الخامس من الباب الأول من صواعق بن حجر ص ٢٦ وأحمد
نحو هذا القول عن عمر من حديث البراء بن عازب ص ٢٨١ ج ٤ من مسنده). (المراجعات ٥٤ وما
بعدها).

(٢) راجع الموسوعة الفريدة (الغدیر) للشيخ الأميني (ﷺ).

(٣) (راجع كتاب الغدير في ترجمة عمرو بن العاص).

وقد جاء هذا البيان - خطبة الغدير - منه (ﷺ) متوجاً لبيانات سابقة لا تقل عنه وضوحاً: (إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)^(١)، وإن: (علي مع الحق والحق مع علي)^(٢) وإنه (عليه السلام) وأهل بيته كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك^(٣)، وأنهم والقرآن صنوان لا يفترقان، وثقلان ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً^(٤).. وغيرها كثير.

لماذا كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام؟

إن عظمة هذا اليوم لها مناشئ عديدة فهو:

- ١- يوم الطمأنينة على بقاء الرسالة واستمراريتها بعد أن انتقل ارتباطها من شخص رسول الله (ﷺ)، فيمكن أن تموت بموته، إلى نوع رسول الله (ﷺ)، أي إلى كل من تتجمع فيه صفات وشروط الإمامة فلم يعد وجودها منوطاً بشخصه (ﷺ).
- ٢- وهو يوم الانتصار النهائي على مكائد الأعداء الذين لم يبق في جعبتهم من سلاح إلا موت رسول الله (ﷺ) لتنتهي دعوته ففقدوا هذا الأمل

(١) حديث المنزلة: عن الإمام أحمد في الجزء الأول من مسنده في آخر صفحة ٣٣٠ والإمام النسائي في خصائصه العلوية ص ٦ والحاكم في ج ٣ من صحيحه المستدرک ص ١٢٣ والذهبي في تلخيصه معترفاً بصحته عن عمرو بن ميمون (المراجعات: ٢٦).

(٢) البحار ج ١٠ باب ٢٦ ص ٤٣٢.

(٣) الوسائل: كتاب القضاء، صفات القاضي، باب ٥، حديث ١٠.

(٤) الإمام أحمد والترمذي بعدة طرق تجدها في المراجعات: المراجعة ٨٠.

الشيطناني بتنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) خليفة.

٣- وهو يوم حماية الأمة من التشتت ومن الضياع بتعيين الجبل الذي إن اعتصموا به بقي ريحهم وكيانهم وانتشر أمرهم وعلت كلمتهم.

٤- وهو يوم صيانتها من الانحراف بعد أن نصب لهم العلم والمحور الذي يلتفون حوله.

٥- وهو يوم أمان الأرض ومن عليها من الفناء، لما ورد في الحديث: (إن الأرض لا تخلو من حجة ظاهر أو مستور، ولولاه لساخت الأرض بأهلها)^(١).

٦- وهو يوم الهداية إلى الدين ووضوح الحق بمعرفة الحجة كما في الدعاء: (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني نبيك، فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني)^(٢).

٧- وهو يوم الإمامة التي هي أس الإسلام وسنامه، فهو لا يقل أهمية عن يوم البعثة النبوية الذي انبثق فيه نور الإسلام.

التشيع يزداد وضوحاً بيوم الغدير:

لأجل هذا كله كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام كما نطقت به الروايات الشريفة، وفي ذلك اليوم تبلورت فكرة (التشيع) ونضجت ثمارها وأينعت بعد أن

(١) البحار ج ٣٦، باب ٤١، ص ٣١٥.

(٢) مفاتيح الجنان: الفصل السادس، دعاء زمن الغيبة.

كان قد زرع بذورها رسول الله (ﷺ) في مناسبات عديدة، ابتداءً من يوم الدار وإنذار عشيرته الأقربين في أوائل البعثة الشريفة^(١).

ولهج رسول الله (ﷺ) بهذا الاسم المحبب له ولأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) في مناسبات عديدة، أنقل بعضها من كتب العامة ليكون الخطاب أبلغ في الحجة:

١- في الدر المنثور للسيوطي ج ٨/ص ٥٨٩: روى بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنا عند النبي (ﷺ) فأقبل علي (عليه السلام)، فقال النبي (ﷺ): (والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة)، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧).

٢- ابن حجر في الصواعق المحرقة^(٢): عن ابن عباس قال: لما أنزل الله

(١) حياة محمد: الفصل الخامس، ص ١٤٢، لمحمد حسين هيكل، المراجعات: مراجعة ٢٠ قال فيها حين أنزل الله تعالى على الرسول الأكرم (ﷺ) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فدعاهم إلى دار عمه أبي طالب وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيد رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، والحديث في ذلك من صحاح السنة المأثورة، وفي آخره قال رسول الله (ﷺ): يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنني على أمري هذا على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها غير علي - وكان أصغرهم - إذ قام فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله برقبته وقال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، قال رسول الله (ﷺ) لعلي (عليه السلام): (هم أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضاباً مقمحين).

٣- كنوز الحقائق للمناوي الشافعي^(١) قال رسول الله (ﷺ): (علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة)، وروى احمد عن أم سلمة قالت: كان النبي (ﷺ) عندي في ليلتي فغدت عليه فاطمة وعلي فقال رسول الله (ﷺ): يا علي أبشر فإنك وأصحابك وشيعتك في الجنة.^(٢)

أشكال التخطيط النبوي لتعيين الخليفة:

لقد كان تخطيط رسول الله (ﷺ) لهذا الأمر أي تعيين الخليفة والامتداد له على ثلاثة أشكال:

الأول: النص المباشر والواضح عليه، وعدم ترك الأمر مجملاً تتقاذفه التأويلات والتفسيرات، وقد تقدم فيما مضى فكرة عنه، وأنصح بقراءة كتاب (المراجعات) للسيد شرف الدين للاطلاع على المزيد من الأدلة والنصوص ببيان قوي وحجة دامغة، مما لو دخلت فيه سأخرج عن الاتجاه العام الذي رسمته لهذا البحث.

الثاني: الإشادة بالأشخاص المخلصين الواعين الذين يعلم (ﷺ) منهم

(١) كنوز الحقائق للمناوي (ص ٨٣)

(٢) فضائل الصحابة: ٦٥٤/٢

أنهم ثابتون على الخط وواعون للهدف وراسخون في المبدأ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقولون كلمة الحق مهما كان الثمن، كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار وذو الشهادتين وبلال الحبشي وأم ايمن وأم سلمة، فكان (ﷺ) يردد: (سلمان منا أهل البيت)^(١) (إن الجنة لثشاق إلى أربعة: سلمان والمقداد وأبي ذر وعمار)^(٢) (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذر)^(٣) (ملى عمار إيماناً من قرنه إلى أخمص قدميه)^(٤) و(أم أيمن امرأة من أهل الجنة)^(٥) و(بلال من أهل الجنة)^(٦) وقال لأم سلمة: (لست من أهل البيت، لكنك على خير)^(٧).

فكانت هذه الأوسمة تخطيطاً منه (ﷺ) للمستقبل إذا انقلبت الأمة على الأعقاب وتاهت بها السبل في بحر الظلمات، فسيكون هؤلاء أعمدة نور تضيء لطلاب الحقيقة الدرب، وتدلهم على شاطئ الإيمان وقد أدوا دورهم وقالوا كلمة الحق فثبتوها في لوح التاريخ^(٨) لو كان هناك من يسمع، بينما لم نسمع منه (ﷺ).

(١) البحار ج ١، باب ٨، ص ١٢٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٢ خاتمة الكتاب، باب ١٠، ص ٣٢٤.

(٣) الوسائل ج ١٠، باب ٢، ص ٢٣، سنن ابن ماجه المقدمة باب ١١، وسنن الترمذي كتاب المناقب، مناقب أبي ذر، ومسند أحمد، وطبقات ابن سعد. (عن معالم المدرستين).

(٤) الوسائل: ج ١٩، باب ٦، ص ٣٥.

(٥) البحار: ج ١٧، باب ٤، ص ٣٧٨.

(٦) البحار: ج ٢٢، باب ٣٧، ص ١٤٢.

(٧) أخرجه الطبراني في الدر المشور، وروي عن طريق الخاصة.

(٨) راجع كتاب الاحتجاج للطبرسي.

كلمة واحدة في أولئك الذين انحرفوا عن علي (عليه السلام) وخذلوه، رغم أن منهم من كان له مواقف مشهورة كالزبير بن العوام.

الثالث: وضع ضوابط يُعرف بها المستحقون لهذا الأمر وتمييزهم عمّن هم ليسوا أهلاً له، والذين يستخدمون أساليب لم يرقم عليها دليل شرعي من أجل تثبيت استحقاقهم، أو تشويه صورة أهل الحق وإزالتهم عن موقعهم، كما كانوا يقولون: (إن قريش نظرت فاخترت، وإنها أبت أن تجتمع النبوة والخلافة في بني هاشم)^(١) و(إن فلان - وهو الأول - أسنّ من علي)^(٢) و(إن علياً فيه دعاية)^(٣)، والله تبارك وتعالى يخاطبهم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، ويقول تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٦٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) فما قيمة رأي أحد واختياره كائناً من كان بعد قضاء الله تبارك وتعالى واختياره ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا

(١) ابن أبي الحديد: ص ١٠٧ من المجلد الثالث في شرح النهج، ابن الأثير: ص ٢٤ ج ٣ من كامله.

(عن المراجعات: مراجعة ٨٤). سيرة الأئمة: ج ١ ص ٣٣٢ هاشم معروف الحسني.

(٢) الغدير: ج ٢ ص ١٢٨.

(٣) شرح النهج: ج ١ لابن أبي الحديد عن شيخه أبو عثمان في كتابه السفينانية، سيرة الأئمة: ج ١

أَنْزَلَ اللَّهُ بَعْثًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿البقرة: ٩٦﴾.

الضوابط والمعايير لتولي الخلافة:

فبهذه المعايير والضوابط التي سنذكرها إن شاء الله تعالى تستطيع الأمة أن تفرز هؤلاء المتطفلين مهما مارسوا من أساليب الخداع والتضليل، المتقمصين لأمرها بغير حق:

(فمنها) قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٤)، والعهد هو الإمامة؛ لأنها جاءت جواباً على سؤال إبراهيم (عليه السلام) بعد جعله إماماً، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وقد فسرت في الروايات الشريفة بمن سجد لصنم يوماً ما^(١)، فإن من فعل ذلك سفيه، ولا يكون السفيه إمام التقي كما في الحديث^(٢)، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

(ومنها) قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد: ١٠).

(ومنها) قوله (عليه السلام): (لا يلي أمر هذه الأمة طليق).

(١) روى الفقيه ابن المغازي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): انتهت الدعوة إلي وإلى علي (عليه السلام) ولم يسجد أحدنا لصنم فاتخذني نبياً واتخذ علي وصياً. (حق اليقين في معرفة أصول الدين - الحادي عشر من الآيات الدالة على إمامة علي (عليه السلام)).

(٢) الكافي: كتاب الحجّة، حديث ٤٣٨، المجلد الثاني.

(ومنها) قوله (ﷺ): (فاطمة بضعة مني، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها)^(١).

وقال (ﷺ): (يا عمار تقتلك الفئة الباغية)^(٢).

(ومنها) حشده (ﷺ) المعادين لخط الإمامة، وفيهم شيوخ قريش في جيش أسامة ذي السبعة عشر ربيعاً، ولعنه من تخلف عن جيش أسامة، وأمر بإنفاذه فوراً^(٣)، وكان ذلك منه (ﷺ) لإخلاء الساحة من الذين لا ينصاعون لإمامة أمير المؤمنين (عليه السلام).

تطبيق الضوابط على المتصدين للخلافة بغير حق:

وبملاحظة هذه المعايير والضوابط تكتشف كيف خط رسول الله (ﷺ) لحصر الأمر بعلي (عليه السلام)، فبعض المتصدين ممن أغضب فاطمة (عليها السلام) وماتت وهي واجدة عليهم، كما أشهدتهم (صلوات الله عليها) على ذلك، فنالوا بذلك غضب الله تبارك وتعالى، وهل يلي أمر الأمة أحد من المغضوب عليهم، ثم هم من الظالمين الذين سجدوا للأصنام ردحاً طويلاً من الزمن، فلا ينالهم عهد الله تعالى، فكيف يكون أحدهم إماماً لمن كرم الله وجهه عن ذلك - كما يعترفون - وهم أيضاً ممن تخلفوا عن جيش أسامة فينالهم حكمه.

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٤/١، أعلام النساء: ٣١٤/٣. (عن نظريات الخلفيتين ج ١).

(٢) الكافي: ١١/٥.

(٣) الشهرستاني في المقدمة الرابعة من كتاب الملل والنحل. (المراجعات: مراجعة ٩٠، النص والاجتهاد - سرية جيش أسامة).

وبعضهم لم يقاتلوا لا قبل الفتح ولا بعده، وهزائمهم في الحروب معروفة، ومنهم من ولى منهزماً في معركة أحد لا يلوي على شيء ثلاثة أيام، حتى بلغ تخوم الشام، فقيل له: إن الأمر لا يستحق ذلك وقد عاد رسول الله (ﷺ) سالماً إلى المدينة.

ومعاوية ومروان ممن أسلموا بل استسلموا بعد الفتح، فلا يستون مع من آمن وأنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم من الطلقاء^(١) فلا يحق لهم ولاية أمر الأمة. وهم من البغاة، لأنهم قتلوا عماراً في صفين، فكيف يلي أمر الأمة باغ أثيم^(٢).

فلو كانت الأمة واعية لتلمست طريقها بوضوح، حيث لم يترك لها رسول الله (ﷺ) عذراً، فهل كان رسول الله (ﷺ) عاطفياً وبدافع الحب لابنته حين قال هذا الكلام، وهل سمعت بأحد غيور يرتقي المنبر ويشي على مزايا ابنته؟! لا طبعاً خصوصاً في مثل رسول الله (ﷺ) الذي يصفه القرآن ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿﴾ (النجم: ٣-٤). وإنما المسألة أبعد من ذلك، إنه يريد أن ينصب لهم ميزاناً يعرفون به الحق والباطل لو اختلطا عليهم، وإن كان الأمر واضحاً لكن قلبه الكبير ورحمته ورأفته بالأمة أبت إلا أن يوالي الحجج على هذه الأمة وينصب لها العلامات تلو العلامات حتى وهو على فراش المرض في رزية

(١) مستدرك نهج البلاغة: الباب الثاني، كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى معاوية وقوله: (...واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الإمامة...).

(٢) البحار: ج ٣٦، باب ٤١، ص ٣٢٧، النص والاجتهاد: المورد ٩٥ حرب معاوية لعلي (عليه السلام).

الخميس كما يسميها ابن عباس^(١). ولأنه (ﷺ) كان يعلم أن أساليب التضليل كثيرة ووسائل الضغط قوية وشرسة، فالنص - وهو الشكل الأول من التخطيط - يُؤوّل ويُحرّف، وهذه التلة المخلصة - وهو الشكل الثاني - يُضَيّق عليها وتحبس أنفاسها، فأبو ذر ينفي إلى الربذة حتى يموت غريباً^(٢)، وعمار وعبد الله بن مسعود^(٣) يداس بطنه وتوجأ عنقه، وأم أيمن امرأة أعجمية لا تقبل لها شهادة^(٤)، والحسن والحسين طفلان صغيران^(٥)، وعليّ يجر النار إلى قرصه فلا تقبل له ولا لولديه شهادة^(٦)، والزهراء (عليها السلام) تتجرع الآلام غصة بعد غصة حتى لحقت بأبيها بعد أيام وهكذا...، لذا كان الشكل الثالث من التخطيط ضرورياً ليكون شاهد عدل مدى الأجيال، تملأ أفواه مزوري الحقائق بالتراب.

ولعلك تعجب مع وضوح هذا التخطيط وقوة الحجج المتوالية التي لم تنقطع حتى وفاته (ﷺ) وإذا بالأمر يزول عن مستقره ويتقمص الخلافة غير علي

(١) المراجعات: المراجعة ٨٦.

(٢) الوسائل: ج ٢٢ باب ١٢ ص ٣٩٥، معالم المدرستين ج ١ ص ٤٥٩.

(٣) ابن مسعود: أسلم قديماً وأجهر قديماً في مكة فضربوه حتى أدموه وهاجر إلى الحبشة والمدينة، شهد بدرًا وما بعدها، وقطع عثمان عطاءه سنتين لإنكاره على الوليد ما ارتكبه زمان ولايته على الكوفة ومات سنة اثنتين وثلاثين. (أسد الغابة: ٢٥٦/٣-٢٦٠، مستدرک الحاکم: ٣/٣٢٠، ٣١٥) وراجع أحاديث عائشة ٦٢-٦٥) (عن معالم المدرستين ج ٢)، وحول مقتله راجع للتفصيل سيرة الأئمة ج ١ ص ٣٧٠ وكذلك ضرب عمار بن ياسر.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٨، باب ٤، ص ٣٠٢، سيرة الأئمة: القسم الأول ص ١١٨ لهاشم معروف الحسنی.

(٥) سيرة الأئمة: القسم الأول ص ١١٩.

(٦) سيرة الأئمة: القسم الأول، ص ١١٨.

(عائشة)، وهو يعلم أن محل ابن أبي طالب منها محل القطب من الرحي، ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير^(١).

وانه لعجيب فعلاً، ولو لم يكن حقيقة ثابتة أجمع عليها المؤرخون لما صدقنا به، وقد أوجدت في عين أمير المؤمنين قذى، وفي الحلق شجى، وفي القلوب جمره لا تطفأ إلى يوم القيامة حتى ينتصف المظلوم من الظالم، ونعم الحكم الله والخصم محمد (ﷺ)^(٢)، يقول الإمام الصادق (عائشة) بهذا الصدق: (إن حقوق الناس تثبت بشهادة شخصين، وقد أنكر حق جدي أمير المؤمنين وعليه سبعون ألف شاهد كانوا مع رسول الله (ﷺ) في غدير خم)^(٣).

المرجعية الدينية ومسؤوليات التخطيط لإعداد البديل:

وعلى أية حال، فليست هذه الحالة فريدة في التاريخ، بل هي تتكرر كلما تكررت ظروفها الموضوعية، وما دامت النفس الأمارة بالسوء الميالة لاتباع الهوى وإشباع الشهوات والنزوع إلى التسلط وحب الجاه، وقد عشنا مثلها فإلى الله المشتكى^(٤).

(١) من كلمات أمير المؤمنين (عائشة) في الخطبة الشقشقية في نهج البلاغة.

(٢) من خطبة الزهراء التي احتجت بها على الصحابة في مسجد رسول الله (ﷺ). (المصنف). راجع شرح النهج لابن ابي الحديد: ج ١٦ ص ٢١٠.

(٣) بحار الأنوار: ج ٣٧ باب ٥٢ ص ١٥٨.

(٤) يشير (دام ظله) بذلك إلى ما حصل من حركات (انقلابية) على وصية السيد الشهيد الصدر الثاني (قلبي) رغم النصوص والإشارات المتكررة.

والذي أريده من هذا البيان ليس فقط ترسيخ هذه العقيدة والدفاع عنها وإن كان هذا مطلباً مهماً، لكنني بالإضافة إليه أقول: إن العلماء وعلى رأسهم المرجعية الشريفة هم ورثة الأنبياء^(١)، ليس فقط في الحقوق والامتيازات، وإنما في الوظائف والمسؤوليات والواجبات، خصوصاً وقد أمرنا بالتأسي برسول الله (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

ومن تمام التأسي والوراثة إعداد البديل بغض النظر عن كونه واحداً أو أكثر، وتربيته وتأهيله لهذا المنصب الإلهي الشريف، وأي تقصير فيه غير مغتفر لا عند الله سبحانه ولا عند رسوله (ﷺ) ولا أوليائه العظام ولا عند المجتمع، وبعد أن يطمئن إلى إكمال إعداد البديل علمياً وفكرياً وأخلاقياً وعقائدياً - وهي المقومات الأربعة لشخصية العالم الديني، بل كل مسلم واعٍ مخلص - يجب أن يشير إليه صريحاً، وهذا هو الشكل الأول من التخطيط.

وأما الشكل الثاني فيؤدى بالإشادة بمجموعة من الفضلاء الورعين المخلصين من أهل الخبرة الذين يطمئن إلى استقامتهم على الطريقة وإنصافهم الحق ونزاهتهم في بيانه وبصيرتهم في الأمور، حتى يرشدوا المجتمع بإخلاص وبلا لبس وإجمال وغموض إلى المرجع البديل.

وأما الشكل الثالث ففيه صنفان من الضوابط والمعايير والشروط، فمنها

شروط ثابتة، وهي الاجتهاد والعدالة وغيرها من المذكورات في الرسائل العملية، ومنها شروط متحركة بحسب الزمان والمكان والظروف الموضوعية التي تعيشها المرجعية الشريفة، وهذه يجب طرحها بحسب الحاجة وفي وقتها المناسب. وهذا الكلام كله على نحو الإشارة والإجمال، وللتفصيل محله المناسب.

مسؤولية الأمة في البحث عن المرجع البديل:

هذا بالنسبة لتكليف المرجعية، وفي مقابله توجد مسؤولية على الأمة يجب أن تعيها وتؤديها، وهي سؤال المرجع عن البديل، فإذا عينه كان من واجبهم الالتفاف حوله والإشادة به ودلالة المجتمع عليه، وقد تكاملت هذه التربية عند أصحاب الأئمة (عليهم السلام)، فكانوا يسألونهم: (مَنْ الحجة بعدك) ^(١) و(إلى من المفزع إذا حدث حادث) ^(٢) وهكذا، وإذا ذهب إمام فلم يكونوا يصدّقون كل من يدعي الإمامة، بل يجرون له الامتحانات التي لا ينجح فيها أي إمام ^(٣)، كامتحانهم لجعفر أخي الإمام العسكري (عليه السلام) الذي ادعى الإمامة بعد أخيه (عليه السلام).

(١) أصول الكافي: كتاب الحجة باب الإشارة والنص على الأئمة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع كتاب أصول الكافي/كتاب الحجة.

الآية الثانية والعشرون :

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران: ﴿١٤٤﴾﴾

إنقلاب الأتباع عند غياب القائد

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ﴿١٤٤﴾).

تشير الآية الكريمة قضية مهمة وتؤشر مرضاً خطيراً يصيب اتباع الديانات والمشاريع الإلهية وهو ذوبانهم في شخصية القائد ذاته وليس في الرسالة التي حملها اليهم مما يؤدي إلى انهيارهم وانحرافهم وتشتتهم عند غيابه عنهم بموت أو قتل والآية الكريمة تؤسس لحقيقة يجب أن يعيها المؤمنون اتباع الرسالات الإلهية العظيمة في كل الأجيال وهي أن يكون ارتباطهم بالرسالة نفسها لأنها تمثل المبادئ التي أرادها المرسل تبارك وتعالى، والارتباط بالرسول وحامل الرسالة مهما عظمت مكانته لا بد أن يكون على هذا الأساس وليس على أساس الشخصية التي تؤدي إلى الصنمية وعبادة الذات والذوبان فيها بمعزل عن المبدأ بحيث اذا مات أو قتل فكأنه ينتهي كل شيء.

وهذا من أخطر الأمراض التي تُصيب اتباع الرسالات والمشاريع الإلهية لأنه

يؤدي إلى اندثار الرسالة وانحرافها وتفرق الاتباع عند موت القائد^(١)، والصحيح أن يعتقدوا أن الرسالة باقية خالدة اما الرسول أو القائد عموماً فإنه معرض للموت أو القتل ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠) وان الله تعالى يقبض لهذا الدين من يستمر بتبليغه وحفظه من التحريف والدس وإقامته في حياة الأمة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (يا أيها الناس: ان الله تبارك اسمه وعزّ جنده لم يقبض نبياً قط حتى يكون له في أمته من يهدي بهداه ويقصد سيرته ويدلّ على معالم سبيل الحق الذي فرض الله عباده، ثم قرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ..﴾^(٢) .

فالمؤمنون الصادقون هم الذين ذابوا في المبدأ - وهو الدين - واستوعبوه وجعلوه منهج حياتهم فلا تؤثر عليهم غيبة الرسول والقادة عموماً بل هم لا يرون انه قد غاب عنهم لأنه حاضر بينهم بالمبادئ التي أسسها لهم والمنهج الذي وضعه لهم فهم ينظرون إلى الرسالة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٥).

صدق دعوة النبي (ﷺ):

وهذه الآية دليل على صدقه (ﷺ) وان القرآن كتاب منزل من الله تعالى، لأن دعوته (ﷺ) لو كانت لمنفعة شخصية له لعمل على تكريس ذاته كما يفعل الطواغيت ((اذا متُّ ضمّاناً فلا نزل القطر)) بينما كان (ﷺ) يعمل على تذويب

(١) راجع قيس/٩٢ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ (مريم: ٥٩)

من نور القرآن: ١١٥/٣.

(٢) تفسير العياشي: ١/٢٠٠.

ذاته في المبدأ والشواهد على ذلك من سيرته الشريفة كثيرة كقوله (ﷺ) لمن ارتعدت فرائضه لما نظر إليه وهو يكلمه (هوّن عليك.. فأني لست بملك.. إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد)^(١)، وقد حكى الله تعالى هذا الموقف عن جميع أنبيائه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩).

سبب نزول الآية :

والآية تحكي فصلاً من احداث معركة أحد فإنه لما نودي في جيش المسلمين من بعض المشركين أو المتآمرين والمنافقين وذيول قريش بأن رسول الله (ﷺ) قد قتل انهزموا ((فجعل الرجل يقول لمن لقيه: إن رسول الله (ﷺ) قد قتل، النجاء النجاء - أي انجوا بأنفسكم -))^(٢) ودخل اليأس على أكثر المسلمين والقوا سلاحهم وأيقنوا بأن كل شيء قد انتهى بحيث ((قال أهل المرض والارتباب والنفاق حين فرّ الناس عن النبي (ﷺ) قد قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول))^(٣) أي الشرك والجاهلية، وأخرج ابن جرير أيضاً أن بعضهم قال ((ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن ابي - زعيم المنافقين في المدينة - فيأخذ لنا أماناً

(١) سنن: ابن ماجه: ١٦ / ٤ كتاب الاطعمة، باب القديد/ ح ٣٣١٢، والطبراني في الأوسط: ٢ / ٦٤

رقم ١٢٦٠، والحاكم في المستدرک: ٣ / ٥٠ / رقم ٤٣٦٦ وصحّوه

(٢) البرهان: ٢ / ٢٨٠ / ح ١، عن تفسير القمي: ١ / ١١٩.

(٣) تفسير الطبري: ٧ / ٢٥٨.

من ابي سفيان، يا قوم ان محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم))^(١) ومن كلامهم يظهر انهم من المهاجرين.

فالآية توبّخهم وتقول بأن محمداً (ﷺ) ليس الا رسول مبلغ عن الله تعالى ما فيه هدايتكم وصلاحكم ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٥) وقد مضى من قبله رسل كثر على ذات المنهج والدعوة إلى الله تعالى، وكلهم مضوا إلى ربهم بعد أن ادّوا ما عليهم من دون أن تموت المبادئ التي حملوها إلى أممهم فلماذا - والاستفهام هنا استنكاري - هذا الانقلاب منكم والنكوص والرجوع عما أنتم عليه من الحق الى جاهليتكم الأولى والتخلي عن مواصلة اعتناق الرسالة والمضي على ما مضى عليه رسول الله (ﷺ) بمجرد أن صيح بكم بموته أو قتله (ﷺ) وهذا يعني ان رواسب الجاهلية ما زالت فيكم ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)، وأن ارتباطكم بالنبي (ﷺ) شخصي لاجل الدنيا وليس مبدئياً، وتعلل آية أخرى هزيمتهم من المعركة بأنها انعكاس لهزيمتهم الروحية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ (آل عمران: ١٥٥).

وتضيف الآية: واعلموا إن انقلابكم هذا لن يضر الله تعالى ولن يؤثر على استمرار الرسالة وخلودها لأن الله تعالى يأتي بمن يواصل حملها وحمايتها والانطلاق بها كما يشهد لذلك ما حصل في كل حالات الانقلاب التي وقعت فيها الأمة وإنما يخسر المنقلبون على اعقابهم لأن الدين جاء لإسعادهم في الدنيا

والآخرة فاذا تخلّوا عنه فان حياتهم ستكون نكدة وشقية ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ
تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٨).

ثبات المخلصين مع النبي (ﷺ):

وقد ثبت في المعركة قلة من الافذاذ احاطوا برسول الله (ﷺ) يقونه
بأنفسهم يتقدمهم أمير المؤمنين (عليه السلام) واستشهد أكثرهم رُوي عن ابن عباس (أن
علياً (عليه السلام) كان يقول في حياة رسول الله (ﷺ) إن الله عزوجل يقول: ﴿وَمَا
فُحِّمَدُ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ
أَعْقَابِكُمْ﴾ والله لا نقلب على أعقابنا بعد اذ هدانا الله، ولئن مات أو قتل لأقاتلنَّ
على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لآخوه وابن عمه ووارثه فمن أحق به
مني^(١).

وقد اعتبر الله تعالى ثباتهم على الرسالة والمبدأ شكراً فقال تعالى:
﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ لأن الشكر على النعمة هو استعمالها فيما يريد
المنعم واستحضار ما يقتضيه حق الربوبية وان ثباتهم وتمسكهم شكر عملي على
نعمة الايمان.

(١) البرهان: ٢٨٠/٢ ح ٤، عن آمالي الشيخ: ١١٦/٢، الرياض النضرة: ٢٠٦/٣ فوائد السمطين: ٨

روى^(١) ابان بن عثمان عن ابي جعفر (عليه السلام) (أنه أصاب علياً يوم أُحد ستون جراحة وروى الشيخ المفيد في الاختصاص أنها ثمانون تدخل الفتائل من موضعٍ وتخرج من موضع بحيث خاف المداوي من معالجته لأنه كلما عالج جزءاً انفتق جزء آخر من بدنه فدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة فجعل النبي (صلى الله عليه وآله) يمسحه بيده ويقول: ان رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأعذر وكان القرحة الذي يمسحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) يلتئم فقال علي (عليه السلام): الحمد لله اذ لم أفرّ ولم أولي الدبر فشكر الله تعالى له ذلك في موضعين من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

أقول: تصرّح الرواية بأن المقصود بالشاكرين هو أمير المؤمنين، ويمكن الاستدلال عليه بأن الثبات في المعركة كان شكراً حقيقة وقد ثبت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) جمع مبارك من أصحابه، ولو أريد ذكر موقفهم لكان الأنسب في التعبير أن يكون (وسيجزي الله الذين شكروا) في إشارة إلى فعل محدد وحالة معينة وبمقتضى المقابلة مع الفعل ﴿انقلبتُم﴾.

أما وصف الشاكرين فلا ينطبق الا على أمير المؤمنين (عليه السلام) لأنه يدل على ثبات الصفة عند الموصوف واستمرارها وهذا الوصف الثابت يلازم وصف المخلصين، لأنه اذا علمنا بأنه ما من شيء الا وهو نعمة من الله تعالى فقد ((بان ان

(١) بحار الأنوار: ٣/٤١، المناقب لابن شهر آشوب: ١١٩/٢، تفسير البرهان: ٢/٢٨٢ ح ٢، نور

الشكر المطلق هو ان لا يذكر العبد شيئاً - وهو نعمة - الا وذكر الله معه ولا يمس شيئاً - وهو نعمة - الا ويطيع الله فيه - لأن الطاعة حقيقة الشكر فهو دائم الشكر والذكر - ، فقد تبين ان الشكر لا يتم الا مع الإخلاص لله سبحانه علماً وعملاً، فالشاكرون هم المخلصون لله، الذين لا مطمع للشيطان فيهم، ويظهر هذه الحقيقة مما حكاها الله تعالى عن ابليس، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۗ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣) فلم يستثن من اغوائه أحداً الا المخلصين، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۗ ثُمَّ لَأَنْتَبِهَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧) فقد بدل المخلصين بالشاكرين، وليس الا لأن الشاكرين هم المخلصون الذين لا مطمع للشيطان فيهم، لأن الشاكر متعلق بالله تعالى ولا مطمع له في سواه تبارك وتعالى وبذلك فقد سدَّ على الشيطان منافذ اغوائه وإضلاله فكان من المخلصين، واتحدَّ الشاكر والمخلص في المصداق وان اختلفا في المفهوم.

اما المنقلبون فهم الذين قال عنهم إبليس ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧) ((وإن المقابلة بين الشاكر والمنقلب تشير إلى أن الثبات محصول الشكر وأن تثبيت كل فرد لموقعه الايماني يُعدُّ سبباً لارتقائه في درجات الشكر، ومن هنا يمكننا معرفة خطورة الشكر، وهذا الاهتمام هو الذي أدى الى التصريح

بلفظ الجلالة في الآية بينما كان يمكن الاكتفاء باستعمال الضمير))^(١) وكذا لم تذكر ماهية الجزاء للاشعار بعظمته وأنه يفوق التصور.

روى ابن هشام في السيرة (انتهى أنس بن النضر - عم أنس بن مالك وبه سمي - إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد القوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله (ﷺ)، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله (ﷺ) ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل)^(٢).

معنى الانقلاب في الآية:

والظاهر ان الانقلاب في الآية هو الرجوع عن الدين الى الكفر وليس مجرد الفرار من المعركة كما في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأنعام: ٧١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقد وصفت آية أخرى هذه الحالة بأنها كانت بسبب عدم استقرار الايمان في قلوبهم عودة إلى الجاهلية تعرضوا لها بسبب وفاة أو قتل رسول الله (ﷺ)

(١) تفسير تسنيم للجوادى الآملي: ٦٥٤ / ١٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٣٠ / ٣.

قال تعالى: ﴿وَطَافِقَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾
(آل عمران: ١٥٥).

هذا هو حال الكثير من الصحابة الذين كانوا مع رسول الله (ﷺ) يوم أحد، قال ابن هشام في بيان ما نزل من القرآن في معركة أحد بعد أن ذكر هذه الآية ((أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ رجعتم عن دينكم كفاراً كما كنتم، وتركتم جهاد عدوكم ، وكتاب الله، وما خلف نبيه (ﷺ) من دينه معكم وعندكم، وقد تبين لكم فيما جاءكم به أعني أنه ميت ومفارقكم ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾ أي يرجع عن دينه ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي ليس ينقص ذلك عز الله تعالى ولا ملكه ولا سلطانه ولا قدرته، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي من اطاعه وعمل بأمره))^(١).

التحذير من الانقلاب على الحق:

والآية وانزلت في حادثة وقعت الا انها تتحدث عن حالة انقلابية مستقبلية أيضاً شارك فيها جمع ممن انقلب على عقبه يوم أحد ولم تستطع السنوات التالية من مصاحبة رسول الله (ﷺ) من القضاء على ادران الجاهلية في قلوبهم، فكان ما وقع يوم أحد تدريباً وإعداداً للمسلمين لكي يتحملوا تلك الصدمة الحقيقية ويتخذوا الموقف الحازم الذي أمرهم الله تعالى به، فيحذرهم من الانقلاب على الاعقاب عند موت أو قتل رسول الله (ﷺ) والا فان المسلمين فرّوا من المعارك في مرات عديدة وان آياتٍ أخر ذكرت الفرار من دون هذه التعابير كقوله تعالى

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٥١ / ٣.

في هزيمتهم يوم حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِرِينَ﴾ (التوبة: ٢٥).

بل يخبرهم أن رسول الله (ﷺ) إذا مات أو قتل فعلاً في الزمان الآتي فأنكم ستقلبون على اعقابكم وترجعون عن طاعة ما أمر به ربكم، والفرق ان ما وقع يوم أحد من بعضهم كان ارتداداً عن الدين كما صرحوا في كلماتهم.

اما انقلابهم عند موت رسول الله (ﷺ) فعلاً فهو في الدين وليس عن الدين والكفر به كفر بالنعمة التي أنعم الله تعالى بها بإكمال الدين بالولاية لأمر المؤمنين (عليه السلام)، واستعمال صيغة الماضي ﴿انْقَلَبْتُمْ﴾ لافادة التحقق القطعي كما في الحكاية عن أحداث يوم القيامة بصيغة الماضي، وقد حذرهم النبي (ﷺ) من هذا الانقلاب في يوم الغدير حين أمر المسلمين ببيعته ولياً لأمرهم بعده، فقال (ﷺ) (معاشر الناس أنذركم اني رسول الله إليكم قد خلت من قبلي الرسل، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، الا وان علياً هو الموصوف بالصبر والشكر، ثم من بعده ولدي من صلبه) (١).

وقال في الحديث المشهور لدى الفريقين (ستفترق أمتي بعدي ثلاث وسبعين فرقة) (٢).

(١) نور الثقلين: ١/٢٥٣ ح ٣٨٦، عن الاحتجاج: ١/١٥٠.

(٢) بحار الأنوار: ٤/٢٨، عن الخصال: ٥٨٥، كنز العمال للمتقي الهندي: ١/٢١٠، الدر المنثور: ٢/

٢٩٠، دلائل النبوة للبيهقي: ٦/٢٨٨.

الانقلاب على إمام الحق (عليه السلام):

وقد وقع هذا الانقلاب باتفاقهم على اقصاء من نصبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) إماماً وخليفة من بعده، وأشار أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى هذا الرجوع على الاعقاب بقوله في خطبة الوسيلة (حتى إذا دعا الله عز وجل نبيه ورفع اليه، لم يك ذلك بعده إلا كلمحة من خفقة، أو وميض من برقة، الى أن رجعوا على الأعقاب، وانتكصوا على الأدبار، وطلبوا بالأوتار، وأظهروا الكتائب، وردموا الباب، وفلوا الديار، وغيروا آثار رسول الله، ورغبوا عن أحكامه، وبعثوا من أنواره، واستبدلوا بمستخلفه بديلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين، وزعموا أن من اختاروا من آل أبي قحافة أولى بمقام رسول الله ممن اختار رسول الله لمقامه، وأن مهاجر آل أبي قحافة خيرٌ من المهاجري الأنصاري الرباني ناموس هاشم بن عبد مناف^(١).

وقال (عليه السلام) في حديث طويل (وليس كل من أقرَّ أيضاً من أهل القبلة بالشهادتين كان مؤمناً، ان المنافقين كانوا يشهدون ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويدفعون أهل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما عهد به من دين الله وعزائمه وبراهين نبوته إلى وصيه، ويضمرون من الكراهية لذلك والنقض لما أبرمه منه عند امكان الأمر لهم فيه بما قد بينه الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾^(٢).

وطبقت السيدة الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) الآية الكريمة على فعلهم فقالت في خطبتها لما سلبوها فدكاً وانتهكوا حرمة دارها (أتقولون مات محمد

(١) نور الثقلين: ١/ ٢٥٢ ح/ ٣٨٤، عن روضة الكافي: ٢٩/ ٨، ضمن حديث ٤.

(٢) نور الثقلين: ١/ ٢٥٣ ح/ ٣٨٨، عن الاحتجاج: ١/ ١٠٣.

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فخطب جليل استوسع وهنه واستنهر فتقه وانفتق رتقه وأظلمت الأرض لغيبته وكسفت الشمس والقمر وانتشرت النجوم لمصيبته وأكدت الآمال وخشعت الجبال وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفئيتكم وفي ممساكم ومصبحكم يهتف في أفئيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وإحانا ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ مطلق ينفي كل اشكال ومراتب الاضرار والتأثير، فهذا وعد من الله تعالى بأن كل اشكال الانقلابات لا تضر الله شيئاً لذا نرى ولاية أهل البيت (عليهم السلام) بقيت ثابتة وظل علمهم خفاقاً رغم كل الظلم والاضطهاد والقتل والتعذيب الذي انزله الطغاة بهم وبشيعتهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ٢٨) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥).

(١) نور الثقلين: ١/٢٥٣ ح ٣٨٧، عن الاحتجاج: ١/١٠٣.

ملحق : ماذا خسرت الأمة حينما ولت أمرها من لا يستحق

ملحق

ماذا خسرت الأمة حينما ولت أمرها من لا يستحق^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي؛ لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق؛ والحمد لله الذي جعلنا من الموفين بعهده، وميثاقه الذي واثقنا به، من ولاية ولاة أمره والقوَّام بقسطه، ولم يجعلنا من الجاحدين المكذبين بيوم الدين، وصلّى الله على رسوله والأئمة الميامين من آله وسلم تسليماً كثيراً.

رزية الخميس:

كانت وفاة النبي (ﷺ) يوم الاثنين، الثامن والعشرين من صفر على ما هو المشهور^(٢)، فتكون رزية يوم الخميس كما سماه عبد الله بن عباس^(٣)، يوم الرابع

(١) محاضرة ألقاها سماحة الشيخ محمد يعقوبي (دام ظله) على حشد من فضلاء وطلبة الحوزة العلمية، يوم: ٢٥/ صفر/ ١٤٢٣هـ - المصادف: ٨/ آيار/ ٢٠٠٢م، في مسجد الرأس الشريف، مجاور الصحن الحيدري المطهر، بمناسبة ذكرى وفاة رسول الله (ﷺ).

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٥٣٤/٢٢ - تاريخ الطبري - الطبري: ١٩٧/٢ - سيرة بن هشام - ابن هشام: ٤/ اليوم الذي قبض الله تعالى فيه نبيه الأكرم (ﷺ).

(٣) أنظر: بحار الأنوار - المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات - السيد شرف الدين: ٣٥٢ - وتاريخ الطبري أيضاً المجلد الثاني السنة الحادية عشر.

والعشرين من صفر - أي في مثل يوم أمس -، وكانت رزية حقاً؛ إذ انقطع في ذلك اليوم آخر أمل لتمسك الأمة بوصية رسول الله (ﷺ) في الإمام والخليفة من بعده، وأعلنوا معارضتهم الصريحة والواضحة لهذا التعيين، لذلك قال (ﷺ) لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)^(١)، وأوصى أمته بهم خيراً، ولو كان يعلم أن الأمر يؤول إليهم لما احتاج إلى الوصية بهم، وفي حديث للإمام الصادق (ﷺ) يُعبر فيه عن ألمه العميق من تضييع الأمة لبيعة يوم الغدير ولحق أمير المؤمنين (ﷺ) فيقول: (أحدكم يشهد له شاهدان بحق، فيأخذ بحقه، وإن جدي أمير المؤمنين (ﷺ) شهد له يوم الغدير بحقه ستون ألفاً، ولم يقدر على الأخذ بحقه)^(٢).

النزاع بين الخط الإلهي والخط البشري:

ولا أريد أن أناقش أسباب هذا التضييع، وإهمال الأمة؛ لهذا الحق، الذي أخذه الله على كل المؤمنين، - فهذه المناقشة محل آخر-، لكنني أعتقد أن أحد هذه الأسباب، والذي لا زال في ذهن الناس مما يقلل من وعي خطورة هذا التضييع هو القصور في فهم النزاع، فقد فهموه على أنه نزاع بين شخصين، هما علي بن أبي طالب (ﷺ) ومن نازعه الأمر.

فهم لا ينكرون فضل علي (ﷺ) وسابقته، وجهاده، وعلمه، وقربه من رسول الله (ﷺ) وشجاعته، وفناءه في الله؛ لكنهم يرون أن المُقابل أيضاً من السابقين إلى

(١) معاني الأخبار- الشيخ الصدوق: ٧٩- الإرشاد- الشيخ المفيد: ١٨٤/١.

(٢) نهج الإيمان- بن جبر (من أعلام القرن السابع)- تحقيق السيد أحمد الحسيني: ٥٧٧.

الإسلام، وثاني اثنين، إذ هما في الغار، وصهر رسول الله (ﷺ)، وبدريّ، وأحديّ. بل حاولوا تلفيق بعض المناقب ليساوه بأمر المؤمنين (عليه السلام)، أو يقتربوا منه (عليه السلام)، وإزاء هذه المقارنة، لم يجدوا المسألة مهمة بهذه الدرجة، ولا تستحق أن ينشق المسلمون إلى طائفتين عظيمتين، ولا جدوى في البحث فيها، فقد أكل عليها الدهر وشرب.

ولو فهموها بصورتها الصحيحة، لغيروا عقيدتهم، ولما وجدوا أي تردد في قبول المذهب الحق؛ لأن الخلاف ليس بين شخصين - وإن كان بحد ذاته دليلاً كافياً لسمو علي (عليه السلام) على غيره كسمو الثريا على الثرى - وإنما بين مبدأين وخطين كان علي (عليه السلام) رمز الأول، ومنافسه رمز الثاني.

الخط الأول: مبدأ وخط رسمه الله تبارك وتعالى خالق السموات والأرض العالم بخفيات الأمور، وبواطن النفوس، وبما كان وسيكون، واختاره للأمة، لتصل إلى كمالها المنشود، وبلغه رسوله الكريم (ﷺ) في يوم الغدير.

يقف في أول الخط، علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومن بعده الحسنان (عليه السلام) سبط رسول الله (ﷺ)، ومن بعدهما الأئمة الطاهرون (عليهم السلام)، الذين أطبقت الأمة على نزاهتهم، وعلمهم، وتمثيلهم الكامل للشريعة الإلهية، ومن بعدهم العلماء العارفون، الأتقياء الصالحون، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الخط الثاني: خطٌ يصنعه البشر، بأهوائهم، وأساليبهم الشيطانية، من قهر وإذلال، أو إغراء بالمال، أو ظلم وتعسف، أو تضليل وتمويه وادعاءات باطلة، وكان الآخر رأس هذا الخط، فقد اختارته قريش - كما يقول الخليفة الثاني -

وليس الله الذي اختاره.

ويتتابع على هذا الخط، معاوية ابن أبي سفيان، الذي يقول: (إني والله ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك. وإنما قاتلتكم، لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك، وأنتم كارهون)^(١).

ومن بعده يزيد بن معاوية، شارب الخمر على منابر المسلمين، والذي أحرق الكعبة بالمنجنيق، وقتل ريحانة رسول الله (ﷺ)^(٢).

ومن بعده الآخرون، الذين سفكوا الدماء وهتكوا الأعراس ونشروا الفساد وضلوا وأضلوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف: ٣٨).

مع الوعي في الطرح:

عندما تعرض المقارنة بهذا الشكل، ولو استوعبها الصحابة والأجيال جميعاً، بهذا الشكل، لما ترددوا في الإيمان بصحة الخط الأول، والتمسك به، على أنهم غير معذورين من أول الأمر، لأن القرآن صريح ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

(١) مقاتل الطالبين - أبو الفرج الأصفهاني: ٤٥.

(٢) أن يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين، وأظهر الفتك، وشرب الخمر. الأغاني - أبو فرج الأصفهاني: ٣٠١/١٧. وللزيد أنظر: تاريخ الطبري المجلد الثالث - سيرة الأئمة - هاشم معروف الحسني: ٢. منتهى الآمال - عباس القمي: ١/الباب الخامس. - معالم المدرستين - مرتضى العسكري: ٥/يزيد في أفعاله وأقواله.

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ (القصص: ٦٨)، بل إن رسول الله (ﷺ) نفسه لم يكن له هذا الحق، حينما عرض عليه بنو عامر أن يسلموا مقابل أن يجعل لهم الأمر من بعده، فقال (ﷺ): (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)^(١)، وفي رواية أخرى (ان الله تعالى اختارني وأهل بيتي عن جميع الخلق، فانتجنا، فجعلني الرسول، وجعل علي بن أبي طالب الوصي، ثم قال: ما كان لهم الخيرة، يعني ما جعلت للعباد ان يختاروا، ولكني اختار من أشاء، فأنا وأهل بيتي صفوة الله وخيرته من خلقه)^(٢).

ومحل الشاهد، أني اعتقد، أن طرح الموضوع بهذا الشكل يكون أجدى وأوضح.

ماذا خسرت الأمة؟

ولكي نزيده وضوحاً نظرح سؤالاً، وهو: ماذا خسرت الأمة، بتضييعها وصية رسول الله (ﷺ) في الخليفة من بعده؟ وماذا ترتب على هذا الإهمال من نتائج سلبية؟

وحينما أتناول هذا البحث، فإني لا أريد فقط أن أناقشها كقضية تاريخية، وإن كانت من الأهمية بمكان؛ لابتناء أصل من أصول الدين، وهو أصل الإمامة عليها.

(١) السيرة النبوية- ابن هشام: ٤٢٥/١، من طبعة مصطفى البابي. وفي طبعة المدني: ٢٨٩/٢- تاريخ

الطبري- الطبري: ٣٥/٢- سير أعلام النبلاء- الذهبي: ٣٥/١.

(٢) مناقب آل أبي طالب- ابن شهر آشوب: ٢٢٠/١.

ولكن الذي أريده، هو الاستفادة من هذا الدرس، واستخلاص العبرة؛ لأن الإمامة بالحمل الأولي، وإن كانت مختصة بالأسماء المعينة، إلا أنها بالحمل الشايح - أعني النيابة العامة عن الإمام، وولاية أمر المسلمين، المتمثلة بالمرجعية الشريفة الجامعة لشروط القيادة- مستمرة إلى أن يرث الأرض ومن عليها الإمام المنتظر (عجل الله فرجه).

فإذن يبقى باب هذه النتائج السلبية التي ستعرض لها، بإذن الله تعالى، مفتوحاً لها كلها، أو بعضها، كلما ولت الأمة أمرها إلى من لا يستحق، فيكون من الضروري الالتفات إليها، فنعود إلى أصل السؤال:

وهو ماذا خسرت الأمة عندما ولّت أمرها غير صاحب الحق الشرعي؟

وماذا ترتّب على ذلك من نتائج سلبية؟

النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة

النتيجة الأولى: تصدي غير المؤهلين للإمامة:

فمن المعلوم أن أية رسالة، وأية أيديولوجية - بتعبير اليوم - لا بد أن يكون حاملها مستوعباً لها بشكل كامل، فهماً وتطبيقاً، بحيث تكون هذه العقيدة، هي الموجهة له في كل سلوكه، وتصرفاته، وأفكاره، وعلاقاته، ولم يكن القوم كذلك، وإنما هم أناس عاديون، كبقية أفراد المجتمع، ويوجد كثير غيرهم ممن استوعب الرسالة وجسدها في حياته خيراً منهم.

وقد كانوا يعترضون على رسول الله (ﷺ) في حياته ويتمردون على أوامره^(١)، حتى آخر حياته؛ بتخلفهم عن جيش أسامة^(٢)، وعدم تلبية أمره (ﷺ) حينما طلب قرطاساً في رزية يوم الخميس^(٣).

وكانت الجاهلية تعيش في نفوسهم، حيث قضوا أكثر أعمارهم فيها، وقد كشف عن عدم أهليتهم، جهلهم، وتخبطهم في الأمور، ويصف أمير المؤمنين إمرتهم المنحرفة في الخطبة الشقشقية: (فَيَا عَجَبًا بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا^(٤))، فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَبٍ بَعْدَ وَقَاتِهِ لَشَدِّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعِيهَا^(٥)! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ

(١) أنظر: بحار الأنوار - المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات - السيد شرف الدين: ٣٥٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤/ أمر الرسول بإيفاد بعث أسامة.

(٣) أنظر: الطبقات الكبرى - ابن سعد: ٢٤٢/٢. بحار الأنوار - المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات -

السيد شرف الدين: ٣٥٢. - وتأريخ الطبري أيضاً ج ١٢/ السنة الحادية عشر.

(٤) يَسْتَقِيلُهَا: يطلب إعفاه منها.

(٥) تشطرا ضرعيها: اقتسماه فأخذ كل منهما شطراً، والضرع للناقاة كالثدي للمرأة.

كَلَامُهَا^(١)، وَيَخْشُنُ مَسَّهَا. وَيَكْثُرُ الْعِتَارُ^(٢)، فِيهَا. وَالْاعْتِدَارُ مِنْهَا. فَصَاحِبُهَا كِرَاقِبِ الصَّعْبَةِ^(٣)، إِنْ أَشْنَقَ^(٤)، لَهَا حَرَمَ. وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ^(٥)، فَمِنِّي النَّاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطِ^(٦)، وَشِمَاسِ^(٧)، وَتَلَوْنِ وَاعْتِرَاضِ^(٨)(٩).

حتى قال الثاني: (كل الناس أفاقه من عمر، حتى ربات الحجال)^(١٠)، بعد أن نهى عن زيادة المهر عن حد معين، فأجابته امرأة: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٠).

وقد أشكلت عليهم الكثير من المسائل، حتى الاعتيادية منها^(١١)، التي كانت تتكرر في حياة رسول الله (ﷺ) كالصلاة على الجنائز، ولما سئل الثاني عن سبب

(١) كَلْمُهَا: جرحها، كأنه يقول: خشونتها تجرح جرحاً غليظاً.

(٢) العِتَارُ: السقوط والكبوة.

(٣) الصَّعْبَةُ من الابل: ما ليست بِدُلُول.

(٤) أَشْنَقَ البعير وشنقه: كفه بزمامه حتى ألصق ذُفْرَاهُ (العظم النابت خلف الاذن) بقادمة الرجل.

(٥) تَقَحَّمَ: رمى بنفسه في القحمة أي الهلكة.

(٦) خَبْطُ: سير على غير هدى.

(٧) الشِّمَاسُ - بالكسر - إباء ظَهَرَ الفرس عن الركوب.

(٨) الاعتراض: السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عرضاً في حال سيره طولاً.

(٩) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١٥١/١.

(١٠) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١٨٢/١.

(١١) أنساب الأشراف - البلاذري: ١٠٠/١. - الفتح الرباني - الإمام الشوكاني: ٨٠٠/٨.

قلة استفادتهم من رسول الله (ﷺ) قال: (ألهانا الصَّفْقُ بالأسواق) (١)، وكانوا يشككون حتى نبوة رسول الله (ﷺ) وعصمته، فيقول له أحدهم وجهاً لوجه: (أنت الذي تزعم أنك رسول الله) (٢)، أو يقولون عنه: (إن الرجل ليهجر) (٣).

الإعداد النبوي للخليفة الحق:

في مقابل ذلك كان هناك شخص، يعدّه رسول الله (ﷺ)، إعداداً خاصاً، لكي يتسلم هذا الموقع، ذاك هو علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فاستمع إليه يتحدث عن هذه التربية الخاصة: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزَلَةَ الْخَصِيصَةَ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيُسَمِّي عَرَفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ).. إلى أن قال (عليه السلام): (وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عِلْمًا مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءٍ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَخَدِجَةَ، وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّهُ الشَّيْطَانُ، حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (ﷺ)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ

(١) كنز العمال - المتقي الهندي: ٥٦٩/٢ - إتحاف المهرة - ابن حجر العسقلاني: ٣٢٢/١٢.

(٢) الأمالي - الشيخ الصدوق: ٢٥٤ - مسند أبي يعلى - أبو يعلى الموصلي: ٢٢٩/١٢.

(٣) الطبقات الكبرى - ابن سعد: ٢٤٢/٢ - صحيح البخاري - البخاري: ٣٤/١ ح ١١٤.

بِنَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ وَزَيْرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ^(١).

وفي نهاية خطبة مماثلة أخرى يسأل (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مستنكراً: (فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي، حَيًّا وَمَيِّتًا؟!)^(٢).

آثار خطيرة:

هكذا كان يتم تهيئة الإمامة البديلة، أما هؤلاء، فلم يتلقوا شيئاً من ذلك، لذا فقد أفرز تصدي هؤلاء غير المؤهلين عدة آثار خطيرة:

١- تشوّه صورة الإسلام نفسه؛ لأن كثيراً من الأمم والشعوب دخلت الإسلام بعد رسول الله (ﷺ)، فهي لم تأخذه من مصدره، وإنما نقل لها عبر كلام وسلوك أصحابه، ولما كان هؤلاء غير مؤهلين لتمثيل الإسلام بصورته النقية الكاملة، ولم يعرف المسلمون الجدد غير هذه الصورة المعروضة أمامهم فتبنوها على أنها الإسلام الحقيقي، وتزايد هذا البعد عن الإسلام بمرور الزمن، حتى صرت ترى أقواماً لا تفقه من الإسلام شيئاً غير الاسم وبعض الشكليات.

٢- تجرّي أعداء الإسلام خصوصاً اليهود عليه، وما كانوا يستطيعون أن يظهروا شيئاً منه في عهد رسول الله (ﷺ)، لعدم وجود ثغرة يمكن أن يدخلوا منها، أما وقد تصدّى لهذا الموقع العظيم ناس غير مؤهلين لهذا الموقع، ويمكن التغلب عليهم وإحراجهم، فمن السهولة إذن هزّ ثقة المسلمين بدينهم، بتكرار

(١) نهج البلاغة - الشيخ محمد عبده: ١٥٧ / ٢.

(٢) نهج البلاغة - الشيخ محمد عبده: ١٧١ / ٢.

الفشل من قادتهم.

وبالنتيجة تخليهم عن هذا الدين، فلم يكن من الغريب حصول هذه الهجمة العنيفة من الامتحانات العسيرة والمتنوعة، التي أخرج بها اليهود الخليفة الاول، والثاني، وتزعزعت ثقة المسلمين، وشعروا بالإحباط، وكادوا يرتدون لولا وجود أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمرصاد، الذي كان يجيبهم على كل أسئلتهم ويردّ كيدهم إلى نحورهم^(١).

٣- افتتاح باب الطمع بهذا المنصب الشريف، لكلّ محبي الرئاسات، والجاه، واتباع الهوى، بعد أن أصبح نيله ليس بالاستحقاق، وفق معايير الرسالة، وإنما هو لمن غلب وقهر، ولو بالسيف، حتى أصبح مستساغاً أن يولي معاوية ابنه يزيد، المعروف بالفسق، والفجور، على رقاب المسلمين.

النتيجة الثانية: فتح باب الاجتهاد مقابل النص:

أي الحكم والتشريع بالآراء الشخصية، خلافاً للنص الإلهي الحكيم، وهو يعني أن الإنسان يُنصّب نفسه مشرعاً، وإلهاً، يُطاع في مقابل ألوهية الله تبارك وتعالى، الذي هو وحده له حق التشريع والحاكمة، وهو ما رفضه الله تبارك وتعالى، رفضاً قاطعاً، وجعل كل حكم وتشريع ليس مستنداً إلى الشريعة المقدسة، جاهلية، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

(١) أنساب الأشراف - البلاذري: ١/ ١٠٠. - الفتح الرباني - الإمام الشوكاني: ٨/ ٨٠٠ - الغدير -

(المائدة: ٤٤)، وفي آية أخرى ﴿الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٥٥)، وفي ثالثة ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧).

وكان من شروط الإيمان الكامل: التسليم، والإذعان، لحكم الله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، لكن القوم فتحوا باب الاجتهاد واسعاً، ولم يكثرثوا كثيراً للنص الشرعي لعدة أسباب:

١- جهلهم، وعدم اطلاعهم الكامل على أحكام الشريعة، فراحوا يستنبطون من أنفسهم، ما يسدّ نقصهم.

٢- لأجل المحافظة على الأغراض، والمصالح التي أرادوها، فلا بد من تعطيل النصوص، التي تتعارض مع المنهج الذي اختطوه، وتبرير الأفعال المخالفة بصراحة لحكم الله تبارك وتعالى.

٣- تغييب الممثل الحقيقي واللسان الناطق بالشريعة.

وقد عطل هذا الاجتهاد الكثير من التشريعات، التي كانت مصدر خير للأمة، ومنها الزواج المؤقت، الذي قال عنه أمير المؤمنين (عليه السلام): (لولا نهى فلان عن المتعة، ما زنى إلا شقي)^(١).

وبالمقابل برّر هذا الاجتهاد أشنع المنكرات، فمثل مالك بن نويرة^(١) الذي شهد له رسول الله (ﷺ) بالجنة يُقتل، ويدخل خالد بزوجه في نفس الليلة، ويأتي جواب الخلافة ببرود: (تأول خالد فأخطأ)^(٢).

ويخرجون لقتال إمام زمانهم بكل المقاييس التي عندهم في معارك طاحنة في الجمل، وصفين^(٣)، وكله اجتهاد يؤجرون عليه وإن أخطأوا فلهم أجر واحد. وقد تأصل هذا الاجتهاد فيما بعد، وتعمق، ووضعوا له أصولاً وقوانين، وأصبحت مذاهب في مقابل مذهب الحق.

النتيجة الثالثة: عرقلته تربية الأمة وتكاملها:

فقد شاءت الإرادة الإلهية، أن تنقذ البشرية بهذه الرسالة المباركة من حضيض الجاهلية النكدية، إلى سمو التوحيد، وطهارة الإيمان، وسعادة الدارين، وقد قُدر لهذه المسيرة أن تتكامل، لتنشأ أمة، متكاملة، على يد رسول الله (ﷺ)، والأئمة المعصومين من آلِهِ، لكن إبعاد الأئمة (عليهم السلام)، عن موقع قيادة المجتمع،

(١) مالك بن نويرة، الحنفي، اليربوعي، من أردادف الملوك، ومن شجعان عصره، وفصحائهم، وكان من أصحاب رسول الله (ﷺ)، ومن خُلص أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)، انتظر بقومه بعد وفاة الرسول (ﷺ) إلى أن يتبين موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) فأرسل أبو بكر إليهم خالد بن الوليد فغدر بهم وقت الصلاة وأمر بقتل مالك حين رأى جمال امرأته. الكنى والألقاب- الشيخ عباس القمي: ٤٢/١.

(٢) الطبقات الكبرى، متمم الصحابة، الطبقة الرابعة- ابن سعد: ٥٣٥- أسد الغابة- ابن الأثير: ٩٥/٢- البداية والنهاية- ابن كثير: ٣٥٤/٦.

(٣) الفصول المهمة في معرفة الأئمة- ابن الصباغ: ٣٤٨/١- تاريخ الطبري- الطبري: ٥٤٣/٣- الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٢٧٦/٣.

أدى إلى عرقلة هذه المسيرة، وبطئها، من عدة جهات:

١- إن من العناصر المهمة في التربية، هو القدوة، والأسوة الحسنة، على تعبير القرآن؛ لأنه يُمثل التطبيق للأفكار التربوية، فإذا غاب القدوة، أو كان القدوة منحرفاً، فلا ينفع الكلام مهما كثر، ويبقى مجرد حبر على ورق.

والقوم لم يكونوا يمثلون قدوة حسنة، ولم يستطيعوا عكس صورة نقية للسلوك الإسلامي، بل إنه على مرور الأيام كان النموذج المعروض مناقضاً تماماً لتعاليم الإسلام، فكيف نتوقع منه أن يربي الأمة ويقودها نحو التكامل؟

ففي حين يقرأ المسلم في أخلاق الإسلام (وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى)^(١)، يجد في التعامل تفضيل العرب على غيرهم، الذين يسمونهم الموالي، ويعتبرونهم مواطنين من الدرجة الثانية، وبينما يقرأ في القرآن ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣)، يجد الخلافة تلاحق أهل بيت النبي (ﷺ)، تحت كل حجر ومدبر، قتلاً، وتشريداً، وسجناً، وبينما يقرأ حرمة شرب الخمر في القرآن، يجد حاكم المسلمين يشربه على منابر المسلمين، ويتقيأه في محرابهم^(٢).

٢- فرص الانحراف الكثيرة التي توفرت للناس في ظل الخلافة المنحرفة، والنفس بطبيعتها ميالة للشهوات، مع غياب الرادع الذي يحصن الأمة

(١) مسند احمد- احمد بن حنبل: ٤١١ / ٥. تحف العقول- ابن شعبة الحراني: ٣٤.

(٢) صحيح مسلم - مسلم النيسابوري: ٣ / ٣٣١ ح ٣٨- الفتوح- ابن أعثم الكوفي: ١٢ / ٥.

من الانحراف، وهم الذين عناهم الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقد بدأت هذه النفوس الأمارة بالسوء تظهر في أيام الخلافة الأولى، في وقت مبكر، وبدأت الدنيا تنمو في قلوبهم، وأصبحت هذه الامتيازات، والمصالح، واقعاً ثابتاً، لا يرضون بتغييره، بحيث أن عبد الرحمن بن عوف، الذي جعل حكماً في أمر تعيين الخليفة، من بين الستة أهل الشورى، يشترط على عليّ (عليه السلام) أن يبايعه بشرط، أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ)، وسيرة الشيخين^(١).

فما هي: سيرة الشيخين التي يضمها عبد الرحمن إلى كتاب الله، وسنة رسوله

(ﷺ)؟

إنها: هذه الامتيازات الطبقيّة، وهذه الدنيا المحضّة، التي وفرتها لهم الخلافة الأولى، بحيث أن عبد الرحمن^(٢)، هذا وأمثاله، كزيد بن ثابت^(٣) وغيرهم، تركوا من الذهب ما يُكسّر بالفؤوس - حسب ما ينقل التاريخ - ولم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ليوافق على هذا الشرط، فيكون منه إمضاءً، واعترافاً، بهذه السيرة؛ لأن

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ٣١ / ٣٩٩.

(٢) في الطبقات الكبرى: (إنّ عبد الرحمن بن عوف توفّي، وكان فيما ترك ذهباً؛ قُطِعَ بالفؤوس حتى مَجَلَّتْ - أي ثخُنَ جلدُها وظهر فيها ما يشبه البَثْرَ من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة - أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة، فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً). الطبقات الكبرى - ابن سعد: ٣ / ١٣٦ - أسد الغابة - ابن الأثير: ٣ / ٤٨٠ - البداية والنهاية - ابن كثير: ٧ / ١٦٤.

(٣) قال المسعودي: (خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال، والضياع، بقيمة مائة ألف دينار). مروج الذهب: ١ / ٤٣٤ - الغدير - الأميني: ٨ / ٢٨٤.

هذه السيرة، إن كانت موافقة للكتاب والسنة، فلا داعي لذكرها، وإن كانت مخالفة، فإرم بها عرض الجدار، فما الوجه لضمها إلى أصلي التشريع.

٣- الصورة المشوهة للشريعة، التي كانت معروضة للأمة، من خلال العلماء، والرواة، المتزلفين للخلفاء، والطامعين بما في أيديهم، فكيف نتوقع من شخص لم يشاهد رسول الله (ﷺ)، ولم يطلع على مواقف علي (عليه السلام) مباشرة، أن يوالي علياً، ويتبعه، وهو يسمع صحابياً يروي، أن رسول الله (ﷺ) قال: (إِنَّ آيَةَ الشَّرِيفَةِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) نزلت في علي بن أبي طالب) (١).

فلا نتوقع من أغلب المسلمين في الأرض، إلا أن يحملوا هذه الصورة المشوهة للإسلام، لأنهم لم يسمعوا غيرها، ولم يشاهدوا غيرها، فكان طبيعياً أن يعتقدوا جازمين، أن هذا هو الإسلام.

(١) أن معاوية بذل لسمره بن جندب مئة ألف درهم حتى يضع حديثاً في أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) - إنها نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأن الآية الثانية، نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٠٧)، فلم يقبل، فبذل له مئتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمئة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمئة ألف فقبل، وروى ذلك). شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ٧٣ / ٤.

ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية، أن تُغيَّب الإمام الثاني عشر (عَلَيْهِ السَّلَام) هذه المدة الطويلة، إلى أن يأذن الله تعالى له بالظهور، كل ذلك لتستمر تربية الأمة مدة أطول، ولتمر بتجارب، وابتلاءات، وتمحيصات أكثر، حتى تصل إلى مستوى النضج، والكمال المطلوب، الذي يؤهلها لمواصلة مسيرة الكمال مع الإمام المهدي (عَلَيْهِ السَّلَام)، بينما لو قُدِّر لهذه الأمة أن تتربى في أحضان الأئمة المعصومين (عَلَيْهِمُ السَّلَام)، لوصلت إلى درجة الكمال قبل هذا التاريخ بكثير.

النتيجة الرابعة: تمزق الأمة وتشتتها:

وتفرقتها شيعاً، وأحزاباً، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢)، وهذه نتيجة طبيعية، للابتعاد عن الإمامة الحقيقية؛ لأن سر تشريع الإمامة، هو تحصين الأمة، من التمزق، والانحراف، كما قالت الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَام) في خطبتها الشهيرة بعد وفاة أبيها (عَلَيْهِ السَّلَام): ﴿وَجَعَلَ إِمَامَتَنَا نِظَامًا لِلْمِلَّةِ﴾^(١)، أي تنتظم بها أمورهم وتستقر، وقال تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض، هما الثقلان، كتاب الله، وعترته رسوله (عَلَيْهِمُ السَّلَام) - كما بينت في شكوى القرآن^(٢) - مضافاً إلى أن هذا الموقع، بعد أن خرج عن مستقره، وأبعد عنه أهله، أصبح مطمعاً لكل حالم به.

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ٦ / ٣١٥.

(٢) أنظر: ملحق القبس/ ١٠٩ ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

﴿الفرقان: ٣﴾ من نور القرآن: ٣ / ٢٨٤.

وشهوة التسلط أقوى الشهوات، وفيها استجابة للأناية، واستكبار النفس، فمن الطبيعي أيضاً، أن تكثر الصراعات حول هذا المنصب، وتداس في خضم هذا الصراع كل القيم والأخلاق.

وتكفي وقفة تأمل، واستطلاع بسيط للتاريخ، لنقرأ بكل أسف، وألم يفتت القلوب، المآسي التي جرّها التنازع على السلطان، والخسائر الفادحة في الأنفس، والأعراض، والأموال، التي هدرت في هذا الصراع، فمن الذي يتحمل هذه المسؤولية؟

ومن الذي فتح هذا الباب على المسلمين؟

وماذا يجني من يحدث هذا الفتق في أمة الإسلام؟

وخير معبر عن هذه الآلام، وهذه الخسائر، أحد الأدعية الواردة في لعن، أعداء آل محمد (ﷺ) والبراءة منهم، إلى أن يقول: (اللَّهُمَّ الْعَنَّهُمْ بَعْدَ كُلِّ مُنْكَرٍ أَتَوْهُ، وَحَقِّ أَخْفَوُهُ، وَمَنْبَرِ عُلُوِّهِ، وَمُنَافِقِي وُلُوِّهِ، وَمُؤْمِنِ أَرْجُوهُ، وَوَلِيِّ آذَوْهُ، وَطَرِيدِ آوَوْهُ، وَصَادِقِ طَرَدَوْهُ، وَكَافِرِ نَصَرَوْهُ، وَإِمَامِ قَهَرَوْهُ، وَفَرَضِ غَيْرَوْهُ، وَأَثَرِ أَنْكَرَوْهُ، وَشَرِّ آثَرَوْهُ، وَدَمِّ أَرَاقَوْهُ، وَخَبَرِ بَدَّلَوْهُ، وَحُكْمِ قَلَّبَوْهُ، وَكُفْرِ أَبْدَعَوْهُ، وَكَذَبِ دَلَّسَوْهُ، وَإِرْثِ غَصَبَوْهُ، وَفَيْءِ اقْتَطَعَوْهُ، وَسُحْتِ أَكَلَوْهُ، وَخُمْسِ اسْتَحْلَوْهُ، وَبَاطِلِ أَسَّسَوْهُ، وَجَوْرِ بَسَطَوْهُ، وَظُلْمِ نَشَرَوْهُ، وَوَعْدِ أَخْلَفَوْهُ، وَعَهْدِ نَقَضَوْهُ، وَحَلَالِ حَرَّمَوْهُ، وَحَرَامِ حَلَّلَوْهُ، وَتَفَاقِ أَسْرَوْهُ، وَعَدْرِ أَضْمَرَوْهُ، وَبَطْنِ فَتَقَوْهُ، وَضَلَعِ كَسَرَوْهُ، وَصَكِّ مَزَّقَوْهُ، وَشَمَلِ بَدَّدَوْهُ، وَذَلِيلِ أَعَزَّوهُ، وَعَزِيْزِ أَدْلَوْهُ، وَحَقِّ مَنَعَوْهُ، وَإِمَامِ خَالَفَوْهُ، اللَّهُمَّ الْعَنَّهُمَا، بِكُلِّ آيَةٍ حَرَفَوْهَا، وَفَرِيضَةٍ تَرَكَوْهَا، وَسُنَّةٍ غَيَّرَوْهَا، وَأَحْكَامِ

عَطَّلُوها، وَأَرْحَامٍ قَطَعُوها، وَشَهَادَاتٍ كَتَمُوها، وَوَصِيَّةٍ ضَيَّعُوها) (١).

ولو شئنا لذكرنا أمثلة، وشواهد، على كل فقرة، لكنها مما لا تخفى على المطلع على التاريخ، فأى قلب لا يذوب أسىً، على ما سببه ذلك التضييع للحق الصريح؟!.

النتيجة الخامسة: عزل الدين عن إدارة الحياة بكل أبعادها وتفصيلها:

واقصره على الطقوس التعبدية، والشؤون الفردية فقط، فإن القوم وإن استطاعوا بالترغيب والترهيب أن يسلبوا السلطة الدنيوية من الإمام (عليه السلام)، إلا أنهم لا يستطيعون بأي حال من الأحوال أن يسلبوا مكانته من القلوب، وهيبته في النفوس، ورجوع الناس إليه في شؤونهم الدينية.

هذا الانفصال الذي عبر عنه هارون الرشيد - كما يسمونه - لولده المأمون حينما استغرب من تكريمه للإمام الكاظم (عليه السلام) بما لا نظير له، فقال: (هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده فقلت: يا أمير المؤمنين أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟! فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالعلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله (ﷺ) مني، ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعتني هذا الامر، لاخذت الذي فيه عيّيك، فان الملك عقيم) (٢).

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ٨٢ / ٢٦٠ - المصباح - الكفعمي: ٥٥٢.

(٢) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ٤٨ / ١٣١.

والإمام وإن سكت عن المطالبة بحقه في السلطة الدنيوية، من أجل حفظ الإسلام، وكيان المسلمين، إلا أنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال التنازل لهم عن الإمامة الدينية، أو الاعتراف بهم، وإمضاؤهم كممثلين لهذه السلطة، فإن في ذلك خيانة لله ولرسوله وللإسلام، على أن هذا الحق لا يتصور التنازل عنه، فإنه ليس امتيازاً أو موقعاً حتى يتخلى عنه، بل هو علم لدني بالمعارف الإلهية، وما يرتبط بصلاح العباد، وقدرة وقابلية على تلبية احتياجات الأمة.

فكل من كان قادراً على ذلك ووجدت الأمة حاجتها، وآمالها، وطموحاتها عنده، أصبح إماماً، وهكذا كان علي (عليه السلام)، فما سمعنا انه احتاج إلى أحد في شيء، بل على العكس كانوا يرجعون إليه، في مسائلهم ومشاكلهم وقراراتهم، حتى اشتهر قول الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)^(١)، ولذا استدل بعضهم على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) باحتياج الناس إليه واستغنائه عن الناس^(٢).

وهذا الفصل بين السلطتين ترسخ وتعمق، وانعكس على الدين نفسه، فأصبح مرتكزاً في الأذهان، أن إدارة شؤون الحياة ليس من شؤون الإمامة الدينية، وأن دورها يقتصر على العبادات وبعض الأحكام الشخصية، والتقوا بذلك مع نظرة

(١) انساب الأشراف - البلاذري: ١٠٠ - مناقب آل أبي طالب - ابن شهر آشوب: ١ / ٣١١ - الفتح

الرباني - الإمام الشوكاني: ٨ / ٨٠٠

(٢) نسب الاستدلال إلى الخليل الفراهيدي (رضي الله عنه). أنظر: الأعلام من الصحابة والتابعين - حسين الشاكري: ٦ / ٨. وقريب من ذلك ما روي عن الحارث بن المغيرة قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): بأي شيء يُعرف الإمام؟ قال بالسكينة والوقار،... وتعرفه بالحلال والحرام، وبحاجة الناس إليه، ولا يحتاج إلى أحد) كتاب الغيبة - النعماني: ٢٤٧ / ١.

الجاهلية، ومع مقولة: (ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) ^(١)، وهذا هو الشرك بعينه، فإن الملك كله لله وحده، والحكم كله لله وحده، وما من واقعة إلا والله فيها حكم ^(٢).

أترى أن الشريعة التي لم تغفل عن تنظيم أبسط التصرفات الحياتية، كالتخلي، والنوم، والاكل، والجماع، ووضعت لها أحكاماً، وآداباً، فهل تغفل عن وضع أنظمة، وقوانين، تنظم حياة المجتمع من جميع الجهات؟ وهذه حقيقة دامغة لا تقبل الشك، إلا أنهم لا يدعون لها لعدة أمور:

١- إن الشريعة لا تنسجم مع أهوائهم، وأنانيتهم، وحبهم للاستئثار بالفيء، وسائر الامتيازات، وتعامل مع الجميع على حد سواء.

٢- إن تحكيم الشريعة فيه إظهار لجهلهم، وقصورهم، وتقصيرهم، وهو ما تأباه نفوسهم الأمارة بالسوء.

٣- إن ذلك أيضاً، يعني احتياجهم للإمامة الدينيّة، وبالتالي يعني تفوق أولئك عليهم، واستحقاقهم لهذا الموقع بدلاً عنهم.

النتيجة السادسة: حدوث الانفصال بين الأمة والخلافة:

لأن الأمر لم يعد في نظر المتصدين، أمر إصلاح، وهداية، وتكميل النفوس، ونيل رضا الله تبارك وتعالى، حتى تتعلق بهم الأمة، وتهفو إليهم القلوب، بل زعامة، وملك، ومصالح، واستئثار، واستعلاء، وقد عبر عنه القوم من أول يوم، وهم

(١) نص (إنجيل برنابا) - سيف الله أحمد فاضل: ٧٦.

(٢) أنظر: جامع أحاديث الشيعة - السيد البروجردي: ١ / ١٣٤.

بعد في السقيفة فكان لسانهم: إنما السلطان سلطان قريش فلا ينازعنا فيه أحد^(١)، وكانت المسألة أوضح بالنسبة للأقوام الأخرى، التي دخلت الإسلام، وقد أشعروهم بأن الخلافة ملك للعرب، فإذا كانت ملكاً عضوضاً، وهم المستفيدون منها، فما الذي يشد سائر قطاعات الأمة إليهم؟

وما الذي يحثهم على الدفاع عنهم؟ وما هي العلة التي تربطهم بهم؟

بل على العكس، سادت روح الكراهية، والحقد، والانتقام، كما حصل لأبي لؤلؤة الفارسي، غلام المغيرة بن شعبة، الذي سأم من كثرة التعيير لقومه الفرس، والاستهزاء بهم، فثار لعنصريته ولعصبيته الجاهلية^(٢).

بالمقابل كان هناك علي بن أبي طالب (عليه السلام):

كان علي (عليه السلام) وبنوه (عليهم السلام) قد ملكوا القلوب، فاستجاب الله تعالى بهم دعوة جدهم إبراهيم ﴿فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، والذي لم تستطع الخلافة بكل جبروتها، أن تنتزعه منهم، وقضية هشام بن عبد الملك، واضحة في أذهانكم، عندما عجز عن الوصول إلى الحجر؛ لازدحام الناس، فتنحى إلى زاوية في البيت الحرام، وما أن قدم الإمام السجاد (عليه السلام) حتى انفرج عنه الناس سماطين، فمشى بكل وقار وهيبة، حتى وصل إلى الحجر

(١) أنظر: الكامل في التاريخ - ابن الأثير: ٢ / ٣٢٩ - خلاصة عبقات الأنوار - حامد النقوي: ٣ / ٣٠٠.

(٢) أنظر: البداية والنهاية - ابن كثير: ٧ / ١٢٧ - تاريخ الطبري - الطبري: ٣ / ٢٢١.

الأسود، وهشام ينظر^(١).

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) رغم تواضعه بين أصحابه، حتى كأنه أحدهم، إلا أن له هبة، عظيمة، في نفوسهم، كما وصفه ضرار بن ضمرة لمعاوية^(٢).

وذاب أصحابهم في حبهم، قربة إلى الله تعالى، ووفاء لجدهم رسول الله (ﷺ)، وعرفاناً لحقهم عليهم، وتحملوا في سبيل ذلك ما تقشعر منه الأبدان، فهذا ميثم بن يحيى التمار تُقطع يده، ورجلاه، ويُصلب على جذع نخلة، فيطلب من الناس الاجتماع، حتى يحدثهم بفضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلم يمهلهم الفسقة،

(١) أن هشام بن عبد الملك حج في بعض السنين فطاف حول البيت وحاول أن يلمس الحجر الأسود فلم يجد لذلك سبيلاً من كثرة الزحام.. وفي ما هو ينظر إلى الناس إذ أقبل الإمام زين العابدين وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أريجاً.. فانفرج له الناس عنه ووقفوا له إجلالاً وتعظيماً حتى إذا استلم الحجر وقبله والناس وقَّفَ ينظرون إليه وكأنما على رؤوسهم الطير فلما مضى عنه عادوا إلى طوافهم، هذا وهشام بن عبد الملك ومن معه من أهل الشام يرون كل ذلك ونفس هشام يعبث فيها الحقد والحسد.. وفي هذه الحادثة قال: الفرزدق أبياته المشهورة والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته هذا ابن خير عادِ الله كلهم
والبيتُ يعرفهُ والحِجْلُ والحرمُ هذا التقي النقي الطاهر العلمُ

أنظر: اختيار معرفة الرجال - الطوسي: ١٢١ - الإختصاص - الشيخ المفيد: ١٩١. والإرشاد:

١٥٠/٢ - المناقب - ابن شهر آشوب: ٤ / ١٦٩ - الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني: ١٥ / ٢١٧.

(٢) نقل الرواة عن ضرار بن ضمرة، أنه دخل على معاوية يوماً، فقال له: يا ضرار صف لي علياً، فقال له: اعفني يا معاوية، فقال له: لا أعفيك، فقال له ضرار: أما إذا كان ولا بد من ذلك، فقد كان والله بعيد المدى شديد القوى... إلى أن قال: ونحن والله مع قربه منا ودنوه إلينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا... بحار الأنوار - المجلسي: ٣٣ / ٢٧٥.

حتى قطعوا لسانه^(١).

وهذا حجر بن عدي، يُؤخذ مقيّداً إلى الشام، ويحفر له القبر، ويفرش له النطع، ويُؤمر بسب أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإلا فالقتل، ومعه ابنه، فيختار ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، ويُقدّم ابنه، ليحتسبه عند الله تبارك وتعالى، ولئلا يعظم على الابن قتل أبيه فيتراجع، ثم قُدّم فقتل صابراً محتسباً^(٢).

(١) إن عبيد الله بن زياد قال لميثم التمار بعد أن قبض عليه: تبرا من علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقال له: فإن أنا لم افعل؟ قال: إذن والله لأقتلك، قال: لقد أخبرني مولاي أنك ستقتلني مع تسعة أحر علي باب عمرو بن حريث، قال ابن زياد: لنخالفنه كي يظهر كذبه، قال ميثم: كيف تخالفه، فوالله ما أخبر إلا عن النبي (ﷺ)، عن جبرئيل، عن الله تعالى، فكيف تخالف هؤلاء؟ ولقد عرفتُ الموضع الذي أصلب فيه وأين هو من الكوفة وأنا أول خلق الله ألجم في الإسلام، فلما رُفِع على الخشبة، اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث، قال عمرو: قد كان والله يقول: إنني مجاورك، فأمر جاريته بكنس تحت خشبته ورشه وتجميره، فجعل ميثم يحدث بفضائل أهل البيت (عليهم السلام)، ومثالب بني أمية وما سيصيبهم من القتل والانقراض، فقبل لابن زياد قد فضحك هذا العبد، فقال: أجموه، فألجموه كي لا يتكلم، فجاءه في اليوم الثالث، لعين بيده حربتين، وهو يقول: أما والله لقد كنت ما علمتك إلا قوَّاماً صوَّاماً، ثم طعنه في خاصرته فأجافه - أي حصل جوف في خاصرته من الطعنة - ثم انبعث منخره دماً في آخر النهار فخضب لحيته بالدماء واستشهد قبل قدوم الإمام الحسين (عليه السلام) إلى العراق بعشرة أيام. بحار الأنوار - المجلسي: ١٢٤ / ٤٢.

(٢) حجر بن عدي الكندي الكوفي من أصحاب أمير المؤمنين ومن الإبدال كان أميراً على بني كنده من قبل أمير المؤمنين (عليه السلام) في معركة صفين وكان أمير الجيش يوم النهروان، وقد استشهد حجر وجمع من أصحابه بسعاية زياد بن أبيه وبحكم معاوية بن أبي سفيان سنة إحدى وخمسين للهجرة.

وهذا عمار بن ياسر^(١)، يقاتل في صفين على كبر سنه، ويقول: (والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل)^(٢).

وأصحاب الحسين (عليه السلام) - وما أدراك ما أصحاب الحسين (عليه السلام) -، الذين لم يُر لهم نظير في الولاء، والصدق، والإخلاص، والتضحية، يُقدم أحدهم على الموت، وهو مبتسم، فيقال له: ما عهدناك هازلاً قبل اليوم، قال: (والله لقد علم قومي اني ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا ولكن والله اني لمستبشر بما نحن لاقون والله ان بيننا وبين الحور العين الا ان يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت انهم قد مالوا علينا بأسيافهم)^(٣).

(١) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوديم ابن ثعلبة بن عوف بن حارثة بن عامر الأكبر، يرجع نسبه الى يعرب بن قحطان، ويكنى أبا اليقظان: تقدم إسلامه ورسول الله (ﷺ) بمكة، وهو معدود في السابقين الأولين من المهاجرين، وممن عُذب في الله بمكة. أسلم هو وأبوه وأمه سمية، وهي أول شهيدة في الإسلام، طعنها أبو جهل بحربة في قبلها فقتلها، ومر النبي (ﷺ) وهم يعذبون. فقال: (اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة). وشهد عمار مع رسول الله (ﷺ) بدرأ، وأحدأ، والخندق، ومشاهده كلها، ونزل فيه آيات من القرآن. شهد عمار صفين وهو ابن تسعين سنة، وأنه يوم صفين أتى بلبن فشربه ثم قال: إن رسول الله (ﷺ) قال لي: (هذه آخر شربة تشربها من الدنيا). ثم تقدم فقاتل حتى قتل "من قبل جيش معاوية بصفين وكان" مع علي بن أبي طالب سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث وتسعين سنة ودفن هناك. تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي: ١٦١/١.

(٢) الاختصاص - الشيخ المفيد: ١٤.

(٣) وهو برير بن خضير الهمداني: كان زاهداً عابداً سيد القراء ومن أشرف الكوفة. أنظر: مقتل الحسين (عليه السلام) - أبو مخنف: ١١٥. - أعيان الشيعة - السيد محسن الأمين: ٣ / ٥٦١.

النتيجة السابعة: تأخر ركب الحضارة الإنسانية:

بحيث احتجنا إلى أربعة عشر قرناً، لكي نصنع الطائرة، والكومبيوتر، ونغزو الفضاء، وكان يمكن لهذه الأمور، وغيرها مما لم يصل إليه العقل الإنساني إلى الآن، أن تتحقق قبل مدة طويلة؛ لأن اليد الإلهية واضحة التأثير في قيادة ركب الحضارة البشرية، بفضل ما بثه الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) من علوم، أو من خلال الإلهام والإيحاء، ولولا الرعاية الإلهية لما استطاع الإنسان أن يهتدي إلى أبسط الأمور، حتى دفن موته في التراب لا يعرفه، حتى بعث الله له غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه^(١).

وإن القرآن الكريم ليضم أسرار ومفاتيح العلوم كلها، فيه ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، فيشير إلى غزو الفضاء بالوسائل العلمية، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣)، وهو سلطان العلم، والتكنولوجيا، كل هذه الأسرار، ومفاتيح العلوم، كانت عند أمير المؤمنين (عليه السلام)^(٢) علمه إياه رسول الله

(١) إشارة إلى قصة ابني آدم (عليه السلام)، هايبل وقايل، وذلك عندما قتل قايل هايبل، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ ﴿المائدة: ٣٠-٣١﴾.

(٢) وإن شئت الاطلاع على ما كان يمكن أن يقدمه، علي وبنوه (عليهم السلام) ليقدموا ركب الحضارة الإنسانية، وليوفروا لها السعادة، والحياة الطيبة، فراجع عدة كتب ألفت في هذا المجال، أنظر: مثلاً

(فحدثني بألف حديث يفتح كل حديث ألف حديث، حتى عرقت وعرق رسول الله (ﷺ))^(١).

ولم يكن يحتاج إلى تطبيق معادلات، وقوانين احتمالية، أو يخوض تجارب طويلة حتى يصل الى الحقيقة، بل كانت الحقائق العلمية كلها حاضرة في ذهنه، يراها بالبصيرة، والوجدان رأي العين.

فحفر الكثير من الآبار، والعيون، وأوقفها للمسلمين في وقت كان الآخرون يعجزون عن التعرف على مواقع وجود الماء، فأين علم الجيولوجيا من هذه المعرفة الدقيقة، بطبقات الأرض، وما تحتها، من كنوز ومعادن.

وكان يقول: (لو شئت لجعلت لكم من الماء نورا ونارا)^(٢)، يقصد توليد الطاقة الكهربائية من شلالات الماء، وغيرها الكثير، في مختلف حقول العلم، والمعرفة.

ثم جاء أولاده (عليهم السلام) من بعده، ليبثوا ما تسمح به الحال، من علوم الكيمياء، والرياضيات، والفلك، والفيزياء، والنبات، والحيوان، وغيرها.

فإن قلت: إذن ما الذي حبسهم عن إعطاء هذه العلوم التي يحملونها إلى البشرية، وهي مسألة لا تتعلق بتسلمهم موقع القيادة والإمامة وعدمها؟.

بحوث في الملل والنحل - جعفر السبحاني: ٦ / ٥٢٥ / الفصل الثاني عشر (دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية وازدهار العلوم).

(١) الخصال - الشيخ الصدوق: ٦٤٢ - بحار الأنوار - المجلسي: ٢٦ / ٢٩.

(٢) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) - الريشهري: ١٠ / ٣٠٢.

قلتُ: إن التقدم المادي مرتبط تماماً بالتكامل الروحي، من خلال البناء الصحيح للعقيدة، ولا بد أن يتقدماً معاً.

وإن الأول بدون الثاني يصبح وبالأعلى البشرية ويقودها نحو الدمار، كالذي نشاهده اليوم ممن يسمون أنفسهم بالقوى العظمى، والدول الكبرى، ولما كانت البشرية قد تخلفت، وتدنت في الجانب الثاني، وهو العقائدي والأخلاقي، فلا يمكن إعطاؤها من الجانب الأول، إلا بالمقدار الذي لا يكون خطراً عليها، هكذا اقتضت الإرادة الإلهية أن يلهم الإنسان بعض الأفكار، التي طورت حضارة البشر، ودلته على اكتشافات، وحقائق علمية مهمة في أوقاتها المناسبة، وبالشكل الذي يحفظ توازن المجتمع الإنساني ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، ولو كانت مستحقة للمزيد بالتزامها بخط الخلافة الإلهية، لما بخل عليها الله تبارك وتعالى بالعطاء، فلا يغتر الإنسان ويظن أنه هو الذي يحقق ذلك، بل هو من إلهام الله تبارك وتعالى وإيحائه، وللعلماء والمكتشفين كلمات تدل على ذلك، ولو خلي إلى نفسه لما عرف كيف يتخلص من موته بالدفن حتى علمه الغراب - كما ذكرنا-

لماذا نحتفل بعيد الغدير؟

هذه بعض النتائج التي أفرزها عدم التزام الأمة بحديث الغدير، وإذا كانت الأمور تُعرف بأضدادها كما قالوا، فيمكن أن نعرف سمو المعاني والآثار التي نالها الملتزمون بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، فحق لهم أن يحتفلوا بهذا العيد الأغرّ، - أعظم عيد في الإسلام -، عن عبد الرحمن بن سالم، عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله

(عائشةؓ)، هل للمسلمين عيد، غير يوم الجمعة، والأضحى، والفطر؟ قال: نعم أعظمها حرمة، قلت، وأي عيد هو، جعلت فداك؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول الله (ﷺ)، أمير المؤمنين (عائشةؓ) وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(١).

وفي حديث أبي نصر عن الرضا (عائشةؓ) قال: (يا بن أبي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين (عائشةؓ)، فان الله تبارك وتعالى يغفر لكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة، ذنوب ستين سنة، ويعتق من النار ضعف ما أعتق في شهر رمضان، وليلة القدر، وليلة الفطر، والدرهم فيه بألف درهم لآخوانك العارفين، فأفضل على إخوانك في هذا اليوم، وسرّ فيه كل مؤمن ومؤمنة، ثم قال: ... والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)^(٢).

لنأخذ الدرس في فهم أشكال المرجعية الدينية:

ونحن كما تعودنا في مثل هذه الكلمات، لا نستهدف فقط تثبيت العقيدة وترسيخها والدفاع عنها، وإن كان هذا في نفسه نقيساً، إلا أنه مما لا يقل عنه أهمية أخذ الدروس، والعبر منه، وهنا تكمن روح العلم والمعرفة، فالعلم بلا عمل وبلا استفادة منه في الحياة، لا قيمة له.

ونحن إذا توسعنا في فهم هذا الموضوع، فسنطبق هذه التجربة على كل رسالة إصلاحية، تعمل على هداية الناس، وتكميل نفوسهم كالمرجعية الشريفة،

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ١٤٩ / ٤.

(٢) تهذيب الأحكام - الشيخ الطوسي: ٢٥ / ٦.

وهي لها شكلان:

الأول: المرجعية الفردية، التي يُقتصر عملها على استنباط الحكم الشرعي، من دون العمل على تطبيقه، ودفع المجتمع إلى امثاله، والأمر راجع إلى المكلف، إن شاء طبق أو لا، ولا تتدخل إلا في حدود الشؤون الفردية، وما يبرئ ذمم المكلفين، كأفراد، وهو عمل ليس بالهين، وقد قاموا بجهود مضيئة، حفظت لنا فقه آل محمد (عليه السلام)، لكن هذا الشكل خارج عن موضوعنا، لانحسار دورها عن الإمامة الاجتماعية أصلاً.

الثاني: المرجعية الاجتماعية، التي لا تكتفي بمستوى النظرية، - أي مجرد التقنين والتشريع -، وإنما تعمل على تهيئة كل الفرص، واتخاذ مختلف الأساليب؛ لإقناع الناس بتطبيق الشريعة في كل تفاصيل حياتهم، وإذا لم تنفع وسيلة جربت أخرى.

وقد شبهت الأولى بالأمّ التي تهییء الطعام لولدها المريض وتترك الباقي عليه، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وقد لا يعرف مصلحته فيموت جوعاً.

والثانية تشبه الأمّ التي لا تكتفي بإعداد الطعام، بل تُطَيِّبه وتعمل كل المرغبات، والمحفزات، لولدها كي يأكل، ويحفظ حياته، ويستعيد عافيته، ولا شك أن الثانية أرحم، وأرأف، وأكرم، وأصبر، من الأولى، أو قل إنها أكثر اتصافاً بالأسماء الحسنی، التي ورد الحث على التخلُّق بها.

المرجعية الحركية هي الأجدر:

وهذه المرجعية الثانية، هي الأكثر التصاقاً بالناس، وأعمق تأثيراً فيهم، والأكثر تعلقاً بهم، وهي الأجدر بتمثيل دور المعصومين (عليهم السلام)، فلا غرو أن تكون عرضة لطمع المتنافسين، فإذا تصدى لها غير المؤهل لها، وصنع (سقيفة) ثانية، لإبعاد مستحقيها، ترتبت كل أو بعض الآثار التي ذكرناها، ولا بد أن نستفيد من تلك التجربة، لنكون واعين، وحذرين من تكرارها.

وقد ذكرنا في محاضرتين^(١)، بمناسبة عيد الغدير عام (١٤٢١هـ)، الأشكال الثلاثة، التي خطط بها رسول الله (ﷺ) للخليفة من بعده، وكيفية تآسي المرجعية به (ﷺ) في هذا المجال، ومسؤولية الأمة في صيانة هذا الموقع الشريف، والتمسك بأهله.

فيكون هذا البحث مكماً له، ومما ذكرنا هناك، أن لهذا الموقع شروطاً، صنفتها إلى ثابتة ومتحركة، والأولى، هي التي دأبت على ذكرها الرسائل العملية، أما المتحركة فتتغير تبعاً للظروف الموضوعية، التي تعيشها المرجعية.

(١) تقدم ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧)، وقد طبع كمقدمة لكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ كاشف الغطاء، أيضاً.

الآية الثالثة والعشرون:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿سورة الزمر: ٣٥﴾

دروس وعبر من وفاة رسول الله (ﷺ)

خطاب موجه الى النبي (ﷺ) ولجميع البشر استعمل فيه لفظ الفعلية بصيغة الصفة المشبهة (ميت) رغم انهم ما زالوا أحياء ولم يقل انك ستموت لافادة التحقق القطعي وانهم صائرون اليه لا محالة، قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

ان الموت لا يعني الفناء بل التحرر من البدن والانتقال من عالم الدنيا الى عالم الاخرة الذي ستكون فيه الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت: ٦٤) وستظهر للإنسان حينئذ حقيقة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌ وَلَعِبٌ﴾ (العنكبوت: ٦٤)، وسيندم على عدم اخذه من حياته الدنيا الزائلة ما ينفعه في تلك الحياة الباقية ويقول ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢٤)، وقوله هذا اعتراف صريح بأن الاخرة هي الحياة ولكنه لم يقدم لها شيئاً.

دلالات وفاة النبي (ﷺ):

وقد عقدنا هذا القبس لبيان دلالات موت رسول الله (ﷺ) وآثاره، منها الأول: كانت وفاته شهادة من الله تعالى على أن البقاء لله وحده قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٥) وقال الإمام الحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء

لأخته العقيلة زينب (عَلَيْهَا السَّلَامُ): (إن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون) (١) ولو استحق أحد أن يبقى لكان رسول الله (ﷺ) لأنه أكمل الخلق وأفضلهم وجعل الكون بما فيه طوع إرادته وهو عند الله تعالى أكرم من نبيه سليمان بن داود الذي قال فيه أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (ولو أن أحداً يجد إلى البقاء سلماً، أو لدفع الموت سيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، الذي سُخِّرَ له مُلك الجن والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفة. فلما استوفى طعمته، واستكمل مدته، رمته قسيُّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية والمساکن معطّلة، وورثها قومٌ آخرون) (٢) وفي ذلك موعظة للخلق جميعاً.

الثاني: هوان الدنيا على الله تبارك وتعالى حين يُخليها من رسول الله (ﷺ) فما قيمتها بدونه فأصبحت الدنيا بفقدته مظلمة، والآخرة بنوره مزهرة، وفي ذلك عبرة لمن تطمح عينه إلى الدنيا ويجعلها هدفاً لحياته، قال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (ولقد كان في رسول الله (ﷺ) كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساوئها، إذ قُبِضت عنه أطرافها، وَوُطِّتَ لغيره أكتافها، وَفُطِمَ عن رضاعها، وزوي عن زخارفها) (فتأسَّ بنبيِّك الأطيب الأطهر فإن فيه أسوة لمن تأسَّى، وعزاء لمن تعزَّى. وأحبُّ العباد إلى الله المتأسِّي بنبيه والمقتصِّ لأثره) (عُرِضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلمَ أن الله سبحانه أبغضَ شيئاً فأبغضه، وحقَّرَ شيئاً فحقَّره، وصغَّرَ شيئاً فصغَّره. ولو لم يكن فينا إلا حُبُّنا ما أبغضَ اللهُ ورسولُه وتعظيمُنا ما صغَّرَ اللهُ ورسولُه، لكفى به شقاقاً لله، ومحادةً عن أمر

(١) الارشاد للمفيد: ٩٤ / ٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢، ص ٢٦٢، شرح د. صبحي الصالح، بيروت ١٩٦٧م.

الله^(١)

الثالث: انقطاع جملة من البركات كانت مرتبطة بشخصه المبارك ووجوده بين الناس (منها) الوحي المباشر الذي كان ينزل عليه (ومنها) ارتفاع ألوان من العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣) وورد في أخبار الفريقين أن رسول الله (ﷺ) قال: (أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة)^(٢) ومع ذلك فإن خيره وبركاته متواصلة حتى بعد وفاته، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله: مقامي بين أظهركم خير لكم فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ومفارقتي إياكم خير لكم. فقالوا: يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خير لنا؟ فقال: أما مفارقتي لكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض علي كل خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها، وما كان من سيئة أستغفر الله لكم)^(٣).

الرابع: انفتاح باب الظلم والعدوان على آل بيت النبي (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وقد قال لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)^(٤) وحصل ما

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠، ص ٢٢٦-٢٢٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، في ذيل الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٨٦/٩.

(٤) بحار الأنوار: ٤٦٩/٢٢ عن كتاب (إعلام الوري بأعلام الهدى: ١٤٠-١٤٣. والإرشاد: ٩٦-١٠٠.

وأورد الحديث الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا: ٧٢/٢ باب ٣١/ح ٣٠٣.

حصل على دار علي وفاطمة (صلوات الله عليهما وآلهما) - لذا لا يكاد ينفك الحديث عن وفاة رسول الله (ﷺ) من الحديث عما تعرضت له الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) - مخالفين بذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣) ووصايا نبيه الأكرم الكثيرة.

الخامس: الانقلاب على الأعقاب ومخالفة وصية رسول الله (ﷺ) في أمير المؤمنين (عليه السلام) بالإمامة والخلافة، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤) وهذه أهم قضية بلغها رسول الله (ﷺ) وأداها عن ربه بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

وكل واحد من هذه الأمور يستحق أن نطيل الوقوف عنده والتأمل فيه، ولكن الوقت لا يسع لذلك فنقتصر على الأخير لأهميته.

أهمية الإمامة في الإسلام:

إن قضية الإمامة والخلافة أعظم قضية في الإسلام فهي مفتاح كل خير لو أن الأمة اهتدت إليها وأخذت بها، ومفتاح كل شر - والعياذ بالله - من سفك دماء وتخريب ديار وانحراف عن الدين، عندما يتخلفون عنها، وقد كان النبي بدأ التصريح بها والدعوة إليها منذ أيام الإسلام الأولى عندما نزلت الآية الشريفة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٦١٤) فقد روى الفريقان أن النبي (ﷺ)

جمع بني عبد المطلب و كانوا أربعين رجلاً ودعاهم إلى الإيمان ومؤازرته واختار علياً ليكون وصيه وخليفته^(١) ثم والى الإعلان والتبليغ بها حتى دعاه الله تبارك وتعالى إلى إكمال الدين وإتمام النعمة بإلزام المؤمنين بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) في غدير خم قبل وفاته بشهرين وعشرة أيام، لكن بعض الصحابة ولأسباب معلومة نكثوا البيعة، وعندما حاول تأكيدها قبل وفاته بأربعة أيام أي يوم الخميس الذي سبق وفاته يوم الاثنين حصل لفظ وخلاف بين الصحابة فقال لهم: قوموا، ثم أوصى أهل بيته بالاستعداد للبلاء واتخاذ الصبر جلباباً، هذه الحادثة التي أطلق عليها عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: (رزية يوم الخميس)^(٢) لأنها أساس المصائب والانحراف عن خط الرسالة.

الانحراف الذي - كأي خط مائل عن الصراط المستقيم - يزداد بعداً كلما تقدم الزمن فبدأت عرى الإسلام تُنقَضُ، ومقدساته تنتهك ولم تبق حرمة له حتى آلت الخلافة إلى أناس يقتلون أولاد النبيين ويحرقون الكعبة ويشربون الخمر ويفعلون المنكرات جهاراً على منابر المسلمين، ونشأت أجيال من المسلمين لا تفقه من أحكام الإسلام شيئاً لأن الناس على دين ملوكهم، ولا سبيل للوصول إلى الأئمة الهداة الحقيقيين فهم معتقلون ومعذبون ومحاصرون، وكان الداخلون الجدد في الإسلام من الأمم التي غزاها المسلمون لا يرون من الإسلام إلا ما يظهر على سلوك الأمراء، ولولا جهاد وجهود الأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) والثلة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ذيل تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٣٠ / ٥٣٦.

المباركة من أصحابهم لما بقي للدين عين ولا أثر^(١) كأبان بن تغلب الذي قال فيه الإمام الصادق (عليه السلام) لما بلغه موته: (لقد اوجع قلبي موت أبان)^(٢)، وقال (عليه السلام) في بعض أصحابه لعله زرارة او محمد بن مسلم (لولا فلان لمات فقه أبي) وكان لهذا الانقلاب على وصية رسول الله (ﷺ) في مستحقي الإمامة والخلافة من بعده وإقصاء القادة الحقيقيين للأمة آثار^(٣) كارثية وويلات عظيمة على الأمة:

منها: تصدي غير المؤهلين للخلافة بل الفاسدين من بني أمية وبني العباس وأضرابهم مما أدى إلى:

- ١- تشوّه صورة الإسلام نفسه لأن أي دين أو نظام أو أيديولوجية تُقيّم من خلال سلوك القائمين عليها لعدم التفكيك بين النظرية والممارسة والتطبيق، فلما يتصدى للحكم باسم الإسلام قتلةٌ ومجرمون وفسادون فإنهم يشوّهون صورته.
- ٢- طمع أعداء الإسلام في الكيد له واستئصال قواعده وتعاليمه حيث وجدوا لهم منفذاً بل حظوة لدى أولئك المتسلطين الجبابرة.
- ٣- ضياع مقاييس ومعايير الاستحقاق لهذا المنصب العظيم فأصبحت هدفاً لكل الطامعين في السلطة والحكم ولو بالقهر والسيوف ما دام الحكم لمن غلب. ومنها: ابتداع وسائل من صنع الإنسان للوصول إلى التشريعات كالقياس

(١) أنظر: وسائل الشيعة (آل البيت): ١٤٢/٢٧.

(٢) رجال النجاشي: ١٠، الفهرست للشيخ الطوسي: ٥٧.

(٣) تجد تفصيل هذه النقاط في ص ٢٦٨، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل

والشورى وأمثالها لابتعادهم عن مصادر التشريع الأصلية ولحاجتهم إلى قوانين تؤصل لسلطتهم وتعطيهم الشرعية، لذا تبدلت الأحكام وصارت القوانين التي تحكم الحياة وضعية وليست إلهية.

ومنها: عرقلة تربية البشرية وتكاملها، لأن المعلم يجب أن يكون عالماً والواعظ متّعظاً والمصلح صالحاً فكيف يربي الأمة من يتبع هواه ويطلق لنفسه الأمانة بالسوء العنان وقد جعل الشيطان ولياً له من دون الله العظيم فافتقدت الأمة الأسوة الحسنة والمربي الصالح الحنون إلا القليل ممن اهتدى إلى الحق ورزقه الله اتباعه، وعلى العكس من ذلك فقد شجعت تلك السلطات الفساد والانحراف وكانت تمارسه علناً وتوفر أسبابه.

ومنها: تمزق الأمة وتشتها إلى فرق وأحزاب وطوائف متناحرة يستحل بعضهم دماء البعض الآخر ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٣) ولم يلتفتوا إلى وصية الله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦) وقد فسرت الأحاديث الشريفة حبل الله بالقرآن الكريم وعترة النبي (ﷺ) وأهل بيته^(١).

ومنها: انحسار دور الدين عن التأثير في حياة الأمة، فبعد أن كانت رسالته تنظيم شؤون الحياة كلها اقتصر أثره على عدد من المتدينين من خلال طقوس وعبادات يؤدونها، وقد عمل الطغاة على ذلك لأنهم يعلمون أن إعطاء دور شامل للدين يعني

(١) أنظر: تفسير العياشي: ١ / ١٩٤.

الحاجة إلى الرجوع إلى القيمين الحقيقيين عليه مما يعني خسارة الحكام الجائرين
لسلطتهم ومواقعهم فقرروا عزل الدين ليعزلوا أئمتهم والأدلاء عليه.

ومنها: تأخر ركب الحضارة الإنسانية، لأن أوصياء النبي (ﷺ) كان لديهم
كل ما تحتاجه البشرية من علوم وقد احتوت المصادر على نظريات علمية في
الفيزياء والفلك والرياضيات والفلسفة والكيمياء والطب وغيرها لأئمة أهل البيت
(عليهم السلام) (راجع كتاب قضاء أمير المؤمنين (عليه السلام) وتوحيد المفصل ورسائل جابر
بن حيان في الكيمياء) فلو أُتيحت الفرصة لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) لإظهار
علومهم وثبت لهم الوسادة، لما احتجنا إلى أربعة عشر قرناً لنصنع الطائفة
والكومبيوتر والإنسان الآلي والتكنولوجيا النووية وغيرها مما يضمن للبشرية حياةً
أفضل وأهنأ وأسعد.

وعلى أي حال فقد كانت خسارتنا برسول الله (ﷺ) عزيمة معظم النتائج
التي حصلت بوفاته فما أصيبت البشرية بمثل رسول الله (ﷺ) وعلى مثله فليكن
الباكون وليندب النادبون:

أَنْسَتْ رَزِيَّتَكُمْ رَزَايَانَا الَّتِي سَلَفَتْ وَهَوَّتْ رَزَايَا الْآتِيَةِ^(١)

(١) بيت من قصيدة مطولة للشيخ عبد الحسين الأعسم، أنظر أدب الطف - السيد جواد شير: ٢٨٩/٦

الآية الرابعة والعشرون:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾

أساس وحدة المسلمين

يتحدث المسلمون بجميع طوائفهم عن ضرورة الوحدة ونبذ الخلاف، ويعقدون المؤتمرات والندوات والحوارات تحت هذا العنوان، وتصرف الأموال الضخمة في هذا السبيل دون أن يتحقق تقدم يذكر، وربما ازدادوا بعداً عن بعضهم، فأين الخلل ولماذا هذا العجز عن الوصول إلى الحل؟

يدلنا القرآن الكريم على ما تتحقق به الوحدة بين المسلمين فانه يقول:
﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقد وردت الروايات في تفسير الآية بأن حبل الله هو القرآن الكريم وولاية علي بن أبي طالب والأئمة المعصومين (عليهم السلام) من ذريته^(١)، وتشهد نفس الآية على هذا التفسير، لأنها ذكرت أن العرب كانوا أعداء متباغضين فوحدهم الله تبارك وتعالى وجمع كلمتهم بنعمة الإسلام.

(١) أنظر: التفسير الأصفى - الفيض الكاشاني: ١٦٥/١ - تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي: ٣٥٦/٢ -

بحار الأنوار - المجلسي: ١٩/٣٦ - تفسير الرازي - الرازي: ١٧٣/٨.

وقد أشارت آية أخرى إلى أن تمام هذه النعمة ونظام عقدها ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وقد روى المفسرون من الطائفتين أنها نزلت بعد تنصيب رسول الله (ﷺ) لأخيه وابن عمه علي بن أبي طالب (عليه السلام) خليفة وولياً وهادياً للأمة بعده يوم الغدير بعد حجة الوداع^(١).

وإلى هذا أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في خطبتها في مسجد أبيها (ﷺ) (فجعل إمامتنا نظاماً للملة، وطاعتنا أماناً من الفرقة)^(٢).

وولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ليست قضية عاطفية تجاه شخصيته العظيمة، ولا عقيدة نظرية نؤمن بها، وإنما هي باب يفتح منه ألف باب من الاعتقادات والأحكام والآداب، تكون برنامجاً كاملاً في المعتقد والسلوك على صعيد الفرد والأمة.

والأمة لم تقع فيما وقعت فيه من التخبط والصراع والفتن المضلة التي تسببت في إزهاق أرواح الأجيال بعد الأجيال من الأبرياء وخراب البلاد وانهايار الحضارة وعدم الاهتمام إلى الحق إلا بسبب عدم تمسكها بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وعروته الوثقى التي لا انفصام لها.

وهذا ما دعا عبد الله بن العباس وغيره من الصحابة العارفين يتأوه إلى نهاية

(١) أنظر: تفسير العياشي - العياشي: ٢٩٣/١ - بحار الأنوار - المجلسي: ١٣٤/٣٧ - مناقب علي بن أبي

طالب (عليه السلام) - ابن مردويه الأصفهاني: ٢٣٢.

(٢) الاحتجاج - الشيخ الطبرسي: ١٣٤/١.

عمره مما حصل في رزية يوم الخميس التي سبقت وفاة رسول الله (ﷺ) بأيام^(١)، ويقول عن مسألة (العول) أي النقص في فرائض الميراث التي قال بها من لم يأخذ العلم من نميره الصافي وفنّدها أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بعده (عليهم السلام) وفيها يقول عبد الله بن العباس بعد أن اثبت بطلان القول بالعول في رواية طويلة، قال فيها: (وأيّم الله لو قدّم من قدّم الله وأخّر من أخّر الله ما عالت فريضة)^(٢)، وهو يقصد بحسب الظاهر التقديم والتأخير في استحقاق الميراث، لكنه كان يُريد معنى أعمق من ذلك بأن الأمة لو قدّمت لولاية أمرها من قدّمه الله تبارك وتعالى واختاره لخلافة رسول الله (ﷺ) لما نقصت فريضة أو عطّلت سنة.

إن استحقاق أمير المؤمنين (عليه السلام) للخلافة بعد رسول الله (ﷺ) كان سابقاً على يوم الغدير، أما الاحتفال الذي أقامه رسول الله (ﷺ) في غدير خم في طريق عودته إلى المدينة بعد حجة الوداع ودعا المسلمين إلى مبايعة علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالولاية والإمامة بعده (ﷺ) تلبية لأمر الجليل تبارك وتعالى حيث انزل الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

أقول: أما هذا الاحتفال فكان كاشفاً عن هذا الاستحقاق وإعلاناً رسمياً للتنصيب، وقد كان الكثير من الصحابة الأجلاء (رضوان الله تعالى عليهم) يعلمون أحقية أمير المؤمنين (عليه السلام) وبولايته وعُرفوا بتشيّعهم له في وقت مبكر من حياة

(١) أنظر: بحار الأنوار - المجلسي: ٥٣١/٣٠ - المراجعات - السيد شرف الدين: ٣٥٢.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ٨٠/٧.

رسول الله (ﷺ).

فالنقاش إذن في دلالة قول النبي (ﷺ) يوم الغدير (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)^(١)، أو المناقشة في نزول الآية في قضية الغدير لا يقدم ولا يؤخر، وهي شبهة مقابل البديهة - كما يقول العلماء - لأن حق أمير المؤمنين في خلافة رسول الله (ﷺ) لم يكتسبه من ذلك اليوم، بل استحقه بما يحمل من صفات تؤهله لهذا المقام الشريف، وقد أعلن رسول الله (ﷺ) هذا الاستحقاق في مناسبات عديدة سبقت قضية الغدير بسنين وكان بعضها - كحديث الدار - في وقت مبكر من البعثة في مكة المكرمة وفي حياة أبيه أبي طالب (رضي الله عنه) حتى تهكم بعض مشركي قريش من أبي طالب وقال له أن محمداً يدعوك إلى طاعة ولدك الصغير علي^(٢).

أيها الأحبة من كل طوائف المسلمين.

إنني أريد بهذا الكلام أن أقول: أن الوحدة بين المسلمين تتحقق بالعودة إلى كتاب الله تبارك وتعالى، وسنته الشريفة الصحيحة بعد تنقيحها من التلاعب والتزوير والدس الذي قام به المنافقون، وحينئذ سيلتقي جميع المسلمين عند الحقائق التي يعلمها الله تبارك وتعالى.

والوصول إلى الحقيقة وكشفها للناس وظيفه العلماء الأجلاء، ولا نصل إلى الحقيقة إلا بتحرير العقول من التقليد والتعصب والتحجر، وذلك بفتح باب الاجتهاد ودعوة العلماء الذين حصلوا العلوم التي تؤهل لممارسة عملية استنباط

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٤٢٠/١.

(٢) علل الشرائع - الشيخ الصدوق: ١٧٠/١.

الحكم الشرعي من مصادره الأصلية إلى عدم الوقوف على المذاهب المعروفة وتطبيق فتاوى أئمة المذاهب على الحالات التي تعرض عليهم، وإنما يرتقون بمداركهم إلى استنباط الحكم الشرعي من الكتاب والسنة، وسيجد علماء المسلمين جميعاً أنفسهم عند تلك القمة السامقة متفقين متوحدين ينهلون من معين واحد ولا يختلفون إلا بالمقدار الطبيعي الذي يحصل بين علماء أي حقل من حقول العلم والمعرفة.

وقد وجدتُ خلال بحثي الفقهي الاستدلالي أن كثيراً من الروايات التي يستند إليها الفقهاء السنة والشريعة في استنباط الحكم الشرعي متطابقة الألفاظ فضلاً عن المعاني، ويعود الفضل في ذلك إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بنيه الطاهرين (عليهم السلام) حيث بثوا عدداً ممن حملوا جملة من أحكامهم ومعارفهم، ولا يجد المسلمون من غير أتباع أهل البيت (عليهم السلام) حزاة في الأخذ عنهم، كعبد الله بن العباس، ونقل هؤلاء إلى عموم المسلمين علوم الشريعة من معدنها الصافي، وهذا نابع من رحمتهم وحبهم للناس جميعاً حتى وإن أعرضت الأمة عن إعطائهم المكانة التي يستحقونها.

أرجو أن يساهم السادة الحضور، وكل من يسمع هذا النداء المخلص لتفعيل هذه الدعوة المباركة في أروقة حواضر العلم صانها الله تبارك وتعالى في بلاد المسلمين.

وأسأل الله تعالى أن يأخذ بأيديكم لما فيه الصلاح والإصلاح وأن يثبت لكم قدم صدق عند مليك مقتدر، إنه ولي نعم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الآية الخامسة والعشرون :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

لكي نفهم الآية الكريمة، ونعرض انفسنا عليها ونتحقق من نسبة التزام الامة بها، مع ما يتضمن ذلك من دروس جليلة نلفت النظر الى عدة امور:

١- اول ما يلاحظ في الآية استعمال اداة النداء ﴿يَا أَيُّهَا﴾ وجعل المنادى هم المتصفون بصفة الايمان مع ان الجميع مخاطبون^(١) بهذا الامر، وذلك لعدة نكات:

(منها) تشريف المؤمنين بتوجيه الخطاب اليهم دون غيرهم من المأمورين.
(ومنها) لألفات عناية المؤمنين واثارة انتباههم الى ما يكمل به ايمانهم.
(ومنها) اشعارهم بمسئوليتهم الخاصة كمؤمنين عن هذا الذي دعوا اليه أي انكم بصفتمكم مؤمنين يجب ان تكونوا كذلك، ولو كانت الجملة بلا اداة نداء ومنادى واقتصر على بيان الامر المطلوب ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لما حصلت هذه العناية ولا الالتفات الى المسؤولية او كانت بدرجة اقل، كما انك حين تخاطب الشباب بتوجيه ما تتدئ كلامك بـ (يا أيها الشباب) لالفات نظرهم الى ان هذا الخطاب موجه لهم بما هم شباب، او تقول ايها العراقيون عند طرح

(١) جميع الناس مخاطبون حتى غير المسلمين لانهم مكلفون بالفروع -أي الأحكام الشرعية الواجبة والمحرمة- كتكليفهم بالأصول -أي الاعتقاد بالتوحيد والنبوة والمعاد، وورد التصريح بالعموم لمثل هذا الخطاب في آيات مماثلة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة:

قضية وطنية تهمهم، او يا طلبة الحوزة العلمية.

والخلاصة ان الآية تفيد انكم اذا كنتم تريدون ان تكونوا مؤمنين حقا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين ولها دلالة بالاتجاه المعاكس أي انكم اذا اتقيتم الله ووجدتم انفسكم في صف الصادقين فأنكم مؤمنون حقا، وإلا ينطبق عليكم قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات ١٤)، فالآية هنا تنفي بعض مراتب الايمان الصادقة حقيقة، وهناك آيات اخرى تثبته بلحاظ المراتب الأدنى كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف ١٠٦).

وبتعبير آخر إن حقيقة الايمان التي تكون سبب فوز الانسان وسعادته لها ثلاثة ابعاد او انها لا تكتمل الا باجتماع ثلاثة عناصر:

أ- الايمان بالله وبأنبيائه ورسالاته واليوم الآخر والاصياء وسائر العقائد الحقّة، وهذا بُعد اعتقادي قلبي.

ب- تقوى الله والالتزام بما يريد الله تعالى وتجنب ما يسخطه تعالى وهذا بُعد عملي سلوكي.

ت- ان تكون مع الصادقين بالمعنى الذي سنذكره ان شاء الله تعالى وهذا بعد اجتماعي في العلاقة مع القيادة.

٢- ان الأمر بالكون مع الصادقين مطلق ولم يحدد بناحية او مورد معين، هذا له دلالات عديدة على مستوى الالزام والاثبات وعلى مستوى المنع والنفي. اما على مستوى الاثبات فان الأمر بالكون مع الصادقين يعني الاعتقاد بهم والاخذ عنهم واتباعهم والتسليم لهم والسير على نهجهم ويعني ايضا حمل

رسالتهم والتحرك بها في كل اتجاه ونصرتهم ومعونتهم في الشدة والرخاء والعافية والبلاء، ويعني ايضا الرجوع اليهم في كل تفاصيل الحياة من غير فرق بين العقيدة والشريعة او السلوك، ولا بين احكام العبادات والمعاملات وسواء كانت في الاحوال الشخصية او السياسية او الاقتصاد والاجتماع وغيره.

واما على مستوى النفي فان الكون مع الصادقين يعني عدم الانسياق وراء الشهوات والاهواء وعدم اتباع أي داع لم يأمر به الصادقون، ويعني رفض الشعور بالإحباط واليأس التوجه نحو العزلة والانزواء والانسحاب من العمل الرسالي المثمر كرد فعل لحصول بعض الحالات، ويعني الكون مع الصادقين رفض الوقوف على الحياد والكون بمسافة واحدة من الجميع، وهذا كله يحتاج الى جهد وجهاد كبيرين وثبات على الصراط وصبر ومصابرة ومرابطة ولذا سبقه الامر بالتقوى لانها تعين على ذلك كله.

٣- حينما يوصف الخبر بالصدق فهذا يعني مطابقته للواقع، كما لو اخبرت عن زيد انه قائم وهو قائم فعلا فان الخبر صادق، اما وصف الانسان بانه صادق فهذا يعني مطابقة ظاهره لباطنه واقواله لأفعاله وموافقته جميعاً للحق، لاحظ قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١) فكلمتهم حق وصدق لكنهم لم يكونوا صادقين لان باطنهم لم يكن كظاهريهم وفعالهم ليس كقولهم، لذا ثبت الله تعالى صدق الكلمة ووصفهم بالكاذبين، ولو وصفوا بالكاذبين من دون تثبيت هذه الحقيقة لكان وصفهم بالكذب يشمل ما شهدوا به وهو خلاف الواقع.

والمؤمنون ليسوا كلهم صادقين في ايمانهم، ولهم درجات متفاوتة في ذلك

لذا مدح الله تعالى قوما من المؤمنين لانهم صدقوا وثبتوا على الصدق قال تعالى:
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

والمستفاد من القرآن الكريم ان انطباق عنوان الصادقين له درجات متفاوتة بحسب درجة كمال عناصره من الايمان بالله ورسله وكتبه والجهاد في سبيل الله بالأموال والانفس والصبر في المواطن وفعل المعروف وتجنب المنكر ونحو ذلك كقوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر: ٩).

وقال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ووصف مرتبة اعلى من الصادقين بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

هذا ولكن العنوان اذا اطلق فانه ينطبق على المعصومين (عليهم السلام) لانهم من ينطبق عليهم التعريف اعلاه بقول مطلق أي على الدوام من دون استثناء او

اختراق، وتشهد نفس الآية على أن المراد بالصادقين المعصومون (عليه السلام) بدلالة أكثر من قرينة:

أ- لأنها أمرت بالكون معهم مطلقاً ولا يتعلق مثل هذا الأمر إلا بالمعصوم، لأن غير المعصوم معرض للخطأ فكيف يأمرنا الله تعالى بالكون معه مطلقاً.

ب- ان الآية أمرت اولاً بالتقوى ثم بالكون مع الصادقين، فلو كان المراد بالصادقين ما هو اوسع من المعصومين لكان الامر بالكون من الصادقين وليس معهم، او قل ان امر المتقين بان يكونوا مع الصادقين يكشف عن سمو مرتبة الصادقين على المتقين، ولا يصح ذلك الا في المعصومين (عليه السلام).

وقد أذعن جملة من أعلام السنة لهذه الحقيقة لكن بعضهم أولها بما لا وجه^(١) له لذا وردت روايات كثيرة من طرق الفريقين تبين ان المراد بالصادقين هم امير المؤمنين (عليه السلام) وأولاده المعصومون (عليه السلام)، ففي الكافي وبصائر الدرجات للصفار بسندهما عن بريد بن معاوية العجلي قال: (سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: ايانا عنى)^(٢).

وفي الكافي ايضاً بسنده عن ابن ابي نصر عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) قال

(١) قال الفخر الرازي في تفسيره ان المعصوم هو جميع الامة لا انه فرد واحد فتكون الآية دليلاً على حجية اجماع المؤمنين وعدم خطأ مجموع الامة (التفسير الكبير: ٢٢٠/١٦) وردّه واضح لان المقصود من الصادقين لو كان مجموع الامة فان الامة مكونة من الناس المخاطبين بالكون مع الصادقين وستكون النتيجة وحدة التابع والمتبوع. مضافاً الى ما ذكرناه في هذه النقطة من سمو مرتبة الصادقين.

(٢) أصول الكافي - الكليني: ٢٠٨/١ ح ١، - بصائر الدرجات - الصفار: ٥١ ح ١.

سألته عن قول الله عز وجل - قال: (الصادقون هم الأئمة الصديقون بطاعته)^(١) وفي كتاب سليم بن قيس - في حديث المناشدة - قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (فأنشدتكم الله جل اسمه، أتعلمون ان الله انزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فقال سلمان: يا رسول الله: أعمامة هي أم خاصة؟ فقال: أما المؤمنون فعمامة لان جماعة المؤمنين أمروا بذلك، واما الصادقون فخاصة في علي والاولياء من بعده الى يوم القيامة؟ قالوا اللهم نعم)^(٢).

وروى في المناقب عن بعض تفاسير^(٣) العامة بسنده عن ابن عمر قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ قال: أمر الله تعالى الصحابة أن يخافوا الله، ثم قال ﴿وَكَونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يعني مع محمد وأهل بيته.

وعن مصدر آخر لهم في قوله تعالى قال: هو علي بن ابي طالب خاصة وعن مصدر آخر قال (محمد وآله)^(٤).

٤- ان الآية مطلقة من حيث الزمان فهي تأمر المؤمنين في جميع الأزمنة الى نهاية الدنيا أن يكونوا مع الصادقين الذين هم المعصومون (عليهم السلام) وهذا يعني لزوم وجود المعصوم في كل زمان، وهذا دليل على صحة عقيدة الشيعة الامامية في الأئمة الاثني عشر وبقاء قائمهم الى آخر الزمان، وبدون هذه العقيدة سيبقى

(١) أصول الكافي - الكليني: ٢٠٨/١ ح ٢

(٢) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ٢٩٨

(٣) وتوجد مصادر اخرى من كتب العامة في كون المراد من الصادقين خصوص اهل البيت (عليهم السلام) ذكرها في تفسير الفرقان: ٢٢١/١٣.

(٤) راجع مصادرها في تفسير البرهان: ٣٤٥/٤.

الزمان بلا صادق فكيف يمثل المؤمنون لواجب الكون مع الصادقين.
وقد اعترف بهذه الحقيقة بعض أعلام السنة كالفخر الرازي قال في تفسيره
(انه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين ومتى وجب الكون مع الصادقين
فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت) ^(١).

٥- إن ورود الامر بالكون مع الصادقين عقيب الامر بالتقوى التي هي خير
الزاد ليوم المعاد ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧) ولا ينجو
الانسان الا بالتقوى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس ١٠)-
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى • فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَى﴾ (النازعات ٤١-٤٢) فالتعاقب بين هذين الامرين لأجل هداية المؤمنين
والمتقين الى أن طريق التقوى شائك وصعب وكثير المنزقات والابتلاءات
والمصاعب ولا يمكن سلوكه بنجاح الا بالكون مع الصادقين واتباعهم والتمسك
بهم.

كما انه يلفت نظر المتقين الى ان المتوقع منكم كمتقين ان تكونوا مع
الصادقين فلا تقوى من دون الكون معهم، كما ان الكون معهم بالمعنى الدقيق
الذي ذكرناه يكشف عن انك من المتقين.

أغلب الأمت لم تكن من الصادقين:

وبعد ان اتضح هذه الأمور يمكننا القول بأسف ان المخاطبين بالآية لم
يعملوا بها ولم يكونوا مع الصادقين بل اصطف قسم مع اعدائهم وتقاعس قسم

آخر وتركوهم وحدهم منذ رحيل رسول الله (ﷺ)، ونقرأ هذه الحقيقة في دعاء الندبة (لَمْ يُمْتَثَلْ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فِي الْهَادِينَ بَعْدَ الْهَادِينَ، وَالْأُمَّةُ مُصِرَّةٌ عَلَى مَقْتِهِ مُجْتَمِعَةٌ عَلَى قَطِيعَةِ رَحِمِهِ وَأَقْصَاءِ وُلْدِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِمَّنْ وَفَى لِرِعَايَةِ الْحَقِّ فِيهِمْ، فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وَسَبِيَ مَنْ سَبِيَ وَأُقْصِيَ مَنْ أُقْصِيَ) (١).

لذا تكررت شكوى المعصومين (عليهم السلام) من قلة العدد وخذلان الناصر فمن كلمة السيدة الزهراء (عليها السلام) مع أمير المؤمنين (عليه السلام) لما رجعت من المسجد مهضومة مظلومة: (حتى حبسني قبلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة وعدت راغمة، شكواي الى ربي وعدواي الى ربي، اللهم انك أشد منهم قوة وحولا، وأشد بأساً وتنكيلا) (٢).

وهكذا كلمات أمير المؤمنين المملوءة بالألم والاسى كقوله في الخطبة الشقشقية (وَطَفِقْتُ أُرْتَبَى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَدَاءٍ - أَيِ مَقْطُوعَةِ لَعْدَمِ وَجُودِ النَّاصِرِ - أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءٍ - وَهِيَ الظلمة - فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبْرَتْ وَفِي الْعَيْنِ قَدْىٌ وَفِي الْحَلْقِ شَجًّا - وَهُوَ مَا اعْتَرَضَ فِي الْحَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ-) (٣).

وقوله (عليها السلام) متظلما (فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مَعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَظَنَنْتُ - أَيِ بَخَلْتُ - بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَاعْظِيْتُ عَلَى الْقَذَى وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَا، وَصَبْرْتُ عَلَى

(١) مفاتيح الجنان : ٦٠٨.

(٢) الاحتجاج : ١٣٧/١.

(٣) نهج البلاغة: ٤٨ الخطبة ٣.

أخذ الكظم وعلى امرٍ من العلقم وآلم للقلب من وخز الشفار^(١).
ومثلها كلمات الامامين الحسن والحسين والأئمة الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) التي تعبّر عن الوحدة وخذلان الناصر، وفي ذلك روى عنبة قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول: اشكو الى الله وحدتي وتقلقي من اهل المدينة حتى تقدموا وأراكم وأسرُّ بكم، فليت^(٢) هذا الطاغية اذن لي فاتخذت قصرًا فسكنته واسكنتكم معي، واضمن له ان لا يجيء من ناحيتنا مكروه ابدأ^(٣).
فتصوروا الى أي درجة وحدة الامام ووحشته وغرته بين اهل المدينة بحيث ان الامام (عليه السلام) كان ينتظر قدوم وفد من مواليه من الكوفة او خراسان او أي مدينة اخرى ليؤنسوا وحشته ويرفعوا غربته ووحده.

وفي ختام الحديث يمكن تلخيص عدة دروس من الآية :

- ١- لا يكتمل الايمان الا بالتقوى واتباع المعصومين (عليهم السلام).
- ٢- لا حياد ولا وقوف على مسافة واحدة من الجميع بل يجب ان نكون مع الصادقين عقيدة وسلوكا ونصرة، ويلزم من هذا معرفة الصادقين اولاً.
- ٣- ان في الآية دلالة على وجود الامام صاحب العصر والزمان وعصمته.

(١) نهج البلاغة: ٦٨ الخطبة ٢٦، ص ٣٣٦ الخطبة ٢١٧.

(٢) هذا موقف سياسي مهم على القادة الاسلاميين ان يستفيدوا منه لرسم علاقتهم مع السلطات الطاغوتية ، وقد فصلناه في كتاب (فقه المشاركة في السلطة).

(٣) بحار الانوار : ١٨٥/٤٧ ح ٣١ عن رجال الكشي : ٣٦١ رقم ٦٧٧.

ملحق : كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب

ملحق

كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أحاديث كثيرة في فضل أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ومنزلته وخصاله الكريمة، وفي وجوب اتباعه والأخذ منه^(١)، ومن تلك التوجيهات النبوية الشريفة: أنه إذا افترت الأمة واختلفت وتعددت فيها الاصطفافات والتخندقات والتيارات والاتجاهات فكونوا في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بلا نقاش ولا تأمل، ولا تبحثوا عن الدليل والحجة فإن نفس وجود علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) دليل على كونك في الموضع الصحيح الذي فيه رضا الله تعالى ورسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (عليٌّ مع الحق والحق مع علي، يدور معه حيث دار)^(٢)، وعنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (إذا اختلفتم في شيء فكونوا مع علي بن أبي طالب)^(٣). وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مخاطباً عمار بن ياسر (يا عمار تقتلك الفئة الباغية، وانت إذ ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر: إن رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فإنه لن يدلك في ردى ولن يخرج من هدى)^(٤).

(١) راجع موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في عشر مجلدات بإشراف الشيخ الريشهري.

(٢) الفصول المختارة: ١٣٥، ٩٧.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب: ٣٠/٢.

(٤) تاريخ بغداد: ١٨٧/١٣ الرقم ٧١٦٥.

وعنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (يا ابن عباس: سوف يأخذ الناس يميناً وشمالاً، فإذا كان كذلك فاتبع علياً وحزبه فإنه مع الحق والحق معه، ولا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض) (١).

الامام علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مقياس معرفة الحق:

فالنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يحذر الأمة من اتباع الوسائل غير الدقيقة لمعرفة الحق كالانخداع بالعناوين الكبيرة والرموز التي صنعت لها هالة اجتماعية كما حصل في معركة الجمل حين انخدع كثيرون بفلانٍ وفلانٍ وفلانة بحجة قربهم من رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وجاء تعليق أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لايقاظ هؤلاء الغافلين حيث قال له أحدهم: (أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة) فقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (يا حارث انك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه) (٢).

كان أبان بن تغلب من اجلاء أصحاب الأئمة السجاد والباقر والصادق (صلوات الله عليهم أجمعين) وكان الأئمة يعطونه مكانة خاصة، كان الإمام الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يقول له: (يا أبان اجلس في مسجد المدينة وافت الناس، فإنني أحب أن يرى في شيعتي مثلك) (٣)، روى بعضهم قال: (كنا في مجلس أبان بن تغلب فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد كم شهد مع علي بن أبي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) من أصحاب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: فقال له أبان: كأنك تريد أن تعرف فضل علي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بمن تبعه من

(١) كفاية الأثر: ١٨.

(٢) نهج البلاغة: قصار الكلمات رقم: ٢٦٢.

(٣) رجال النجاشي: ١٠.

أصحاب رسول الله (ﷺ) قال: فقال الرجل: هو ذاك، فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلاّ باتباعهم علياً^(١) فنبهه إلى هذا المقياس المقلوب في معرفة الحق ولم يكن مراد السائل لينطلي على مثل أبان فإنّ الحق حق ولا يضره قلة أتباعه، أو كثرة خصومه وعناوينهم الاجتماعية.

وقسم آخر من الناس يجعل بعض الاعتبارات مقياساً لكون الحق معه كجريان الأمور على ما يريد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج: ١٦) أو يجعل الانتصار في المعركة دليلاً على كونه محقاً فإذا خسر الجولة شكك وتردد وتمرد وكان بعض من يُقاتل مع أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفين على هذا النحو، فكان عمار بن ياسر يقاتل وهو يقول: (قاتلت تحت هذه الراية مع رسول الله (ﷺ) وأهل بيته (عليهم السلام) ثلاثاً، وهذه الرابعة، والله لو ضربونا حتى يبلغ بنا السعفات من هجر - في جنوب الجزيرة العربية - لعلمنا أنّنا مع الحق وأنهم على الباطل)^(٢).

فهذا نموذج للراسخين في إيمانهم والواثقين بقيادتهم الذين لا تزلزلهم الأراجيف والارهاصات وقد أثنى عليهم أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد استشهادهم في صفين فيقف على المنبر ويقبض على شيبته الكريمة وهو يبكي ويقول (أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار أين ابن التيهان وأين ذو

(١) معجم رجال الحديث: ١/١٣٣.

(٢) الخصال: باب الخمسة، في بعث النبي (ﷺ) بخمسة أسياف، ح ١٨.

الشهادتين، وأين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وابتعدوا برؤوسهم إلى الفجرة، أوّه على اخواني الذين تلووا القرآن فأحكموه وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة دعوا للجهد فأجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه^(١). وهذا المقياس الصحيح للحق - وهو الكون في صف علي بن أبي طالب (عليه السلام) - جاري في كل زمان إذا تعددت الانشاقات والاصطفافات والمواقف والجهات فإنه إذا كان مخلصاً وطالباً للحقيقة فإنّ الله تعالى سيصره بالصف الذي يكون فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال (عليه السلام) (من كان مقصده الحق أدركه ولو كان كثير اللبس)^(٢).

من هم اتباع الحق:

قال أبان وهو يعرف اتباع الحق في كل جيل الذين يقفون في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) (يا أبا البلاد: تدري ما الشيعة؟ الشيعة الذين اذا اختلف الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذوا بقول علي (عليه السلام)، وإذا اختلف الناس عن علي (عليه السلام) أخذوا بقول جعفر بن محمد)^(٣).

وفي هذا جواب علي من يريد أن يخلط الأوراق ويلبس على الناس ويقول لا فرق بين السنة والشيعة فكلاهما ينتهي سند أحاديثه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والجواب أنّ الفرق في أن تعرف عمّن تأخذ اذا اختلف الناس، فإذا اختلف الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذوا بقول أمير المؤمنين (عليه السلام) وإذا اختلف الناس بعد

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٨٢.

(٢) غرر الحكم/٩٠٢٤.

(٣) رجال النجاشي - النجاشي - ص ١٢

الحسين (عليه السلام) أخذوا بقول السجاد (عليه السلام) وإذا اختلفوا بعد الباقر (عليه السلام) أخذوا بقول الصادق (عليه السلام) وبذلك تُعزل الفرق الكثيرة التي انشقت في كل مفترقات الزمان ومراحل التاريخ.

فلنطبق هذا الشعار (كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)) في كل حياتنا ونجعله البوصلة التي تحدد مساراتنا، وسوف يهدينا الله تعالى إلى الموقف الصحيح، مثلاً عندما أقام السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) صلاة الجمعة وافترق الناس، منهم من التحق به وشهد هذه الشعيرة المباركة واستضاء بنورها، ومنهم من عارضها وخذل عنها ووصفها بما يشينها كالفتنة والبدعة وحينئذ يسأل المتردد نفسه: أترى لو كان علي (عليه السلام) موجوداً فأين يكون صفه لأكون فيه؟ وستجد الجواب حاضراً بلا تردد أنه لا يمكن أن يكون في صف المعادين لإقامة هذه الفريضة المباركة التي وردت مئات الروايات في فضلها ووجوب اقامتها والحضور فيها وبركاتهما على الدين والأمة.

شواهد معاصرة على اتباع الحق:

وأنقل لكم هذه الحادثة، فعندما أقام السيد الشهيد الصدر (قدس سره) صلاة الجمعة وعين المساجد التي تُقام فيها، كان أحدها من المساجد المهمة التي فيها حضور لافت كمّاً وكيفاً وفي منطقة حسّاسة من محافظة مهمة، يروي إمام المسجد الراتب وهو من أسرة دينية معروفة ويتبع المرجعية الأخرى، أن سلطات الأمن علمت بالقرار فأبلغته رفضها لإقامة الجمعة في هذا المكان، فوسّطني لإقناع السيد الشهيد (قدس سره) بتغيير المكان ولم ينجح، وفي صباح يوم الجمعة طلب منه مدير الأمن الحضور في المسجد لإعطاء شرعية لتصرفاتهم وحضر المدير

وضباطه وجلاوزته، وكان الشباب الرساليون والمؤمنون المضحون يتقاطرون على المسجد وبأيديهم المصاحف وسجادات الصلاة ليفرشوها ويتلون القرآن انتظاراً لوقت الصلاة، ويزداد العدد كل ما مضى الوقت ومدير الأمن يتصل بالقيادة ويبلغها بالحاجة الى مزيد من قوات الأمن لأن الموقف سيخرج عن السيطرة وهكذا مر الوقت على هذا الإمام وهو يحدث نفسه: يا لسوء عاقبتني بعد العمر الطويل في إمامة الصلاة والخطابة والعمل الديني أقف في صف الذئاب المفترسة من أزلام صدام في مواجهة هذه الجموع المؤمنة الصالحة، وقد رحم الله تعالى تائب ضميره بهذا المقدار وانفضّ الجمعان بلا مواجهة ونُقلت الصلاة إلى موضع آخر، ومحل الشاهد أنه ليس صعباً أن تعرف الصف الذي فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) لتكون فيه.

والشاهد الآخر عندما قُدّم القانون الجعفري إلى الحكومة لمناقشته وعرضه على البرلمان، حصل اصطفاغان، فريق يسعى لإقامة شريعة الله تعالى في الأرض ويحمي الناس من الوقوع في المحرمات ويدلهم على الهدى والصالح، وفريق رفع شعار اجهاض القانون الجعفري ضمّ دعاة الانحلال الأخلاقي والمعادين للدين مدعومين من قبل قوى الكفر العالمي وهذا ليس غريباً والمواجهة معهم طبيعية، لكن الغريب أن يكون بعض من يسمّى بمراجع دين ومعمّمين ينتمون إلى الحوزة العلمية هم أول من أوقد نار الاعتراض وأججها وشجع اولئك على رفع أصواتهم بالاعتراض، فعلى هؤلاء أن يراجعوا أنفسهم ويمتحنوها بأنّ علي بن أبي طالب (عليه السلام) في أيّ صف؟ أليس في صف قانون ولده جعفر الصادق (عليه السلام) الذين هو قانونه وهل رسالة علي (عليه السلام) غير رسالة الله تعالى ورسالة النبي الكريم

﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ﴾ ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (الحج: ١٨).

وهكذا تستمر المواقف التي تختلف فيها الأمة، فعندما وجهت النساء المؤمنات العفيفات بأن لا يخرجن لزيارة الأربعين من المدن البعيدة كالبصرة والناصرية والعمارة إلى كربلاء مشياً ويقطعن الصحارى والقفار ويقضين أياماً بلا ترتيب للأوضاع التي تؤمن مسيرتهن ويحصل ما يحصل مما لا يرضى به الله ورسوله وأيدها الواعون الغيورون والتزمت بها غالب النساء لأن التوجيه عبر عمّا كان يتلجج في صدور المؤمنين إلا أنهم يتخوفون من اعلانه لاتهمهم بمعادات الشعائر الحسينية، وهنا رفع المتاجرون بالدين عقيرتهم ضد هذا التوجيه ومارسوا أنواع التسقيط والتشويه والافتراء وخلط الأمور لإثارة الجهلة والبسطاء من عوام الناس وتحريضهم على لعن من يريد الاصلاح لثيهم عن عزيمتهم مستخدمين هذا الارهاب الفكري والاجتماعي.

وهنا يأتي دور البوصلة لتوجه المسار الصحيح، فإنّ علياً (عليه السلام) لو كان موجوداً فإنه لا يرسل ابنته العقيلة زينب لتسير وحدها في الصحراء لا يعرف عند من تبيت وماذا يجري لها بل إنّ هؤلاء المعترضين أنفسهم يروون أنه (عليه السلام) كان إذا أرادت العقيلة زينب زيارة جدها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمها الزهراء (عليها السلام) خرج أبوها أمامها وأخواها الحسنان حولها (وبيته (عليه السلام) ملاصق للمسجد ولا يقطعون

مسافة^(١) وأطفأ قناديل المسجد وأخرج من فيه لثلاً يرى أحداً شخصها، فلماذا يقف هؤلاء في غير صف أمير المؤمنين (عليه السلام).

إن من لم يكن في صف علي بن أبي طالب (عليه السلام) فريقان:

أولهما: الواقف على الحياد بمسافة واحدة من الحق والباطل، متظاهراً بالاحتياط والتقديس والحذر من الوقوع في الفتنة ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (التوبة: ٤٦) كالذين لم يبايعوا أمير المؤمنين (عليه السلام) لأغراض شتى مثل سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وسعيد بن مالك وحسان بن ثابت وهؤلاء قال فيهم أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن سعيداً وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق ولم يخذلا الباطل)^(٢).

فقد سولت لهم أنفسهم وغرهم الشيطان بأنهم يحسنون صنعا، حينما يقفون محايدين بين الحق والباطل لكنهم ارتكبوا كبيرتين وتركوا فريضتين عظيمتين: نصرة الحق ومواجهة الباطل، فنصروا الباطل مرتين.

ثانيهما: الصف الذي يقف في مواجهة علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهؤلاء طبع الله على قلوبهم ومنهم من يفخر بذلك ومنهم عبد الله بن الزبير الذي يقول: من مثلي وقد وقفت في الصف بأزاء علي بن أبي طالب^(٣) هذا وهو يعلم منزلة

(١) زينب الكبرى - الشيخ جعفر النقدي: ٢٢

(٢) نهج البلاغة: قصار الكلمات رقم ٢٦٢.

(٣) بحار الأنوار: ١٤٣/٤١ عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، قال: انتبه معاوية يوماً فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره فقال له عبد الله يداعبه: يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت. فقال: لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر، قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في

أمير المؤمنين وقد سمع من أبيه الزبير وخالته عائشة ما لا يحصى في ذلك لكن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: (ما زال الزبير من أهل البيت حتى أدرك فرخه ونهاه عن رأيه)^(١). نسأل الله تعالى أن يجعلنا دائماً في الصف الذي فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) ويدلنا عليه بلطفه وحسن توفيقه كما وعدنا (عليه السلام): (من كان مقصده الحق أدركه ولو كان كثير اللبس).

الصف أزاء علي بن أبي طالب. قال: لا جرم أنه قتلك وأباك بيسرى يديه وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها.

(١) الخصال، أبواب الثلاثة، ح ١٩٩ في بيان ثلاث خصال في السفرجل.

الآية السادسة والعشرون:

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾

شرف الانتماء ومسؤوليته

الآية الكريمة تبين على لسان النبي إبراهيم (عليه السلام) المقياس الحقيقي للانتساب إلى النبي أو الامام أو القائد ورئيس الجماعة بشكل عام وانه يتحقق بالطاعة والاتباع في الأقوال والأفعال وليس بادعاء الانتساب أو اللحمة النسبية، لذلك يرد الله تبارك وتعالى في آية أخرى على اليهود والنصارى الذين ادعوا انهم السائرون على دين إبراهيم (عليه السلام) والحافظون له، وثبت حقيقة الانتساب، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٦٨) بعد أن نفى في الآية السابقة دعواهم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧).

والآية الكريمة تفيد حقيقتين:

فهي من جهة: تمنح الملتزمين بنهج النبي (صلى الله عليه وآله) وآله الكرام (عليهم السلام) وساماً تكريمياً من أعلى الدرجات بأن تجعلهم منهم (صلوات الله عليهم أجمعين) وتدلل على الطريق الذي يوصلك الى أن تكون من أهل البيت (عليهم السلام) وكفى بذلك شرفاً وكرامة، وقد صرح المعصومون (عليهم السلام) لبعض أصحابهم بنيل هذا الوسام مثل سلمان المحمدي (رضوان الله تعالى عليه) حيث قال الإمام أبو جعفر

الباقر (عليه السلام): لا تقولوا سلمان الفارسي، ولكن قولوا سلمان المحمّدي، ذلك رجلٌ منّا أهل البيت^(١) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (وإنما صار سلمان من العلماء لأنه امرؤ منّا أهل البيت فلذلك نسبه إلينا)^(٢).

وروى ربعي بن عبد الله، قال (حدثني غاسل الفضيل بن يسار، قال: اني لأغسل الفضيل بن يسار وأن يده لتسبقني إلى عورته، فخبرت بذلك أبا عبد الله (عليه السلام) فقال لي: رحم الله الفضيل بن يسار، وهو منّا أهل البيت)^(٣).

وروى عمر بن يزيد قال (قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): يا بن يزيد أنت والله منّا أهل البيت، قلت له: جعلت فداك من آل محمد؟ قال: أي والله من أنفسهم، قلت: من أنفسهم؟ قال: أي والله من أنفسهم يا عمر، أما تقرأ كتاب الله عزوجل ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

وروى يونس بن يعقوب قال (كنت بالمدينة فاستقبل جعفر بن محمد (عليه السلام) في بعض أزقتها، قال، فقال: اذهب يا يونس فان بالباب رجلاً منّا أهل البيت. قال: فجئت إلى الباب فإذا عيسى بن عبد الله القمي جالس، قال: فقلت له من أنت؟ فقال له: أنا رجل من أهل قم، قال: فلم يكن بأسرع من أن أقبل أبو عبد الله (عليه السلام)، قال: فدخل على الحمار الدار، ثم التفت إلينا فقال: أدخلنا. ثم قال: يا

(١) اختيار معرفة الرجال للشيخ الطوسي ١٢

(٢) بحار الأنوار: ٤٦٢/٢ ح ٢٥ باب ٢٦

(٣) اختيار معرفة الرجال: ج ٢ ص ٤٧٣

(٤) رجال الكشي: ٦٢٣/٢

يونس بن يعقوب أحسبك أنكرت قولي لك أن عيسى بن عبد الله منا أهل البيت! قال قلت: أي والله جعلت فداك لأن عيسى بن عبد الله رجل من أهل قم، فقال يا يونس عيسى بن عبد الله هو منا حي وهو منا ميت^(١).

وروى يونس مثل هذا القول عن الامام الصادق (عليه السلام) في عيسى بن عبد الله القمي.

وروى الشيخ المفيد في كتاب الاختصاص عن أبي حمزة قال (دخل سعد بن عبد الملك وكان أبو جعفر (عليه السلام) يسميه سعد الخير وهو من ولد عبد العزيز بن مروان على أبي جعفر (عليه السلام) فيينا ينشج كما تنشج النساء قال: فقال له أبو جعفر (عليه السلام): ما يبكيك يا سعد؟ قال وكيف لا أبكي وأنا من الشجرة الملعونة في القرآن، فقال له: لست منهم أنت أموي منا أهل البيت أما سمعت قول الله عز وجل يحكي عن إبراهيم: (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)^(٢).

وترقى هذه المنزلة إلى ما ورد في بكير بن أعين أخو زرارة من (أن أبا عبد الله (عليه السلام) لما بلغه وفاة بكير بن أعين قال: اما والله لقد انزله الله بين رسوله وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما)^(٣).

ومن جهة أخرى: تبين شرط هذا الانتماء، وإن هذه الأوسمة ليست تشرifaً مجرداً من دون استحقاق وتحمل للمسؤولية التي يوجبها الانتماء والانتساب إلى الجهة أية جهة، فلاسلامك حق عليك ولولايتك لأهل البيت (عليه السلام) حقوق

(١) رجال الكشي: ٢٢٤/٢

(٢) الاختصاص - الشيخ المفيد: ٨٥

(٣) رجال الكشي: ٤٥٦/١ رقم الترجمة ٧١

ولارتباطك بمرجعية معينة استحقاقات وكذا لانتسابك لبلد معين كالعراق أو لمدينة معينة كالنجف الأشرف أو لأسرة معينة وهكذا تكون لكل جهة تنتسب إليها مسؤولية الانتماء.

روى في مجمع البيان عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (إن أولى الناس بالأنبياء عملهم بما جاؤوا به) ثم تلا آية آل عمران المتقدمة وقال: (إن ولي محمد من اطاع الله وإن بعدت لحمته وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته)^(١).

وروى في الدر المنثور عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله (يا معشر قريش أن أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا أنتم بسبيل ذلك فانظروا لا يلقاني الناس يحملون الاعمال وتلقوني بالدنيا تحملونها فاصدُّ عنكم بوجهي) ثم تلا الآية^(٢).

وروي عن الامام الصادق (عليه السلام) قوله (من اتقى منكم وأصلح فهو منا أهل البيت، قيل له: منكم يا بن رسول الله؟ قال: نعم، منا، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقول إبراهيم (عليه السلام) ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾^(٣).

اذن فالفرصة مفتوحة أمام الجميع ليكونوا من أهل البيت (عليه السلام) وليس فقط من أصحابهم أو مريديهم وذلك ما نطقت به الآية الشريفة فإنها ظاهرة في كلا

(١) نور الثقلين: ٣٥٣/١ عن المجمع

(٢) الدر المنثور: ٤٣/٢

(٣) دعائم الإسلام: ج ١ ص ٦٢

المعنيين: امتياز المتبع والمطيع للأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) بأن يكون منهم وبنفس الوقت تتضمن معنى اشتراط الاتباع والطاعة.

معيار التفاضل بين الناس هو العمل الصالح:

إن الارتباط النسبي بالنبي والأئمة المعصومين وكذا الانتماء إلى قومية معينة أو جنس أو لغة أو لون خارج عن اختيار الانسان فلا يمكن ان يكون سبباً للتفاضل بين الناس ومثل هذه الدعوات لتفوق بعض البشر على بعض عصبية جاهلية، وإنما المقياس الحقيقي للانتماء هو الطاعة والاتباع، ولذا يؤدّب الله تعالى نساء النبي (ﷺ) أن لا يتخذن هذا العنوان سبباً للتفاخر وإن تميزهنّ الحقيقي بالعمل الصالح ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَمَن يَقُنْث مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ (سورة الأحزاب: مقاطع من الآيات: (٢٩-٣٣)).

وكان الرد من الله تعالى حازماً في ابن النبي نوح لما عصى أباه، قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٦).

صفات الشيعة في روايات اهل البيت (عليهم السلام):

وقد بيّن المعصومون (عليهم السلام) في احاديث مفصلة صفات المنتسب لهذه الجماعة المباركة وحرصوا على بيان مسؤوليات الانتماء لهم (عليهم السلام) وجمع الأصحاب هذه الروايات في كتبهم ومنها (صفات الشيعة) للشيخ الصدوق ومن تلك الروايات ما ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس، قيل هذا جعفري،

فيسرّني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان علي غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر^(١).

وروى زيد الشحام عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (يا زيد خالقوا الناس بأخلاقهم صلّوا في مساجدهم وعودوا مرضاهم واشهدوا جنازتهم - هذا مع العامة من غير الموالين ونحن نرى اليوم من يقاطع المسجد اذا كان إمام الجماعة يقلّد مرجعاً آخر -، وان استطعتم ان تكونوا الأئمة والمؤذنين فافعلوا، فانكم اذا فعلتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفرأ، ما كان أحسن ما يؤدب أصحابه، واذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، فعل الله بجعفر، ما كان اسوأ ما يؤدب أصحابه)^(٢).

وكانوا (عليهم السلام) يحثون اصحابهم والمنتمين اليهم أن يكونوا بمستوى المسؤولية ولا يرى الناس منهم الا خيرا ليكونوا صورة مشرقة عن أئمتهم ومنها وصيتهم العامة (معاشر الشيعة، كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حسناً، احفظوا ألسنتكم وكفّوها عن الفضول وقبيح القول)^(٣).

وفي رواية معتبرة عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (مالكم تسؤون رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال له رجل كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى معصية ساءه ذلك، فلا تسوؤوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسرّوه)^(٤).

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٦٣٦

(٢) وسائل الشيعة: ٤٣٠/٨ كتاب الصلاة، أبواب الصلاة الجماعة، باب ٧٥ ح ١

(٣) امالي الصدوق: ٤٨٤

(٤) الكافي: ١٧١/١ ح ٣

فالانتماء والهوية ليست امراً بيدك فقط حتى تفعل ما تشاء من دون مراعاة لاستحقاقاتها بل لها طرف آخر يطالب بتحمّل مسؤولية هذه الهوية وهذا الانتماء لأن أي شيء حسن أو سيء والعياذ بالله يرجع على من تنتسب إليه. ويُحسن أن نشير باختصار إلى موقف لمن يشعر بمسؤولية الانتماء، فقد حكى ان شخصاً عثر على مال نفيس في السوق فاحتفظ به وراح يسأل عن صاحبه ليعيده إليه فقيل له ان صاحبه يهودي وليس عليك أن ترجعه له وانت احوج إليه، فقال: هل تريدون ان يشعر رسول الله (ﷺ) بالخجل يوم القيامة بسببي؟ قيل وكيف ذلك؟ قال لأن نبي صاحب المال وهو موسى (عليه السلام) سيقول لنبينا محمد (ﷺ) ان رجلاً من امتك أخذ مال رجل من امتي بدون رضاه؟

الآية السابعة والعشرون:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) سورة الفاتحة ﴿١﴾

أمير المؤمنين: (عَلَيْهِ السَّلَام) نقطة الباء في البسملة ومعركة التأويل

وروى الشعراني: عن الإمام علي (عَلَيْهِ السَّلَام) أنه كان يقول: لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيراً من معنى (الباء) ^(١)

وروى القندوزي الحنفي في (ينابيع المودة) ما لفظه: وفي الدر المنظم: أعلم أنّ جميع أسرار الكتب السماوية في القرآن، وجميع ما في القرآن في الفاتحة، وجميع ما في الفاتحة في البسملة، وجميع ما في البسملة في باء البسملة، وجميع ما في باء البسملة في النقطة التي تحت الباء، قال الإمام علي كرم الله وجهه: أنا النقطة التي تحت الباء. ^(٢)

أقول: (في) تدل على الظرفية والاحتواء فالحديث يدل على ان في الفاتحة جميع ما في القرآن وزيادة، وان البسملة فيها جميع ما في الفاتحة وزيادة وهكذا، ولا شك ان مثل هذه الاحاديث لا تدرکه عقولنا القاصرة

واعتبر بعض المفسرين هذا الكلام غير معقول ونوعاً من الغلو ^(٣)

ونقدّم الان وجها لفهم الحديث بعيداً عن التأويلات الفلسفية والعرفانية ننطلق اليه مما ورد في أن امير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) يقاتل على التأويل كما قاتل رسول الله

(١) تفسير البصائر ١ : ٢٤.

(٢) ينابيع المودة: ٦٨/١

(٣) حكي عن تفسير المنار: ٣٥/١

(ﷺ) على التنزيل كما في الحديث الآتي، أي أن رسول الله (ﷺ) قاتل العرب حتى يدعونا للرسالة ويؤمنوا بأصل التوحيد والنبوة وعلى صدق ما جاء به رسول الله (ﷺ) حتى دخلوا الإسلام طوعاً أو كرهاً.

أما بعد وفاته (ﷺ) فقد بدأت معركة التأويل، وهي معركة ضد من أرادوا أن يحرفوا الكلم من بعد مواضعه ويتكلموا في كتاب الله بغير سلطان أتاهم ويغيروا السنن ويظهروا البدع، ويحرموا ما أحل الله ويحلوا ما حرم الله، ويبعدوا من قرب الله ويقربوا من بعد الله، ويولوا أمور الأمة من يتخذ مال الله دولاً وعباده خولاً ويحكم بغير ما أنزل الله تعالى وهم مع كل ذلك يدعون الإسلام وينتسبون إليه.

وهذه المعركة كان يشير إليها رسول الله (ﷺ) في حياته ويعلن أن قائدها سيكون علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وهو حديث رواه العامة والخاصة عن طريق جمع غفير من الصحابة، ففي مستدرک الصحيحين، روى الحاكم بطريقتين عن أبي سعيد قال (كنا مع رسول الله (ﷺ) فانقطعت نعله، فتخلف علي (عليه السلام) يخصفها فمشى قليلاً ثم قال: إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر، قال: أبو بكر: أنا هو؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل يعني علياً (عليه السلام)، فأتيناه فبشرناه فلم يرفع به رأسه كأنه قد كان سمعه من رسول الله (ﷺ) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين^(١).

(١) مستدرک الصحيحين: ١٢٢/٣، كتاب معرفة الصحابة، مناقب علي بن أبي طالب (ع)، وراجع لمعرفة مصادر الحديث في صحاح العامة وكتبهم: فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٤٢٥/٢ - ٤٣١.

وقد نظمها الصحابي الجليل عمار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) في شعره الذي كان يرتجز به في معركة صفين التي استشهد فيها، فكان من رجزه:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله^(١)

هذا الاستحقاق لأمر المؤمنين أعطى تفسيراً لقوله (ﷺ) انه نقطة الباء التي جمعت فيها علوم القرآن ومعارفه وحاصل التفسير أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تكون قابلة للتأويل والتحريف والتلاعب والتزوير وافراغها من معانيها كما عبّر (ﷺ) عن القرآن بأنه (حمّال ذو وجوه)^(٢) الا أن يقوم العالم بالقرآن والعارف بأسراره ومعانيه بإيضاح الحقائق، ووضع النقاط على الحروف كما يقال لأن الحروف تتشابه في الهيئات كالباء والتاء والثاء والياء والنون، وإنما يميز بينها وضع النقطة على الحرف، فكما أن وضع النقطة هو الذي .. يعطي للحرف معناه، كذلك أمير المؤمنين هو الذي يبيّن حقائق التنزيل ويضع الأمور في نصابها ويرجع كل شيء إلى حقيقته وهو معنى التأويل.

ولولا ذلك الدور الذي قام به أمير المؤمنين (ﷺ) لكانت تفاصيل العقائد والأحكام مجملة ومبهمه مما يفسح المجال واسعاً لأن يقوم كل أحد بتأويلها حسب مشتبهاته وأهوائه، وهذا حال من لم يرجع إلى أمير المؤمنين (ﷺ) ليعرف تأويل المتشابهات ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءً

(١) الوافي بالوفيات للصفدي: ٢٣٣/٢٢

(٢) بحار الانوار: ٢٤٥/٢ ح ٥٦

الْفِتْنَةَ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴿آل عمران: ٧﴾.

إن معركة التأويل هي المعركة الأصعب التي تزلّ فيها الأقدام وتضلّ فيها العقول لأن الخصوم يلبسون نفس الثوب أي ثوب الدين ويدعون لأنفسهم نفس الهالة من العناوين والألقاب المقدّسة، وكلُّ يدعي وصلاً بصاحب الرسالة والمشروع، ويضفي على حركته المشروعية ويستدل على أحقيته من نفس المصادر، فهناك تختلط الأوراق وتعصف الفتن وتكثر الشبهات.

وهذا الذي حصل بعد وفاة رسول الله (ﷺ) مباشرة حينما انقلبوا على الأعقاب وكان أئمن قربان يقدّم في تلك المعركة هي فاطمة الزهراء (عليها السلام)، وعندما تولّى أمير المؤمنين (عليه السلام) الخلافة فنكث البيعة قوم لهم عناوين كبيرة وقربو الصلة برسول الله (ﷺ)، ثم قسط آخرون ومرق فريق ثالث ووقف على الحياد فريق رابع، لكن الصفوة الذين وعوا رسالة الإسلام واتبعوا تعاليم النبي (ﷺ) حقيقة كانوا ثابتين على الحق ولهم رؤية واضحة كعمار بن ياسر الذي كان يقاتل في صفين ويقول (والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل) (١).

هذه المعركة التي مزقت بأحزانها وآلامها قلب أمير المؤمنين (عليه السلام) وملاّته قيحاً وجعلته يتمنى الموت ويجده حرياً وجديراً به. (٢).

(١) الاستيعاب لابن عبد البر: ٤٢٣/٢ ترجمة عمار بن ياسر.

(٢) الكافي: ٤/٥ ح ٦، نهج البلاغة: ٦٧/١

إن معركة التأويل ليست مختصة بزمان أمير المؤمنين (عليه السلام)، بل هي مفتوحة في كل زمان ومكان، روي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال (قال رسول الله ﷺ): يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير^(١) خبث الحديد^(٢).

وليس هذا فحسب بل انها تتعقد أكثر وتضيق حلقة البلاء وتشتد، فبعد أن كانت بين أئمة أهل البيت (عليهم السلام) واتباعهم من جهة وبين الحكام المنحرفين والسائرين في ركابهم واتباعهم من العامة من جهة أخرى، تطوّرت لتكون داخل مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بين من واصلوا إتباع الأئمة (عليهم السلام) الاثني عشر واحداً بعد واحد وهم الإمامية وبين من انشق عنهم ليؤسس فرقاً عديدة، ثم ضاق البلاء واشتد الامتحان أكثر في الدائرة الأخيرة بين مستحق نيابة المعصوم (عليه السلام) وبين من يتمصصها ويدعيها بغير حق، وفي كل دائرة كان يفشل جمع كبير ويسقط في الامتحان وهذا مصداق حديث الإمام الباقر (عليه السلام) هيئات هيئات، لا يكون فرجنا حتى تغربلوا ثم تغربلوا ثم تغربلوا، يقولها ثلاثاً حتى يذهب الله تعالى الكدر ويبقى الصفو^(٣).

(١) وهو الزق الذي ينفخ فيه الحداد.

(٢) سفينة البحار ٢٠٤/١.

(٣) كتاب الغيبة للشيخ الطوسي (قده): ٢٠٦.

وحديث الإمام الكاظم (عليه السلام) لإبراهيم بن هلال (أما والله يا أبا إسحاق، ما يكون ذلك - أي الفرج بظهور الإمام (عليه السلام) - حتى تُمَيِّزُوا وتُمَحَّصُوا، وحتى لا يبقى منكم إلا الأقل) (١).

وظاهر الرواية أن الخطاب موجّه فيها إلى الشيعة.

ولأهمية هذه المعركة وخطورة آثارها وتداعياتها على الدين وعلى المجتمع فقد ورد التحذير الشديد من التقصير فيها، في كتاب المحاسن للبرقي بسنده عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) (قال: قال (عليه السلام) إن العالم الكاتم علمه يبعث أنتن أهل القيامة ريحاً تلعنه كل دابة حتى دواب الأرض الصغار) (٢). وفيه روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (إذا ظهرت البدعة في أمتي فيظهر العالم علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله) (٣).

وفي التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إذا كنتم العالم العلم أهله، وزهد الجاهل في تعلم ما لا بد منه، وبخل الغني بمعروفه، وباع الفقير دينه بدنيا غيره جلّ البلاء وعظم العقاب) (٤) وهذا الحديث يلخص لنا باختصار أسباب ما نحن فيه من البلاء والمحنة.

إن سلاح هذه المعركة هي المعرفة بالله تبارك وتعالى وطاعة رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) وولاية أهل البيت (عليهم السلام) وإتباع المراجع العالمين المخلصين والتفقه في

(١) كتاب الغيبة للنعماني: ٢٠٨، باب ١٢، ح ١٤.

(٢) المحاسن: ٢٣١ باب ١٧ ح ١٧٦، ١٧٧.

(٣) الكافي: ١ / ٥٤ / ٢.

(٤) سفينة البحار الشيخ علي النمازي: ٦٤/٩

الدين والبصيرة في الأمور، والحكمة في التصرف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان الحقائق وتجليات المواقف، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإصلاح المناهج والسلوكيات المنحرفة.

فهي إذن ليست وظيفة مراجع الدين والعلماء والحوزة العلمية فقط، وإنما يقع على كل فرد في المجتمع جزء من المسؤولية بحسب موقعه ومؤهلاته وما يتوفر لديه من أدوات المواجهة التي ذكرناها كما يظهر من رواية تفسير العسكري (عليه السلام) المتقدمة، فبعضهم بعلمه وآخر بماله وثالث بنفوذه ووجهته، والجميع مطالبون بمشاركتهم في كل عمل وحركة لله تعالى فيها رضا وللأمة فيها صلاح، والله ولي التوفيق.

الآية الثامنة العشرون:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾

المستضعفون وخلافة الأرض

أنتم المستضعفون بعدي:

لما عقد المنقلبون على الاعقاب المجتمعون في سقيفة بني ساعدة والنبى (ﷺ) مسجى لم يدفن بعد عزمهم على نبذ كتاب الله تعالى وراء ظهورهم ومخالفة وصية رسول الله (ﷺ) في الخليفة من بعده وإقصاء أمير المؤمنين (عليه السلام) عن مقامه، وواجهوا النبى (ﷺ) بذلك الكلام القاسى الذى فيه إعلان الحرب على الله تعالى ورسوله (ﷺ) في رزية يوم الخميس عندما أراد أن يؤكد الوصية ويكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، وقال قائلهم (إن الرجل ليهجر)، جمع النبى (ﷺ) أهل بيته خاصة ونظر اليهم وبكى وقال لهم (أنتم المستضعفون بعدي)^(١).

الأحداث المحزنة:

وظاهر الحديث وبقرينة الظروف التى صدر فيها أنه إخبار بأمرٍ محزن ومؤلم بأن زعماء الانقلاب سيظلمونهم ويعتدون عليهم بألوان الإيذاء، ولا يتورعون عن قتلهم وفعل اي شيء يتطلبه مشروعهم، وفي الحديث إشارة إلى أن فعل القوم بأهل بيت النبى (ﷺ) سيشابه فعل فرعون ببني إسرائيل حينما

(١) تفصيل الواقعة في بحار الأنوار: ٤٦٩/٢٢ عن كتاب (إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٤٠-١٤٣.

والإرشاد: ٩٦-١٠٠. وأورد الحديث الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا: ٧٢/٢ باب ٣١ ح ٣٠٣.

استضعفهم كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤) وهكذا فعل القوم بآل بيت رسول الله (ﷺ) فقد كان شعارهم الذي صرّحوا به في يوم عاشوراء بعد أن كان مخفياً (لا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية)^(١).

روى في تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لقي المنهال بن عمرو علي بن الحسين (عليهما السلام) فقال له: كيف أصبحت يا ابن رسول الله، فقال: ويحك أما آن لك إن تعلم كيف أصبحت، أصبحنا في قومنا مثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا)^(٢).

واستشهد أمير المؤمنين (عليه السلام) بقول هارون أخي موسى (عليهما السلام) ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ (الأعراف: ١٥٠) عندما أجبروه على بيعة أبي بكر فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا إذاً والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك، قال: إذاً تقتلون عبد الله وأخا رسوله فالتفت إلى قبر النبي (ﷺ) وخاطبه بقول هارون لأخيه موسى في الآية الشريفة^(٣).

الأمل بوراثمة المستضعفين:

ولما كانت الآيات القرآنية لا تختص بزمان دون زمان وإنما تعالج حالات

(١) أضواء على ثورة الحسين (عليه السلام) - السيد الصدر: ١٦٧، نقله عن مقتل الخوارزمي: ٣٨/٢

(٢) تفسير القمي: ١١٠/٢.

(٣) الدرر السنية: الفصل الثاني عشر.

وظواهر وتبين سنناً قابلة للتكرار في كل زمان إذا توفرت أسبابها وظروفها، فإن الآية التي تليها وهي قوله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٥-٦) تعطي للحديث معنى آخر ملؤه التفاؤل والأمل وفيه وعد بالنصر والتمكين في الأرض ووراثةها ومن عليها واستعادة الحق لأهله وجعل الأئمة والقادة منهم لأن الإرادة الإلهية تعلقت بذلك (ونريد) فلا تتخلف ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (الروم: ٦)، فوصف النبي (ﷺ) أهل بيته بالمستضعفين فيه إشارة الى انطباق الآية عليهم (عليه) ولعلمهم مقصودون أكثر من موسى وهارون (عليهما) بالوعد الإلهي لورود كلمة (منهم) فيها وليس (منه) أو (منهما) فيما لو كان المقصود موسى (عليه) أو هو وأخاه هارون، بل أن لفظ الحديث يفيد حصر الوصف بهم (عليه) كما لا يخفى على المتأمل في الحديث، ويجعلهم أيضاً المقصودين بالآية الشريفة.

هذه سنة الهية ثابتة في عباده المستضعفين واعدائه المستكبرين قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

وكان الأئمة (عليه) يصرِّحون بهذا المعنى في عدة روايات ليطمئنا شيعتهم ويزرعوا الأمل فيهم ويدفعوهم الى العمل المثمر وليردعوا أعداءهم عن الظلم، ففي معاني الأخبار للصدوق بسنده عن المفضل قال سمعت أبا عبد

الله (ﷺ) يقول (إن رسول الله (ﷺ) نظر إلى علي والحسن والحسين (عليهم السلام) فبكى، وقال: أنتم المستضعفون بعدي^(١)) قال المفضل فقلت له: وما معنى ذلك يا ابن رسول الله قال معناه: أنكم الأئمة بعدي إن الله عز وجل يقول ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة^(٢).

وفي مجمع البيان.. صحت الرواية عن أمير المؤمنين علي (ﷺ) أنه قال (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها - أي امتناعها - عطف الضروس^(٣) على ولدها، ثم تلى الآية.

وفي كتاب الغيبة للطوسي عن أمير المؤمنين (ﷺ) في تفسير الآية قال (هم آل محمد يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويذل عدوهم)^(٤).

والآية جارية بعد الأئمة (عليهم السلام) في شيعتهم، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (من أراد أن يسأل عن أمرنا وأمر القوم - أي خصومهم - فإننا وأشياعنا يوم خلق الله السماوات والأرض على سنة موسى وأشياعه، وإن عدونا وأشياعه يوم خلق الله السماوات والأرض على سنة فرعون وأشياعه فنزلت فينا هذه

(١) بحار الأنوار: ٤٦٩/٢٢ عن كتاب (إعلام الوري بأعلام الهدى: ١٤٠-١٤٣. والإرشاد: ٩٦-١٠٠.

وأورد الحديث الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا: ٧٢/٢ باب ٣١ ح ٣٠٣.

(٢) معاني الأخبار: ٧٩ باب ٣١ ح ١.

(٣) وهي الناقة سيئة الخلق تعض حالبها فإذا كانت كذلك حامت عن ولدها، وقيل الضروس الناقة يموت ولدها أو يذبح فيحشى جلده فتدنو منه وتعطف عليه.

(٤) نور الثقلين: ١١٠/٤.

الآيات) (١).

وقال سيد العابدين علي بن الحسين (عليه السلام): (والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، ان الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وان عدونا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه) (٢).

فالخصم قد تكون له جولة يغلب فيها وتكون بيده السلطة ويحكم قبضته على أولياء الله تعالى، ويستضعفهم وقد تطول مدة فرعنته ولكن الدولة والنصر والغلبة يكون في النهاية لأهل الحق الذين استضعفوا ويذهب ما سواه جفاءً كالزبد.

لماذا سموا بالمستضعفين؟

وإنما سموا مستضعفين لأن أعدائهم يتوهمون فيهم الضعف بعد أن يسلبوهم كل أسباب القوة الظاهرية من السلطة والمال والنفوذ ويحاصروهم ويطوقوهم فيستكبرون عليهم ويظلمونهم، وهم ليسوا ضعفاء في ذاتهم بل انهم يملكون أسباب القوة، لكن لهم دين وورع وأخلاق وخوف الله تعالى يجعلهم يقدمون المصالح العليا للدين والمجتمع على المصالح الشخصية، ويمنعهم عن اتباع أساليب المكر والخداع لتحقيق مآربهم، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفةً فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعةٍ تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع

(١) بحار الانوار: ١٧٠/٢٤ ح ٨

(٢) مجمع البيان: ٣٧٥/٤

أذى^(١).

وعنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال في الثناء على أحد أصحابه المخلصين (كان لي فيما مضى أخ في الله وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإن جاء الجدّ فهو ليث غاب، وصلّ واد)^(٢).

ما كان لهم الخيرة:

لقد أرادت السيدة الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) بمواقفها الرسالية أن تهدي الامة الى المنهج الذي يوصلهم الى نيل هذا المنّ الإلهي ليتخذ منهم قادة العالم ويمكنهم في الأرض ويجعلهم الوارثين باتباعهم علياً والأئمة (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) من بعده والسير على هداهم، قالت (سلام الله عليها) في بعض كلماتها (أما والله لو تركوا الحق على أهله واتبعوا عترة نبيّه لما اختلف في الله اثنان ولورثها سلف عن سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التاسع من ولد الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، ولكن قدموا من أخره الله، وأخروا من قدمه الله، حتى إذا الحدوا المبعوث وأودعوه الجذث المجدوث إختاروا بشهوتهم وعملوا بآرائهم، تباً لهم أولم يسمعوا الله يقول ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: ٦٨) بل سمعوا ولكنهم كما قال الله سبحانه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦) هيهات بسطوا في الدنيا آمالهم، ونسوا آجالهم فتعسأ لهم وأضل أعمالهم، أعود بك يارب من الحور بعد

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢٨٩.

الكور^(١).

البركة في التوحد خلف القيادة الصالحة:

فالصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) تدلّ الأمة على ان وراثتهم الارض وتمكينهم فيها حتى تكون يدهم العليا وغيرها من البركات تتحقق بوحدتهم خلف قيادتهم الحقّة وطاعتهم لها والتجرد عن الأهواء والتعصبات والانفعالات والتحزّبات والانانيات، وبذلك يحبطون خطط المستكبرين في استضعاف الناس من خلال تمزيق وحدتهم وجعلهم جماعات وأحزاباً ويضرب بعضهم بعضاً، قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ (القصص: ٤) اي فرقاً مختلفة فيفقدون قوتهم في صراعاتهم الداخلية ويسهل استضعافهم لانهم لم يقيموا الدين في حياتهم وتخاذلوا على تطبيقه وتركوا فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ (الروم: ٣٢) ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ٦٥) .

حركة الأمة نحو وراثتها الأرض:

وتبين السيدة الزهراء (عليها السلام)، ان حركة الامة نحو وراثتها الارض والتمكين فيها لا بد ان يقف على راسها القائد الجامع للشروط قالت (عليها السلام) في خطبتها على نساء المهاجرين والأنصار وهي تذكر بركات اتباعهم أمير المؤمنين (عليه السلام) (ولأوردتهم منهلاً - وهو محل ورود الماء - نيمراً - الماء العذب السائغ النامي

(١) موسوعة المصطفى والعتره للشاكري: ٣٦٣/٤ عن عوالم المعارف: ٢٢٨/١١، الجذث: القبر، والمجدوث: المحفور، والخور بعد الكور أي التقصان بعد الزيادة.

للجسد - صافياً رويًا - كثير - فضفاضاً - واسعاً - تطفح ضفتاه، ولا يترنق - لا يتكدر - جانباه، ولأصدرهم بطاناً - أي أرجعهم مرتوين مملوئين - ونصح لهم سرّاً وإعلاناً ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف ﴿٣٦﴾) ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (الزمر: ﴿٥٥﴾) (١).

للمتمكين في الأرض درجات:

ولا بد ان نعلم ان التمكين في الارض ووراثةها له درجات متفاوتة لا يقتصر على تسلم السلطة والحكم فهذه وسيلة لا غاية وان التمكين الحقيقي هو ظهور وانتشار مشروعهم الالهي واقتناع الناس به فهذا هو المهم لان غرض الرسالات السماوية اصلاح الناس وهدايتهم وارشادهم الى السعادة والفلاح قال تعالى ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ﴿٥٥﴾).

في تفسير العياشي عن أبي الصباح الكناني قال: (نظر أبو جعفر الى أبي عبد الله (عليه السلام) فقال: هذا والله من الذين قال الله ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ فالامام الصادق (عليه السلام)

كان من اهل هذه الاية ولم يكن جزءا من السلطة لكنه (ﷺ) استطاع بحكمته وتسديد الله تعالى له بسط مشروعه المبارك.

التركيز نحو السنن الإلهية بشروطها:

هذا ولكن علينا أن نأخذ قضية تمكين المستضعفين من أهل الحق كسائر القضايا بحدودها وشروطها ونضعها في موضعها الصحيح من منظومة المعارف والقوانين الإسلامية والسنن الإلهية لأنها من مقتضيات العدل والرحمة الآلهية، أما مجرد تعرضهم للاستضعاف وألوان العذاب لا يجعل صاحبها موعوداً بالنصر والتمكين.

فقد وصفت مجاميع اخرى بالاستضعاف لكنها أُنذرت وحُدِّرت لتقصيرهم وتكاسلهم وظلمهم أنفسهم ولأنهم رضوا بحياة الخنوع والذل والاستضعاف والاستكانة، وربما داهنوا اهل الباطل ومضوا معه، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧).

وَوَبَّخَ مُسْتَضْعَفُونَ آخَرُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَاصِرِينَ وَلَمْ يَبْحَثُوا عَنْ طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْفَقْهِ فِي الدِّينِ وَالْقِيَادَةِ الْحَقَّةِ، قَالَ تَعَالَى ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا﴾ (النساء: ٩٨-٩٩).

خصائص المستضعفين:

أما الذين وُعدوا بالنصر والتمكين ووراثه الأرض فلهم خصائص وخصال توفرت فيهم لأن الظلم والعذاب والأضطهاد الذي تعرضوا له لم يدفعهم الى التنازل عن مبادئهم وأخلاقهم والتزامهم بالحق، بل حافظوا على وجودهم وعقيدتهم وأخلاقهم والالتزام باتباع قيادتهم وما زادهم الاستضعاف الا هدى وصلاً ونصلاً.

وقد وردت أوصاف الذين يُمكنون في الأرض في عدة آيات منها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١)، بعد قوله تعالى في وعدهم بالنصر ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩).

فتمكينهم في الأرض تكون له بركات وآثار تكشف عن صدق نياتهم وإخلاصهم في أهدافهم وثباتهم على الاستقامة التي أمرهم الله تعالى بها وعدم انخداعهم بالدنيا البراقة التي تتزين لهم إذا مُكِّن لهم في الأرض وهذه الخصائص هي:

١- ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فهم لا يكتفون بأداء الصلوات المفروضة عليهم كتكليف شخصي، وإنما يبذلون جهدهم لحث الناس جميعاً على الالتزام بها والمواظبة عليها وجعل الصلاة وجوداً اجتماعياً مؤثراً في حياة الناس ورادعاً لهم عن الفحشاء والمنكر ويشعر الجميع بمسؤوليتهم عن إقامته والمحافظة عليه، وأوضح مصداق لهذا الوجود صلاة الجمعة التي لا تؤدى إلا جماعة وبحضور أمة

كبيرة من الناس مما يجعل لها كيانياً مؤثراً في حياتهم، وهذا ما جرّبه المجتمع العراقي عندما أقيمت فيه صلاة الجمعة المباركة.

٢- ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ بأن أخرجوا ما في ذممهم من حقوق شرعية وأقنعوا الآخرين بفعل ذلك وحثّوهم عليه وساعدوهم في إيصال هذه الأموال إلى مستحقيها وأنشئوا بها المشاريع الاقتصادية التي تؤدي إلى رفاه الناس وتوفير فرص العمل المناسبة والحياة الكريمة لهم.

٣- ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فلم يتركوا أهل المنكر يفعلون ما يشاؤون بل وعظوهم وزجروهم واتخذوا الإجراءات الكفيلة بردهم حتى لو اقتضى الأمر معاقبتهم، ولم يجاملوا أو يداهنوا كما يفعل الكثير من المتصدين اليوم تحت عناوين مخادعة كالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني وفصل الدين عن الدولة والحداثة والعصرنة والتقدم ونحوها من الخدع والأباطيل.

وأمرُوا بالمعروف وهو كل أمر مستحسن شرعاً وعقلاً وأقره العرف، ونشروه بين الناس وعرفوهم به وأيقظوهم من غفلتهم وأرشدوهم إلى ما يصلح دنياهم وآخرتهم وعلموهم أحكام الدين وفضائل أهل البيت (عليه السلام) ومناقبهم وسيرتهم العطرة، واقنعوهم باتباع القيادة الحقّة.

هؤلاء هم من ينصرهم الله تعالى ويعزّهم ويؤيدهم ويمكن لهم في الأرض.

كالتّي نقضت غزلها من بعد قوّة:

إن كثيراً ممن مكنهم الله تعالى ليلتليهم وينظر في سيرتهم تنكروا لتلك

الشروط والصفات المطلوبة فانحرفوا وأفسدوا، فأوعدهم الله بعذابه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ (محمد: ٢٢-٢٣).

كالذي نشهده اليوم من تخلي الكثيرين ممن وصل إلى السلطة عن أهدافهم وشعاراتهم والخصائص التي أشرنا إليها، حتى آل الأمر إلى هذا الواقع التعيس الذي يعاني منه الكثيرون، وهذا كفر عظيم بالنعمة.

لكن بوادر النهضة والانبعاث تفجرت من جديد هذه الايام وكانت الهجمة الوحشية لخوارج العصر ومن يقف وراءهم الضارة النافعة التي وحدت الامة وبرزت مكامن قوتها فتحققت الانتصارات التي اذهلت القريب والبعيد.

ونأمل ان تكون هذه النهضة خطوة حقيقية على طريق اقامة دولة الحق

والعدل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١).

الآية التاسعة والعشرون:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾

الأنس بالإمام الحسين (عليه السلام) يشغل الذين اتقوا عن دخول الجنة

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٢).

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف أحوال هؤلاء عندما قرأ الآية: (قد أمن العذاب، وانقطع العتاب. وزحزحوا عن النار، واطمأنت بهم الدار، ورضوا المشوى والقرار. الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية. وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، تخشعاً واستغفاراً. وكان نهارهم ليلاً، توحشاً وانقطاعاً. فجعل الله لهم الجنة مآباً، والجزاء ثواباً. وكانوا أحق بها وأهلها. في ملك دائم، ونعيم قائم)^(١).

معنى كلمة (سيق):

(سَيَّقَ) فعل مبني للمجهول من (ساق) ولم يذكر السائق فلعله من الملائكة كما في بعض الروايات الآتية أو غيرهم، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: ٢١)، وفي المفردات ((سوق الإبل جلبها وطردها يقال: سقته فانساق)) ومنه (لا أستطيع أن أسوق إلى نفسي خير ما أرجو) أي أجلب، وسمي مهر المرأة سيقاً لأن الأصل فيه كان من الإبل والغنم يسوقها الرجل إلى المرأة،

(١) نهج البلاغة: ٢ / ١٣٢، شرح محمد عبده.

وعُبر عن النزاع الأخير للإنسان في حال الاحتضار ((السوق)) لأن روحه تُساق لتخرج من البدن، وفي قول أمير المؤمنين (عليه السلام) لعثمان: (فلا تكونن لمروان سبيقة يسوقك حيث شاء) والسبيقة الناقة التي ساقها العدو^(١).

معنى كلمة (الزمر):

والزمر جمع (زمرة) وهي الجماعة فيساقون على شكل جماعات، ربما لأن طاعاتهم كانت جماعية كالحج وصلاة الجمعة والجماعة وزيارة المعصومين (عليهم السلام) والأعمال الخيرية، كما أن الكافرين كانت معاصيهم جماعية في حفلات المجون والمظاهرات ضد الحق وأهله والتجمعات لنصرة الباطل والطواغيت فسيقوا زمراً أيضاً.

وإن سوق المتقين زمراً ليأنس بعضهم ببعض ويعوضهم عن الوحشة والخذلان الذي لاقوه في الدنيا بحيث أصبحوا معزولين عن أغلبية المجتمع من أهل الدنيا، بعكس زمر الكافرين وجماعتهم فهي تزيدهم وحشة بعضهم من بعض لأنهم كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧)، لأنهم يذكرونهم بصحبتهم السيئة وأفعالهم المشينة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠).

ولعل جمع (الزمر) لأن المتقين على درجات متفاوتة فتساق كل زمرة بحسب استحقاقها ولذا كان للجنة أبواب بحسب ما يناسب هذه الدرجات، كما أن أهل

(١) مجمع البحرين: ٥-٦ / ١١٨، مادة (سوق).

النار يساقون جماعات بحسب استحقاقهم فقالت فيهم الآية السابقة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ لأنهم على دركات متفاوتة ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٤)، وللجنة ثمانية أبواب روى أنس بن مالك عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: (إن للجنة ثمانية أبواب، وللنار سبعة أبواب)^(١)، وروي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبیون والصدیقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون. وخمسة أبواب يدخل منها شیعتنا ومُحبُّونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين، مِمَّنْ شهد أن لا إله إلا الله، ولم يكن في قلبه مقدار ذرَّة من بغضنا أهل البيت)^(٢)، وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (أحسنوا الظن بالله تعالى واعلموا أن للجنة ثمانية أبواب عرض كل باب منها مسيرة أربعين سنة)^(٣).

ولا يخفى ما في التعبير بالزمر من إيحاء إلى تأثير الانتماء إلى الجماعة في سلوك الفرد وفي استحقاقه، حتى أنه يُحشر إلى الجنة أو النار بلحاظ انتمائه، وقد ورد التأكيد في الروايات على أن معرفة الشخص تتم من خلال معرفة الجماعة التي ينتمي إليها فإن كانوا من أهل الصلاح كان منهم ظاهراً وإن كان من أهل الضلال كان منهم كذلك، ففي وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن (عليه السلام): (قارن أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبين عنهم)^(٤)، ومما روي عن نبي الله

(١) وسائل الشيعة: ٣/ ٢٤٦، أبواب الدفن وما يناسبه، باب ٧٢، ح ١١. عن أمالي الصدوق: ١٢٣.

(٢) الخصال: ٤٠٦.

(٣) بحار الأنوار: ٨/ ١٣١، عن كتاب الخصال: ٣٩ / ٢.

(٤) نهج البلاغة: ٣/ ٥٢، بشرح الشيخ محمد عبده.

سليمان (عليه السلام) قوله: (لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا إلى من يصاحب فإنما يُعرف الرجل بأشكال أقرانه ويُنسب إلى أصحابه وأخذانه)^(١).

والملفت أن زمر النار قال تعالى فيهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بينما قال في أهل الجنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي وقد فتحت ولعل الاختلاف يُشعر بأن أبواب النار تكون مغلقة وتفتح عند وصول مستحقيها إليها، كأبواب السجون المغلقة على أهلها وتفتح عندما يصل محكوم بالسجن إلى الباب، أما الجنة فأبوابها مفتوحة قبل وصولهم إليها لأن الواو حالية أي أن المتقين جاؤوها حال كونها مفتوحة لأنها تكون مهيئة لاستقبالهم بالزينة والتكريم.

ولم تذكر الآية خبر ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا﴾ لأن الإبهام يكون أدعى للرغبة في ما فيها والتطلع إليها ولأن الكلمات لا تسع وصف الخبر لان فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تفسير سوق المتقين الى الجنة:

ويثار هنا سؤال: أن السوق اذا كان يتضمن الدفع قسراً فهو بالنسبة لأهل النار معلوم لأنهم يرغمون على دخولها ويُدفعون إليها دفعاً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (الطور: ١٣) وقال تعالى: ﴿وَنَسُوقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم: ٨٦)، لكن سَوَقَ الذين اتقوا غير واضح لأن المفروض أنهم يسرعون إليها مبادرين لأنها غاية مناهم وقد تحققت.

(١) بحار الأنوار: ٧١ / ١٨٨، عن كنز الفوائد لأبي الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ):

وبتعبير آخر قاله بعض المفسرين: ((استعمال لفظ (سيق) أثار التساؤل، كما لفت أنظار الكثير من المفسرين لأن هذا التعبير يستخدم في موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أي اشتياق ورغبة في تنفيذه، ولذلك فإن هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل جهنم، ولكن لم استعملت بشأن أهل الجنة الذين يتوجهون إلى الجنة بتلهف واشتياق))^(١).

ويمكن أن نذكر هنا عدة أجوبة: -

١- أن نسلّم بالإشكال أي بهذا المعنى للسوق فيكون الجواب بأن اللفظ استعمل من باب المشاكلة وهو من أساليب البديع المعروفة في الأدب العربي ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤) والمقابلة بالمثل واستنقاذ الحق ليس عدواناً لكن أحد وجوه استعمال اللفظ أنه استعمل من باب المشاكلة، وتوجد وجوه أخرى ذكرناها في قبس آخر.

٢- إن نفس مفردة (السوق) لا تتضمن معنى التعنيف والزجر والإهانة، ولعل صاحب المفردات شرحها بلحاظ سوق الإبل، وإن جهود أهل اللغة مبنية على استقرار الاستعمالات وهو قد يكون قاصراً عن بيان المعنى الحقيقي وإنما ينقلون المعنى المستعمل فيه وهو أعم كقوله في مادة حشر: ((إخراج الجماعة من مقرهم وإزعاجهم عنها إلى الحرب وغيرها))^(٢) وهو لا يلائم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ

(١) الأمثل في تفسير القرآن للشيخ مكارم الشيرازي: ٥٧٩ / ١١.

(٢) مفردات غريب القرآن - الأصفهاني: ١١٩.

الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَاءً ﴿٨٥﴾ (مريم: ٨٥)، لذا عرّف ابن فارس في معجم مقاييس اللغة السوق بأنه ((حدو الشيء))^(١) من دون أن يتضمن معنى الزجر أو التعنيف، وعرّفه الشيخ الطبرسي في مجمع البيان بأنه ((الحث على السير))^(٢)، وقال بعض المحققين: ((حث على سير من خلف في ظاهر أو معنى فالسوق في الظاهر كما في ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ (فاطر: ٦) والسوق المعنوي كما في ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٣٠) والسوق في ما وراء المادة، كما في ﴿وَسَيْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧١) ﴿وَسَيْقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧٢)، فكما أن السحاب يساق إلى بلد ميت لحفظ النظم وتتميم اللطف والفضل، كذلك يساق الكافر إلى جهنم، ويساق المؤمن إلى الجنة، حفظاً للنظم وإجراءً للعدل وإعطاءً لما تقتضيه الطباع، وتطلبه النفوس من لوازم الضلال والهداية ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣١) ((٣)).

وعلى هذا فيمكن استعمال لفظ السوق في المحبوب والمكروه ويُعرف ذلك من القرائن أو من الغرض المقصود للسوق كلفظ البشري الذي يفهم منه الأمور المفرحة لكنه يستعمل أيضاً في الأمور السيئة ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٦١)، فقد يكون السوق للتكريم والتبجيل كمن يلتمس ضيفاً على الباب لدخول داره فيأخذ بكتفيه أو بيديه ويدخله الدار فهذا سوق للتكريم، وهو ما

(١) معجم مقاييس اللغة - ابن فارس: ١١٧/٣

(٢) مجمع البيان للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي: ٢٢١/٨

(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للعلامة حسن المصطفوي: ٥/٣٣٠

يقوم به بكل إخلاص وسرور أصحاب المواكب الحسينية في أيام زيارة الأربعين فيعزمون على المشاة أن يستريحوا في مواكبهم ويتناولوا من طعامهم وشرابهم. فاشتياق المتقين إلى الجنة مهما كان عظيماً فإن الجنة وملائكتها وحورها مشتاقون إليهم أكثر ويتلهفون إلى لقاءهم فيسوقونهم إليهم بتكريم وحث، لذا فسّر في مجمع البيان سوق الذين كفروا بأنهم ((يساقون سوقاً في عنف)) وقال عن سوق الذين اتقوا: ((أي يساقون مكرمين)) ولم يجد بأساً في استعمال لفظ السوق فيهما معاً لأن الحال لم يستظهره من اللفظ وإنما من القرائن.

وبذلك يقترب معنى السوق من الدلالة والهداية على نحو الحث والدفع، لذا يستعمل أهل المعرفة لبيان غرض القرآن أو الدين عموماً تعبير السوق نحو الكمال، والهداية قد تكون إلى الجنة وهو معروف وقد تكون إلى النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (النساء: ١٦٨) - وقال تعالى: ﴿شَيْطَاناً مَرِيداً * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (الحج: ٣-٤)، فسوق الذين اتقوا إلى الجنة لأنهم يحتاجون من يهديهم إليها ويدلهم عليها في تلك الأجواء الرهيبة في محشر القيامة.

٣- وغاية ما يمكن أن يقال في السوق أنه تحريك بدون إرادة المتحرك أو عند عجزه سواء كان خلاف إرادته أو من حيث لا يعلم، فالله تعالى يسوق المؤمنين من حيث لا يشعرون إلى الجنة، كما ورد في بعض الأحاديث وعن

رسول الله (ﷺ) قال: (يا علي، مَنْ ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم، فقال علي (عليه السلام) لغير الله؟ قال: نعم، والله صيانة لنفسه، يشكره الله على ذلك)^(١)، وقال رسول الله (ﷺ): (مَنْ سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة)^(٢).

٤- أو أن الذين اتقوا لما يُنادى بهم لدخول الجنة يبقون في المحشر لأمرٍ ما ويتأخرون عن دخول الجنة فتحثهم الملائكة على دخولها وهو معنى السوق.

وسبب تأخرهم قد يكون للشفاعة في ذويهم ومحبيهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ (الطور: ٢١) كالذي ورد في صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن السقط يجيء محببناً على باب الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: لا، حتى يدخل أبواي الجنة قبلي)^(٣).

أو للوفاء بالعهد مع إخوانهم المؤمنين كما في المؤاخاة المذكورة في أعمال يوم الغدير (أن لا أدخل الجنة إلا وأنت معي)^(٤).

أو أنهم لتواضعهم وحسن أدبهم لا يريدون سبق إخوانهم في الدخول إلى الجنة فينتظرون الرفقة ليدخلوا زمراً وجماعات.

أو لكي يُعرف قدرهم كما في الحديث الوارد في شفاعة الصديقة الكبرى

(١) مكارم الأخلاق، للشيخ الطبرسي: ٤٣٣، بحار الأنوار: ج ٧٦ - ص ١٥٠.

(٢) الأمالي، للشيخ الصدوق: ١١٦، بحار الأنوار: ج ١ - ص ١٦٤.

(٣) وسائل الشيعة: ١/٢٠، كتاب النكاح، أبواب المقدمات، باب ١، ح ٢.

(٤) مستدرک الوسائل - المحدث النوري: ٢٧٩ / ٦

فاطمة الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) أنها إذا (صارت عند باب الجنة تلتفت، فيقول الله: يا بنت حبيبي ما التفاتك وقد أمرت بك إلى جنتي؟ فتقول: يا رب أحببت أن يُعرف قدري في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا بنت حبيبي ارجعي فانظري من كان في قلبه حب لك أو لأحد من ذريتك خذي بيده فأدخله، الجنة، قال أبو جعفر (عَلَيْهِ السَّلَامُ): والله يا جابر إنها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبيها كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء، فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنة يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا، فإذا التفتوا يقول الله: يا أحبائي ما التفاتكم وقد شفعت فيكم فاطمة بنت حبيبي؟ فيقولون: يا رب أحببنا أن يعرف قدرنا في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا أحبائي ارجعوا وانظروا من أحبكم لحب فاطمة، انظروا من أطعمكم لحب فاطمة، انظروا من كساكم لحب فاطمة، انظروا من سقاكم شربة في حب فاطمة، انظروا من ردّ عنكم غيبة في حب فاطمة فخذوا بيده وأدخلوه الجنة، قال أبو جعفر (عَلَيْهِ السَّلَامُ): والله لا يبقى في الناس إلا شاك أو كافر أو منافق فإذا صاروا بين الطبقات نادوا كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ فيقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر (عَلَيْهِ السَّلَامُ): هيهات هيهات منعوا ما طلبوا ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١).

٥- إن الذين اتقوا لا تؤهلهم أعمالهم إلى دخول الجنة فلا تحركهم الحركة الكافية نحوها، ولكن لطف الله تعالى ورحمته تشملهم فتعطيهم زخماً وتسرع بهم نحو الجنة فهم يحتاجون إلى (سوق) أيضاً ليدخلوا الجنة بلا تأخير، وهذا السوق

(١) بحار الأنوار: ٨ / ٥٢ عن تفسير فرات الكوفي: ١١٣-١١٥.

ورد في (الذين اتقوا) وليس في (المتقين) وبينهما فرق فالذين اتقوا حالة قد يحصل معها ما ينافيها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧١) والمتقون مقام تحولت التقوى عند أهله إلى صفة ثابتة ولازمة لذواتهم، لذا لم يستعمل معهم لفظ السوق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِذَاءًا﴾ (مريم: ٨٥-٨٦).

والخلاصة أن أهل التقوى على درجات فبعضهم تكون حاله غير تامة فيحتاجون إلى تكميلها بسوق وبعضهم تكون عندهم تامة فلا يحتاجون.

٦- أن الذين اتقوا يُصار بهم الى الجنة التي تناسب استحقاقهم فيتوقفون عن دخولهم لانهم يرون جنات اعلى منها فيطمعون ولكنه يحال بينهم وبينها لانهم ليسوا مؤهلين لها ويساقون الى الجنة التي يستحقونها ولعل هذا وجه قوله تعالى ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (الأعراف: ٤٦).

٧- إن السوق ليس للذين اتقوا وإنما لذويهم ومتعلقهم ومحبيهم وقد وعد الله تعالى أن يلحقهم بهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ١١) وهؤلاء يحتاجون إلى سوق لأن منزلتهم ليست بدرجة الذين اتقوا وإنما نسب السوق إلى الذين اتقوا لأنهم هم الملحوظون والمقصودون بالتكريم ودخول الجنة، فكل واحد منهم يمثل جماعة ويعادل جماعة نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ

إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴿النحل: ١٢٠﴾ كما أن الملك حينما يدعى يساق معه رفاقه وحاشيته وينسب السوق إلى الجميع.

٨- إن الذين اتقوا لما يرون ما أعد الله لهم من الكرامة والفوز العظيم الذي تحقق لهم تخرج أرواحهم من أبدانهم فرحاً وشكراً وشوقاً إلى المنعم المتفضل فتساق أرواحهم إلى أبدانهم ليدخلوا الجنة وهم كانوا هكذا في الدنيا كما وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته في صفة المتقين (ولولا الأجل الذي كُتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب)^(١).

٩- ما يُستفاد من بعض الروايات في فضل زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ونصرته لإقامة دين الله تعالى ونشر ولاية أهل البيت (عليهم السلام) وهي من سيماء الذين اتقوا ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٢٣)، فقد روى زرارة عن الإمام الباقر (عليه السلام) أو الصادق (عليه السلام) أنه قال: (يا زرارة إذا كان يوم القيامة جلس الحسين (عليه السلام) في ظل العرش وجمع الله زواره وشيعته ليصروا من الكرامة والنصرة والبهجة والسرور إلى أمر لا يُعلم صفته إلا الله فيأتيهم رسل أزواجهم من الحور العين من الجنة فيقولون إنا رُسل أزواجكم إليكم يقلن: إنا قد اشتقناكم وأبطأتم عنا فيحملهم ما هم فيه من السرور والكرامة على أن يقولوا لرسلكم: سوف نجيئكم إن شاء الله)^(٢).

(١) نهج البلاغة: ١٦١ / ٢، خطبة ١٩٣، في وصف المتقين.

(٢) بحار الأنوار: ١٠١ / ٧٥، ح ٢٥ عن نوادر علي بن أسباط ضمن الأصول الستة عشر: ١٢٣.

ورويت بشكل آخر أكثر تفصيلاً في كامل الزيارات عن زيارة وفيها (وما من عبد يُحشَرُ إلاّ وعيناه باكيةٌ إلاّ الباكين على جدّي الحسين (عليه السلام)، فإنّه يحشر وعينه قريرة، والبشارة تلقاه والسّرور (بين) على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حدّاث^(١) الحسين (عليه السلام) تحت العرش وفي ظلّ العرش، لا يخافون سوء يوم الحساب، يقال لهم: ادخلوا الجنّة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، وأنّ الحور لترسل إليهم أنا قد اشتقناكم مع الولدان المخلّدين فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السّرور والكرامة، وإنّ أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار، ومن قائل: (ما لنا من شافعين ولا صديقيّ حميم)، وإنّهم ليرون منزلهم، وما يقدرّون أن يدنوا إليهم ولا يصلون إليهم، وإنّ الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن خزائنهم على ما أعطوا من الكرامة فيقولون: نأتيكم إن شاء الله، فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم، فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم خبروهم بما هم فيه من الكرامة وقربهم من الحسين (عليه السلام)، فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر، وأهوال القيامة، ونجاناً ممّا كنّا نخاف، ويؤتون بالمراكب والرّحال على النّجائب، فيستون عليها، وهم في الثّناء على الله والحمد لله والصّلاة على محمّد وآله، حتّى يئنّوها إلى منازلهم)^(٢)، فهؤلاء المتقون من زوار الإمام الحسين (عليه السلام) وشيعته والمقيمين لشعائره بإخلاص يفضلون النظر إلى وجهه الكريم على المصير إلى الجنة وينشغلون به عنها فتأخذهم الملائكة برفق وتكرimen إلى الجنة حينما أذن الله تعالى بذلك.

(١) أي يتحدثون مع الامام (عليه السلام).

(٢) كامل الزيارة: ٨٤

والرواية واضحة الانطباق على الآية الكريمة، إلا أن أحداً من أصحاب التفسير بالروايات - كالبرهان ونور الثقلين - لم يذكرها، ولعل السبب لأن الرواية لم تستشهد بالآية صريحاً فلم يلتفتوا إليها.

الآية الثلاثون:

﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿﴾
(الإنسان: ٨-٩).

سبب نزول الآية:

الآية حلقة من سلسلة آيات نزلت في أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين (سلام الله عليهم) في حادثة مشهورة لدى الفريقين، وعدّ المرحوم الأميني في كتاب الغدير^(١) (٣٤) ممن أوردتها من علماء السنة، وألف الحافظ أبو محمد العاصمي كتاباً في مجلدين أسماه (زين الفتى في شرح سورة هل أتى) ووصف الآلوسي في روح المعاني خبر الواقعة بأنه مشهور.

وخلاصة الحادثة في مصادر العامة كما أوردتها العلامة الأميني (قدس سره) عن ابن عباس قال إن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله (ﷺ) في ناس معه فقالوا:

يا أبا الحسن؟ لو نذرت علي ولدك فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برئنا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام.

فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم

(١) الغدير: ٣م ١٠٧-١١١ من الطبعة الأصلية، و٤/١٥٤-١٦١ من طبعة دار الغدير.

فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد؟ مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله (ﷺ) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم؟! وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها، وغارت عيناها، فسأه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد؟ هناك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة.

الجواب عن اشكال:

وحاول البعض التشكيك في نزولها في علي وأهل بيته (عليه السلام) رغم شهرتها وكثرة مصادرها، ومما قالوه: أن السورة مكية والحادثة وقعت في المدينة بعد زواج أمير المؤمنين وولادة الحسنين (عليه السلام) وجوابه من وجوه:

١- إن هذا الإشكال شبهة مقابل البديهة لتواتر النقل من الفريقين على ما ذكرنا من سبب النزول.

٢- عدم الوثوق بالأخبار الدالة على مكية السورة مع كثرة الروايات الدالة على نزولها في المدينة^(١).

٣- وجود الدليل على العكس أي مدنية السورة، لوجود ذكر الأسير فيها، ولم

(١) راجع بعض مصادرها في الميزان: ٢٠ / ١٤٤.

يكن للمسلمين أسرى في مكة بل كانوا قلة مستضعفين وإنما قويت شوكتهم وأصبح لديهم أسرى في المدينة.

٤- ولو تنزلنا فان مكية السورة لا ينافي كون بعض آياتها مدنية وهي ثمانية عشرة آية ذات سياق واحد، تبدأ من قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (الإنسان: ٥) وتنتهي عند الآية الثانية والعشرين ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإنسان: ٢٢).

وقد دلت عدة روايات من الفريقين على ان السورة مدنية وأنها نزلت في هذه الواقعة، كالرواية السابقة وفيها تهنئة رسول الله (ﷺ) لأمر المؤمنين (عائشة) بأهل بيته، ومنها ما دل على خصوص الآيات المذكورة كرواية للمفيد في الاختصاص بسنده إلى رسول الله (ﷺ) وفيها قوله مخاطباً أمير المؤمنين (عائشة): (هل عملت شيئاً غير هذا فإن الله قد أنزل عليّ سبع عشرة آية يتلو بعضها بعضاً، من قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾^(١).

ولشهرة الخبر فقد نظمها الشعراء في قصائدهم، ومنها قول الوزير صاحب بن عباد: وسائل هل أتى نصُّ بحق علي قلت ﴿هل أتى﴾ نصُّ بحق علي^(٢)
 روى في المناقب بسنده عن الإمام الحسن المجتبي (عائشة) أنه قال: (كل ما في كتاب الله عز وجل من قوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ فوالله ما أراد به إلا علي بن أبي طالب وفاطمة وأنا والحسين (عائشة)؛ لأننا نحن أبرار بآبائنا وأمهاتنا، وقلوبنا عملت

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٧٩/١٠ ح ٥ عن الاختصاص : ١٥٠.

(٢) وهذا البيت يُنسب إلى عبد الباقي الفاروقي العمري أنظر: (أدب الطّف - جواد شبر: ١٣٤/٧

بالطاعات والبر، ومبرأة من الدنيا وحبّها، وأطعنا الله في جميع فرائضه وآمناً بوحدانيته وصدقنا برسوله^(١).

الدروس والعبر المستفاد من حادثة الإطعام:

ونحن لا نريد بهذا القبس الاكتفاء بالتذكير بهذه المنقبة لأمر المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) مع ما له من الفضل والأهمية، لكن الأجدى تربوياً أن نستلهم الدروس والعبر من هذه الوقائع، ومنها: -

١- كرامة الإنسان في الإسلام و لزوم احترامه والإحسان إليه حتى لو كان مشركاً كأسير الحرب مع الدولة النبوية الكريمة، فلم يتخذ النبي (صلى الله عليه وآله) سجناً لأسراه وإنما كان يوزع الأسرى على المسلمين ليحافظوا عليهم ويحسنوا إليهم حتى يجعل الله تعالى لهم فرجاً، وورد في ذلك قوله (صلى الله عليه وآله): (استوصوا بالأسرى خيراً)^(٢)، (وقد كان يؤتى الرسول (صلى الله عليه وآله) بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: أحسن إليه، فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه)^(٣)، وإذا لم يجد الأسير ما يحفظ كرامته عند مضيفه فتعطى حرته ويذهب لينال ما يريد، ويختار.

ومنها ما في هذه الحادثة؛ لذا قصد هذا الأسير دار علي وفاطمة (عليهما السلام) لما بلغه من إيثارهما على أنفسهما وتكريمهما السائل والمحتاج.

(١) نور الثقلين: ٥/٤٧٣-٤٧٤.

(٢) الأمثل: ٥٢٤/١٤ عن الكامل لابن الأثير: ١٣١/٢.

(٣) روح المعاني للآلوسي: ١٥٥/٢٩ عن الحسن .

٢- الأولوية والأهمية التي يحظى بها إطعام المحتاجين والمعوزين من بين أعمال البر الكثيرة، وقد أشير إليه في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة كثيرا، قال تعالى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ • فَكُّ رَقَبَةٍ • أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ • يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ • أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (البلد: ١١) - روي عن النبي (ﷺ) قوله: (من أطعم ثلاث نفر من المسلمين أطعمه الله من ثلاث جنان في ملكوت السماوات: الفردوس وجنة عدن وطوبى (و) شجرة تخرج من جنة عدن، غرسها ربنا بيده)^(١)، والحديث مطلق ولم يقيد المدعوين للطعام بكونهم فقراء أو محتاجين، وهذا يعني أن الإطعام مستحب بغض النظر عن كون الأكلين ذوي حاجة، لما فيه من تقوية أواصر المحبة والموّدة وانفتاح النفوس على بعضها وزوال ما بينها من شحناء وبغض.

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من أطعم مؤمناً حتى يشبعه لم يدر أحدٌ من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا الله رب العالمين)^(٢).

وعنه (ﷺ) قال: (من أفضل الأعمال عند الله إبراد الكباد الحارة وإشباع الكباد الجائعة)^(٣) وهو حديث مطلق يشمل كل ذي كبد حتى الحيوانات، وتعزّزه روايات أخرى ففي بعضها أن امرأة فاسقة غفر لها لأنها سقت قطة عطشى ماءً، وقد تضمّنت تنمة الحديث تهديد المقصر في ذلك قال (ﷺ): (والذي نفس

(١) الكافي: ٢/ ٢٠٠.

(٢) أصول الكافي: ٢/ ٢٠٠ - ٣٠٢ باب إطعام المؤمن .

(٣) بحار الأنوار: ٧٤/ ٣٦٩.

محمد بيده لا يؤمن بي عبد بيت شعباناً وأخوه- أو قال جاره- المسلم جائع).
ولو التزمت البشرية بهذه التوصيات لما مات ملايين البشر جوعاً بينما تتلف
دول الغرب المترفة آلاف الأطنان من الأغذية لعباً وعبثاً كمهرجان الترامى
بالطماطم والبرتقال وذرّ الطحين والتزحلق بالرقى في بعض دول أوربا، أو يتلفون
كميات كبيرة منها للمحافظة على الأسعار ونحو ذلك، وقد لخص امير المؤمنين
(عَلَيْهِ السَّلَامُ) هذه المشكلة بقوله (مَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتَّعَ بِهِ غَنِيٌّ)^(١) وقرأت في بعض
المصادر أن باحثاً غريباً حصل على شهادة الدكتوراه بأطروحة تشرح هذه الكلمة
النورانية.

٣- ويمكن أن يتوسع معنى الأسير ليشمل كل محتاج إلى رعاية غيره وإعالته
مادياً، كالمروي عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في المدين لغيره: (غريمك أسيرك فأحسن إلى
أسيرك)^(٢)، ومنهم عيال الرجل وأسرتة عن الإمام الكاظم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (ينبغي
للرجل ان يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته وتلا هذه الآية ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ
عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قال: الأسير عيال الرجل ينبغي له إذا زيد في
النعمة أن يزيد أسراءه في السعة عليهم)، ثم قال: (إن فلاناً أنعم الله عليه بنعمة
فمنعها أسراءه وجعلها عند فلان فذهب الله بها، قال الراوي: وكان فلان
حاضراً)^(٣).

(١) نهج البلاغة: باب المختار من حكم/ ٣٢٨

(٢) روح المعاني للآلوسي: ١٥٦/٢٩

(٣) فروع الكافي: ١١/٤ كتاب الصدقة باب ٧: كفاية العيال والتوسيع عليهم، ح ٣

وروي عن النبي (ﷺ) قوله: (اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان)^(١) أي أسراء، فإن العاني هو الأسير^(٢)، وهكذا تشمل التوصية بالأسرى خيراً كل من كان راعياً لغيره في مؤسسة أو دائرة أو كيان ونحو ذلك.

ويتوسع المعنى إلى الحاجة المعنوية^(٣) أيضاً فكل من هو في حاجة إليك أخلاقياً وفكرياً وعقائدياً واجتماعياً فهو أسيرك وأنت مأمور بإكرامه والإحسان إليه، لذا قال أهل المعرفة أن حبس الحكمة عن مستحقها ظلم له وأعطائها لغير مستحقها ظلم لها^(٤)، وهذا المعنى قد ورد في اليتيم في الأحاديث الشريفة وقد تناولناها في كلمة سابقة^(٥).

٤- إن الإطعام حصل ﴿على حبه﴾ أي رغم وجود الحب للطعام لا من جهة

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ٢٣٦/٢٩ عن تفسير الرازي : ٢٤٥/٣٠.

(٢) كتاب العين، للفراهيدي: باب العين والنون: ٢/ ٢٥٢، قال: ((العاني: الأسير))، وفي مجمع البحرين: ((والعاني: الأسير، ومنه: (أطعموا الجائع وفكوا العاني). وكل من ذل واستكان وخضع فقد عانا وهو عان، والمرأة عانية، والجمع عوان. ومنه الخبر: (اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم) أي أسراء أو كالأسراء)): ٣/ ٢٦٤.

(٣) ويساعد في تطبيق مادة الأسر إلى غير أسير الحرب قوله تعالى في نفس السورة: ﴿لَحْنٌ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ (الإنسان: ٢٨) وهذه حالة جارية في القرآن الكريم حاصلها أن بعض المفردات تتكرر في مواضع متعددة من السورة الواحدة لكي تساهم في انشاء معنى خاص في ذهن القارئ أو تتساعد في تفسير معنى ما سوية.

(٤) الكافي: ١/ ٤٢ عن أبي عبد الله (ﷺ) قال: (قام عيسى بن مريم (ﷺ) خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوا أهلها فتظلموهم).

(٥) انظر الخطاب الفاطمي المعنون: (هل تريد أن تكون مع الصديقة الزهراء (ﷺ) في درجتها؟) في موسوعة: خطاب المرحلة: ٦/ ٢٥٨.

نهم الأكولين والميل الشهوي والتلذذ به فإن علياً وفاطمة والحسين (عليهم السلام) أبعد ما يكونون عن ذلك، وهم المخاصون لله تبارك وتعالى الذين لا سلطان لشيء غير الله تعالى عليهم، بل لحاجتهم إليه بحسب ما وصفتهم الروايات في الحادثة كما ذكرناها، ولأنهم يريدون التقوي به على الصوم وسائر أفراد طاعة الله تعالى. ولكنهم آثروا الثلاثة على أنفسهم وقدّموا ما يريده الله تعالى على ما تريده نفوسهم؛ لأنهم يرون أنفسهم عبيداً خالصين لله تبارك وتعالى، ولا يملكون لها خياراً ولا إرادة ولا فعلاً إلا لله تعالى فأخلصوا العبودية لله تعالى مما أكسب فعلهم قيمة أكبر.

ويمكن أن يكون معنى حبه: حسنه وأفضليته وطيبه ليكون أدعى للقبول قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢) أي من أفضل ما عندكم وأحسنه الذين تحبونه لأنفسكم، وقد كانت هذه الأرغفة أفضل ما يتوفر لديهم (صلوات الله عليهم أجمعين).

ولم يستغ بعضهم ارجاع الضمير في حبه إلى الطعام لان أهل البيت (عليهم السلام) أجلّ من الوقوع في شهوة البطن فأرجع الضمير الى الله تبارك وتعالى، ولكنه تصرف خلاف ظاهر السياق ولا يوجد ما يبرره، ولأن هذا المعنى سيأتي في الآية اللاحقة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ (الانسان: ٩)، ولأن الضمير لو كان عائداً إلى الله تعالى لكان الأولى التعبير (في حبه)، ولعدم الغرابة في عودة الضمير إلى الطعام بعد الذي ذكرناه، وقد روى البرقي في المحاسن بسند صحيح عن الإمام الرضا (عليه السلام) في هذه الآية قال الراوي: (قلت: حب الله أو حب الطعام؟ قال: حب

الطعام)^(١)، فهذا الإيثار الذي صاحب فعلهم (صلوات الله عليهم أجمعين) والمتصف بكونه مما يحبون هو المنشأ الأول لإعطائه هذه القيمة الكبرى بحيث تنزل فيهم سورة مباركة تتلى إلى نهاية الدنيا، مع أنه فعل بسيط في نفسه لا يعدو إنفاق خمسة أرغفة من شعير وليس من حنطة.

٥- والمنشأ الثاني والاهم الذي اعطى فعلهم (صلوات الله عليهم اجمعين) القيمة العظمى أن إطعامهم كان خالصاً لله تعالى وطلباً لمرضاته ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٦) فهم يتعرضون بإعمالهم الصالحة لصفاته الكريمة آملين رضا الله تبارك وتعالى، فإن الوجه ما يستقبل به، وهذه هي الغاية الباعثة على الفعل، ولم يبتغوا شكر المعطى وثناءه ولا جزاءً منه، ولو كان العطاء مشروطاً بالجزاء -وهو ما يقابل الفعل بما يعادله- لحرم كثير من المحتاجين لعدم امتلاكهم الجزاء، ولو كان مشروطاً بالشكر للزم منه توهين المعطى وإذلاله ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

فلكي يكون الإطعام وكل إنفاق وفعل معروف طيباً هنيئاً لمن يصل إليه لا بد أن يكون مجرداً من طلب الجزاء أو الشكر، كإطعام علي^(عليه السلام) وأهل بيته^(عليهم السلام) فقد كان إطعامهم خالصاً لوجه الله لا يبتغون عليه جزاءً لا في الدنيا ولا في الآخرة بجلب ثواب أو دفع عقاب، لان عبادتهم عبادة أحرار، وليست كفعل التجار الذين يعبدون الله طمعاً في جنته ولا العبيد الذين يعبدون الله خوفاً من ناره، بحسب

التقسيم المنسوب الى أمير المؤمنين (عليه السلام) لعبادة الناس، ومن كلماته المشهورة (إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك، ولا طمعاً في ثوابك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)^(١).

وقد حصرت الآية القصد من فعلهم (صلوات الله عليهم) بإرادة وجه الله تعالى خالصاً باستعمال أداة الحصر (إنما)، أما ما ورد في الآية التالية ﴿إِنَّمَا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٠) فهو لا ينافي قصد وجه الله تعالى لأنه خوف ليس مستقلاً عنه حتى يدخل في عبادة العبيد، بل خوف البعد عنه تبارك وتعالى والخوف من اعراضه سبحانه وعدم نيل رضاه وبلوغ كمال معرفته، فوصف اليوم بهذه الاوصاف.

٦- لم يسبق قولهم ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوْجِهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩) بكلمة (قالوا) وهذا يعني أنهم لم يقولوا هذا الكلام للثلاثة المطعمين وهذا الاستظهار يناسب مقامهم السامي وكون إطعامهم لوجه الله، أما التفوه بهذه الكلمات أمام المطعمين، فإنه لا يخلو من توهين وترفع عنهم، فالظاهر أن هذا التعبير من الله تبارك وتعالى لبيان حالهم ومقامهم الذي علمه الله تعالى منهم والروايات تدل على ذلك، فقد روى الشيخ المفيد في الاختصاص (عليه السلام): (أما إن علياً لم يقل في موضع: إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوْجِهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً

(١) البحار: ١٨٦/٦٧، والحديث مرسل في جميع مواضع روايته وقيل انه أول من رواه ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه للنهج قال: (وقد جاء في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، من هذا الكثير، نحو قوله: (لم أعبده خوفاً ولا طمعاً، لكني وجدته أهلاً للعبادة فعبدته) ونقل بعده بألفاظ قريبة ومختلفة، وكلها مرسلة.

وَلَا شُكُورًا، ولكن الله تعالى علم من قلبه أن ما أطعم الله، فأخبره بما يعلم من قلبه من غير أن ينطق به^(١)، وهذا المورد من مصاديق لسان الحال.

٧- إن هذه القيمة الكبرى التي اكتسبها الإطعام بالإخلاص لله تعالى لا تختص به بل يمكن أن تكتسبها أي طاعة لله تعالى، فالآية نموذج للتربية القرآنية للإنسان على أن يبادر إلى فعل الخير ويسارع إليه لا لشيء إلا لأن فيه رضا الله تبارك وتعالى لا ينتظر جزاءً ولا شكوراً من أي أحد، ولا يثبّطه ولا يشعره بالإحباط واليأس عدم حصوله على الثناء والشكر والإشادة بعمله بل ربما يتعرض للإساءة من نفس الذين يحسن إليهم لثوماً منهم وهو يمضي في معروفه وإحسانه متأسيماً بربه الذي يغدق على عباده بالنعيم وهم يعصونه ويتمردون عليه ويشركون به ويعبدون غيره (مني ما يليق بلؤمي منك ما يليق بكرمك)^(٢).

٨- وبهذه التربية على سمو الهدف وهو رضا الله تبارك وتعالى واتقاء غضبه ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ يندفع الإنسان المؤمن إلى فعل كل خير ولا يقف عند الواجبات فقط، ويتجنب كل سوء ومكروه ولا يقتصر على تجنّب المحرمات فهذا الإطعام هو غير الإنفاق الواجب في الزكاة والخمس.

٩- وهذا السلوك القرآني والسير على منهجه ثابت في سيرة أهل البيت (عليهم السلام) - وهم القرآن الناطق - ولناخذ مثلاً من سيرة الإمام الحسين (عليه السلام) تعريجاً على ذكره، فقد روت كتب التاريخ والمقاتل أن الحر الرياحي وكتيبته البالغة ألف

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٧٩/١٠ ح ٦ عن الاختصاص: ١٥١ ورواه الشيخ الصدوق في الأمالي عن الإمام الصادق عن أبيه (عليه السلام).

(٢) مفاتيح الجنان: ٣٣٩، دعاء عرفة

فارس من جيش الأمويين لما خرجوا لاعتراض ركب الإمام الحسين (عليه السلام) في الطريق بلغ بهم العطش والإعياء أقصاه حتى أشرفوا على الهلاك فتلقاهم الإمام (عليه السلام) وسقاهم ثم سقى خيولهم بيده الشريفة، ولما حاصره القوم في كربلاء ومنعوه وأهل بيته وأصحابه حتى الرضع من الماء فقصوا عطشى لم يرو أحد أن الإمام الحسين (عليه السلام) ذكرهم بموقفه ذاك أو أنه (عليه السلام) طالبهم بالجزاء على احسانه أو قال لهم اسقوني كما سقيتكم في الطريق، لأنه من أولئك الذين قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.

فسلام الله عليكم يا أهل البيت الطاهر يا سادة الأحرار المنعتقين من عبادة غير

الله، ويا رموز الإباء والسمو والإنسانية.

الآية الحادية الثلاثون:

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾

وجه تشبيه النبي (ﷺ) والائمة المعصومين (عليهم السلام) بالشمس

قسم من الله تبارك وتعالى بالشمس وفي حديث عن الامام الباقر (عليه السلام) قال: ان لله عز وجل ان يقسم من خلقه بما يشاء وليس لخلقه ان يقسموا الا به^(١) وفي القسّم بالشمس إلفات نظر الناس الى عظمة خلقتها وجميل منافعها بحيث ان حياة الانسان والحيوان والنبات قائمة بها كما هو واضح، لكن الانسان يغفل عن النعم التي يألفها وتكرر عليه.

وفي شروق الشمس وغروبها وحركتها وحركة الكواكب والاقمار آيات ومعجز لذوي العقول والبصائر، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الامام الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٢) قال (عليه السلام): (من لم يدله خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ودوران الفلك والشمس والقمر والآيات العجيبات على ان وراء ذلك امراً اعظم منه فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلاً).^(٢)

والقمر يتلو الشمس أي يتبعها سواء في حركته او في اضاءته اذ انه لا يؤثر الا بعد ان تغيب الشمس وهو يستقي نوره منها، لذا ورد التعبير عن الشمس بالضياء

(١) الكافي: ٤٤٩ / ٧.

(٢) التوحيد: ٤٥٥ باب ٦٧ النهي عن الجدال والمرء في الله عز وجل، ح ٦.

والقمر بالنور ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس: ﴿١٠﴾)، وقيل في وجه ذلك: إن الضوء ما كان ذاتياً وبالاصالة، اما النور فيشمل ما ينعكس عن غيره، والقمر يعكس نور الشمس.

وما نريد ان نعرضه في هذا القبس التفسير المعنوي للشمس والقمر فقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره، والكليني في روضة الكافي باسنادهما عن ابي بصير عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (سألته عن قول الله عز وجل والشمس وضحاها، قال: الشمس رسول الله (ﷺ) أوضح الله به للناس دينهم قلت: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا﴾ قال ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) قلت: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ قال: ذلك أئمة الجور الذين استبدوا للامر دون آل رسول الله (ﷺ) وجلسوا مجلسا كان آل رسول الله (ﷺ) أولى به منهم، فغشوا دين رسول الله (ﷺ) بالظلم والجور وهو قوله: والليل إذا يغشاها، قال: يغشى ظلمهم ضوء النهار، قلت: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا﴾ قال: ذلك الامام من ذرية فاطمة (عليها السلام) يسئل عن دين رسول الله فيجلى لمن يسأله، فحكى الله قوله: والنهار إذا جلاها) (١).

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: (قال رسول الله (ﷺ) مثلي فيكم مثل الشمس، ومثل علي مثل القمر، فاذا غابت الشمس فاهتدوا بالقمر). (٢)
وهو واضح لان ما عند امير المؤمنين (عليه السلام) اخذه من رسول الله (ﷺ)،

(١) روضة الكافي: ٥٠ / ٨، ح ١٢، تفسير القمي: ٤٢٤ / ٢، البرهان في تفسير القرآن: ١٠: ١٧٠ / ح ١، نور الثقلين: ٣٥٢ / ٥، ح ٣.

(٢) البرهان في تفسير القرآن: ١٠ / ١٧٠ / ح ٤ عن تأويل الايات: ٨٠٦ / ٢ / ح ٥.

قال: (عليه السلام) (إن رسول الله (ﷺ) علمني الف باب من الحلال والحرام مما كان الى يوم القيامة كل باب منها يفتح الف باب فذلك الف الف باب حتى علمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب).^(١) وهو خليفة رسول الله (ﷺ) ويتلوه في امامة الامة وقيادتها وهدايتها.

فاذا قيس امير المؤمنين (عليه السلام) الى رسول الله (ﷺ) فهو قمر يتلو الشمس، واذا نُظِرَ اليه بلحاظ المخلوقين فهو شمس يستضيئون بنوره قال (عليه السلام) (الا وان لكل مأموم امام يقتدي به ويستضيئ بنور علمه)^(٢).

وهكذا الائمة المعصومون (عليهم السلام) من اهل البيت رسول الله (ﷺ) فهم أقمار يتلقون معارفهم من رسول الله (ﷺ) وهم شمس للبشرية جميعاً، لذا ورد وصفهم (عليهم السلام) بالنجوم في الروايات والنجوم شمس بعيدة عنا فنراها صغيرة، ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ (الأنعام: ٩٧)، عن علي بن إبراهيم ان (النجوم: آل محمد)^(٣).

ووردت عدة روايات بهذا المعنى في تفسير^(٤) قوله تعالى ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦) منها عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (رسول الله (ﷺ) النجم، والعلامات هم الائمة (عليهم السلام) بهم يهتدون)^(٥).

(١) الخصال: ٤٨١

(٢) نهج البلاغة

(٣) تفسير القمي: ٢١١/١

(٤) راجع: القيس/٧٨، ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦)، من نور القرآن: ٥/٣

(٥) الكافي: ١/١٦٠/١ ح ١ وتجد مجموعة الروايات في البرهان: ٣٢٨/٥

وجه انتفاع المؤمنين بالحجّة (عج) حال غيبته:

وقد وصفت الروايات الامام المهدي (عَلَيْهِ السَّلَام) وغيبته بالشمس اذا جلّلتها السحاب، ففي اكمال الدين للصدوق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِنَّهُ ذَكَرَ الْإِمَامَ الْقَائِمَ فِي حَدِيثٍ وَقَالَ (ذَاكَ الَّذِي يَغِيبُ عَنْ شِيعَتِهِ وَأَوْلِيَائِهِ غَيْبَةً لَا يَثْبُتُ فِيهَا عَلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ إِلَّا مَنْ أَمْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ، قَالَ جَابِرٌ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَهَلْ يَقَعُ لِشِيعَتِهِ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ فِي غَيْبَتِهِ؟ فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أَيْ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالنَّبُوَّةِ إِنَّهُمْ يَسْتَضِيئُونَ بِنُورِهِ وَيَنْتَفِعُونَ بِوَلَايَتِهِ فِي غَيْبَتِهِ كَانْتِفَاعِ النَّاسِ بِالشَّمْسِ وَإِنْ تَجَلَّلَتْهَا سَحَابٌ).^(١)

وفي الأمالي للصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَام) قال: (لم تخلو الأرض منذ خلق الله تعالى آدم من حجة لله فيها ظاهرٌ مشهور أو غائب مستور ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها ولولاه لم يُعبد الله، فقلتُ للصادق (عَلَيْهِ السَّلَام): فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟ قال: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب).^(٢)

وفي الاحتجاج ورد توقيع من الناحية المقدسة على يد السفير محمد بن عثمان وفيه (وأما الانتفاع بي في غيبي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبت عن الأبصار السحاب وإني لأمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء فاعلقوا أبواب السؤال عمّا لا يعينكم).^(٣)

(١) كمال الدين: ٢٤١/١ باب: نص الله تعالى على القائم، ح ٣.

(٢) نقلتهما بواسطة بحار الأنوار: ٩٢/٥٢.

(٣) نقلتهما بواسطة بحار الأنوار: ٩٣/٥٢.

أقول: في هذه الروايات تشبيهان، أحدهما تشبيه الإمام بالشمس، والآخر تشبيه غيبته (عليه السلام) بالشمس إذا غطاها السحاب، ونريد الآن أن نبين وجوهاً لفهم تشبيه النبي (ﷺ) والمعصومين (عليهم السلام) من اهل بيته بالشمس وهم أئمة الخلق وقادتهم وسادتهم مما يوفق الله تعالى له، ونؤجل وجوه التشبيه الثاني الى الملحق. ولتشبيه الامام بمعناه العام الشامل للنبي (ﷺ) والائمة من آله بالشمس عدة وجوه:

١- إنّ الشمس أصل الحياة وبدونها تنعدم الموجودات وهي الواسطة لإفاضة الحياة على الموجودات، وهكذا الإمام علة الوجود وواسطة الفيض الإلهي على جميع الموجودات وهم علة الوجود ولأجلهم خلق، ولولاه ساخت الأرض بأهلها كما في الحديث الشريف وفي دعاء العديلة (ببقائه بقيت الدنيا وبيمينه رُزق الوري، وبوجوده ثبتت الارض والسماء)^(١).

٢- ولأن الشمس أصل الحياة فقد وُجدت قبل أي شيء آخر، وكذلك نور محمد وآل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) وجدوا قبل الخلق، روى الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله (الحجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق)^(٢).

٣- إنّ الشمس مصدر النور وهي التي تنير الأشياء وتجعلها منظورة بالعين ويمكن التعرف عليها ولولا هذا النور لما أمكن التعرف على الشيء، وكذلك الإمام هو مصدر المعارف الإلهية والعلوم ولولا تأصيلات الأئمة الأطهار (عليهم السلام)

(١) مفاتيح الجنان: ١٢٨

(٢) كمال الدين: ١٦/١.

لما أمكن الاهتداء إلى شيء منها، وما يؤخذ عن غيرهم فهو زخرف من القول.
 ٤- ان نفع الشمس عام لا تمنعه عن شيء من الموجودات، وهم (صلوات
 الله عليهم اجمعين) كالشمس في عموم نفعهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
 لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وإنما لا ينتفع بهم من أراد لنفسه أن يكون أعمى لا
 يستفيد من نور الشمس، في الخصال من حديث الأربعمئة عن أمير المؤمنين
 (عليه السلام) قال: (أشدّ العمى من عمي عن فضلنا وناصبنا العداوة بلا ذنب سبق إليه منا
 إلا أنا دعونا إلى الحق ودعاه من سوانا إلى الفتنة والدنيا فأتاهما ونصب البراءة منا
 والعداوة لنا) ^(١).

وروى الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد بسند صحيح عن الإمام الباقر
 (عليه السلام) في قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ
 سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٢)، قال (عليه السلام): (من لم يدله خلق السموات والأرض
 واختلاف الليل والنهار ودوران الفلك والشمس والقمر، والآيات العجيبات على
 أن وراء ذلك أمر أعظم منه فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً). ^(٢)

٥- إن الشمس من المطهرات - كما هو الصحيح - فهي تطهر من النجاسة
 المادية، وكذلك ولاية الإمام المعصوم (عليه السلام) وحبّه واتباعه من المطهرات
 المعنوية فيها تقبل الأعمال وتكفر الذنوب وفي ذلك أحاديث كثيرة، لأنها من
 أعظم الحسنات والقربات إلى الله تعالى، والآية الشريفة تقول ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ

(١) الخصال: ٤٧٤.

(٢) التوحيد: ٤٥٥ باب ٦٧ النهي عن الجدل والمرء في الله عز وجل، ح ٦.

يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴿١١٤﴾ (هود: ١١٤).

٦- ان أي شيء يقترب من الشمس يصلى بحرارتها ويحترق تدريجيا حتى يفنى في نورها، وكذلك من يقترب من اهل البيت (عليهم السلام) بطاعتهم وحبهم والسير على هديهم يفنى فيهم وتذوب انانيته ونفسه الامارة بالسوء ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم: ٣٦) وفي الحديث النبوي الشريف (سلمان منا اهل البيت) ^(١).

٧- كما أنّ الناس متفاوتون في الاستفادة من نور الشمس فبعضهم يمنعها من الدخول إلى داره فيغلق الأستار والنوافذ ولا يستفيد من ضوء الشمس، وبعضهم يفتح منافذ بسيطة للإنارة والآخر يملأ داره بالفتحات والآخر يستفيد منها في الزراعة وآخر لتوليد الطاقة الشمسية، فكذلك نور الهداية المتصلة بالمعصومين (عليهم السلام) التي تركوها لنا من خلال أحاديثهم الشريفة، تتفاوت الناس في الاستفادة منها والعمل بها، فربما أغلق البعض نوافذ قلبه وعقله لمنع نور الهداية من دخولهما، بينما فتح آخر كل حواسه ومنافذه الظاهرية والباطنية لتلقي هذه العلوم والمعارف والكمالات اللامحدودة بإذن الله تعالى.

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٥٩٨/٣)، والطبرانی (٢٦١/٦).

الآية الثانية والثلاثون:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

التحديث بولاية أهل البيت (عليهم السلام) ونشرها

ماذا يتوجب علينا مع حصول النعمة؟

إذا حصلت للإنسان نعمة ما مادية كانت او معنوية فان هذا يوجب عليه أموراً^(١) عديدة:

(منها) شكر هذه النعمة باللسان وبالفعل كسجدة الشكر او صلاة الشكر.
(ومنها) استعمالها في طاعة المنعم ونيل رضاه وأداء ما افترض الله تعالى من حقوق فيها كالحقوق المالية او حق الزوج والزوجة أو حق الوالدين او المعلم او القائد الصالح كما رسمها الامام السجاد (عليه السلام) في رسالة الحقوق.
(ومنها) بذلها للناس وعدم التقصير في سد احتياجاتهم منها، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إن لله عبداً أختصهم بالنعمة يقرّها فيهم ما بذلوا للناس فإذا منعوها حولها منهم الى غيرهم)^(٢) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه، فمن قام لله فيها بما يجب فيها عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء)^(٣).

(١) شرحها بتفصيل أوسع في القبس/ ١٨٠ ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) القادم،

ص ٢٩٢، وفي القبس/ ٧٣ ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ (إبراهيم: ٢٨)، من نور القرآن: ٣٣١/٢

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٥٣/٧٢

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت): ٩٦/٣٢٥ ح ٩

كيف نعرف بالنعمة ولا نصاب بالعجب أو الرياء؟

(ومنها) ما ذكرته الآية الشريفة من وجوب التحديث بهذه النعمة، إذ الأمر فيها لا يختص بالمخاطب وهو رسول الله (ﷺ) كما هو واضح في آيات القرآن الكريم، وقد يبدو الأمر غريباً إذا تعلق بالأموار المادية إذ من غير المألوف أن يتحدث الإنسان في مجالسه بما عنده من أموال أو بنين أو عقارات أو نفوذ اجتماعي ونحو ذلك، وكذا الحديث في الأمور المعنوية فقد يدخل في باب الرياء أو العجب أن يتحدث الإنسان عن الطاعات التي قام بها من صلاة أو صوم أو صدقة ونحو ذلك، إذن كيف نفهم هذا الأمر بالتحديث بالنعمة.

والجواب يتحقق من خلال فهم معنى (النعمة) أو (التحديث) يناسب الأمر الوارد في الآية، والتأمل فيهما يؤدي إلى عدة وجوه:

١- أن التحديث بالنعمة لا يكون بعنوان كونها إنجازاً شخصياً للاستعلاء والتفاخر وإنما بما هي منسوبة إلى الله تبارك وتعالى لبيان فضله وكرمه وابتدائه بالنعمة لتحبيبه تعالى إلى الناس وتذكيرهم بما أنعم الله تعالى عليهم، لذلك أضافت الآية النعمة إلى الرب ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

٢- أن التحديث بالنعمة لا يقتصر على الحديث اللساني وإنما يشمل التحديث العملي بإظهار تلك النعمة أمام الآخرين روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)^(١) وعن الامام الصادق (ع) قال: (إذا أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله

على عبد بنعمة فلم تظهر عليه سمِّي بغيض الله مكذباً بنعمة الله^(١) ويكون ثمرة هذا التحديث للتأسي في فعلها أو السعي بنفس المقدمات التي تؤدي الى تحصيل تلك النعم ونحو ذلك روي عن الامام الحسين (عليه السلام) قوله: (إذا عملت خيراً فحدّث إخوانك ليقتدوا بك)^(٢).

٣- يحتمل في التحديث معانٍ آخر غير معنى التكلم بها وإطلاع الآخرين عليها، قال السيد الشهيد الصدر الثاني (قلبي) (أمكن أن يُراد بمادة (حدّث) أمران أخران :

الأول: الحدوث.

والثاني: التحديث بمعنى الجدة.

فعلى الأوّل يعني: أوجد نعمة ربّك، أي : سبّب إلى وجودها في حدود إمكانك، وهو أمر معنوي.

وعلى الثاني يعني: جدّد نعمة ربّك: إما بالتسيب إلى تكرارها وإما بتذكّرها. وإما أن يكون الحديث بمعنى التذكّر يعني: حدّث نفسك أو حدّث ربّك، ولم يقل حدّث الآخرين، وهو مجازٌ في التذكّر، وفيه ثوابٌ وتكاملٌ، أو إنك إنّما تفعل ذلك كلّ بنعمة الربّ سبحانه.

وبتعبيرٍ آخر: تارةً يكون التركيز على النعمة وأخرى على التحديث بها، ويكون الآخر تابعاً نحو: العيش برزق الله^(٣).

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٦/٤٣٨/ح ٢

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٠١/٣١.

(٣) منة المنان في الدفاع عن القرآن: ٩٦/٢.

٤- إن الآية لم تذكر صاحب النعمة التي يجري التحديث بها فقد لا يكون المقصود التحدث بنعمة الله على المتحدث نفسه بل على الآخرين لتذكيرهم ولتقريبهم الى الطاعة او لتسليتهم عن أمر فقدوه ولامتصاص غضبهم وسخطهم على ما فاتهم فيذكرهم بالنعمة التي استفادوها ونحو ذلك، ورد أن الله تعالى قال لموسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي وَحَبِّبْ خَلْقِي إِلَيَّ، قَالَ: يَا رَبِّ.. كَيْفَ أَفْعَلُ؟ قَالَ: ذَكَرَهُمْ آلَائِي وَنِعْمَائِي لِيَحِبُّونِي)^(١).

النعمة هي الاسلام وولاية اهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ):

٥- الوجوه السابقة كلها مقبولة ومفيدة الا ان الوجه الادق والاهم هو أن نفهم من نعمة الرب مصداقاً يتناسب مع الأمر بالتحديث بها، وهذا موجود، لأن آيات عديدة وروايات كثيرة أفادت بأن هذه النعمة هي الاسلام وولاية أهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، ومنها قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١١٣) ونعمة الله التي ألفت بينهم ووحدت قلوبهم هو رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) برسالة الاسلام، عن الامام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال في تفسير هذه الآية (أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه)^(٢) ويكون هذا المعنى ظاهراً بمقتضى المقابلة بين الآيات في سورة الضحى فان هذه الآية قابلت قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى: ٧) فالنعمة التي امر بالتحديث بها هي نعمة الهداية الى دين الله تبارك وتعالى.

وتمام هذه النعمة وكمال هذا الدين ولاية علي بن ابي طالب (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لقوله

(١) الأماي : ٤٨٤.

(٢) المحاسن - البرقي: ١/٢١٨/ح ١١٥

تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٣)، وورد عن الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) قول الامام الصادق (عليه السلام) إلى أبي حنيفة: نحن - أهل البيت - النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد وبنا ائتملغوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً وبنا هداهم الله الى الاسلام وهي النعمة التي لا تنقطع والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته^(١)، وقد يكون هذا المعنى هو المقصود لا غيره إذا لم نفهم اطلاق النعم وعمومها من قوله تعالى ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ بأن يكون المراد التنويه بنعمة معينة فتكون هذه لا غيرها واكتفى بالإشارة اليها لعظمتها واهميتها على سائر النعم.

وورد عن الامام الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٣٠) قال: (النعمة الظاهرة النبي (صلى الله عليه وآله) وما جاء به النبي من معرفة الله عز وجل وتوحيده، وأما النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقدنا)^(٢).

وقد عمل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهذه الآية المباركة وتحدث بفضل أهل بيته ومقاماتهم الرفيعة وجعلهم صنو القرآن والزم الامة بالرجوع اليهم فظن بعض الاصحاب انه منحاز الى قومه ويتحدث بدافع العاطفة نحو أهل بيته (عليهم السلام).

(١) تفسير العياشي ص ٢٥٨

(٢) تفسير القمي: ١٦٦/٢

وهو المنزّه عن كل ذلك ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾
(النجم ٣-٤) فعمله (ﷺ) هذا كان التزاماً بالآية الكريمة.

آليات التحديث بالنعمة:

فالتحديث بهذه النعمة يكون بالتعرف عليها والتفقه فيها ثم نشرها بين الناس ودعوتهم اليها، وإذا أردنا أن نكون من الشاكرين على هذه النعمة فلا بد أن نظهرها ونعظمها ونبين فضائل أهل البيت (عليهم السلام) ومناقبهم ومكارم أخلاقهم وننشر مواظمتهم وأحكامهم ومحاسن كلامهم ونوصلها الى البشرية جمعاء بكل صنوفها ولغاتهما، وعلينا أن نحیی شعائرهم وأمرهم كما دعوا (عليهم السلام) الى ذلك (احياوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا)^(١) ومن قصر في إظهار نعمة ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ولم يدعُ الناس اليها وإقناعهم بها بأي وسيلة ممكنة، أو لم يحفظ حرمة أهل البيت (عليهم السلام) في سلوكه وصفاته فهو ممن لم يؤدِ حق هذه النعمة ولم يشكرها.

وكما تقدّم في قول الامام الصادق (عليه السلام) فإنه أعتبر من لم يحدث بنعمة الله ولم يظهرها مكذباً بنعمة الله وبغيض الله، فليتفقه كل شيعة أهل البيت (عليهم السلام) في دينهم وليطلعوا بعمق ووعي على سيرة أئمتهم (عليهم السلام) ليستطيعوا إيصال هذه الرسالة العظيمة الى العالم كله بأمانة وإتقان (فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا)^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام) - الشيخ الصدوق: ٢٧٥/٢

(٢) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١٨٠

مسؤولية التشيع اليوم:

أقول: بناءً على هذه المسؤولية الكبيرة التي حملتنا هذه الآية مع توفر أئمن فرصة اليوم لنشر تعاليم أهل البيت (عليه السلام) والتمهيد لدولة العدل الإلهي بسبب:

١- عظمة ما أحتوت عليه كلمات أهل البيت (عليه السلام) من احكام وإرشادات ومواعظ قال الامام الرضا (عليه السلام) (فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا)^(١) وهذا ما تشهد به التجارب التي حدثنا بها الاخوة المبلغون في شرق الارض وغربها وما لمسوه من إقبال واسع وسريع لمذهب أهل البيت (عليه السلام).

٢- فشل الأنظمة المادية التي صنعتها البشرية وعجزها عن توفير السعادة للإنسان.

٣- الصورة المشوهة للإسلام التي طرحتها المدارس البعيدة عن أهل البيت (عليه السلام) حيث كان نتاجها التكفير والقتل والارهاب والتدمير وتخريب الحضارة.

فتوجهت الانظار كلها الى مدرسة أهل البيت (عليه السلام) لذا كان لزاماً علينا في الحوزات العلمية والنخب الفكرية^(٢) والثقافية والمراكز العلمية والبحثية أن تضع البرامج والآليات للتحرك بهذه الرسالة العظيمة وسيفتح الله تعالى لهم العالم بأسره ولا نتخوف من الحكومات فإننا إذا توجهنا بخطابنا الى الرأي العام وصنعنا قضية أمامه من خلال مراكز اعلامية وفكرية وبحثية صانعة للمواقف ومقنعة للرأي العام

(١) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١٨٠

(٢) حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) مع الضيوف المشاركين في مؤتمر الطف الدولي السابع الذي اقامته كلية الآداب في الجامعة المستنصرية وقد زاروا سماحة المرجع يوم الاربعاء ٢٦/صفر/١٤٣٧ المصادف ٢٠١٥/١٢/٩ وهم من دول عربية واسلامية واجنبية.

على شكل (لوبيات) مؤثرة وفاعلة في مختلف دول العالم، فان الرأي العام سيقنع بها ويضغط على أصحاب القرار ويجبره على الانصياع للرأي العام الذي تخشاه الحكومات.

وأذكر كمثال مظلومية الشعب العراقي وإضطهاد صدام المقبور له، فعندما تحركت المعارضة العراقية يومئذٍ وشرحت هذه المظلومية كوّت رأياً عاماً متعاطفاً معها وارتقى بهم الأمر حتى أقنعوا حكومات الدول الكبرى بضرورة إتخاذ إجراء وهذا ما حصل، كما ان القناعة حصلت لاثنتين من كبريات الصحف البريطانية والامريكية فنشرت مقالين عن زيارة الاربعين هذا العام وأشارت الى الارقام القياسية المتحققة فيها من حيث عدد المشاركين في المشي وعدد المتطوعين للخدمة المجانية وعدد وجبات الطعام المجانية المقدمة (قدروها ب ٢٠٠ مليون وجبة) واطول مائدة طعام في العالم في اكبر حشد بشري، كما عتب كاتبا المقالين على وسائل الاعلام العالمية لإغفالها هذا الحدث مع انها تغطي تجمعا لعشرات في هذه الدولة او تلك.

وهذا كله يثبت اننا قادرون على صناعة وتوجيه الرأي العام العالمي اذا توفرت الارادة والعزم والسعي.

فلماذا نتخلى عن مشروعنا هذا بمجرد الوصول الى السلطة، فهل السلطة غايتنا أم إنها وسيلة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والفساد.

الآية الثالثة والثلاثون:

﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾

حيّ على خير العمل والدعوة الى ولاية أهل البيت (عليهم السلام)

(حيّ على خير العمل) من فقرات الاذان والإقامة المستحبين الاكيدين قبل الصلاة وقال البعض بالوجوب^(١)، وفي هذه الفقرة حث ودعوة مع طلب المبادرة الى خير العمل، ويمكن أن يكون المراد من (خير العمل) كل عمل خير من باب إضافة الصفة الى موصوفها وبهذا المعنى تكون الدعوة شاملة لكل أفعال الخير المرضية عند الله تعالى فتتطابق مع الآية الكريمة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة:

﴿٤٨﴾.

وقد يراد بـ(خير العمل) عمل مخصوص هو خير الاعمال وأفضلها والدعوة تؤكد المبادرة اليه، والمستفاد من الروايات أن المقصود بهذا العمل أمران ظاهري عام وآخر خاص.

المعنى الظاهري لخير العمل:

(أما) (المعنى الظاهري) فهو الصلاة نفسها التي هي عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن رُدَّت رُدَّتْ ما سواها، روي عن الامام الرضا (عليه السلام) عن علة الأمر بالأذان، الى أن قال (عليه السلام) (ثم دعا الى خير العمل مرغباً فيه - أي الصلاة - وفي

(١) أنظر: مختلف الشيعة - العلامة الحلي: ١٢٠/٢

عملها وفي أدائها^(١).

وفي رواية محمد بن الحنفية عن معراج النبي (ﷺ) وإمامته للصلاة في السماء السادسة والنداء الأول بالأذان يومئذٍ من قبل ملكٍ خاص الى أن قال (حي على الصلاة، قال الله جل جلاله: فرضتها على عبادي وجعلتها لي ديناً، ثم قال: حيّ على الفلاح، قال الله عز وجل: أفلح من مشى إليها وواظب عليها ابتغاء وجهي، ثم قال حيّ على خير العمل، قال الله جل جلاله: هي أفضل الاعمال وأزكاها عندي)^(٢).

وفي رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير الاذان قال: (وإذا قال حي على خير العمل فإنه يقول ترحموا على أنفسكم فإنه لا أعلم لكم عملاً أفضل من هذه ففرغوا لصلاتكم قبل الندامة)^(٣).

المعنى الأكمل لخير العمل:

(واما المعنى الخاص وهو الاكمل) فيراد بخير العمل ولاية علي بن ابي طالب (عليه السلام) وأهل بيت النبي (ﷺ) المعصومين، ففي معاني الاخبار وعلل الشرائع للشيخ الصدوق بسنده عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال (أتدري ما تفسير حيّ على خير العمل، قال: قلت لا، قال: دعاك الى البر، أتدري برّ من؟ قلت: لا،

(١) بحار الانوار: ١٤٤/٨٤ عن علل الشرائع: ٢٥٨/١ الباب ١٨٢ ح ٩، عيون أخبار الرضا: ١٠٥/٢ الباب ٣٤ ح ١.

(٢) بحار الانوار: ١٤١/٨٤ عن معاني الاخبار: ٤٢ ح ٤.

(٣) بحار الانوار: ١٥٤/٨٤ عن جامع الأخبار: ١٧١ الحديث ٤٠٥.

قال: دعاك الى بر فاطمة وولدها (عليه السلام) ^(١)، وروايات أخرى ستأتي إن شاء الله تعالى.

وليس في هذا المعنى أي غرابة فان ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) كمال دين التوحيد وتمام نعمة الإسلام وقد أعلم الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بأنه إن لم يبلغ الولاية فكأنه لم يبلغ رسالة الإسلام أصلاً بنص الآية الشريفة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧) وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) فهذا وجه لكون (خير العمل) ولاية أمير المؤمنين والأئمة من بنيه (عليهم السلام)، باعتبارها ذروة الإسلام وخلاصة التوحيد والايمان بالله تعالى.

والوجه الآخر، أن بها تقبل الاعمال وتركى الأفعال، وفي كتاب العلل (وقوله حيّ على خير العمل أي حث على الولاية وعلّة أنها خير العمل أن الاعمال كلها بها تقبل) ^(٢).

وسنشير الى وجهين آخرين إن شاء الله تعالى.

حي على خير العمل كانت في الأذان:

وقد صرحت الروايات بأن هذه الفقرة كانت موجودة في الاذان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) لكن الثاني هو من أسقطها روى صاحب كتاب (دعائم

(١) بحار الأنوار: ٨١: ١٤١ عن معاني الأخبار: ٤٢، وعلل الشرائع: ٣٦٨ الباب ٨٩

(٢) بحار الانوار: ١٧٠/٨٤.

الإسلام) عن ابي جعفر (عليه السلام) قال: (كان الاذان بحِيٍّ على خير العمل على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبه امروا أيام ابي بكر وصدراً من أيام عمر، ثم امر عمر بقطعه وحذفه من الاذان والاقامة، ف قيل له في ذلك، فقال: إذا سمع الناس أن الصلاة خير العمل تهاونوا بالجهاد وتخلفوا عنه)^(١).

وهذا فعل منكر لعدم جواز الاجتهاد مقابل النص، مضافاً الى أن في هذا توهيناً لمقام النبي (صلى الله عليه وآله) إذ كيف خفي عليه هذا التأثير السلبي للنداء ولماذا لم يحذفه حتى تفتقت عنه ذهنية الثاني، وهل ثبَطَ هذا النداء عزائم المسلمين في الجهاد أيام النبي (صلى الله عليه وآله) وما بعده من حروب الردة والفتوحات الإسلامية، حتى يدعي مثل هذا السبب.

فالظاهر أن هذا السبب المعلن ليس هو الحقيقي، وإنما السبب الحقيقي هو طمس المعنى الثاني ومحاولة إطفاء نور الله تعالى المتمثل بأهل البيت (عليهم السلام) لان تكرار هذا النداء في الصلاة سيدفع الناس الى السؤال عن خير العمل حتى يبادروا اليه ويلتزموا به فأراد غلق باب السؤال لدى الناس عن خير العمل فألغى الفقرة من أصلها.

فقد روى الشيخ الصدوق بسنده عن محمد بن ابي عمير أنه (سأل أبا الحسن (عليه السلام) - موسى بن جعفر (عليه السلام) - عن حي على خير العمل لم تركت من الاذان؟ فقال: تريد العلة الظاهرة أو الباطنة، قلت أريدهما جميعاً، فقال: أما العلة الظاهرة فلئلا يدع الناس الجهاد إتكالاً على الصلاة، وأما الباطنة فأن خير العمل الولاية، فأراد من أمر بترك حي على خير العمل من الاذان أن لا يقع حث عليها

(١) بحار الانوار: ١٥٦/٨٤ عن دعائم الإسلام: ١٤٢/١.

ودعاء اليها^(١).

وهذه واحدة من محاولاتهم المحمومة لاستئصال أهل بيت النبي (ﷺ) واقصائهم عن قيادة الأمة بل عن مسرح الحياة لولا لطف الله تعالى وحفظه، روى الكشي في رجاله عن الامام الرضا (عليه السلام) قال: (لما قبض رسول الله (ﷺ) جهد الناس في إطفاء نور الله فأبى الله إلا ان يتم نوره بأمر المؤمنين (عليهم السلام)^(٢)).

وأمتدت محاولاتهم لتصل الى إزالة ذكر النبي (ﷺ) من أصله وكل ما يمت إليه بصلة من معالم الدين وشعائره وإعادة الناس الى جاهليتهم الأولى لولا خشيتهم من انقلاب الرأي العام عليهم وإبقاء لشعرة معاوية مع الدين الذي به تسلطوا على الأمة، ولنستمع الى هذا النص الذي اثبتته بن ابي الحديد المعتزلي وهو من علماء العامة، روي أن المطرف بن المغيرة بن شعبة^(٣) قال: دخلت مع أبي علي معاوية - وكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي، فيذكر معاوية وعقله، ويُعجب بما يرى منه - إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيتُه معتماً فانتظرتُه ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: مالي أراك معتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثهم! قلت: و ما ذاك؟ قال: قلت له وقد

(١) بحار الانوار: ١٤٠/٨٤ عن علل الشرائع: ٣٦٨/٢ الباب ٨٩ ح ٤.

(٢) معجم رجال الحديث: ٢٣٩/١٢ في ترجمة علي بن ابي حمزة البطائني عن رجال الكشي رقم ٣١٠.

(٣) المغيرة بن شعبة من دهاة العرب وكان له دور خفي في الاحداث منذ عهد رسول الله (ﷺ) وما بعده، وغلامه أبو لؤلؤة الفارسي هو من قتل عمر وقد ساعد معاوية في تشييد ملكه فكافئه بولاية الكوفة وتزلف اليه بأن القى اليه بدعة استخلاف ولده يزيد .

خلوت به: إنك قد بلغت سنأ يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره و ثوابه.

فقال: هيهات هيهات، أي ذكر أرجو بقاءه ملك أخوتيم - أي أبو بكر- فعدل، و فعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي - أي عمر- فاجتهد و شمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة - أي النبي محمد (ﷺ) فهو يستكبر عن الاعتراف بنبوته - ليُصاح به كل يوم خمس مرات " أشهد أن محمداً رسول الله، فأبى عمل يبقى و أيُّ ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك، لا والله إلا دفناً دفناً!!^(١).

حكمة الحث على خير العمل:

ومن هذا تبرز أهمية الحث على خير العمل بمعنى الدعاء الى ولاية أهل البيت (عليهم السلام) وبيان فضائلهم ومحاسن كلامهم وسيرتهم المباركة (فإن الناس لو سمعوا محاسن كلامنا لأتبعونا)^(٢) فبهم قوام الدين وديمومته وحفظه من التحريف والشبهات والتزييف والكذب والافتراء وإفشال هذه المحاولات الشيطانية الهدامة ولولا وجود الأئمة المعصومين (عليهم السلام) وقيامهم بأمر الدين لنُقِص بناؤه حجراً حجر من أول يوم كما دلت عليه الروايات المتقدمة وقد تواصلوا بهذه الجريمة

(١) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ج ٥ ص ١٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٣٠.

جيلاً بعد جيل وكان الأئمة (عليهم السلام) لهم بالمرصاد ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة: ٦٤) فوصف ولاية أهل البيت والدعوة إليها والتمسك بها بخير العمل في محله لان بها يُحفظ الدين وكل الطاعات والاعمال الصالحة، وهذا وجه ثالث.

والوجه الرابع: ما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٥) من كتب الفريقين أنها نزلت في علي (عليه السلام) وشيعته، كالذي رواه الحسكاني في شواهد التنزيل وموفق بن أحمد في كتاب المناقب بالإسناد عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (حدثني رسول الله ﷺ) وأنا مسنده الى صدري، فقال: أي علي، ألم تسمع قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جثت الأمم للحساب تدعون غراً محجلين) وهي مما احتج بها أمير المؤمنين على أهل الشورى حينما عدّد مناقبه وان النبي (ﷺ) قال للمسلمين (إن هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة، فنزلت الآية (فكبر رسول الله ﷺ) وكبرتم وهنأتموني بأجمعكم فهل تعلمون أن ذلك كذلك؟ قالوا: اللهم نعم) (١).

ولكي يتم الاستدلال بالآية على ما نريد نضم إليها قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢٤) وقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) ونحوهما الدالة على ان معيار التفاضل وتفاوت

(١) راجع مصادر الروايات في تفسير البرهان: ٢٠٦/١٠.

المنزلة عند الله تعالى هو خير العمل وأحسنه فتتحقق النتيجة وهي أن أكرم الناس وخير البرية هم أهل خير العمل وأفضله وأحسنه وقد أفادت آية البينة أن خير البرية هم علي ومن تمسك بولايته وسار على منهجه، فالنتيجة أن أهل خير العمل هم علي وشيعته المتمسكون بولايته ولازمه ان خير العمل هو هذا.

اذن علينا أيها الاحبة^(١) أن نلبي - كل من موقعه: علماء وخطباء ومنتقنين وكتّاب وشعراء وناشطين على مواقع التواصل وغير ذلك - هذا النداء (حيّ على خير العمل) بعد أن نفهم معناه ونواظب عليه ونبذل وسعنا في دعوة الناس كافة الى الاستجابة لهذا النداء لنكون من خير البرية الذين وصفتهم الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧)، وقد أتانا الله تعالى من آليات العمل ووسائل التواصل ما يغبطنا عليه سائر الأجيال لسعة الفرصة وقوة التأثير وحسن الاستجابة بتوفيق الله تعالى تمهيداً وتعجيلاً للظهور الميمون المبارك وإقامة دولة العدل الالهية.

(١) كلمة متلفزة وجهّها سماحة المرجع الشيخ اليعقوبي (دام ظله) الى مؤتمر المبلّغين الذي عقده مكتب المرجع في قم المقدسة يوم الخميس ٢٠/ ذي الحجة/ ١٤٣٧ الموافق ٢٢/٩/٢٠١٦ بمناسبة عيد الغدير الأغر وقرب حلول موسم التبليغ في شهري محرم وصفر.

الآية الرابعة والثلاثون:

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

نعمة ولاية اهل البيت (عليه السلام)

الالتفات الى نعم الله تعالى:

قال الله تبارك وتعالى في أكثر من موضع من كتابه الكريم ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤) (النحل: ١٨)، ولو أجهد الإنسان نفسه لإحصاء هذه النعم فإنه يعجز فعلاً، بل إن كل نعمة يذكرها - كصحة وسلامة البدن - هي في الحقيقة مجموعة من النعم لا تُعدّ ولا تحصى، فكل نفس من الهواء يستنشقه هو نعمة، وكل قطرة دم تسري في عروقه هي نعمة وكل نبضة من قلبه هي نعمة وهكذا، وإذا أراد الإنسان أن يعرف أهمية هذه النعم التفصيلية فليتفت إلى ما يحصل لو حُرِمَ منها.

وهكذا كل نعمة كغيف الخبز الذي يأكله كل إنسان يومياً ويعتبره أمراً عادياً، فليتأمل كيف وصل إليه وكم نعمة اشتركت في إعداده، من الأرض التي جعلت صالحة للزراعة والماء الذي يسقيها، والحب الذي ينبت في تلك الأرض، والزارع الذي يصلح الأرض ويداري الزرع إلى أن يحصده ويخرج الحب من سنبله، ثم التاجر الذي ينقله، إلى الطحان والعجان والخباز والبائع، وأودع الله تعالى في هؤلاء غرائز تدفعهم إلى القيام بهذه الأعمال وتحمل المشاق والصعوبات كحب البقاء.

علينا أن نشكر الله تعالى على نعمه:

ولكن الإنسان يغفل عن هذه النعم، وحتى لو التفت إليها فإنه لا يشكرها ولا يؤدي حقها، قال تعالى في ذيل الآية في موضعها الأول من سورة إبراهيم ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤) فهو يظلم ربّه إذ لا يوفيه حقه، ويظلم نفسه لأنه يوقعها في الخسران العظيم، وهو كافر لأنه جاحد ومتنكر لهذه النعم، لكن الله الرحمن الرحيم خالق هذا الإنسان والعالم بمكوناته غفر له هذا التقصير، قال تعالى في ذيل الآية في موضعها الثاني من سورة النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ومن رحمته أن جعل الاعتراف بالقصور والتقصير عن إحصاء النعم فضلاً عن شكرها هو حق الشكر له تبارك وتعالى، كما روي في أخبار الرسول الكريم موسى بن عمران (عليه السلام) أن الله تعالى أوحى إليه أن يا موسى اشكرني حق شكري، قال (عليه السلام) وأنى لي أن أشكرك حقّ شكرك، فأوحى الله إليه: إن هذا الاعتراف بالعجز هو حق شكري.

وفي الكافي (كان الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) إذا قرأ هذه الآية (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها)^(١) يقول: سبحان الذي لم يجعل في أحد من معرفة نعمة إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه، فشكر جل وعز معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما علّم علّم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله علماً).

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٨/٣٩٤/ح ٥٩٢

وفي مناجاة الشاكرين للإمام السجاد (عليه السلام) (فألاؤك جمّة ضعف لساني عن إحصائها، ونعمائك كثيرة قصر فهمي عن إدراكها، فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلتُ لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد)^(١).

شكر النعم المعنوية:

هذا كله في النعم المادية - إذا أمكن تسميتها - وهي ملتفت إليها في الجملة، لكن ما لا نلتفت إليه إلا نادراً النعم المعنوية وعلى رأسها الإيمان بالله تعالى وبرسوله (صلى الله عليه وآله) وما جاء به، الذي هو وسيلة النجاة والفلاح في الحياة الباقية، وهو من أعظم النعم على الإنسان، بل به يصبح الإنسان إنساناً، أما غير المؤمنين فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

نعمة الولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام):

ثم نعمة ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بنيهِ (صلوات الله عليهم أجمعين)، في الكافي وتفسير القمي (قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۗ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (إبراهيم: ٢٨-٢٩).

قال (عليه السلام): ما بال أقوام غيروا سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعدلوا عن وصيّه ولا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب: ثم تلا الآية ثم قال: نحن النعمة التي أنعم الله على

عباده وبنا يفوز من فاز يوم القيامة^(١) وورد في هؤلاء المبدلين لنعمة الله تعالى من طرق الفريقين عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعمر بن الخطاب (هما الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة، فقطع الله دابرهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (عنى بها قريش قاطبة الذين عادوا رسول الله ونصبوا له الحرب وجحدوا وصيه).

وهذا التفسير شاهد على أن النعمة المقصودة هي الإيمان بالله تعالى وبرسوله الكريم (ﷺ)، وقد جاءت الآية محل البحث في ختام هذا السياق من الآيات المباركة.

تذكير الناس:

وفي ضوء هذا فقد كان الأئمة (عليهم السلام) يصححون هذا الفهم لدى الناس وينبهونهم من غفلتهم، فقد ورد في تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ١٠) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (إن النعيم الذي يُسأل عنه: رسول الله (ﷺ) ومن حلّ محلّه من أصفياء الله، فإن الله أنعم بهم على من أتبعهم من أوليائهم).

وفي تفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) (أنه سأله أبو حنيفة عن هذه الآية، فقال له: ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها

(١) تفسير الصافي ٢٤٠/٤ عن الكافي، باب أن النعمة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الأئمة (عليهم السلام).

ليطوّلن وقوفك بين يديه، قال: فما النعيم جعلت فداك؟ فقال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتملّفوا بعد أن كانوا مختلفين^(١)، وبنا أَلّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً. وبنا هداهم الله للإسلام، وهو النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وعترته (عليهم السلام).

وفي رواية: (انه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال له: بلغني انك تفسّر النعيم في هذه الآية بالطعام، والطيب، والماء البارد في اليوم الصائف؟ قال: نعم، قال: لو دعاك رجل وأطعمك طعاماً طيباً وسقاك ماءً بارداً ثم امتنّ عليك به إلى ما كنت تنسبه؟ قال: إلى البخل، قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): أفيخّل الله تعالى؟ قال فما هو؟ قال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): حيناً أهل البيت (عليهم السلام)^(٢).
وروايات أخر بهذه المضامين^(٣).

نعمة حسن الخلق:

ومن هذه النعم المعنوية حُسن الخلق وبها امتدح الله تعالى نبيه الكريم

(١) هذا تطبيق منه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

(١) أقول: ذكر الإمام (عَلَيْهِ السَّلَامُ) هذا لتصحيح فهم أبي حنيفة وإلا فإن الإنسان يُسأل عن ماله مم اكتسبه وفيه أنفقه، وعن أولاده كيف ربّاهم ومم أنفق عليهم وهكذا، نعم لا يُسأل عن ضرورات حياته وهذا وجه للجمع بين الروايات، ويشهد له صحيح الحلبي عن أبي عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (ثلاثة أشياء لا يحاسب عليهن المؤمن: طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه ويحصن بها فرجه) (وسائل الشيعة، أبواب مقدمات النكاح، باب ٩، ح ١).

(٣) نقلها تفسير الصافي: ٥٤٧/٧-٥٤٨ عن تفسير القمي والعياشي وعيون أخبار الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) والكافي والمحاسن.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) والناس لا تلتفت إلى هذه النعم ولا تعيرها اهتماماً ولذا فإنهم لا يحسدون صاحبها عليها، وقد ورد في التواضع ما مضمونه انه نعمة لا يحسد عليها صاحبها، فهل يلتفت المجتمع إلى تهنئة من يكتسب خلقاً كريماً أو يؤدي طاعة عظيمة كصلاة الليل أو بر الوالدين أو قضاء حوائج الناس أو المواظبة على صلاة الجماعة في المساجد كما يهنئون من يرزق مالاً أو ولداً، وهل يعزّون أحداً على فوات شيء من ذلك كنومه عن صلاة الصبح أو عقوق الوالدين أو الإفطار في شهر رمضان كما يعزّون على فقدان عزيز أو حصول خسارة.

نعمة الزوجة الصالحة:

ومن هذه النعم الزوجة الصالحة، ففي الحديث الشريف عن النبي (ﷺ) قال (ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسرّه إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله).^(١)

علينا أن نتحدث بالنعم المعنوية:

هذه النعم المعنوية (الإيمان بالله وبرسوله وولاية أهل البيت (عليهم السلام) وحسن الأخلاق) هي الأوضح في عدم قبولها الإحصاء والاستقصاء لأنها تمتد إلى الحياة الباقية الخالدة، ولان بركاتها وأثارها واسعة، ولأنها مستمرة بالعطاء لا تنقطع كما عبّر الإمام (عليه السلام) في حديثه مع أبي حنيفة وهذه النعم هي التي طلب الله تعالى من عباده أن يتحدثوا بها وينشروها ويدعوا الناس إليها لتغمرهم سعادتها، قال تعالى

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، أبواب مقدماته وآدابه، باب ٩، ح ١٠.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال: (أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه)^(١).

ولا نتوقع أن المطلوب أن يتحدث الإنسان بما عنده من أموال وعقارات وأولاد ونحوها، نعم ورد في تطبيق الآية على هذا المستوى أن يُظهر الإنسان نعمة الله عليه، لأن التظاهر بعكسها كذب في الفعل وإخفاء لنعمة الله عليه، ففي الكافي عن الصادق (عليه السلام) قال (إذا أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله على عبده بنعمة فلم تظهر عليه، سمي بغيض الله مكذباً بنعمة الله).^(٢)

شهر رمضان: من النعم المعنوية:

ومن تلك النعم المعنوية التي أكرمنا الله تعالى بها شهر رمضان الذي أطلّ علينا. بفضل الله تبارك وتعالى، فاستقبلوه بمعرفة فضله، وعظيم نعمة الله تعالى به، وأنى لنا أن نعرفه حق معرفته لولا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الكرام، فاعرفوا حقه وقدره من خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في آخر جمعة من شعبان^(٣) وتأملوا فيها جيداً. واعرفوه أيضاً من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في استقباله، ودعائه في وداع شهر رمضان الذي نصحتُ مراراً بقراءته قبل دخول الشهر لنزداد بصيرة بعظمة

(١) تفسير الصافي: ٥٠٤/٧٠ عن المحاسن للبرقي.

(٢) المصدر نفسه عن الكافي: باب التَّجَمُّلِ وإظهار النعمة.

(٣) راجعها في مفاتيح الجنان في فضل شهر رمضان وأعماله.

هذا الشهر الشريف ونستعد له، والدعاء ان موجودان في الصحيفة السجادية. ومما ورد في ثانيهما في بيان عظيم نعمة الله تعالى بهذا الشهر الشريف قوله (عَلَيْهِ) (ما أفشى فينا نعمتك، وأسبغ علينا منّك، وأخصنا ببرك، هديتنا لدينك الذي اصطفيت، وملّك التي ارتضيت، وسيلك الذي سهّلت، وبصرتنا الزلفة لديك، والوصول إلى كرامتك) ثم قال (عَلَيْهِ) (اللهم وأنت جعلت من صفايا تلك الوظائف وخصائص تلك الفروض شهر رمضان الذي اختصته من سائر الشهور، وتخيّرته من جميع الأزمنة والدهور، وآثرته على كل أوقات السنة، بما أنزلت فيه من القرآن والنور. وضاعفت فيه من الإيمان، وفرضت فيه من الصيام، ورغبت فيه من القيام) إلى أن قال (عَلَيْهِ) (وقد أقام فينا هذا الشهر مقام حمد، وصحبنا صحبة مبرور، وأربحنا أفضل أرباح العالمين)، وقد شرح النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هذه الأرباح في خطبته التي اشرفنا إليها، وهي حقاً أفضل أرباح العالمين.

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ:

والتزاماً بالآية الشريفة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ينبغي لنا أن نستقبل هذا الشهر الشريف وهذه النعمة المباركة بمعرفته والاستعداد له بالتوبة والاستغفار والعزم على مضاعفة الهمة في الطاعات والورع عما حرّم الله تعالى، وصيام الأيام الأخيرة من شعبان ولو للقضاء عما في الذمة، وأن نضع لنا برامج نقضي بها أيامه ولياليه الشريفة تتضمن أداء صلوات مستحبة وأدعية وتلاوة القرآن لأنه شهر رمضان ربيع القرآن، وتتضمن حضور المساجد لأداء صلاة الجماعة والاستماع إلى محاضرات الوعظ والإرشاد مباشرة أو التي تنقلها الفضائيات بفضل الله تبارك

وتعالى.

وان نتحدث بفضل هذا الشهر وعظمته، وندعو الناس إلى أداء حق الله تعالى فيه أكثر مما في غيره من لزوم الطاعات واجتناب المعاصي، وان نقيم الفعاليات التي تحفز المجتمع على طاعة الله تبارك وتعالى وذم معصيته بنشر اللوحات الجدارية والبوسترات التي تتضمن الأحاديث الشريفة.

ونذكركم بما قلناه سابقاً من وضع مكبرات الصوت على السيارات وتجوب شوارع المدن مرحبة بالشهر الشريف ومبينة لعظمته وثواب الطاعة فيه وعقوبة المخالفين، إقامة المسيرات والمهرجانات الاحتفالية بقدوم هذا الشهر المبارك وتلبية الدعوة لضيافة الرحمن والتزوّد من الموائد الإلهية.

ماذا علينا تجاه النعم المعنوية؟

أقول كلامي هذا:

- ١- لنلتفت إلى النعم الحقيقية التي تبقى ونعمل على تحصيلها.
 - ٢- ولنزهد في ما سواها من النعم الزائلة التي يفني الغافل عمره في جمعها والعناية بها ومتابعتها فيكون خادماً لها بدل أن تكون هي خادمة له، فصاحبها لا يحسد عليها حقيقة.
 - ٣- وأن نبذل الوسع في التحدث بهذه النعم الحقيقية وندعو الناس إليها ونرغبهم فيها.
 - ٤- ولتجنب هذا التزاحم والتغالب والصراع على تلك الأمور الوهمية التي يُخدع بها الغافلون.
- قال تعالى في المقارنة بين النوعين من النعم ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ
أَوْ نَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ (آل

عمران: ﴿١٤﴾-﴿١٥﴾)

إن اختيار اسم (النعيم) لهذه الفضائية^(١) التي أنطلق بثها تزامناً مع حلول شهر
رمضان المبارك، يحملها مسؤولية التحدث بهذه النعم العظيمة.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذه القناة منبراً لبيان النعم الحقيقية ودعوة الناس
إليها وخلق الحوافز لديهم للتمسك بها مع عدم إهمال الحديث عن النعم المادية
كسعة المال وصحة البدن والأمن والعافية والولد والاستقرار وكيفية استثمارها في
طاعة الله تبارك وتعالى.

وأن تكون هذه القناة نافذةً يُطلُّ منها العلماء والمفكرون والعاملون
المخلصون على الدنيا لتسمع منهم وتهتدي بهم ويحققوا أمل الأئمة الأطهار (عليهم السلام)
عندما حثوا شيعتهم على إيصال صوتهم للبشرية جمعاء وقالوا (عليهم السلام) (فإن الناس لو
علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)^(٢) فلتتحدث القناة بهذه النعم الإلهية وتدعو الناس
إليها، فإن اختيار الاسم للقناة جاء منسجماً مع هذه المسؤولية ﴿وَفِي ذَلِكَ
فَلْيَتَنَفَّسِ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ (المطففين: ﴿٦١﴾).

(١) كلمة سجّلها سماحة الشيخ اليعقوبي (رحمته الله) إلى قناة النعيم الفضائية لمباركة انطلاقها تزامناً مع

حلول شهر رمضان المبارك يوم الجمعة ٢٧/شعبان/١٤٣٢ المصادف ٢٩/٧/٢٠١١.

(٢) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١٨٠

الآية الخامسة والثلاثون:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]

وجوب مودة أهل البيت (عليهم السلام) على الأمة^(١)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ* ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٢-٢٣].

نصب موازين العدل يوم القيامة:

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ يوم القيامة حينما تنصب موازين العدل وتعرض صحائف الأعمال تشاهد الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بفعل المعاصي خائفين وجلين من أعمالهم السيئة التي ارتكبوها وأضاعوا عمرهم فيها وسيتألمون^(٢) بها ومنها بعدما كانوا فرحين بها في الدنيا ويتبجحون

(١) الخطبة الأولى لصلاة عيد الأضحى المبارك للعام ١٤٤٥ الموافق ١٧/٦/٢٠٢٤.

(٢) لذلك استدل بالآية الكريمة على حضور الأعمال يوم القيامة -وعلى تعبير مؤيدي الفكرة كالسيد الطباطبائي: تجسّم الأعمال، وأنها بنفسها تكون جزاءً لصاحبها إذ لا حاجة إلى تقدير مضاف جزاء أو عقاب أو وبال ما كسبوا لأن الأصل عدم التقدير، وقد يقال بأننا لا نحتاج إلى التقدير لأن الآية ذكرت ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ والكسب ليس نفس العمل وإنما ما يترتب عليه من جزاء وآثار ولعله الأنسب لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ لا نفس العمل.

بها، لكن هذا الخوف لا ينفعهم ولا يرفع عنهم العذاب لأنه جاء بعد فوات الأوان ولا أثر له فالعذاب واقع بهم لا محالة، ولو خافوا في الدنيا بنحو يردعهم عن فعل المعاصي لانتفعوا منه باكتساب التقوى واجتناب المعاصي.

منزلة المؤمنين في الجنة:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ وفي مقابل ذلك تخبر الآية الكريمة عن نعيم عظيم وحياة طيبة هائلة سعيدة في أجمل مواقع الجنة تمنح للمؤمنين الذين يعملون الصالحات وتعرض الصورتان مقترنتين لتكون هذه المقارنة دافعاً للالتزام بالحق وسلوك طريق الصلاح، وهو أسلوب تربوي مؤثر من باب (ازجر المسيء بثواب المحسن)^(١) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها)^(٢).

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢] فلا حاجة إلى أن يقوموا بأية مقدمات أو أسباب للوصول إلى تحقيق رغباتهم كما في الدنيا وقد لا يتحقق لهم، أما في هذه الجنان فإن مجرد إرادتهم لشيء توجب حضوره عندهم وتحققه لهم ويزيدهم هناءً أنهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] وليس كما في الدنيا حيث كانوا يمتنعون عن بعض ما يشتهون لأنه حرام أو لعجزهم.

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١٧٤.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦٥.

النعيم لا ينال إلا بفضل الله تعالى:

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فإن هذا النعيم لا ينال إلا بفضل كبير من الله تعالى فهو الذي هداهم إلى الإيمان والعمل الصالح وحببه إليهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] بلا شك لأنه دائم طيب لا يكدره شيء ومحفوظ برضوان من الله تعالى، حيث لا يقاس به نعيم الدنيا الزائل المنغص بعوارضها وأسقامها.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى: ٢٣] هذا الإخبار لرف هذه البشرى إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصفهم بأنهم عباده لتشيرفهم بهذه الإضافة.

أجر الرسالة (المودة في القربى):

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ هذه الهداية العظيمة التي أفاضها الله تعالى على عباده وأوجبت لهم هذه النعم كانت بواسطة رسول الله (ﷺ) وأداءه للرسالة الإلهية، لم يطلب (ﷺ) عليه أجراً، لأن عمله خالص لله تبارك وتعالى، وكل ما يريده هو نفعهم وفوزهم وفلاحهم وسعادتهم رحمة بهم، فأجره (ﷺ) على الرسالة يعود عليهم ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧] وما قيامه (ﷺ) بهذا العمل المضني إلا ليدكر جميع الناس بمسؤولياتهم إزاء النعم العظيمة التي من الله تعالى بها عليهم وما فيه كمالهم ورفيهم ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا المبدأ عبّر عنه جميع الأنبياء (صلوات الله تعالى عليهم) بوضوح، وحكاه الله تعالى في سورة الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب فقالوا

جميعاً بلسان واحد: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشورى: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠] لأنهم عباد مخلصون لله تعالى، وهكذا كان المعصومون من أهل بيت النبي (ﷺ) ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] وكان الأنبياء (عليهم السلام) بعد كل آية فيها عدم سؤال الأجر يقولون: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٠٨] أي أنهم لا يريدون من الناس شيئاً إلا أن يصبحوا مؤمنين صالحين مطيعين لله ورسوله، كالأستاذ الذي يجعل أجره على الطالب أن يجد ويجتهد في درسه.

لذلك يوبخ الله تعالى الذين لم يتبعوا رسول الله (ﷺ) ولم يطيعوه بأنهم مم يخافون؟ وما هو سبب امتناعهم عن اتباع الرسول (ﷺ)؟ إذا كان لا يريد منهم أي جزاء على هدايتهم إلا ما يعود لهم ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

بيان معنى المودة:

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ والمودة هي المحبة والميل إلى الشيء والملائمة معه والاطمئنان إليه، ومن الأسماء الحسنى ﴿الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] وهي صفة يمكن أن تكون بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول لأنه تعالى يحب أوليائه وهم يحبونه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقيل في الفرق بين الحب والود: ((أن الحب يكون فيما يوجه ميل الطباع والحكمة معاً، والوداد من جهة ميل الطباع فقط، ألا ترى أنك تقول: أحبُّ الصلاة ولا تقول: أودُّ الصلاة))^(١).

أقول: فكأن اختيار لفظ المودة من الآية أن الفطرة النقية والطبع السليم يقتضي محبة قربي النبي (ﷺ) والميل إليهم لاجتماع صفات الجمال والكمال فيهم.

والمودة لكي تكون صادقة لا بد أن تكون عن معرفة، وهي لا تنال إلا بتوفيق إلهي ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

من هم القربى في الآية:

والمراد بالقربى: قربي الرسول (ﷺ) ولكن ليسوا كلهم كما فهم الصحابة وإنما مجموعة خاصة من قربي النبي (ﷺ) لقوله تعالى: ﴿فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] الدالة على الظرفية لا أزيد فكأنها بمعنى (من التبعية) أي أن المودة فيهم وليس لهم جميعاً، إذ لم يقل: للقربى حتى يمكن إفادتها العموم، كما أن قوله (ﷺ): (الأئمة في قريش) لا تعني أن كل قريش أئمة بل إن الإمامة فيهم لا في غيرهم، بل قيل أن هيئة (فُعلَى) تفيد وجود المبدأ فيكون معناها القرابة القريبة، كما أن النبي (ﷺ) لا يتحدث بصفته الشخصية حتى يراد بهم كل أقربائه النسبيين، وإنما بصفته نبياً مرسلأً بدين قيّم خالد، فقرباه هم المؤهلون لحمل

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري: ١٧٤، ط. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

الرسالة من بعده، وقد فهم الصحابة هذا المعنى لذا سألوا النبي (ﷺ) عنهم في الرواية الآتية إن شاء الله تعالى.

ولعل اشتراط المودة لأن الحب هو المحرك لطاعة المحبوب ((إن المحب لمن أحب مطيع))، وإلا فإن المطلوب ليس هو مجرد الحب، وإنما طاعة من أمر الله تعالى بمودتهم باعتبارهم السبيل إلى الله تبارك وتعالى.

فاختصَّ النبي (ﷺ) من بين الأنبياء بهذا الاستثناء المتصل أو المنقطع، وهو طلب اشتراطه على الأمة وهو المودة في القربى.

وهؤلاء القربى مخصوصون اختارهم الله تعالى لحمل الرسالة ومواصلتها واستمرار هداية الناس إلى الله تبارك وتعالى، فهذا الطلب ليس عاطفياً بهدف إثارة الشفقة نحو القربى لرعايتهم، وبه يُردّ الإشكال على هذا التفسير بأن طلب مودة القربى مما يوجب التهمة، فإنه لم يطلبه لنفسه وإنما أمره الله تعالى أن يقول ذلك ﴿قُلْ﴾، فهو تخطيط إلهي لاستمرار القيادة الربانية بأقرب الناس إلى رسول الله (ﷺ) طهراً وسمواً ومكانة وعملاً ومنهجاً لحفظ الرسالة وديمومتها وإتقان أدائها.

وهذا الأجر يعود عليهم بالنفع ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧] وليس عوضاً حقيقياً على أداء الرسالة؛ لأن فيه ضماناً لاستمرار هدايتهم وصلاحهم وبه كمال الدين وتمام نعمة الإسلام كما في آية المائدة، لذا لا تتم الرسالة إلا به والتفريق بين النبي (ﷺ) وخلفائه الذين أمر بمودتهم يؤدي إلى الضياع.

وقد وضحت آية الفرقان ذلك ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]، وكلا الآيتين تفيدان الحصر فلا بد أن يكون المراد واحداً وإلا حصل تناقض، فالقربى الذين أمر الله تعالى بمودتهم واتباعهم هم السبيل الموصل إلى الله تعالى.

وقد استفاضت الروايات بل تواترت^(١) من طرق الفريقين وهي تدل على أن المراد بالقربى في الآية الكريمة هم أهل بيت النبي (ﷺ) الذين غطّاهم بكسائه وقرأ عليهم آية التطهير ولم يسمح حتى لزوجته الفاضلة العارفة أم سلمة أن تدخل معهم، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم أجمعين).

منها ما رواه في الدر المنثور عن جمع والمحب الطبري وأحمد في مسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (لَمَّا نَزَلَتْ ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال (ﷺ): علي وفاطمة وبناهما (صلوات الله عليهم أجمعين)^(٢).

(١) أحصى في (غاية المرام: ٣/ ٢٣٠- ٢٤٤) في الباب الخامس سبعة عشر حديثاً من طرق العامة وفي الباب السادس اثنين وعشرين حديثاً من طرق الخاصة، وفي (تفسير الفرقان: ٢٥/ ٢٥٠) قائمة طويلة بمصادر العامة التي روت الحديث.

(٢) فضائل الصحابة لابن حنبل: ٢/ ٨٨٣، ح ١١٤١، ذخائر العقبى: ٢٥، وفي تفسير الرازي وابن كثير والدر المنثور عند تفسير الآية ومجمع الزوائد لابن حجر: ٧/ ١٠٣ عند تفسير الآية و٩/ ١٦٨ في كتاب المناقب، نور الأبصار للشبلنجي: ١٠١، وشواهد التنزيل للحسكاني وغيرهم.

وروى المحب الطبري أن رسول الله (ﷺ) قال: (إن الله جعل أجري عليكم المودة في أهل بيتي وإنني سألكم غداً عنهم)^(١).

وفي صحيحي مسلم والبخاري أن ابن عباس سئل عن القربى في الآية فقال: (قربى آل محمد صلوات الله تعالى عليهم)^(٢).

وفي الدر المنثور: أخرج البخاري عن أبي بكر قال: راقبوا محمداً (ﷺ) في أهل بيته^(٣)، وأخرج عن أبي سعيد أن النبي (ﷺ) قال: (من أبغضنا أهل البيت فهو منافق)^(٤) وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: (قال رسول الله (ﷺ): لا يبغضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا زيد عن الحوض يوم القيامة بسياط من نار)^(٥).

أقول: لوضوح هذا المعنى وحقانيته فقد نظمته الشافعي في أبيات:

يَا رَاكِبًا قِفْ بِالْمُحْصَبِ مِنْ مَنَى وَاهْتَفِ بِقَاعِدِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِضِ
سَحَرًا إِذَا فَاضَ الْحَجِيجُ إِلَى مَنَى فَيُضَا كَمَلِطَمِ الْفُرَاتِ الْفَائِضِ

(١) ذخائر العقبى: ٢٥.

(٢) صحيح البخاري: ٦ / ٢٣١، صحيح مسلم: ج ٥ عند تفسير الآية.

(٣) الدر المنثور: ٧ / ٣٤٩. وفي البخاري: (ارقبوا محمداً في أهل بيته).

(٤) الدر المنثور: ٧ / ٣٤٩.

(٥) الدر المنثور: ٧ / ٣٤٩.

إِنْ كَانَ رَفُضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي ^(١)
وقال الكميت الأسدي:

وجدنا لكم في آل حاميم ^(٢) آيةً تأولها منا تقيٌّ ومُعربٌ ^(٣).

ومن جملة ما ورد عن طريقهم ما أخرجه محمد بن جرير بسنده في كتاب المناقب: (إن النبي ﷺ) قال لعلي (عليه السلام): اخرج فناد: ألا من ظلم أجيلاً أجرته فعليه لعنة الله، ألا ومن تولى غير مواليه فعليه لعنة الله، ألا ومن سب أبويه فعليه لعنة الله، فنادى بذلك فدخل عمر وجماعة على النبي ﷺ، وقالوا: هل من تفسير لما نادى؟، قال: نعم إن الله يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فمن ظلمنا فعليه لعنة الله، ويقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ومن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن والى غيره وغير ذريته فعليه لعنة الله، وأشهدكم أنا وعلي أبو المؤمنين، فمن سب أحدنا فعليه لعنة الله، فلما خرجوا قال عمر: يا أصحاب محمد ﷺ ما أكد النبي ﷺ لعلي بغدير خم ولا غيره أشد من تأكيده في يومنا هذا، قال خباب بن الارت: كان ذلك قبل وفاة رسول الله ﷺ بتسعة عشر يوماً ^(٤).

(١) الصواعق لابن حجر العسقلاني: ص ٧٩، حليه الأولياء لابي نعيم: ١٥٢/٩.

(٢) هي الآية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] والحواميم هي السور التي ابتدأت بقوله تعالى: ﴿حم﴾.

(٣) التقي من عمل بالتقية، والمعرب من أظهر مذهبه علانية.

(٤) غاية المرام: ص ٣٠٦، عن المناقب لأبن جرير: حاشية شواهد التنزيل للحسكاني: ١٩٦/٢، ذيل

الشيعة الإمامية وحديث القربى:

أما الإمامية فقد اتفقوا على أن المراد بالقربى الذين تجب مودتهم هم أهل البيت (عليهم السلام) الذين طهرهم الله تعالى ولهم في ذلك روايات كثيرة، روى البرقي في المحاسن بسنده عن محمد بن مسلم قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الرجل يحب الرجل ويبغض ولده فأبى الله عز وجل إلا أن يجعل حبنا مفترضاً أخذه من أخذه، وتركه من تركه واجباً فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾).^(١)

ومما ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة (وَبِمُؤَالَاتِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ، وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ، وَاتْتَلَفَتِ الْفُرْقَةُ، وَبِمُؤَالَاتِكُمْ تُقْبَلُ الطَّاعَةُ الْمُفْتَرَضَةُ، وَلَكُمْ الْمَوَدَّةُ الْوَاجِبَةُ، وَالذَّرَجَاتُ الرَّفِيعَةُ).

دلالات الآية الشريفة:

أقول: يظهر من هذه الروايات أن أصحاب النبي ﷺ فهموا من الآية عدة

دلالات:

أ- وجوب مودة القربى حيث جعلت أجراً على الرسالة، فإن ثبوت الأجر يلزم منه وجوب الوفاء به، لذا قال الصحابة: ((مَنْ قَرَابَتِكَ هُوَ لَاءَ الَّذِينَ وَجِبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتُهُمْ؟)).

ب- أن المراد ليس جميع أقرباء النبي (ﷺ) وإنما مخصوصون منه يكون لهم من المنزلة العظيمة ما تصلح مودتهم أن تكون أجراً للرسالة، وهم بذلك أفضل الناس بعد رسول الله (ﷺ) وأكملهم وأحق بولاية الأمر بعده.

ت- إن هذه المودّة من أعظم الواجبات الإلهية لكونها معادلة للرسالة وقد عبّر حديث الثقلين عن هذه التوأمة والاقتران بحيث لا يصل الناس إلى الله تعالى إلا بالأخذ بهما معاً.

ومما تقدم نعلم ضعف الأقوال الأخرى التي أوردها مفسرو العامة^(١) وربما رووا عن ابن عباس معاني غير ما تقدم فنسبوا إليه قوله: ((كان لرسول الله (ﷺ) قرابة من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه، قال: يا قوم: إذا أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي منكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم))^(٢).

وفيه: أن قريشاً كذّبت برسول الله (ﷺ) فكيف يطلب منهم أجراً وإنما يصح ذلك ممن آمن به، والدعوة الإسلامية ليست عصبية جاهلية ولا عشائرية ولا قومية ثم إن هذا المعنى مخالف لما عُرف عن ابن عباس مما نقلناه وقد ردّ مفسرو العامة قبل الخاصة على هذه الأقوال، وذكر الرازي في تفسيره وجوهاً لكون المقصودين بالقربى هم أهل بيت النبي (ﷺ) خاصة، ونقل عن صاحب الكشاف قول النبي (ﷺ): (مَنْ مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات

(١) عرضها وناقشها السيد الطباطبائي (رضوان الله تعالى عليه) في الميزان: ٤٣/١٨-٤٨.

(٢) الدر المنثور: ٣٤٦/٧.

على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد ﷺ فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة^(١).

وقد عمل أعداء أهل البيت (عليهم السلام) والأمويون والعباسيون وغيرهم على تضليل الناس وصرفهم عن أهل البيت (عليهم السلام) وإنكار مناقبهم ومنها توسيع المراد إلى كل قربي الرسول (ﷺ) من قريش لإعطاء شرعية وقدسية لملكهم فتصدى الأئمة (عليهم السلام) لتكذيبهم، روى الشيخ الكليني بسنده عن إسماعيل بن عبد الخالق قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول لأبي جعفر الأحول وأنا أسمع: أتيت البصرة؟ فقال: نعم، قال: كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟ قال: والله إنهم لقليل ولقد فعلوا وإن ذلك لقليل، فقال: عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير، ثم قال: ما يقول أهل البصرة في هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ قلت: جعلت فداك إنهم يقولون: إنها لأقارب

(١) الكشاف: ٤/ ٢٢٠-٢٢١، تفسير الرازي: ٢٧/ ١٦٥-١٦٦، تفسير القرطبي: ٨/ ٥٨٤٣، تفسير الثعلبي.

رسول الله (ﷺ)، فقال: كذبوا إنما نزلت فينا خاصة في أهل البيت في علي وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء (عليهم السلام) (١).

وروى البرقي في محاسنه بسنده عن حجاج الخشاب قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول لأبي جعفر الأحول ما يقول من عندكم في قول الله تبارك وتعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}؟ فقال: كان الحسن البصري يقول: في القربى من العرب، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) لكني أقول لقريش الذين عندنا هاهنا خاصة، فيقولون: هي لنا ولكم عامة، فأقول: خبروني عن النبي (ﷺ) إذا نزلت به شديدة من خص بها؟ أليس إيانا خص بها حين أراد أن يلاعن أهل نجران أخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، ويوم بدر قال لعلي وحزمة وعبيدة بن الحارث، قال: فأبوا يقرون لي، أفلكم الحلو ولنا المر؟ (٢)

وفي ضوء هذا نفهم تفسير الإمام (عليه السلام) للجزء الأول من الآية ٢٢ ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعَ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢] أنهم من ظلموا آل محمد (ﷺ) حقهم فهم خائفون مما ارتكبوا وعملوا من السيئات لكن ذلك الخوف لا يدفع عنهم العذاب فإن ما يخافونه واقع بهم (٣) فإن الظالمين هم من أعرضوا عن دين الله تعالى وتركوا طاعة نبيه (ﷺ) وقد ورد في الحديث

(١) الكافي: ٩٣/٨ ح ٦٦، قرب الإسناد: ١٢٨ ح ٤٥٠.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٥٧١/٤ ح ٦٣، محاسن البرقي: ج ١/ص ١٤٤.

(٣) تفسير القمي: ٢/٢٧٤، البرهان: ٨/٢٩٩.

الشريف عن الإمام أبي جعفر (عليه السلام): (بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية)^(١).

فمن ضيَّع الولاية فإنه لم يوفق إلى السبيل الموصل إلى الله تبارك وتعالى لأن أهل البيت (عليهم السلام) هم السبيل، وفي دعاء الندبة (ثُمَّ جَعَلْتَ أَجْرَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَوَدَّتَهُمْ فِي كِتَابِكَ فَقُلْتَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وَقُلْتَ ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وَقُلْتَ: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، فكانوا هم السبيلَ إِلَيْكَ وَالْمَسْلَكَ إِلَىٰ رِضْوَانِكَ).

وسوف يندم من لم يمض على منهج أهل البيت (عليهم السلام) حيث ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] أن السبيل مع الرسول هو علي بن أبي طالب^(٢) (عليه السلام)، فمن لم يتولاه يعرض على يديه من الندامة لأنه تخلف عن دخول الباب إلى مدينة علم رسول الله (ﷺ): (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب)^(٣).

(١) شرح أصول الكافي: - ج ٨ - ص ٦١.

(٢) راجع مجموعة الأحاديث في البرهان: ٩٥ / ٧.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٠ / ص ٢٠٣.

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ والاقتراف: الاكتساب، فمن يكتسب حسنة بفعل يرضي الله تبارك وتعالى فإن الله تعالى سيجزيه بأحسن منها بأن يجعل ثوابها دائماً طيباً جالباً للسعادة وسالماً من النقائص والمكدرات ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨]، روي أن الإمام الحسن السبط المجتبي (عليه السلام) خطب الناس حين قُتل أبوه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أن قال: (وإننا أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم حيث يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت)^(١) وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسيره قال: (الاقتراف: التسليم لنا، والصدق علينا وألا يكذب علينا)^(٢)، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (لا تستصغروا مودتنا فإنها من الباقيات الصالحات)^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يمحو السيئات ويشكر الفعل الحسن لصاحبه فيثبه بأحسن منه، ومن مظاهر هذه الأحسنية محو السيئات وتبديلها إلى حسنات حتى لا يبقى ما ينغص حياته الطيبة الهنيئة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(١) البرهان: ٣٠٢ / ٨ عن مجمع البيان: ٤٤ / ٩، مسترك الحاكم: ١٧٢ / ٣، الصواعق المحرقة: ١٧٠،

المحب الطبري في ذخائر العقبي: ١٣٨.

(٢) الكافي: ٣٢١ / ١، ح ٤.

(٣) بحار الأنوار: ٣٤٠ / ٤٧، نقلاً عن الاختصاص: ٨٦.

ويعبر الإمام الرضا (عليه السلام) عن ألمه من عدم وفاء الأمة لرسول الله (ﷺ) بأجره، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الريان بن الصلت أن الإمام الرضا (عليه السلام) قال في إحدى مناظراته في مجلس المأمون بمرو: (فأنزل الله تعالى هذه الآية على نبيه ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقام رسول الله (ﷺ) في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس (إن الله عز وجل قد فرض لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدّوه؟ فلم يجبه أحد، فقال: يا أيها الناس: إنه ليس بذهب ولا فضة ولا مأكول ولا مشروب، فقالوا: هاتِ إذن، فتلا عليهم هذه الآية، فقالوا: أما هذا فنعم، فما وفي فيها أكثرهم)^(١).

وفي مقابل هؤلاء فقد جاد الزمان بمؤمنين موالين ملئت قلوبهم بحب أهل البيت (عليهم السلام) والاندفاع في مودتهم وطاعتهم والتضحية من أجل ترسيخ وجودهم ونشر مبادئهم وقدموا التضحيات الجسيمة وفاءً لرسول الله (ﷺ) وأداءً لأجره، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لو أحبني جبل لتهافت)^(٢) وقال (عليه السلام): (من أحبنا أهل البيت فليعد للبلاء جلباباً)^(٣) وتوجد أمثلة سامية من أصحاب رسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين (عليه السلام) والحسين (عليه السلام) حتى قال فيهم الشاعر:

لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا يتهافتون على ذهاب الأنفس
وهذا لا يتحقق إلا لدى المحبين الوليين.

(١) البرهان: ٣٠٣/٨ عن عيون أخبار الرضا: ١/٢٣٣ ح ١ وعن قرب الإسناد: ٢٨.

(٢) نهج البلاغة: ج ٤ - ص ٢٦.

(٣) غرر الحكم: ٩٠٣٧.

وهكذا إلى زماننا المعاصر حيث بلغ عدد الشهداء والسجناء والمهجرين
والمعذبين الملايين من الرساليين والرساليات لا يسعنا إلا أن نقف لهم إجلالاً
فبوركوا من ثابتين على العهد و ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بِ﴾ [الرعد: ٢٩].
إن مما نظهر به مودتنا لأهل البيت (عليهم السلام) إقامة مجالس ذكرهم قال الإمام
أبو عبد الله (عليه السلام): (إن ذكرنا من ذكر الله)^(١) وإحياء شعائرهم ومن أهمها زيارة
أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير عيد الله الأكبر ففي ذلك نصره لحق أمير
المؤمنين (عليه السلام) وخيبة لأعدائه وتثبيتاً على الصراط المستقيم.

(١) الكافي: ج ٢ - ص ١٨٦.

الآية السادسة والثلاثون:

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢]

سورة الفجر والإمام الحسين (عليه السلام) ^(١)

روى الشيخ الطبرسي في فضل سورة الفجر عن النبي (ﷺ) أنه قال: (ومن قرأها في ليالٍ عشر، غفر الله له، ومن قرأها سائر الأيام، كانت له نوراً يوم القيامة) ^(٢).

الفجر في اللغة:

الفجر لغة ((شق الشيء شقاً واسعاً)) كما في المفردات وأضاف إليه في التحقيق: ((انشقاق مع ظهور شيء)) وهو أقرب قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] أي شققنا الأرض عن عيون ماء وقوله تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، ولذا سُمِّي الوقت الذي يسبق طلوع الشمس بالفجر لأن ضياءها الأول المعروف عند العرب بعمود الصبح يشق ظلمة الليل ويتسع النور حتى يملأ السماء، وإن كان التوصيف بالعمود يشير إلى الفجر الكاذب الذي لا يكون معتبراً شرعاً فإنه يبرز كالعمود ويشبهونه بذنب السرحان أي الذئب، وإنما الفجر الصادق الذي يليه هو المعتبر وهو ضوء مستعرض يزحف

(١) قبس من نور القرآن ألقاه سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظلّه) يوم الأربعاء ٣/شعبان/١٤٤٥ الموافق ٢٠٢٤/٢/١٤ حيث صادف ذكرى ميلاد الإمام الحسين (عليه السلام) وقرب حلول ذكرى استشهاد السيد الصدر الثاني (قده) يوم ١٩/٢/١٩٩٩.

(٢) مجمع البيان: ١٠/١٩٠.

نحو السماء كالغطاء، وأطلق الفجور على فعل القبائح كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي
سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] وذلك لأن فاعلها يشق ستر العفاف والحياء والدين
والحكمة والاعتدال ويخرج بما يخالف ذلك كله.

وقال في مجمع البحرين: أن ((أصله المفارقة، ومنه تفجير الأنهار وهو
مفارقة أحد الجانبين الآخر)) ولعله من لوازم ما ذكرناه.

لماذا أقسم بالفجر:

فتبدأ السورة بالقسم بالفجر، والقسم يشد الانتباه ويستحضر القلب ويفرغ
الذهن لما يقسم به، وقد ورد القسم بأوقات أخرى في القرآن الكريم كقوله
تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١]، ﴿وَالنَّهَارِ﴾
[الشمس: ٣]، ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ [التكوير: ١٧]
لخصوصيات في هذه الأزمنة تقتضي تعظيمها وتشريفها تُذكر في مواضعها أو
لنكتة عامة وهي التأكيد على عظمة الوقت وضرورة استثماره في ما ينفع، وقد
تكرر القسم بالفجر ومرادفه وهو الصبح كما في قوله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا
تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] وكان الليل كان جاثماً على صدره حتى إذا أرسلت
الشمس أول ضوء لها عند الفجر تنفس الصبح، وقوله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾
[المدثر: ٣٤] فمع أول ضياء للشمس يسفر الصبح عن كيانه الجميل بعد أن كان
محبوباً بالليل.

وتكرار القسم بالفجر والصبح لعظمة الفجر في كونه بداية يوم جديد ينهض فيه الإنسان نشيطاً بعد أن استراح بالنوم ليضيف إلى رصيده أعمالاً توجب السعادة والفلاح، وإن فترة ما بين الطلوعين لها تأثير كبير في جلب البركة والرحمة والتوفيق لذا أكد الشارع المقدس على ذكر الله تعالى وأوجب صلاة الصبح فيها قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ [ق: ٣٩] [طه: ١٣٠] وقال تعالى ﴿وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠] وقال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] كما تكرر القسم بالليل أيضاً ولعله لأثر القيام فيه في تحصيل الكمالات الروحية قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩]، وروى الشيخ الطوسي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨] يعني صلاة الفجر تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فإذا صلى العبد صلاة الصبح مع طلوع الفجر أثبتت له مرتين، تثبته ملائكة الليل وملائكة النهار^(١).

معنى الفجر في الآية الشريفة:

والظاهر أن المراد بالفجر الظاهرة التكوينية المعروفة الممتدة من ظهور الفجر الصادق الذي تجب فيه الصلاة والإمساك للصائمين وهو ابتداء اليوم عند جمع من العلماء إلى شروق الشمس وهي من آيات الله تعالى التي تجري بدقة متناهية لكننا لا نلتفت إليها لاعتيادها، كما يراد بالليل الظاهرة الكونية المعروفة.

(١) التهذيب: ٣٧/٢، ح ١١٦، وسائل الشيعة: ٢١٣/٤.

وقد يراد بالفجر والليل الأمور المعنوية مادام معناهما محفوظاً فيها، فيوم المبعث النبوي الشريف وابتداء نزول القرآن هو أعظم فجر بزغ على البشرية حيث انجلت بصبغه ظلمات الجاهلية، ويوم عاشوراء فجرٌ عظيم آخر أعاد الحياة للبعثة النبوية من جديد، وفجر يوم العاشر من ذي الحجة بداية لحياة نورانية سامية، وهكذا. وفي مقابلها فإن الليل كل ظلام يحجب نور الإيمان والسعادة والكرامة والسمو والفضيلة كالجهل والشرك والكفر والعصية والأنانية والفقر والتخلف ونحو ذلك.

كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (الفجر هو القائم والليالي العشر الأئمة من الحسن إلى الحسن ...، والليل إذا يسر هي دولة حبتر التي تسري إلى دولة القائم)^(١) فالليل كناية عن قضاء الأئمة العشرة بعد أمير المؤمنين (عليه السلام) حياتهم تحت وطأة دول الظلمة التي ملأت الأرض ظلماً وجوراً وفساداً وضلالاً وانحرافاً، والفجر هو انفلاق نور التوحيد والاستقامة والكرامة والحكم العادل والدولة الكريمة.

والليالي العشر مباركة ذات أهمية استحقت القسم بها، وهي قد تكون معينة في علم الله تعالى لكن المولى أبهمها، لتعدد الاحتمالات في أذهان المتلقين ويتوسعوا في المصاديق فيزدادوا من الطاعات، وفق مصطلح (الإيهام الإثباتي) الذي ابتكره السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) بحسب ما أعلم، وقد تكون عشرات متعددة، وقد تعددت التفاسير^(٢) لليالي العشرة بين العشرة الأولى من ذي

(١) البرهان: ٥٤/١٠.

(٢) راجع الأقوال في مجمع البيان والدر المنثور وغيرهما.

الحجة التي تتضمن فجر العاشر، أو العشرة الأولى من محرم إلى يوم عاشوراء، أو العشر الأواخر من شهر رمضان التي تتضمن ليلة القدر، وكلها مقبولة بقرينة تنكير ﴿لَيَالٍ﴾ لإفادة التعميم والتعظيم معاً؛ لذا كان أهل المعرفة يعظمون هذه العشرات والليال المخصوصة فيها، فكل واحدة من هذه العشرات تنفجر عن صبح جديد يُزيل ظلمات النفس الأمارة بالسوء ويُطهر القلب من أدرانها ويبعث الحياة في النفوس التي أمتتها الشهوات، وهكذا تتكثر مصاديق الفجر والليل ويتحقق الفجر الأعظم بقيام المهدي الموعود (عَلَيْهِ السَّلَام) لیتمم النور الذي انبلج ببعثة جده المصطفى (عَلَيْهِ السَّلَام) كما وعد الله تعالى.

سورة الفجر سورة الإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَام):

وتدل الروايات على أنّ لسورة الفجر اختصاصاً بالإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَام) لأنّ ما قدمه الإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَام) يوم عاشوراء كان سبباً لانتشار نور الإيمان في أصقاع الأرض واستمرار رسالة الإسلام وخلودها بعد أن بذل الأمويون ومَن والاهم كل جهد للقضاء على هذا الدين، روى الشيخ الصدوق بسنده عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَام) قال: (أقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم فإنها سورة الحسين بن علي (عَلَيْهِمَا السَّلَام)، من أدمن قراءة الفجر كان مع الحسين (عَلَيْهِمَا السَّلَام) يوم القيامة في درجته من الجنة إن الله عزيز حكيم)^(١)، وروى علي بن إبراهيم في تفسير الآية الأخيرة من السورة بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق (عَلَيْهِ السَّلَام): ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ قال

(١) ثواب الأعمال: ١٢٣؛ البرهان: ١٠/١٦١ ح ٥.

(عَلِيٍّ) يعني (الحسين بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)^(١) وهكذا تبدأ السورة بذكر الإمام الحسين (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) وتنتهي به.

رأي السيد الشهيد الصدر (قُدْسَتْهُ) الليالي العشر:

وقد فهم المشهور من الليالي العشر أنها زمنية متتابعة كالعشرات المتقدمة لكن السيد الشهيد الصدر الثاني (قُدْسَتْهُ) قدّم أطروحتين في مقابلتها:

١- إنها عشرة زمانية لكنها غير متتالية بل متفرقة كليلة القدر والنصف من شعبان والعيدين وعرفة والأول من رجب وهكذا، وهو معنى لا يوجد ما يمنع منه.

٢- إنها عشرة مجتمعة في زمان واحد أي متداخلة نظير قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾^(٢) (الزمر: ٦)، قال (قُدْسَتْهُ): ((وعلى تقدير الأهمية المعنوية وعدم التابع، فهي إشارة إلى أنواع البلاء الذي تمرّ به البشرية أو الجيل أو الفرد، نظير قوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ وتشبيه البلاء بالليل مجاز وارد، أو أن المراد بها حجب الظلمة، إلى غير ذلك، أو المراد عشر مراحل في التكامل))^(٣) ثم قال (قُدْسَتْهُ): ((وعليه يمكن أن تكون مجتمعة كلها دفعه واحدة، فمثلاً أنا الآن فعلاً في

(١) تفسير القمي: ٤٢٢/٢، البرهان: ١٦٠/١٠.

(٢) روى القمي في تفسيره (٢٤٦/٢) والطبرسي في مجمع البيان عن أبي جعفر (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) أنها (ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة) ويمكن أن نورد قوله تعالى ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].

(٣) مئة المنان، للسيد الشهيد محمد الصدر: ٢٢٨/٢.

عشر ليال^(١)، كما يقال عن الجنين: إنه في ظلماتٍ ثلاثٍ، أي: دفعة واحدة، فكذلك الإنسان قد يكون في ليالٍ عشرٍ أو أقل أو أكثر، وخاصة فيما إذا لم نفهم من العشرة التحديد، بل العدد الإجمالي، كما في السبعين ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾.

والمهم الآن أني سأذكر مثالا جمعت فيه عشرة أنواع من البلاء لإنسانٍ مسكينٍ يمكن أن يكون نموذجاً موجوداً، وقد تكون أشكال البلاء على الآخرين أيضاً متعددة، لكنها بشكلٍ آخر. فيعيش هذا الإنسان في عشر ليالٍ مجتمعة في ليلٍ واحدٍ أو حالٍ واحدٍ، فنتصور شخصاً في حال المرض والفقر وبيته بعيداً، وفي أسرةٍ مشاكسة، ثم تتعدد ابتلاءاته، فهو في ليل الزمان، وليل الوحدة، وليل الفقر، وليل الجوع، وليل المرض، وليل عدم الطبيب، وليل عدم الدواء، وليل بُعد المسافة، وليل الحرّ أو البرد، وليل همّ أسرته اقتصادياً، وليل صعوبة زوجته أخلاقياً وهكذا، فيمكن أن يكون الإنسان هكذا، ويمكن أن توجد نماذج كثيرة من أعلى أنواع البشر إلى أدناها^(٢).

أقول: كان السيد الشهيد الصدر الثاني (قُدِّسَ سِرُّهُ) يولي اهتماماً أكبر بإشراق فجر النقاء والإخلاص والفضيلة من داخل النفس والقلب أكثر من طلوع فجر الحرية

(١) لا أظن أن كلمته هذه مجرد مثال وإنما كان يعني ما قال حيث كان يعاني من ظلمات متعددة منها ظلمة النظام الصدامي الوحشي لكنه (قده) لم يكن يستطيع التصريح فجاء بالمثال.

(٢) منة المنان: ٢ / ٢٣٠.

والتخلص من الظلمة انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف الذي سمي الأول بالجهاد الأكبر والثاني بالجهاد الأصغر، ولا قيمة للثاني مهما عظمت تضحياته إلا بمقدار النجاح في الأول، لذا كان يدعوا إلى فهم الفجر على هذه المعاني لأنه أكثر تأثيراً في تهذيب النفس وسعيها نحو الكمالات، وقد أكد السيد الشهيد الصدر الثاني (قده) على هذا المعنى في رسائله التي جمعها في كتاب (الشهيد الصدر الثاني كما أعرفه) وكتاب (قناديل العارفين) ومما قال: ((وأما الفجر الذي تشير إليه في رسالتك والذي أود أن أفهم منه المعنى المعنوي فهو الفجر الذي يشرق في النفس والضمير قبل أن يشرق على المجتمع، والله سبحانه أخبر بعباده، ومن المؤكد أن التربية الإيمانية في ظلمات الدنيا وصعوباتها أقوى وأوكد وأرسخ من التربية مع الدلال والترفيه وهل تطبيق الأحكام الاجتماعية العامة بين الناس إلا لطاعة الله، فإذا توفرت طاعته تحت ظروف الظلمات، بل بشكل أطف وأوكد فذلك هو المطلوب))^(١).

كما كان يعبر (قده) عن حكم صدام الجائر بالليل وعن زواله بطلوع الفجر حيث كنا لا نستطيع استعمال الألفاظ الصريحة والنظام في أوج طغيانه وشراسته في ثمانينات القرن الماضي.

(١) الشهيد الصدر الثاني كما أعرفه: ص ٣١، جهاد واجتهاد: ٤٢.

الآية السابعة والثلاثون:

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

الحمد هو الثناء على من عنده فضيلة أو منقبة أو مكرمة أو صفة يحمدها عليها على نحو التعظيم، وهو مقابل الذم، ويختص بالأمور الاختيارية كحسن الخلق والشجاعة والكرم وفعل المعروف، فهو أخص من المدح الذي يكون في الأمور الاختيارية وغير الاختيارية كصباحة الوجه، وهو أعم من الشكر الذي هو ثناء يجازى به صنيع حسن قُدِّم له أو نعمة تفضّل بها عليه - كما في مفردات الراغب والفروق لابن هلال وغيرهما -.

وقيل: إن الشكر يمكن أن يكون أعم من الحمد بلحاظ مورده وكيفيته، قال الجزائري: ((فالحمد أعم مطلقاً لأنه يعم النعمة وغيرها، وأخصّ مورداً إذ هو باللسان فقط، والشكر بالعكس إذ متعلقه النعمة فقط، ومورده اللسان وغيره، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فهما يتصادقان في الثناء باللسان على الإحسان، ويتفارقان في صدق الحمد فقط على النعت بالعلم مثلاً، وصدق الشكر فقط على المحبة بالجنان لأجل الإحسان))^(١).

أقول: وفيه تأمل: فإن الحمد لا يختص باللسان، ويصدق على القول والفعل

(١) فروق اللغات لنور الدين الجزائري (ت ١١٥٨): ٨٩ بواسطة المعجم: ٧٤٩/١٣.

والحال كالتخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بالكمالات^(١).

ف(أحمد) مشتق من الحمد، وهو أسم للنبي (ﷺ) وهو أيضاً تعبير عن استحقاقه الحمد والثناء لخصاله الكريمة وأفعاله المحمودة، كما أن (محمد) أسمه (ﷺ) وهو بنفس الوقت صيغة مبالغة لكثرة ما يحمد فيه، وقد سماه به جدّه عبد المطلب وأطعم قريشاً في يوم مولده وقالوا له: (ما سميت أبنيك هذا؟ قال: سميته محمداً، قالوا: ما هذا من أسماء آبائك، قال: أردت أن يحمد في السماوات والأرض)^(٢).

وذكر السيد المسيح (صلوات الله وسلامه عليه) هذا الاسم للتعبير عن كونه (ﷺ) أفضل منه ومن جميع الأنبياء السابقين وأولى بالحمد منهم وإلا لا يكون للبشرى معنى إذا لم يكن كذلك، وذكر جمع من المفسرين أن له وجهين:
١- أنه مبالغة من الفاعل أي الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) كلهم حمادون

(١) ممن ذكر ذلك الجرجاني (ت ٨١٦) في التعريفات: ٤١ بواسطة المعجم: ٧٤٧/١٣.

(٢) المعجم في فقه لغة القرآن: ٧٤٠ / ١٣ ، عن ابن دريد صاحب الجهمرة، البداية والنهاية لابن كثير: ٣٨١/٣ بلفظ يختلف ((يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال: سميته محمداً. قالوا: فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء، وخلقه في الأرض))، ونقل المعجم عن عدة مصادر إن أشخاصاً سموا محمداً وأحمداً في الجاهلية قبل ولادة النبي (ﷺ)، وأنا استبعد ذلك وإنما هو من وضع الحساد، ولو كان هذا الاسم معروفاً لكان بنو هاشم أولى به فكيف تقول قريش لعبد المطلب: ما هذا من أسماء آبائك، ولو سلمناه فإنهم أخذوه من بشارات أهل الكتاب بالنبي (ﷺ) فتفاءلوا أن يكون أبنيهم هو الموعود، قال ابن هشام: ((لا يُعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله (ﷺ) إلا ثلاثة، طمع آبائهم - حين سمعوا بذكر محمد (ﷺ) ويقرب زمانه، وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولداهم)) (السيرة النبوية: ١/١٥٨).

لله عز وجل وهو أكثرهم حمداً لله تعالى.

٢- أنه مبالغة من المفعول، أي أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد عليها^(١).

وقد بشر الأنبياء السابقون (صلوات الله عليهم أجمعين) بالنبي (ﷺ) ومنهم الرسولان الكريمان موسى وعيسى في التوراة والإنجيل، روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال في حديث طويل (فلما نزلت التوراة على موسى (عليه السلام) بشر بمحمد (ﷺ) وكان بين يوسف وموسى من الأنبياء وكان وصي موسى يوشع بن نون (عليه السلام) وهو فتاه الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، فلم تزل الأنبياء تبشر بمحمد (ﷺ) حتى بعث الله تبارك وتعالى المسيح عيسى ابن مريم فبشر بمحمد (ﷺ) وذلك قوله تعالى:

يجدوناه (يعني اليهود والنصارى) مكتوبا (يعني صفة محمد (ﷺ) عندهم (يعني) في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهو قول الله عز وجل يخبر عن عيسى: ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد وبشر موسى وعيسى بمحمد (ﷺ) كما بشر الأنبياء (عليهم السلام) بعضهم ببعض حتى بلغت محمداً (ﷺ)^(٢).

وتصرح الآية الكريمة بأن خلاصة رسالة السيد المسيح أمران: تصديق التوراة والبشارة بالنبي الأكرم محمد (ﷺ).

(١) نقلها في المعجم: ٧٧٥/١٣ عن البغوي في معالم التنزيل: ٨٠/٥ والمبيدي في كشف الأسرار:

٨٧/١٠ ونحوه عند الطبرسي: ٢٨٠/٥ والفخر الرازي: ٣١٣/٢٩.

(٢) الكافي: ١١٧/٨، كمال الدين: ٢١٣ ح ٢، البرهان: ٢٨٨/٩ ح ٢.

والظاهر أن البشارة بالنبي (ﷺ) كانت صريحة وواضحة في الأناجيل الموجودة في زمن النبي (ﷺ)، وإلا كانت أبلغ حجة لهم في تكذيب ما جاء به النبي (ﷺ) وكانوا يبحثون عن أي شيء يدينونه به وقد ذكرهم القرآن الكريم بهذه الحقيقة في أكثر من آية، كقوله تعالى: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] ولم ينقل لنا التاريخ أن أحداً منهم كذب هذه الحقيقة بل أن بعضهم أسلم حينما سمع بها كعبد الله بن سلام وغيره روى القمي في تفسيره الآية السابقة ((إن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: هل تعرفون محمداً " في كتابكم؟ قال: نعم والله نعرفه بالنعته الذي نعته الله لنا إذا رأيناه فيكم، كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان، والذي يحلف به ابن سلام لأننا بمحمد هذا أشد معرفة مني بابني، قال الله: (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون))^(١).

وقد وردت في إنجيل برنابا بطبيعته المعرّبة^(٢) أخيراً، الفصل ٩٧ قال الله ((اصبر يا محمد لأنني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجما غفيرا من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك

(١) تفسير القمي: ١٨٢، بحار الأنوار: ١٨٠/١٥ ح ٢.

(٢) نقل المرحوم الصادقي في (تفسير الفرقان: ٢١٥/٢٨) النصوص الأصلية بالسريانية المترجمة عن الأصل اليوناني مع تفاصيل تاريخية وله كتاب بعنوان (رسول الإسلام في الكتب السماوية) وقال عن هذا الإنجيل: ((وهو من أحسن الكتب في المعارف والأخلاق ولطائف الحقائق الإلهية)).

يكون ملعونا، ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والارض تهتان ولكن ايمانك لا يهن أبدا))^(١) وفي فصل ٢٢٠ ((وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله))^(٢).

ووردت نصوص أخرى في إنجيل يوحنا (الأبواب ١٤، ١٥، ١٦ يذكر فيها البشرى ببعثة الفارقليط ويقال إن أصل هذه الكلمة باليوناني - بركليت - ومعناها الأحمد وهو - كثير الحمد - ثم حرّف بكلمة بركليت ومعناه المسلي أو المعزي))^(٣)، ففي الإصحاح الخامس عشر ((وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء وهو يذكركم ما قلت لكم)) (وإني قد خبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون))^(٤).

وقد ضمّن أبو طالب (رضوان الله تعالى عليه) عم النبي (ﷺ) هذا الاسم في شعره الداعي إلى نصره رسول الله (ﷺ) ومن ذلك قوله:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ خلوف اللسان ضعيف السبب^(٥)
ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب

(١) عن انجيل برنابا المعرّب بطبعته الأخيرة.

(٢) نقلناها بواسطة التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣٣٠/٢.

(٣) نقلناها بواسطة (التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٣٢٩/٢).

(٤) نقلت جملة من التفاسير هذه النصوص ومنها تفسير الفخر الرازي: ٣١٣/٢٩ والمعجم: ٧٧٥/١٣.

(٥) أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: ج ١٤ / ص ٦١، الميزان في تفسير القرآن:

وقوله مخاطباً الحمزة والعباس وجعفر وعلي (عليه السلام) يوصيهم بنصرة النبي (ﷺ):

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت في نصر أحمد دون الناس أتراساً^(١)

وقوله في بشارة الأنبياء السابقين:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب^(٢)

أهمية الأسماء وأدائها:

ومن تكفل الله تعالى بنفسه تسمية النبي (ﷺ) قبل ولادته واختياره لأجمل الأسماء وأجمعها لكلمات بتعلم أهمية اختيار الأسماء الحسنة وضرورة الالتفات إلى هذا الأمر النفسي والاجتماعي وآثاره الإيجابية أو السلبية وعدم التهاون فيه، روى الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (استحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة: قم يا فلان بن فلان إلى نورك، وقم يا فلان بن فلان لا نور لك)^(٣) ومن وصية النبي (ﷺ) لعلي (عليه السلام): (يا علي حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأدبه)، عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (أول ما يبرّ الرجل ولده أن يسميه بإسم حسن فليحسن أحدكم تسمية ولده، وروى في قرب الإسناد) (أن رسول الله (ﷺ) كان يغيّر الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان) وقد أمر الإمام الكاظم (عليه السلام) فعلاً بمحضر أبيه الإمام الصادق (عليه السلام) أحد الصحابة أن يغيّر اسم أبنته وقال له: (أذهب فغيّر اسم أبتك التي سميتها أمس فإنه اسم يبغضه الله) وكان

(١) تفسير مجمع البيان: ج ٤، ص ٢٩-٣٣، الميزان في تفسير القرآن: ٢٥٣/١٩.

(٢) تفسير مجمع البيان: ج ٤، ص ٢٩-٣٣، الميزان في تفسير القرآن: ٢٥٣/١٩.

(٣) هذا الحديث وكل الأحاديث التالية وغيرها موجودة في وسائل الشيعة: ٣٨٧/٢١-٤٠١، أبواب

أحكام الأولاد، الأبواب ٢١-٣٠.

قد سمي ابنته الحميراء فقال الإمام الصادق (عليه السلام): (انته إلى أمره ترشد، فغيرت اسمها) وذكرت الروايات جملة من الأسماء المبعوضة لأنها تذكر بأعداء أهل البيت (عليهم السلام) وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (إن الشيطان إذا سمع منادياً ينادي باسم عدوٍ من أعدائنا أهترّ وأختال).

وكره الأئمة أن يذكر أحد باسمه أو كنيته إذا كان يكرهها، فقد أنشد أحد أصحاب الإمام الرضا (عليه السلام) أبياتاً فسأله لمن؟ قال لأبي العتاهية فقال (عليه السلام): (هات اسمه ودع عنك هذا، إن الله عز وجل يقول ﴿وَلَا تَتَّابِرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] ولعل الرجل يكره هذا).

وقد حثّ الأئمة المعصومون (عليهم السلام) على اختيار الاسم قبل الولادة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (سموا أولادكم قبل أن يولدوا، فإن اسقاطكم إذا لقوكم في القيامة لم تسموهم يقول السقط لأبيه: ألا سميتني وقد سمى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) محسناً قبل أن يولد) وقالوا: (أحمد الأسماء ما سمي بالعبودية وأفضلها أسماء الأنبياء، وروى أمير المؤمنين (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (ما من أهل بيت فيهم أسم نبي إلا بعث الله عز وجل إليهم ملكاً يقدهم بالغداة والعشي).

وجعلوا من العقوق عدم التسمية بمحمد، فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (من ولد له أربعة أولاد لم يسم أحدهم باسمي فقد جفاني) وفي رواية أخرى حددهم بثلاثة.

وكان الأئمة يحترمون هذا الاسم ويقدمونه ويتواضعون إجلالاً له، روى عن أبي هارون الجعدي قال: (كنت جليساً لأبي عبد الله (عليه السلام) بالمدينة ففقدني أياماً، ثم إنني جئت إليه فقال: لم أرك منذ أيام يا أبا هارون؟! فقلت: ولد لي غلام،

فقال: بارك الله لك، فما سميته؟ قلت: سميته محمداً، فأقبل بخده نحو الأرض وهو يقول محمد محمد محمد، حتى كاد يلصق خده بالأرض، ثم قال: بنفسى وبولدى وبأهلى وبأبوي وبأهل الأرض كلهم جميعاً الفداء لرسول الله (ﷺ)، لا تسبه، ولا تضربه، ولا تسمى إليه، واعلم أنه ليس في الأرض دار فيها اسم محمد إلا وهي تقدر كل يوم^(١).

وفي رواية أخرى أنّ من أسمه محمد له كرامة وشفاعة يوم القيامة وهكذا ورد استحباب التسمية بأسماء أهل البيت (عليهم السلام)، والبنات باسم السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، روي عن السكوني قال: (دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) وأنا مغموم مكروب فقال لي: يا سكوني ما غمك؟ فقلت: ولدت لي ابنة، فقال: يا سكوني، على الأرض ثقلها وعلى الله رزقها تعيش في غير أجلك وتأكل من غير رزقك، فسرى والله عني، فقال: ما سميتها؟ قلت:

فاطمة، قال: آه آه آه، ثم وضع يده على جبهته - إلى أن قال: - ثم قال: قال لي: أما إذا سميتها فاطمة فلا تسبها ولا تلعنها ولا تضربها)^(٢).

(١) الوسائل: ٣٩٣/٢١ ح ٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢١ - ص ٤٨٢.

الآية الثامنة والثلاثون:

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]

الناس تتمنى يوم القيامة أن لو كانوا من شيعة علي (عليه السلام) ^(١)

قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

صورة لأحد مشاهد يوم القيامة يظهر فيها الكافر وكل ظالم لنفسه بالمعاصي والذنوب الذي أضاع آخرته لدنيا هزيلة تافهة ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣]، وهو في أقسى حالات الشعور بالندامة والأسف وهول الموقف ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] حينما تعرض عليه أعماله فينظر فيها بصورتها الظاهرية ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] ويعيش حقائقها الواقعية التي هي جزاءاتها ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

وتجسّم الأعمال يكون أبلغ في الحجة وأوقع في الجزاء للعاصين كما للمطيعين، حيث تظهر على حقيقتها بلا تزويق أو رياء أو نفاق أو خداع، فيتألم بها

(١) من درس التفسير الأسبوعي الذي يلقيه المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) في

غاية الألم ويعضّ على أصابعه حسرة على ما فرط في أمر آخرته حيث لا ينفعه ندم ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] فإن هذا المصير البائس صنعه بنفسه لنفسه بما كسب من أعمال سيئة ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبا: ٤٠] وإنما ذُكرت اليد لأن غالب الأعمال تنجز بها، أو لأن في اليد تعبيراً عن القدرة التي ينجز بها سائر الأعمال، وإلا فإنه مسؤول عن أعمال كل جوارحه كاللسان والعين والرجل والأذن وغيرها.

وقد دعاه الله تعالى إلى أن ينظر لنفسه فأنهما واحد في مقاييس الآخرة، ويحسن اختيار مصيره والمستقبل الذي يصنعه فإن عاقبته منوطة باختياره وأن يقدم ما يستطيع من دنياه لآخرته فإن الدنيا مزرعة الآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] ﴿وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

ولعل (ينظر) هنا بمعنى ينتظر فأنهما واحد في مقاييس الآخرة، فالكافر والظالم ينتظر برعب وقلق نشر صحيفة أعماله التي سوّدها بالمعاصي، كالطالب الفاشل الذي يتمنى أن يدفن رأسه في التراب يوم توزيع نتائج الامتحانات ويتمنى أن لا تنشر ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠] فليس له أي عذر أو مسوغ، لأن النذر والمواعظ تواترت من الله تبارك وتعالى على لسان الأنبياء والرسل

وأوصيائهم (صلوات الله عليهم أجمعين)، وقد مهدت الآية السابقة بالتذكير بأن يوم القيامة والحساب حق لا ريب فيه فليبادروا وليستثمروا الفرصة ما داموا موجودين في الدنيا قبل فواتها ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً﴾ [النبا: ٣٩].

والتخويف والإنذار أبلغ في هداية الناس وإصلاحهم من الترغيب، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فلا يصبح إلا خائفاً، ولا يصلحه إلا الخوف)^(١).

وهذا اليوم قريب لأنه آتٍ بلا شك وكل آتٍ قريب، ولأن الإنسان مهما عمّر في الدنيا فإن وجوده فيها لا يتجاوز لحظة في عمر الزمن، ويكون لا شيء إذا قيس إلى الخلود في الآخرة، وفي الحديث الشريف (الدنيا ساعة فاجعلها طاعة)^(٢)، وإنه بموته يدخل عالم الآخرة وتنقطع فرصة عمله قال النبي (ﷺ): (إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، يرى ما له من خيرٍ وشرٍ)^(٣)، بل القرب متحقق الآن لأن الأعمال التي سيجزى بها الإنسان معه وملازمة له فهي شديدة القرب والصلوق ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] لكنهم غافلون عن هذا القرب، فالذي أغراهم بالمعاصي وعدم التمسك بالدين ظنهم بأن يوم القيامة بعيد وقد لا يأتي ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ

(١) الكافي: ٧١/٢ ح ١٢.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧/٦٨ مراسلاً في عرض كلامه عن رسول الله (ﷺ) وكرره في ٧٤/١٦٤.

(٣) ميزان الحكمة: ٢٠٧/٨.

الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْذَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿فصلت: ٢٣﴾.
 ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] وحينئذ يتمنى الكافر
 والظالم لو كان تراباً لا قيمة له تطأه الأقدام بنعالها ولا يقع في هذا الموقف
 المهول القاسي، وفي بعض التفاسير^(١) أن القائل إبليس إذ يتمنى أن يكون أصله
 من تراب كآدم (عَلَيْهِ السَّلَام) وليس من نار مما أوجب استكباره وعصيانه، وهو معنى لا
 بأس به إلا أنه لا داعي لحصر اللفظ العام للآية بهذا المصداق فقط.

وإنها لنتيجة مؤسفة أن يتمنى الإنسان الذي كرمه الله تعالى وجعله خليفته
 في الأرض وأهله ليكون أفضل من الملائكة، أن يكون تراباً لأنه يرى أنه أحقر
 من التراب، ويرى أن التراب أفضل منه، فقد كان مصدر غذائه وكان مباركاً تضع
 فيه البذرة فيعطي أنواع الثمار الطيبة، والكافر لا خير فيه بل كان جالباً للشر والنكد
 له ولغيره، فالتراب أفضل من الكافر.

ولتراب الأرض قيمة معنوية في حياة الإنسان لانتمائه إليه وتعلقه به وحينئذ
 إليه، قال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام): (من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه،
 وحينئذ إلى أوطانه، وحفظه قديم إخوانه)^(٢)؛ لذا كان للتراب رمزية كبرى في
 حياة الإنسان والمجتمعات تصل إلى حد التضحية بالنفس من أجل حفظه
 وسلامته ويعدونه من المقدسات، لذلك تفاعل المسلمون خيراً لما حملهم كسرى
 وقرأ من تراب ونثره على الرسول إهانة لهم وجواباً على دعوتهم إياه للإسلام أو

(١) كتفسير الفخر الرازي والقرطبي والآلوسي.

(٢) بحار الأنوار: ١٧٤ / ٢٦٤، ح ٣.

يدفع الجزية أو القتال، فعادوا إلى القائد العام سعد بن أبي وقاص مستبشرين بالظفر وفتح بلاد فارس وتملك أرضها^(١).

وعلى أي حال فإن تمنّي الكافر أن يكون تراباً يمكن أن يكون له عدة

معانٍ:

١- إنه تراب الذي هو أصل الإنسان قبل أن يخرج إلى الدنيا أي يتمنى أنه لم يخلق أصلاً.

٢- أنه تراب حينما كان رميماً في القبر حيث يعود إلى أصله فيتخلص من النشر والحشر.

٣- أو أنه جماد ولو في أتفه صورة كالتراب الذي تطأه الأقدام والأحذية ولا يحمل الأمانة ولا يكون مكلفاً بشيء يحاسب عليه.

٤- ((وقيل إنه يتمنى حينئذٍ أن يكون تراب سجدة المؤمن تنطفئ به عنه النار، وتراب قدمه عند قيامه في الصلاة، فيتمنى الكافر أن يكون تراب قدمه))^(٢).

٥- أو أنه كان طيباً متواضعاً طيباً طيباً لله تبارك وتعالى كالتراب الذي شرفه الله تعالى بأن كان أصل الإنسان ومبدأ خلقه وإليه معاده ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وهو محل سجوده وبه ظهوره قال النبي (ﷺ): (أعطيت خمساً لم يعطها أحد قبلي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)^(٣) حتى وصف الإنسان الصلب في إيمانه لتمسك

(١) تاريخ الطبري: ١٩/٣.

(٢) روح البيان: ٢٩٢/١٠ إسماعيل البروسوي (ت ١١٢٧)، طبعة دار إحياء التراث العربي.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٢/ص ٩٧٠.

بالمبادئ والزهد عن الدنيا بأنه ترابي.

وأكمل مصاديق هذا المعنى أن يكون مسلماً موالياً لأهل البيت (عليهم السلام) متمسكاً بنهجهم القويم، وهذا المعنى مروى عن أهل البيت (عليهم السلام) كقول الإمام الصادق (عليه السلام): (ترابياً يعني علوياً يوالي أبا تراب)^(١).

ويشهد له أن النبي (ﷺ) قال لعلي (عليه السلام): (يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة)^(٢) وقد كنى (عليه السلام) علياً (عليه السلام) بأبي تراب، فشيعة علي (عليه السلام) شُبِّهوا بالتراب لأنهم أهل السجود والظهور وأهل التواضع، وهم مباركون معطؤون بحسب ما قدمنا من أوصاف التراب وأمير المؤمنين (عليه السلام) أبو الترابين المبدئين المباركين الراسخين في الإيمان والمعرفة لذلك كانت هذه الكنية أحبَّ أسمائه إليه.

روى الشيخ الصدوق بسنده عن عباية بن ربعي قال: (قلت لعبد الله بن عباس، لم كنى رسول الله ﷺ علياً (عليه السلام) أبا تراب؟ قال لأنه صاحب الأرض، وحجة الله على أهلها بعده، وبه بقاؤها وإليه سكونها، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعد الله تبارك وتعالى لشيعة علي من الثواب والزلفى والكرامة قال يا ليتني كنت تراباً - يعني من شيعة علي - وذلك قول الله عز وجل: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾^(٣).

قال العلامة المجلسي (قدس سره) تعليقاً على الرواية: ((يمكن أن يكون ذكر

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٩٧/١٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٦/ص ١١، مفردات الراغب مادة (أي).

(٣) علل الشرائع: ج ١/ص ١٥٦ ح ٢.

الآية لبيان وجه آخر لتسميته عليه السلام بأبي تراب، لأن شيعته لكثرة تذلهم له وانقيادهم لأوامره سُموا تراباً كما في الآية الكريمة، و لكونه عليه السلام صاحبهم وقائدهم ومالك أمورهم سمي أبا تراب، ويحتمل أن يكون استشهاده لتسميته عليه السلام بأبي تراب، أو لأنه وصف به على جهة المدح لا على ما يزعمه النواصب لعنهم الله حيث كانوا يصفونه عليه السلام به استخفافاً، فالمراد في الآية: يا ليتني كنت أبا ترابياً، والأب يسقط في النسبة مطرداً، وقد يحذف الياء أيضاً^(١) كما يقال قرشي لمن انتسب لقريش.

والمعروف في مصادر الفريقين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كنى أمير المؤمنين عليه السلام بأبي تراب في غزوة العشيرة قبل معركة بدر بأربعة أشهر، روى عمار بن ياسر قال: (كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة، فقال لي علي: هل لك يا أبا اليقظان في هذا نفر من بني مدلج يعملون في عين لهم ننظر كيف يعملون: فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة، ثم غشنا النوم، فعمدنا إلى صور من النخل في دقعاء من الأرض فمنا فيه، فوالله ما هبنا إلا رسول الله فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدقعاء، فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: يا أبا تراب، لما عليه من التراب، فقال: ألا أخبركم بأشقى الناس؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أحمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على رأسه -

حتى يبيل منها هذه - ووضع يده على لحيته^(١).

وقد نظم الشاعر المجيد عبد الباقي العمري الأفندي بهذه المنقبة لعلي
(عليه السلام) بأبيات قال فيها:

يا أبا الأوصياء أنت لطفه صهره وابن عمه وأخوه
إن لله في معانك سرّاً أكثر العالمين ما علموه
أنت ثاني الآباء في منتهى الدو ر وآبائه تعدّ بنوّه
خلق الله آدمًا من ترابٍ فهو ابن له وأنت أبوه^(٢)

أقول: نقلها ابن أبي الحديد في شرح النهج وقال: ((فكانت هذه الكنية أحب كناه إليه لكون النبي (ﷺ) كناه بها وكان أعداؤه من بني أمية وأتباعهم لا يطلقون عليه غيرها كأنهم يعيرونه بها مع أنها موضع الفخر ودعوا خطباءهم أن يسبوه بها على المنابر وجعلوها نقيصة له فكأنما كسوه بها الحلبي والحللي كما قال الحسن البصري))^(٣).

أقول: لقد سنّ عثمان لهم هذا الطعن في علي (عليه السلام) فقد ورد في قضية الصحابي الجليل أبي ذر (رضوان الله تعالى عليه) أنه (جاء علي (عليه السلام) فقال له

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ / ص ١٨٨، سيرة ابن هشام: ١٧٧ / ٢ دار الجيل، تاريخ الطبري: ٢ / ٢٦٢ حوادث السنة الثانية، البداية والنهاية: ٣ / ٢٤٧، مسند أحمد: ٤ / ٢٦٣، مستدرک الحاكم: ٣ / ١٤٠، أنساب الأشراف: ٢ / ٩٠ وغيرها من مصادر العامة.

(٢) الباقيات الصالحات: ديوان الشاعر عبد الباقي العمري الموصلي: ص ٤٦، ط. دار الشريف الرضي.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١ / ص ١٢.

عثمان: ألا تغني عنا سفيتك هذا. قال: أي سفيتك؟ قال: أبو ذر. قال علي (عليه السلام): ليس بسفيتك، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر، أنزله بمنزلة مؤمن آل فرعون، إن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم. قال عثمان: التراب في فيك. قال علي (عليه السلام): بل التراب في فيك، أنشد بالله من سمع رسول الله (ﷺ) يقول ذلك لأبي ذر، فقام أبو هريرة وعشرة فشهدوا بذلك، فولى علي (عليه السلام) (١).

وقد حرف حساد أمير المؤمنين (عليه السلام) وأعداؤه مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام)، تارةً بنسبتها إلى غيره كولادته في جوف الكعبة، وتارةً بتحريفها لتكون مثلبة كافترائهم إغضابه للزهراء (عليها السلام) بخطبة بنت أبي جهل، وهذا ما حصل في هذه القضية، قال ابن هشام في سيرته بعد أن ذكر رواية عمار بن ياسر المتقدمة وهي الصحيحة التي رواها الفريقان ((وقد حدثني بعض أهل العلم: أن رسول الله (ﷺ) إنما سمى علياً أبا تراب: أنه كان إذا عتب علي فاطمة (عليها السلام) في شيء لم يكلمها، ولم يقل لها شيئاً تكرهه، ألا أنه يأخذ تراباً فيضعه على رأسه، قال: فكان رسول الله (ﷺ) إذا رأى عليه التراب عرف أنه عاتب علي فاطمة، فيقول (ﷺ): ما لك يا أبا تراب؟ فالله أعلم أي ذلك كان)) (٢).

أقول: وزاد البخاري بأن علياً (عليه السلام) ((كان قد خرج إلى المسجد مغاضباً لفاطمة فوجده رسول الله (ﷺ) نائماً وقد ترب جنبه، فجعل يمسح التراب عن

(١) الأماشي للشيخ الطوسي: ص ٧١٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ١٧٧/٢ ط. دار الجيل.

جنبه ويقول: قم يا أبا تراب))^(١) فكأنهم أرادوا أن يقولوا أن علياً (عليه السلام) كان أيضاً يؤذي فاطمة وليس الشيخان فقط، وأن فاطمة (عليها السلام) كانت تغضب علياً (عليه السلام) وليس فقط عائشة وحفصة تغضبان رسول الله (ﷺ).

لكن كذب هذه الأحاديث واضح فإن الحياة الزوجية بين أمير المؤمنين وفاطمة (عليها السلام) أظهر وأسمى وأنقى من هذه التفاهات؛ لأنها مبنية على المعرفة التامة لكل منهما بمقام الآخر، وكلاهما من أهل بيت العصمة الذين طهرهم الله تعالى من كل رجس وخطأ وزلل، وقد كذب أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه الأحاديث الموضوعية، فقد قال في حق الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام): (فوالله ما أغضبتها، ولا أكرهتها على أمر، حتى قبضها الله عز وجل، ولا أغضبتني، ولا عصت لي أمراً، ولقد كنت أنظر إليها فتتكشف عني الهموم والأحزان)^(٢).

مضافاً إلى أن الطبري رواه في تاريخه خالياً من إغصاب فاطمة (عليها السلام) حيث روى أنه قيل لسهل بن سعد الساعدي أن بعض أمراء المدينة - وهو مروان بن الحكم - يريد أن يبعث إليك تسبُّ علياً عند المنبر، قال: أقول ماذا؟ قال: تقول أبا تراب، قال سهل: والله ما سماه بذلك إلا رسول الله (ﷺ)، قال: قلت وكيف ذلك يا أبا العباس؟ قال: دخل عليّ فاطمة ثم خرج من عندها فاضطجع في فيء المسجد، قال: ثم دخل رسول الله (ﷺ) على فاطمة فقال لها: أين ابن عمك؟ فقالت: هو ذلك مضطجع في المسجد، قال فجاءه رسول الله (ﷺ) فوجده قد سقط رداءه عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره

(١) هو حديث سهل بن سعد الآتي روي بعدة طرق باختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) مناقب الخوارزمي: ٢٥٦، كشف الغمة: ١/٣٦٣، بحار الأنوار: ٤٣/١٣٤.

ويقول: أجلس يا أبا تراب، فوالله ما سماه به إلا رسول الله (ﷺ) ووالله ما كان له اسم أحب إليه منه^(١).

أقول: رغم كذب روايتهم، إلا أن فيها إقراراً منهم بعظمة وجلالة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) عند أمير المؤمنين (عليه السلام) بحيث لا يتفوه بكلمة عتاب إذا اختلف معها في قضية معينة.

وإذا أردنا حمل رواية سهل على معنى مقبول فإن علياً (عليه السلام) لما دخل على فاطمة (عليها السلام) ورآها قد (مجلت يداها - من الطحن بالرحى-)، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دكنت ثيابها فأصابها من ذلك ضر شديد^(٢) فأشفق على حالها وشعر بالانكسار لأنه زوجها وكان يريد لها حياة خالية من المتاعب والمصاعب، وعبر عن ذلك بوضع التراب على رأسه كما هو معروف في حالات الحزن لأنه لا يرضى بأذى السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وإن كانت هي راضية طاعة لله تبارك وتعالى، وفي ذلك تربية للأزواج في احترام بعضهم، وتقدير جهودهم والاعتذار عن كل تقصير.

(١) تاريخ الطبري: ٦٢/٢ حوادث السنة الثانية.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣٢١/١.

الآية التاسعة والثلاثون:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]

النبي (ﷺ) وأهل البيت (عليهم السلام) هم الناس الحسودون^(١)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].
الحسد من أسوأ الرذائل الخلقية والصفات المذمومة وأجلبها للشقاء لصاحبها في الدنيا والآخرة، وهي تكشف عن نفس مريضة وقلب حقود، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (الحسد شر الأمراض)^(٢) وقال (عليه السلام): (رأس الرذائل الحسد)^(٣) وقال (عليه السلام): (الحسد مرض لا يؤسى)^(٤) أي لا يعالج بالدواء كما تعالج الأمراض البدنية وإنما يحتاج إلى معرفة ومجاهدة للنفس وتزوين بالفضائل كحب الآخرين وإنصافهم وتمني الخير لهم.

وقد تزامن وجود هذه الرذيلة مع خلق الإنسان الأول فقد حسد إبليس آدم (عليه السلام) وعصى أمر ربه بالسجود له وتسبب في هبوطه من الجنة فطرد من

(١) من درس التفسير الأسبوعي الذي ألقاه سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

في مكتبته في النجف الأشرف على طلبة البحث الخارج والحوزة العلمية يوم الأربعاء

٢٠/شعبان/١٤٤٦ الموافق ٢٠٢٥/٢/١٩.

(٢) غرر الحكم: ٣٣٢.

(٣) غرر الحكم: ٥٢٤٢.

(٤) غرر الحكم: ١٣٧٨.

رحمة الله تعالى واستحق اللعنة إلى أبد الأبدين، وحسد قابيل ابن آدم أخاه هابيل حتى قتله.

والحسد هو دفع أهل السقيفة للتأمر حتى يصرفوا الخلافة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) و (فقال عمر: يا بن عباس أتدري ما منع الناس منكم؟ فقلت: لا، قال: لكني أدري، قلت: فما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة)^(١) فجرّوا على الأمة الويلات والكوارث إلى قيام يوم الدين: روى في الدر المنثور عن ابن الزبير في الموفقيات عن ابن عباس (أن معاوية قال: يا بني هاشم إنكم تريدون أن تستحقوا الخلافة كما استحقتم النبوة ولا يجتمعان لأحد وتزعمون أن لكم ملكا فقال له ابن عباس: أما قولك أنا نستحق الخلافة بالنبوة فإن لم نستحقها بالنبوة فبم نستحقها وأما قولك أن النبوة والخلافة لا يجتمعان لأحد فأين قول الله ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾ فالكتاب النبوة والحكمة السنة والملك الخلافة نحن آل إبراهيم أمر الله فينا وفيهم واحد والسنة لنا ولهم جارية وأما قولك زعمنا أن لنا ملكا فالزعم في كتاب الله شك وكل يشهد أن لنا ملكا لا تملكون يوما إلا ملكنا يومين ولا شهرا إلا ملكنا شهرين ولا حولا إلا ملكنا حولين)^(٢).

والحسد غريزة راسخة في نفس الإنسان الأمانة بالسوء حتى ورد في الحديث النبوي الشريف ((ثلاث لا يسلم منها (منهن) أحد: الطيرة، والحسد، والظن، قيل: فما نضع؟ قال: إذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت

(١) الكامل لابن الأثير، ج ٣، ص ٦٣، وتاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٢٣.

(٢) الدر المنثور ٥٦٨/٢.

فلا تحقق^(١) وقد ذكر الحديث كيفية قمع تأثيرها ومجاهدتها حتى تزول (إذا حسدت فلا تبغ) وقد ذكر الحديث أشكال البغي الذي يجرّ إليه الحسد، روى الشيخ الصدوق في الخصال عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال لقمان لابنه: للحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة)^(٢) فإذا منع الإنسان نفسه من القيام بهذه الأفعال قربته إلى الله تعالى فإنها ستنتهي إلى إزالة أصل الصفة بإذن الله تعالى، أو حماية نفسه من الوقوع في آثارها المهلكة، قال العلامة المجلسي (قده): ((فأما تغيير الطبع فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه، ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا إلا أن يصير مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بعين واحدة، وهو عين الرحمة، ويرى الكل عباد الله، وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم، ويرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه، ويعود العدو إلى منازعته أعني الشيطان، فإنه ينازع بالوسوسة، فمهما قابل ذلك بكراهة ألزم قلبه، فقد أدى ما كلفه))^(٣).

ويطلق الحسد على تمنى زوال النعمة عن الآخر، سواء ضمّ إليه تمنى حصول الحاسد على مثل تلك النعمة أو لا لضعف في همته أو عجز في امكانياته قال الإمام علي (عليه السلام): (الحاسد يرى أن زوال النعمة عن من يحسده نعمة عليه)^(٤)،

(١) بحار الأنوار، للعلامة المجلسي: ٣٢٠ / ٥٥.

(٢) الخصال: ٦٠ / ١.

(٣) بحار الأنوار: ٢٤٣ / ٧٠.

(٤) غرر الحكم: ١٨٣٢.

وسواء كانت النعمة مادية أو معنوية كما أشارت إليه الآية الكريمة وغيرها. ويزداد الحاسد شقاءً باعتراضه على قضاء الله تعالى وإرادته، إذ كررت الآية ثلاثاً على ان هذه النعمة من ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فماذا يعني التألم من حصول الآخر عليها وتمني زوالها غير الاعتراض على ما أراد الله تبارك وتعالى، روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز وجل لموسى بن عمران عليه السلام: يا ابن عمران، لا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدن عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك فإن الحاسد ساخط لنعمي، صاّد لقسمي بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس مني)^(١).

وروى ابن مسعود عن رسول الله (ﷺ) قال: (ألا لا تعادوا نعم الله، قيل يا رسول الله؟ ومن الذي يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس)^(٢) ولو كانوا عقلاء سليمي القلب لسألوا الله تعالى من فضله ما يريدون وهو المسمى بالغبطة فإن صاحبها يفرح لحصول الآخرين على النعم ونسأل الله تعالى من يرزقه مثلها فإن مصدر النعم كلها فضل الله تعالى ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]. وإذا أدى الحسد بصاحبه إلى الكيد للمحسود وتسقيطه والافتراء عليه والنيل منه والقيام بأفعال انتقامية منه فيسيئف الحاسد وبالأحرى وبال، لذلك يدعو

(١) الكافي: ٣٠٧/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣١٥/١.

الله تبارك وتعالى إلى الاستعاذة من شر الحاسد ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

وتشير الآية الكريمة إلى أنّ الحسد هو الذي يدفع الكفار والمنحرفين والفاستقين إلى معاداة المؤمنين والكيد لهم لأنهم يعرفون حقيقة نعمة الإيمان التي يرفل بها المؤمنون بالله تعالى، والحق الذي هم عليه والسعادة والحياة الطيبة التي هم فيها، وليست عندهم الإرادة والعزم لمجاهدة أنفسهم وكبح شهواتهم والسيطرة على غرائزهم ليتساموا ويكونوا كالمؤمنين فيحسدونهم ويعملون جاهدين على حرمانهم من هذه النعمة العظيمة ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وتقع الآية في سياق فضح الصفات اللثيمة عند اليهود فذكرت الآيتان السابقتان البخل والحسد وزعمهم أن المشركين أهدى من المؤمنين وتحالفهم مع المشركين والكفار ضد المؤمنين مما أوجب لعنة الله عليهم.

فالمراد بالناس في الآية الكريمة بمقتضى سياق هم جماعة المؤمنين، ولكن لما كان النبي (ﷺ) وأهل بيته المعصومون (عليهم السلام) أكمل الخلق وأشرفهم والمخصوصين بالنعم التامة ولأنهم الأصل في وصول نعمة الإيمان إلى الناس فقد

كانوا أكثر الناس عرضة للحسد، وهو يبين ما اشتهر في مصادرنا^(١) عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (نَحْنُ النَّاسُ الْمَحْسُودُونَ عَلَى مَا آتَانَا اللَّهُ مِنَ الْإِمَامَةِ دُونَ خَلْقِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ)^(٢) وفي حديث آخر (نحن الذين يحسدوننا على ما آتانا الله من فضله) ورواه أيضاً جملة من أعلام العامة^(٣).

والآية الكريمة ظاهرة في ذلك لأنها بيّنت بعض ما أعطى الله تبارك وتعالى آل إبراهيم وهم (سلام الله عليهم) المصداق الأكمل من آل إبراهيم وبقرينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] فال عمران سواء أريد بهم موسى بن عمران أو مريم بنت عمران هم عنوان آخر غير آل إبراهيم، وبقرينة الآية الكريمة التي ذكرت دعاء إبراهيم وإسماعيل (صلوات الله عليهما) عند بناء البيت، فقالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فالمقصود بآل إبراهيم في دعائهما ذريته من إسماعيل (عليه السلام)، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (نحن آل إبراهيم)^(٤)، فهذه القرائن كلها تدلّ على ان المراد بالناس المحسودين في الآية الكريمة هم النبي وآله المعصومون (سلام الله عليهم).

وفي قوله تعالى ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ

(١) الكافي والتهديب ومعاني الاخبار وبصائر الدرجات وتفسير القمي والعياشي، راجع البرهان:

٧٣/٣.

(٢) البرهان: ٩٣/٢.

(٣) كابن المغازلي الشافعي في المناقب والقندوزي في ينابيع المودة، وابن حجر في الصواعق.

(٤) بحار الأنوار: ٢٧٥/٢٨.

مُلْكاً عَظِيماً ﴿النساء: ٥٤﴾ حسم لحسدهم وقطع لأملهم بأن الله تعالى قد أعطى كل ذلك للنبي (ﷺ) وآله المعصومين (عليهم السلام) فلا ينفعهم حسدهم ومكائدهم شيئاً، ورد في تفسير العياشي عن الإمام الباقر (عليه السلام): ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب﴾؟ فقال: النبوة، قلت: ﴿الحكمة﴾؟ قال: الفهم والقضاء، قلت: ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾؟ فقال: الطاعة^(١) وهي الطاعة الواجبة التي تستلزمها الإمامة والولاية فهي الملك العظيم.

وقد روى في الكافي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (الملك العظيم أن جعل فيهم أئمة، من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم)^(٢)، ويعد أن يكون المراد الملك الدنيوي المحض عدم استحقاقه الامتتان العظيم إلا أن يكون وسيلة لإحقاق الحق كالذي كان لرسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين (عليه السلام) وسيكون للإمام المهدي الموعود (عليه السلام).

ولعل في ترتيبها إيماء إلى أن المناصب الإلهية لا تنال إلا بالعلوم والمعارف الإلهية (الكتاب) و(الحكمة) في التصرف والسلوك. وقد حذر النبي (ﷺ) والأئمة المعصومون (عليهم السلام) من الحسد وما يسببه من عواقب وخيمة فإنه:

١- يمحق دين الحاسد ويحبط عمله، قال رسول الله (ﷺ): (ألا أنه قد دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم وهو الحسد، ليس بحالق الشعر لكنه حالق

(١) الكافي: ٢٠٦/١.

(٢) الكافي: ١٨٦/١.

الدين)^(١) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب)^(٢) وعن الإمام الباقر (عليه السلام) مثله. ومن وصية الإمام الصادق (عليه السلام) لأبي جعفر مؤمن الطاق بعد أن وصف الحسدة لإخوانهم بأنهم أبغضهم إليه قال: (والله لو قدم أحدكم ملء الأرض ذهباً على الله ثم حسد مؤمناً لكان ذلك الذهب مما يكوى به في النار)^(٣)، وفي بعض الروايات (أن في السماء الخامسة ملكاً يمرّ به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس، فيقول: قف فأنا ملك الحسد، اضرب به وجه صاحبه فإنه حاسد)^(٤).

٢- يضر بالحاسد قبل المحسود، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله)^(٥) وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (الحاسد مضرّ بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم (عليه السلام) الاجتباء)^(٦).

٣- أن الحاسد يجلب لنفسه الشقاء والهم ونكد العيش لأنه يصرف وقته وجهده وتفكيره في كيفية الكيد لصاحب النعمة وسلبها منه قال أمير

(١) أمالي الطوسي: ١١٧ ح ١٨٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

(٣) بحار الأنوار: ٢٨٨ / ٧٨، عن تحف العقول، لابن شعبة الحراني: ٣٠٩، ط. مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين.

(٤) بحار الأنوار: ٢٦٢ / ٧٠، سفينة البحار: ١٧٩ / ٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٣١٦ / ١.

(٦) بحار الأنوار: ٢٥٥ / ٧٣ ح ٧٣.

المؤمنين (ﷺ): (ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس

دائم، وقلب هائم وحزن لازم)^(١) ونظمه الشاعر بقوله:

قل للحسود إذا تنفس حسرةً يا ظالماً وكأنه مظلومٌ.

وعنه (ﷺ) قال: (يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك)^(٢)،

ونظمه الشاعر بقوله:

إني لأرحم حاسدي لحرماً ضمنت صدورهم من الأسعارِ

نظروا صنيع الله لي فعيونهم في جنةٍ وقلوبهم في نارٍ^(٣)

وقال (ﷺ): (الحسد أحد العذابين)^(٤) وقال: (ثمرة الحسد شقاء الدنيا

والآخرة)^(٥).

٤- الحسد سبب رئيسي لكثير من الجرائم الموبقة كالقتل والتخريب والدعاوى

الكيدية المؤدية إلى السجن أو تغريم الأموال، قال أمير المؤمنين (ﷺ):

(الحرص والكبر والحسد دواعٍ إلى التقصم في الذنوب، والشر جامع مساوي

العيوب)^(٦) واما حكاة القرآن الكريم حسد أخوة يوسف حتى تأمروا على قتله

وهم أولاد أنبياء.

(١) بحار الأنوار: ٢٥٦ / ٧٣ ح ٢٩.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٧٦/٢ عن كنز الفوائد.

(٣) بحار الأنوار: ٢٦٢/٧٠.

(٤) غرر الحكم: ١٦٣٥.

(٥) غرر الحكم: ٤٦٣٢.

(٦) نهج البلاغة: ٨٧ / ٤

٥- وإذا ابتلي بالحسد العلماء والقادة الدينون ففي الخصال عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل يعذب ستة ستة: العرب بالعصية، والدهاقنة بالكبر، والأمراء بالجور، والفقهاء بالحسد، والتجار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهل)^(١)، فإن البلاء سيكون أعظم لأنه سيؤدي إلى صرف طاقات الأمة واهتمامها إلى صراع داخلي مقيت فتهمل القضايا المصيرية وتمزق الأمة ويحصل بينها الشقاق والعداوات بدل المودة والأخوة، وقد حكى القرآن الكريم في الآيتين السابقتين أن علماء السوء من اليهود تحالفوا مع السلطات الطاغوتية في علاقة تخادم وتبادل المصالح فيشرعون لهم حكمهم الظالم ويزعمون أنهم بذلك يحققون مصالح عليا للبلاد والعباد ويخدعون الناس بما عندهم من العلم ليسوقوهم وراء إرادة الطواغيت ويصفونهم بأنهم أهدى من المؤمنين من أجل دنيا زائفة يحصلون عليها فإذا قام المصلحون بتوعية الأمة وانكشف زيف علماء السوء خذلهم الله تعالى ونبذهم المجتمع وحينئذ يتخلى الطواغيت عنهم لأنهم سوف لا يخدمون مشروعهم فيخسرون الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيْلًا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجْدَ لَهُ نَصِيْرًا ۗ أَمْ لَهُمْ نَصِيْبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَّا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيْرًا ﴾ [النساء: ٥١-٥٣].

وفي مقابل هذا التحذير الشديد من الحسد وعواقبه الوخيمة فقد بين

(١) الخصال، للشيخ الصدوق: ٣٢٥، والاختصاص، للشيخ المفيد: ٣٢٥.

المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) المنزلة الرفيعة لمن طهر قلبه من الحسد، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (بينما موسى بن عمران يناجي ربه ويكلمه إذ رأى رجلاً تحت ظل عرش الله، فقال: يا رب: من هذا الذي أظله عرشك فقال: يا موسى هذا ممن لم يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله)^(١) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من ترك الحسد كانت له المحبة عند الناس)^(٢).

فالمؤمن يفرح بحصول الآخرين على النعم ويتمنى لهم الخير، ويسأل الله تعالى أن يتفضل عليه بمثلها أو أحسن منها وتسمى هذه الحالة الغبطة وهي ليست مذمومة، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط)^(٣).

(١) بحار الأنوار: ٢٥٥/٧٣ ح ٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ٢٣٧/٧٧ ح ١.

(٣) بحار الأنوار: ٧٠ ح ٢٥٠.

الآية الاربعون:

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٠)

لماذا يكره أكثر الناس الحق؟ أمير المؤمنين (عليه السلام) مثالا^(١)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٠) وقال تعالى ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (الزخرف: ٧٨).

قال ابن فارس ((حق: يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل)) وقال الراغب ((الحق: المطابقة والموافقة)) وفي المصباح ((حق الشيء إذا وجب وثبت، وحقيقة الشيء منتهاه وأصله مشتمل عليه)) وحق الشيء: بلوغ غايته قال سيبويه ((قالوا: هذا العالم حق العالم يريدون بذلك التناهي، وأنه بلغ الغاية فيما يصفه به من الخصال))^(٢) كما في الحديث (لا يبلغ المؤمن حقيقة الإيمان حتى لا يعيب مسلماً يعيب هو فيه)^(٣) يعني خالص الإيمان ومحضه وكنهه. ويتحصل من مجموعها إن معنى الحق فيه ركنان: الثبوت والاستحكام كما في قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧) مع كونه مطابقاً للواقع وموافقاً

(١) خطبتا صلاة العيد الفطر السعيد لسنة ١٤٤٦ الموافق ٢٠٢٥/٣/٣١.

(٢) المعجم في فقه لغة القرآن: ١٠/١٣ عن ابن سيده في المحكم: ٤٧٤/٢.

(٣) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ٢٠٣/٢٦ عن النهاية: ١٥٠/١.

للغرض الصحيح، قال الطوسي ((الحق: وضع الشيء في موضعه على ما تقتضيه الحكمة))^(١)، ولذا كان الحق نقيضاً للباطل تارة بلحاظ فقدان الركن الأول فيه فإن الباطل لا استحكام فيه ولا ثبوت قال تعالى ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ (الإسراء: ٨١) ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ (الأنفال: ٨)، ونقيضاً للضلال تارة أخرى بلحاظ فقدان الركن الثاني، قال تعالى ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٥).

و(الحق) من الأسماء الحسنى لأن وجود الله تعالى وتوحيده وصفاته الحسنى هو الحق المطلق وكما عليه الأكثر في تفسير الآية التالية ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾، قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٢٥) والعلم هنا بمعنى ارتفاع حجاب الغفلة وإلا فإن هذه الحقيقة لا يجهلها أحد ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤)، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (الحج: ٢٢) وقال تعالى ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ (الأنعام: ٢٦) ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢) فهو سبحانه الحق وما نزله حق، وما حكم به حق، وما قضى به حق، وما وعد به حق، ومن بعثهم حق وما دعا إليه حق، وما سوى ذلك باطل وضلال وزُخْرُفٌ وغرور، وعلى هذا فلا يتوقع من عاقل أن يترك الحق ويسير خلف الباطل مع ما فيه من الضلال والابتعاد عن الواقع والصواب.

لكن النتائج كانت على العكس كما تنبئ الآيتان الكريمتان فإن أكثر الناس عزفوا عن الحق وكرهوه وقاوموه، واستمروا الباطل ونصروه، وهي نتيجة غريبة لكنها حقيقة واقعة كررها القرآن الكريم بحسرةٍ وأسف، وقد أكدها في عشرات الآيات الكريمة بألفاظ متعددة مثل (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، لا يشكرون، لا يعلمون) أو مثل قوله تعالى ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء : ٨١) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف : ١٢٣)، وقد لا يكون كرههم للحق عناداً واستكباراً وإنما لجهلهم والتضليل الذي مارسه كبارهم الذين يثقون بهم، قال تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء : ٢٤) بل إن كثيراً من المؤمنين ليسوا صادقين في إيمانهم ويتزلزلون عند تعرضهم للفتنة والابتلاء ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف : ١٠٦).

وتكرار لفظ الحق صريحاً في المقطع الثاني مع أن الأولى الآيتان بضمير يرجع إليه فيكون (وأكثرهم له كارهون) وهو ما يعرف بالإظهار في موقع الإضمار لإفادة حالة عامة وهي كره مطلق الحق بما هو حق وليس فقط الحق الذي جاء به رسول الله (ﷺ) المقصود باللفظ الأول، (بل جاءهم بالحق) وكذا في الآية الثانية، فانتقل الكلام من الخاص إلى العام.

والغريب أن الناس تدعي أنها تريد الحق وتخرج مظاهرات للمطالبة بالحقوق وإقامة العدالة لكنهم يكرهون الحق ولا يقيمون العدالة في حياتهم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة خطبها في صفين: (فالحق أوسع الأشياء في

التواصف^(١)، وأضيقتها في التناصف. لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه. ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسعا بما هو من المزيد أهله. ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تكافأ في وجوها ويوجب بعضها بعضا. ولا يستوجب بعضها إلا ببعض^(٢).

وتوجد قلة تتحدث بالحق وتعمل به، ومما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصفهم: (قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ لَا يَدْعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أُمَّهَا وَلَا مَظَنَّةً إِلَّا قَصْدَهَا قَدْ أَمَكَّنَ الْكِتَابَ مِنْ زَمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ)^(٣).

وقد دلت الروايات الشريفة على ان المصداق الأكمل والأوضح للحق الذي لا ريب فيه هو رسول الله وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما)، وقد تواتر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (علي مع الحق والحق مع علي، اللهم أدر الحق معه حيث دار)^(٤) وروى هذا المعنى علي بن إبراهيم في تفسيره قال (الحق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)).

(١) أي أن تنظيرات الناس في وصف الحق وتعريفه ومصاديقه كثيرة وكل منهم يدلي بدلوه، لكنهم في مجال التطبيق والعمل بالحق لا يلتزمون به وتضيق نفوسهم بتحملة.

(٢) نهج البلاغة: - ج ٢ - ص ١٩٨، الخطبة: ٢١٦.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

(٤) البحار: ٢٦/٣٨ باب (أنه مع الحق والحق معه).

وأمر المؤمنين (عليه السلام)، والدليل على ذلك قوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (النساء: ٧٧) يعني بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ^(١) ويشهد له ما ورد من الروايات في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢) حيث نزلت في النعمان بن الحارث الفهري الذي أنكر بيعة النبي (صلى الله عليه وآله) لأمر المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير بالإمامة والخلافة من بعده ^(٢).

وثبت هذا الحق من بعده لأولاده الأئمة المعصومين (عليهم السلام) ففي زيارة الجامعة الكبيرة (والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه) فالحق منهم يؤخذ وإليهم يعود وهو لازم لهم لأنهم أصله ويجريه الله تعالى إلى الخلق من خلالهم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَخَلَفَ - رسول الله (صلى الله عليه وآله) - فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ وَمَنْ لَزَمَهَا لَحِقَ) ^(٣)، كما ورد في الزيارة (إرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليكم، وتصدر من بيوتكم) ^(٤) وقال الإمام السجاد (عليه السلام) في الصلوات الشعبانية: (المتقدم لهم مارق والمتأخر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق) ^(٥)

(١) البرهان: ٢٢/٧ عن تفسير القمي: ٩٢/٢ ورواها أيضاً في ٢٨٩/٢ عند آية الزخرف ٧٨.

(٢) من نور القرآن: ج ٤/ ص ٣٩٨/ القيس ١٥٠، سورة الحجرات ١١٠ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٠.

(٤) الكافي: ٥٧٧/٤ ط. الإسلامية، وهي من الزيارات المطلقة للإمام الحسين (عليه السلام) في كتب

الزيارات، وفيها عبارات كثيرة تبين علو مقامهم (عليهم السلام).

(٥) مصباح المجتهد: ٤٥ / ١، مفاتيح الجنان في أعمال شهر شعبان.

فحق محمد وآل محمد عظيم لا يحيط به الا الله تعالى، وقد حصلت معجزات لمن سأل الله تعالى بحق محمد وآل محمد في دعائه كالمراة التي شفيت من العمى^(١).

فكثر اعداءهم لأن أكثر الناس تكره الحق، وقد أستم هذا الكره لكل ما هو حق ومن يسير على طريق الحق، ودفع شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) وأتباعه ثمناً باهظاً من أرواحهم وأموالهم وسائر حقوقهم لأنهم على الحق، روى البرقي في المحاسن عن أبي بصير قال: (قلت لابي جعفر جعلت فداك اسم سمي بنا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا ، قال : وما هو؟ قال : الرافضة ، فقال أبو جعفر: إن سبعين رجلا من عسكر فرعون رفضوا فرعون فأتوا موسى (عليه السلام) فلم يكن في قوم موسى (عليه السلام) أحد أشد اجتهاداً وأشد حباً لهارون منهم فسمّاهم قوم موسى الرافضة فأوحى الله تعالى الى موسى (عليه السلام) أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة فاني نحلتهم ، وذلك اسم قد نحلكموه الله)^(٢).

وفي أمالي الطوسي قال: (دخل سماعة بن مهران على الصادق فقال له: يا سماعة من شر الناس؟ قال: نحن يا ابن رسول الله، قال: فغضب حتى احمرت وجنتاه ثم استوى جالسا وكان متكئا فقال: يا سماعة من شر الناس عند الناس؟ فقلت: والله ما كذبتك يا ابن رسول الله نحن شر الناس عند الناس لأنهم سمونا كفارا ورافضة، فنظر إلي ثم قال: كيف بكم إذا سيق بكم إلى الجنة، وسيق بهم

(١) بحار الأنوار: ٤٤/٤٢ عن تفسير فرات الكوفي، سفينة البحار: ٢١/٢.

(٢) المحاسن: ١٥٧/١، بحار الأنوار: ٩٧/٦٨، سفينة البحار: ٣٨٤/٣.

إلى النار؟ فينظرون إليكم ويقولون: «مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من
الاشرار»^(١).

وبقي شيعة أهل البيت (عليهم السلام) منزّهين عن الحقد والكره والظلم والانتقام،
قال ابن ابي الحديد وهو معتزلي: (إن بشر الوجه وطلاقة المحيا والتبسم والهيبة
التي كانت من أخلاق أمير المؤمنين (عليه السلام) بقيت متوارثة في محبيه واوليائه إلى
الآن، كما بقي الحقد والخسونة والوعورة في الجانب الآخر، وقال: ومن له أدنى
معرفة بأخلاق الناس وعوايدهم يعرف ذلك)^(٢).

أسباب كره الحق:

ذكرت الآية التالية أحد أسباب كرههم للحق وهو أنه يخالف أهوائهم
ويضع حدوداً لأنانيتهم وشهواتهم واطماعهم، وهم يريدون ديناً ونظاماً للحياة
يلبي شهواتهم ويحفظ مصالحهم ويعزز نفوذهم وامتيازاتهم، فيدعهم وشركهم
ويُبقي لهم أصنامهم لأنها مصدر ثروتهم وأن يبيح لهم الفحشاء والمنكر ونحو
ذلك مما تشتهيهم أنفسهم، لكن هذا غير ممكن لأنه يؤدي إلى ضياع الضوابط
والمعايير الصحيحة لأن الكون كله خلق بحق ويدبره الله تعالى بالحق بلا فرق بين
التشريع والتكوين فالخروج عن نظام الكون وقوانينه وترك الأشياء تسير عبثاً ينتج
عنه ضلال وفساد كبير ولا يمكن أن يأمر به إله الحق، قال تعالى في الآية التالية
﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ

(١) بحار الأنوار: ١١٧/٦٨.

(٢) بحار الأنوار: ١٤٧/٤١، سفينة البحار: ٢١/٢، عن شرح نهج البلاغة: ج ١ / ص ٢٥.

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ (المؤمنون : ٧١) ومما يريدون بأهوائهم اتخاذ شركاء لله تعالى وهذا عين الفساد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء : ٢٢) وأن أهواء الناس متفاوتة ومتناقضة فاتباع أهوائهم يؤدي إلى الصراع والفناء، فلا تتحقق سعادة الإنسان التي هي الغاية من وجوده إلا بالسير وفق النظام الكوني الذي رسمه الله تعالى وأودعه في فطرة الإنسان وجعل الدين منهاجاً له ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم : ٣٠).

ويمكن ذكر أسباب أخرى لكره الحق وأهله وعدائهم والسعي لاستئصالهم هي التي أوجبت كثرة أعداء علي (عليه السلام) باعتباره ميزان الحق الذي يدور معه حيثما دار، وقد تناولتها في كلمة سابقة^(١) قال الأزري في هائيته مشيراً إلى هذا المعنى

خصك الله في مآثر شتى هي مثل الأعداء^(٢) لا تنأهى

منها:

١- الحسد، قال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة : ١٠٩) وقد توسعنا^(٣) في شرح هذه الظاهرة عند تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ

(١) خطاب المرحلة: ٢٣٨ / ٨.

(٢) في بعض المصادر (الاعداد)، والمعنى صحيح فان الاعداد مفتوحة لا نهاية لها وكذلك مناقب امير المؤمنين (عليه السلام)

(٣) تفسير من نور القرآن عند قبس هذه الآية النساء ٥٤.

النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿النساء : ٥٤﴾ قال الإمام الباقر (عليه السلام): (نحن الناس المحسودون على ما آتانا الله من الإمامة دون خلق الله أجمعين)^(١) وقد أعترف غاصبو حق أمير المؤمنين (عليه السلام) وظالمو أهل البيت (عليهم السلام) بأن قريشاً كرهت أن تجتمع النبوة والخلافة فتذهب بالفخر كله^(٢).

وهذا الحسد غريزة متأصلة في مرضى القلوب والمبتلين بعقدة الحقدارة، قال

الشاعر:

ان يحسدوك على علاك فإنما متسافل الدرجات يحسد من علا.

٢- إن الحق ناصح أمين للناس يتحرى مصلحتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وهم لا يحبون من ينصحهم ويرشدهم ويدلهم على عيوبهم ليهديهم إلى الكمال قال تعالى ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٧٩) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أمحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة)^(٣) وهو يعلم أن النصيحة مرّة لا يستسيغها الناس لكنه (عليه السلام) كان يقول (مرارة النصح أنفع من حلاوة الغش)^(٤) وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (أتبع من يبكيك

(١) الكافي: ١٥٩/١، ح ١.

(٢) الكامل لابن اثير: ٢ / ٤٣٩، تاريخ الطبري: ٤ / ٢٢٣، المسترشد في امامة علي بن ابي طالب (عليه السلام): ٦٨٣.

(٣) نهج البلاغة: الكتاب ٣١.

(٤) غرر الحكم: ٩٧٩٩.

وهو لك ناصح، ولا تتبّع من يضحكك وهو لك غاش^(١) وقيل للإمام الرضا (عليه السلام) (إن قوما من أهل بيتك يتعاطون أمورا قبيحة فلو نهيتهم عنها فقال: لا افعل، فقيل: ولم؟ قال: لأنني سمعت أبي يقول النصيحة خشنة)^(٢).

٣- الاختلاف الطبيعي مع الحق بسبب خبث المعدن وسوء السريرة فيتحول إلى باطن خبيث يكره خصال الخير والنبل والكمال، ونقصد بالطبع ما كان مكتسباً بسبب المعاصي والذنوب وعدم الاصغاء لصوت الهداية والصلاح لا الطبع الأولي وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها فإنها لا تأبى الحق، ولو جبل الإنسان فطرياً على كراهة الحق لكان معذوراً في عدم قبوله، لذا كان حب علي (عليه السلام) ميزاناً يميّز بين من أصله طيب أو خبيث، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن علي (عليه السلام) (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي إليّ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق)، وروى الترمذي في صحيحه بسنده عن أم سلمة قالت (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: لا يحبّ علياً منافق ولا يبغضه مؤمن)^(٣).

وحرّبهم على الحق وأهله ليست شريفة ولا نظيفة بل يستعملون فيها أقدر الأدوات من البهتان والكذب والتدليس والخداع والمكر من أجل الحيلولة بين

(١) المحاسن: ٤٤٠/٢ ح ٢٥٢٦.

(٢) عيون اخبار الرضا للشيخ الصدوق: - ج ١/ باب (٢٨) فيما جاء عن الامام علي بن موسى (عليه السلام) من الاخبار المتفرقة - ص ٢٦١ رقم الحديث ٣٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، صحيح الترمذي: ٢٩٩/٢ وراجع مصادره لدى العامة في فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٢٥٣/٢.

الناس والاستماع إلى الحق كاتهام النبي (ﷺ) بالجنون كما حكت الآية مع أن ما جاء به عين الحكمة والصواب ولو كان من صنع مجنون لكان مضطرباً فيه اختلاف كثير فكيف عجزوا عن مجاراته والاتبان بمثله، فهم يعلمون أنه حق وإن اتهاماتهم له باطلة، لكنهم يغلفون دوافعهم الحقيقية بعناوين تخدع العامة فتنتلي عليهم الحيلة ويصدقون الكذب، سئل مروان بن الحكم عن قتالهم لعلي (عليه السلام) وسبّه على المنابر وهل إنه كان مسؤولاً عن دم عثمان كما زعموا فقال مروان: (ما كان أحداً أذفع عن عثمان من علي (عليه السلام) فليل له: ما لكم تسبّونه على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك)^(١).

هذا ما سجّناه من دواع وأسباب، ولعله توجد غيرها يكتشفها المتتبع، ولكن ماذا كانت النتيجة، قال تعالى: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال/٣٠٩) فكانوا كلما أوغلوا في معاداة علي (عليه السلام) وسبّه على المنابر والافتراء عليه والانتقاص منه كان علي (عليه السلام) يرتفع ويزداد تألقاً حتى اعترفوا بذلك فقال قائلهم ((إن بني أمية لهجوا بسبّ علي بن ابي طالب في مجالسهم ولعنوه على منابرهم فإنما يأخذون بضبعيه إلى السماء مدا))^(٢).

هذه الظاهرة المؤلمة في حياة البشر تتكرر أيضاً بدرجات متفاوتة طبعاً مع كل الأنبياء والرسل والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومع العلماء الربانيين العاملين المخلصين ولنفس الأسباب المتقدمة، مما يوجب الحسرة الألم

(١) الصواعق المحرقة: ١/ ١٦٣، مجموعة محققين مؤسسة الرسالة لبنان/ ١٩٩٧، شرح- نهج البلاغة

لابن ابي الحديد: ١٣/ ٢٢٠.

(٢) أمالي الطوسي: ٥٨٨ المجلس ٢٥ ح ٦، والضبع وسط العضد من اليد.

والاستنكار والاستغراب قال تعالى (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (يس / ٣٠).

وتُبقى الآية الكريمة باب الأمل بتحقيق الهداية والصلاح مفتوحاً حيث وصفت المعرضين عن الحق بالأكثرية وهذا يعني وجود قلة تحب الحق وتعتنقه وتثبت عليه، لأنهم حافظوا على سلامة فطرتهم.

لذا على العاملين الرساليين أن لا يستوحشوا طريق الحق لقلته سالكيه وأن لا يشعروهم كثرة أعدائهم بالإحباط واليأس فهذا دليل نجاحهم وتأثيرهم في الناس، ولو كانوا فاشلين ولا يمتلكون القدرة على الإصلاح والتغيير لما عاداهم أحد ولا حسدهم أحد.

وقد أكدت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على التمسك بالحق والتواصي به والصبر عليه وإن كان شديداً، قال تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٣) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحبَّ إليه - وإن نقصه وكرهه - من الباطل وإن جرَّ إليه فائدة وزاده)^(١) وقال الإمام الصادق (عليه السلام) لمن كره حكماً شرعياً على خلاف هواه (يا هذا أصبر على الحق فإنه لم يصبر أحد قط لحق إلا عوضه الله ما هو خير له)^(٢) وفي تحف العقول عن ابي محمد (عليه السلام) قال: (ما ترك الحقَّ عزيزاً إلا ذل، ولا أخذ به ذليل إلا عز)^(٣).

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٥.

(٢) بحار الانوار: ١٠٧/٧٠ عن تنبيه الخاطر.

(٣) بحار الانوار: ٢٣٢/٧٢.

وحذر المعصومون (عليهم السلام) من التجاوز على أهل الحق، روى الشيخ الصدوق بسنده عن عبد الأعلى عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من دخل مكة مبرئاً من الكبر غفر ذنبه، قلت: وما الكبر؟ قال: غمص^(١) الحق وسفه الخلق، قلت: وكيف ذلك؟ قال: يجهل الحق ويطعن على أهله)^(٢).

ويجب الالتفات إلى أمرين تضمنتهما كلمة لأمر المؤمنين (عليهم السلام):

- ١- أن مجرد عدم نصره الحق وخذلانه هو نصره للباطل.
- ٢- أن الحق يعرف بالحجة والبرهان فإذا ثبت صار هو المعيار في تمييز أهله عن غيرهم وليس العكس بأن يخدع بعناوين كبيرة يجعلها المقياس لمعرفة الحق فيترك العمل بما قام عليه الدليل من القرآن والاحاديث الشريفة ويتبع قول فلان وفلان لانهم أضفوا على انفسهم عناوين ذات قدسية، كالذي وقع فيه أصحاب الجمل^(٣)، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في الذين توقفوا عن بيعته (وقيل إن

(١) غمص من باب ضرب أي احتقره وعابه وتهاون بحقه كما في مجمع البحرين.

(٢) بحار الانوار: ٢ / ١٤٢.

(٣) وهي حالة مستمرة حيث يكون المعيار (قال فلان) أو (هل من المعقول أن يكون قول فلان ليس حقاً) ونحو ذلك، مثلاً الله تعالى يقول ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١١٢) ثم يأتي شخص فيرمي مؤمناً مالياً بعمل لإعلاء كلمة الله تعالى ونشر تعاليم أهل البيت (عليهم السلام) وخدمة الناس ببهتان وكذب، فمن رد عليه قوله لمخالفته للقرآن فهذا منهج الحق والقرآن، ومن أخذ منه ونشر كلامه فهذا ممن أخذ من الرجال وليس من الحق، أو ترد الرواية عن أبي عبد الله (عليه السلام) يقول: (من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان) (الكافي: ج ٢ - ص

الحارث بن حوط اتاه (عليه السلام)، فقال له: أتراني أظن أن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ فقال (عليه السلام): يا حار، إنك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه. فقال الحارث: فإني اعتزل مع سعد بن مالك وعبد الله بن عمر. فقال (عليه السلام): إن سعدا وعبد الله بن عمر لم ينصرا الحق، ولم يخذلا الباطل^(١).

روى عبد الرحمن بن الحجاج قال: (كنا في مجلس أبان بن تغلب فجاء شاب فقال: يا أبا سعيد أخبرني كم شهد مع علي بن أبي طالب (عليه السلام) من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله قال: فقال له أبان: كأنك تريد أن تعرف فضل علي (عليه السلام) بمن تبعه من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: فقال الرجل: هو ذاك، فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلا باتباعهم علياً (عليه السلام))^(٢).

وكلما امتد الزمان ازدادت الهجمة على الحق وأهله وأتباعه وكثر أعداء الحق وأنضم إليهم من لم تتوقع منهم ذلك مصداقاً لقول الإمام الصادق (عليه السلام): (والله لتمحصن، والله لتميذن، والله لتغربلن، حتى لا يبقى منكم إلا الأندر)^(٣)، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى

٣٥٨) فيتركها ويتبع فلاناً في تسقيط المؤمنين افتراءً عليهم مستدلاً بقول فلان وهو يعلم مجافاته للحق.

(١) نهج البلاغة: حكمة (٢٦٢).

(٢) رجال النجاشي: ١٢، رقم ٧.

(٣) ميزان الحكمة: ج ٣ - ص ٢٣٦٢.

من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله^(١).
وهنا قد يثار سؤال بأنه وردت روايات تحث على لزوم الجماعة وعدم
الانشقاق عنهم وأن الحق معهم كقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (وألزموا السواد
الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة، لأن الشاذين من الناس للشيطان
كما أن الشاذ من الغنم للذئب)^(٢) فكيف ينسجم هذا مع ما أفادت الآية الكريمة
من ذم الأكثرية وابتعادهم عن الحق.

والجواب أن الجماعة التي أمرنا بملازمتها هي التي بنت نظامها على الحق
واجتمعت عليه فالارتباط بها يكون عملاً بالحق الذي هم عليه وليس لمجرد أنها
أكثرية عددية فإنها لا تغني من الحق شيئاً لانسياقها وراء الأهواء والشهوات وميلها
إلى الأنانية الموجبة للصراع والتنازع فيقود إتباعها إلى الضلال والفساد كما
أخبرت الآية الكريمة وتشهد به التجارب، لكن أكثر الناس يميلون إلى السير مع
الأكثرية من دون تدبر في العواقب دفعاً للمشاكل وحباً للراحة حتى أنشأوا مثلاً
قالوا فيه: ((حشر مع الناس عيد)) فالأكثرية بما هي أكثرية عددية لا قدسية فيها
ولا تنتج حقاً إلا بمقدار موافقتها للحق، ولو أردنا أن نعلم رأي الأكثرية فلا بد
من توعيتها وزيادة بصيرتها ورشدها والعمل وفق المنهج الرباني الرشيد السيد.

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

الحمد لله رب العالمين

الفهرس

- المقدمة ٥
- الآية الأولى: ﴿وَعَلَّمَتِ وَبِالتَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ٩
- أهل البيت (عليه السلام) نجوم أهل الأرض ٩
- الآية الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ﴿الأحزاب: ٥٦﴾ ١٨
- فضل الصلاة على النبي وآله وآثارها المباركة ١٨
- الآية الثالثة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] ٢٩
- إطالة على سورة الكوثر ٢٩
- الآية الرابعة: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ ﴿آل عمران: ١٦٤﴾ ٣٧
- السيدة الزهراء (عليها السلام) تذكّر الأصحاب بنعمة النبي ﷺ ٣٧
- الآية الخامسة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿الفلم: ٤﴾ ٤٧
- معجزة النبي ﷺ في أخلاقه ٤٧
- تطبيق: معجزة لرسول الله (ﷺ) تبين أخلاقه ٥٧
- الآية السادسة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ﴿الأحزاب: ٢١﴾ ٦٢
- دعوة الى التأسى برسول الله (ﷺ) ٦٢
- ملحق (١): كراهة عدم الاتيان بسنن النبي ﷺ ولو مرة واحدة في العمر ٧٥
- ملحق (٢): حاجتنا الى الاسوة الحسنة ٨٢

الآية السابعة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

﴿يوسف: ١٠٨﴾ ١٠٨

البصيرة بوصلة السلوك الإنساني ١٠٨

الآية الثامنة: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ﴿الحجر: ٩٣﴾ ١٢١

إعلان الهوية ١٢١

الآية التاسعة: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ﴿المدتتر: ٢﴾ ١٢٥

الأمر بالانذار لإصلاح المجتمع وهدايته ١٢٥

الآية العاشرة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿التوبة: ١٢٨﴾ ١٣٣

الحرص على هداية الخلق ١٣٣

الآية الحادية عشر: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿طه: ١١٤﴾ ١٣٩

أدب طلب العلم ١٣٩

الآية الثانية عشر: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ﴿سورة القلم: ٩﴾ ١٤٩

لا مساومة على المبادئ الحقّة ١٤٩

الآية الثالثة عشر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿سورة الحجر:

٩٧﴾ ١٥٣

القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين ١٥٣

الآية الرابعة عشر: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة

الأعراف: ١٥٧) ١٥٨

رسول الله (ﷺ) ورفع الاغلال عن أمته ١٥٨

- الآية الخامسة عشر: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ﴿سورة الإسراء: ٧٩﴾ ١٦٤
- صلاة الليل وسيلة الإعداد لتحمل المسؤوليات الكبيرة ونيل المقامات الرفيعة. ١٦٤
- الآية السادسة عشر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿الفتح: ١﴾ ١٧٧
- الفتح السلمي ١٧٧
- الآية السابعة عشر: الله تعالى يتكفل بمعالجة تبعات العمل الرسالي ١٨٧
- ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ﴿الفتح: ٢﴾ ١٨٧
- الآية الثامنة عشر: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران: ١٥٩﴾ .. ١٩٧
- الرحمة بالمؤمنين ١٩٧
- الآية التاسعة عشر: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ ﴿سورة الأنبياء: ٩٤﴾ ٢٠١
- النبي (ﷺ) مكفور النعمة ٢٠١
- الآية العشرون: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعْظِم شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ٢٠٩
- احياء الشعائر الدينية ٢٠٩
- الآية الحادية والعشرون: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿سورة المائدة: ٦٧﴾ .. ٢١٦
- يوم الغدير عيد الله الأعظم ٢١٦
- ملحق: كيف خطط رسول الله (ﷺ) للخلافة من بعده ٢٣١
- الآية الثانية والعشرون: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ ﴿سورة آل عمران: ١٤٤﴾ ٢٦٩

- ٢٦٩..... إنقلاب الأتباع عند غياب القائد
- ٢٨١..... ملحق: ماذا خسرت الأمة حينما ولت أمرها من لا يستحق
- ٢٨٧..... النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة
- ٣١٢..... الآية الثالثة والعشرون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿سورة الزمر: ٣٠﴾
- ٣١٢..... دروس وعبر من وفاة رسول الله (ﷺ)
- ٣٢٠..... الآية الرابعة والعشرون: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾
- ٣٢٠..... أساس وحدة المسلمين
- الآية الخامسة والعشرون: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
- ٣٢٥..... الصَّادِقِينَ﴾
- ٣٣٤..... ملحق: كن في الصف الذي فيه علي بن أبي طالب
- ٣٤٣..... الآية السادسة والعشرون: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾
- ٣٤٣..... شرف الانتماء ومسؤوليته
- الآية السابعة والعشرون: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) سورة الفاتحة ١..... ٣٥٠
- ٣٥٠..... أمير المؤمنين: (عليه السلام) نقطة الباء في البسملة ومعركة التأويل
- الآية الثامنة والعشرون: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾..... ٣٥٧
- ٣٥٧..... المستضعفون وخلافة الأرض
- الآية التاسعة والعشرون: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾..... ٣٦٩
- ٣٦٩..... الأنس بالإمام الحسين (عليه السلام) يشغل الذين اتقوا عن دخول الجنة

- الآية الثلاثون: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾
 ٣٨٢.....
- الآية الحادية الثلاثون: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾ ٣٩٤
 وجه تشبيه النبي (ﷺ) والائمة المعصومين (عليهم السلام) بالشمس ٣٩٤
- الآية الثانية والثلاثون: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٤٠١
 التحديث بولاية أهل البيت (عليهم السلام) ونشرها ٤٠١
- الآية الثالثة والثلاثون: ﴿أَوْلَيْتِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ٤٠٩
 حيّ على خير العمل والدعوة الى ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ٤٠٩
- الآية الرابعة والثلاثون: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ٤١٧
 نعمة ولاية اهل البيت (عليهم السلام) ٤١٧
- الآية الخامسة والثلاثون: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾
 [الشورى: ٢٣] ٤٢٧
 وجوب مودة أهل البيت (عليهم السلام) على الأمة ٤٢٧
- الآية السادسة والثلاثون: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢] ٤٤٤
 سورة الفجر والإمام الحسين (عليه السلام) ٤٤٤
- الآية السابعة والثلاثون: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف: ٦
 ٤٥٢.....
- الآية الثامنة والثلاثون: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ النبأ: ٤٠ ٤٦٠
 الناس تمنى يوم القيامة أن لو كانوا من شيعة علي (عليه السلام) ٤٦٠

الآية التاسعة والثلاثون: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

[النساء: ٥٤] ٤٧١

النبي (ﷺ) وأهل البيت (عليهم السلام) هم الناس الحسودون ٤٧١

الآية الاربعون: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٠) ٤٨٢

لماذا يكره أكثر الناس الحق؟ أمير المؤمنين (عليه السلام) مثلاً ٤٨٢

الفهرس ٤٩٨